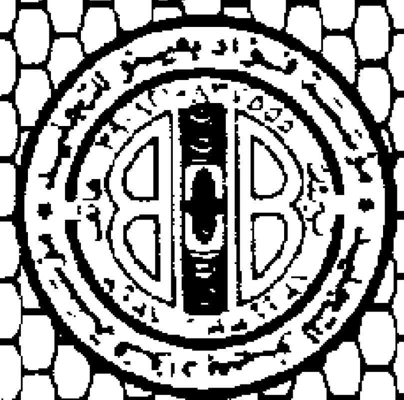
هداية البيان في تفسير القرآن

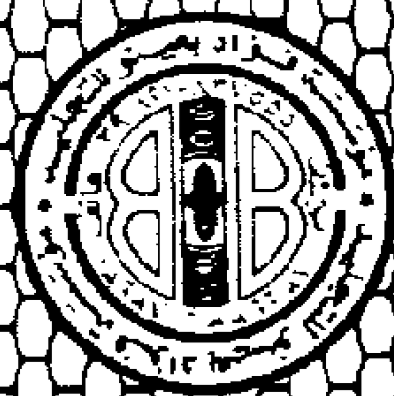
الجزء الرابع

راشد عبد الله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية





هداية البيان
في
تفسير القرآن

الجزء الرابع

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

1430 من ميلاد الرسول ﷺ

2000 إفرنجي

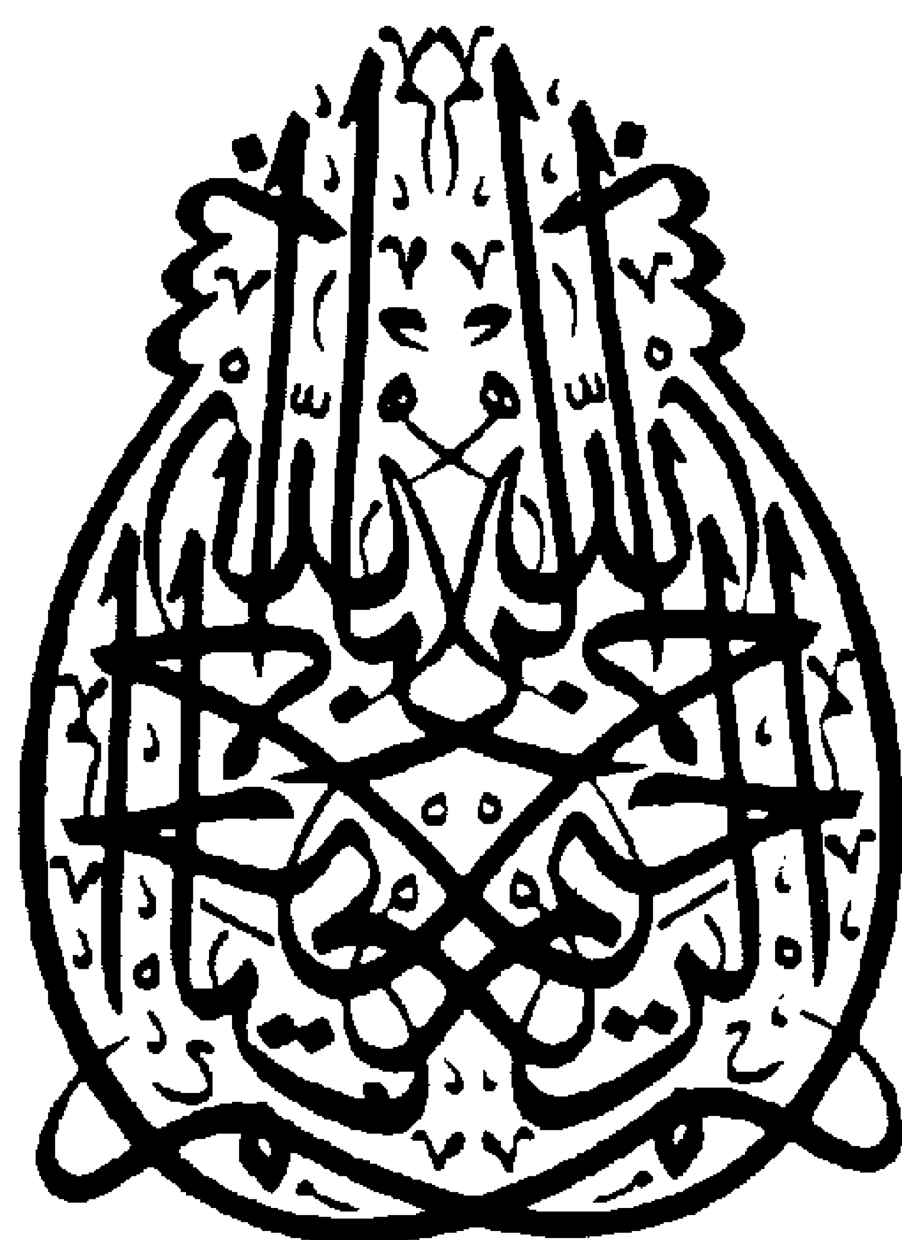
هداية البيان
في
تفسير القرآن

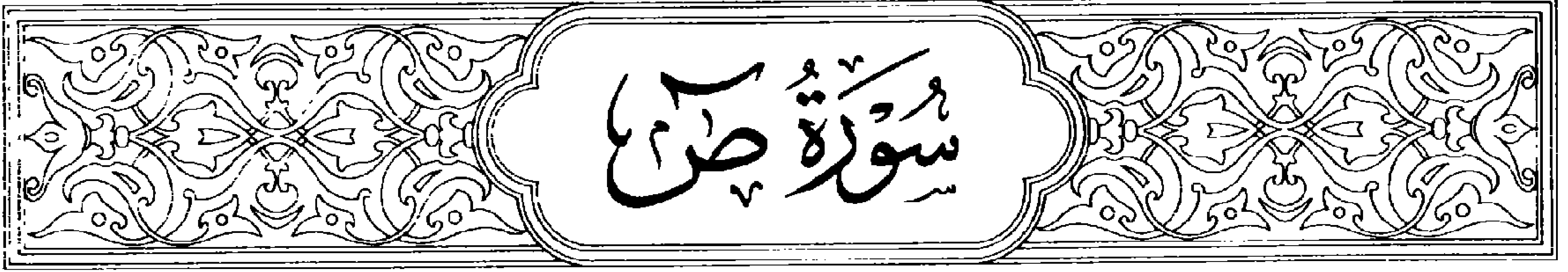
الجزء الرابع

تأليف : راشد عبدالله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية





سورة ص سميت لورود كلمة ﴿ص﴾ في أول السورة.

مناقشة الكفار في عقائدهم والرد عليهم

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم الله سبحانه سورة الصافات بذكر القرآن والرسول وإنكار الكفار لما دعاهم إليه افتتح هذه السورة بالقرآن ذي الذكر والرد على الكفار أيضا فقال:

١ ـ ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾.

﴿ص﴾: حرف من الحروف التي يتألف منها المصحف، وفيها تنبيه للسامع، وقد سبق الكلام عليها في سور أخرى، ثم أقسم الله سبحانه وتعالى بالقرآن، ذي الذكر السامي والشرف العالي إنه لحق، وجواب القسم محذوف، تقديره: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ ما الأمر كما يقول الكفار، ويدل عليه قوله تعالى:

٢ ـ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾.

والعزة، الحمية والتكبر عن الحق، والشقاق، الخلاف والعداوة لرسول الله ﷺ، ثم خوفهم بقوله:

٣ ـ ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾.

كثير من الأمم التي مضت والتي كانت أشد قوة وأكثر مالاً وأولاداً أهلكهم ربهم لما طغوا وبغوا، وحين نزل بهم العذاب نادوا واستغاثوا، ولات الحين حين مناص لهم، لات من أخوات ليس بلغة اليمن زيدت عليها التاء لتأكيد النفي، والمعنى: ليس حين يرون العذاب وقت فرار، والمناص هو الفرار.

ثم حكى شر صنيعهم وسوء مقالتهم في حق النبي ﷺ قائلاً:

٤ ـ ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

كانوا يرون أن الرسالة تتنافى مع البشرية، ولذلك عجبوا أن جاءهم رسول من أنفسهم ينذرهم بالنار.

٥ ـ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾.

سبب نزولها أن قريشاً شكوا رسول الله ﷺ إلى عمه أبي طالب، فقال يا ابن أخي ما تريد من قومك؟

فقال «يا عم، إنما أريد منهم كلمة واحدة قال ما هي؟ قال: لا إله إلّا الله» فقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً[1]، نزل إلى قوله تعالى ﴿إن هذا إلّا اختلاق﴾ والعجاب والعجيب بمعنى واحد.

٦ ـ ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾.

وانطلق الأشراف منهم يتحاورون قائلين: أن امشوا واتركوه وسيروا على ما أنتم عليه، واصبروا على عبادة آلهتكم إن هذا: الذي نراه من زيادة عدد أصحاب محمد ﴿لشيء يراد﴾ أي لأمر يراد بنا.

٧ ـ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾.

﴿ما سمعنا بهذا﴾ الذي يقوله (في الملة) التي عليها العرب أخيراً والخلة التي رأيناهم عليها فمن أين أتى بهذا، ما هو إلّا اختلاق وكذب.

ثم أظهروا الحسد وما كان يغلي في صدورهم قائلين:

٨ ـ ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بهمزة واحدة من غير مد ﴿أنزل﴾ وقرأ الباقون بهمزتين.

ولماذا اختص هو بذلك الشرف العالي من رب العالمين، هم بذلك يعنون النبي محمداً ﷺ ويعنون بالذكر القرآن والمعنى: كيف خص بهذا دوننا وليس بأعلانا نسباً، ولا أعظمنا شرفاً؟ فرد الله عليهم بل هم في شك من القرآن، أي أنهم ليسوا على يقين مما يقولون، إنما هم شاكون، وبل هنا بمعنى ﴿لم﴾ والمعنى: أنه لو نزل بهم العذاب، علموا أن ما قاله محمد حق، ولما دل قولهم ﴿أءنزل عليه الذكر﴾ على حسدهم له، فأجاب عن شبهتهم بوجه آخر بقوله:

٩ ـ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾.

قال المفسرون: معنى الآية: أبأيديهم مفاتيح النبوة فيضعونها حيث شاؤوا؟ فليس بأيديهم ملك السماوات والأرض، فإن ادعوا شيئاً من ذلك فليرتقوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء.

ثم خصص بعد التعميم قائلاً:

١٠ ـ ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾.

ثم حقر أمرهم بقوله:

١١ ـ ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾.

﴿الجند﴾: الأتباع، فكأنه قال: هم أتباع مقلدون ليس فيهم عالم راشد، وهنالك إشارة إلى وقعة بدر

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

والأحزاب، والأحزاب جمع من تقدمهم من الكفار الذين تحزّبوا على الأنبياء، قال قتادة: أخبر الله نبيه وهو بمكة أنّه سيهزم جند المشركين، فجاء تأويلها يوم بدر.

ثم مثل حالهم بحال من قبلهم من الأمم المكذّبة قائلاً:

١٢ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾.

فهذه قصص من سبقهم كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وقوم فرعون، وقد كانوا ذوي سلطان ثابت الأركان قوي الدعائم، وبعض العرب يؤنثون ﴿القوم﴾ وقوم يذكرون، ولما ذكر المشركين المكذبين قال:

١٣ ـ ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾.

١٤ ـ ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾.

فأعلمنا أن مشركي قريش من هؤلاء، وقد عذّبوا وأهلكوا ﴿فحقّ عقاب﴾ فأغرق قوم نوح، وأهلك فرعون وجنده في البحر، وقوم هود بالريح، وقوم صالح بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة، وهم أصحاب الغيضة مجمع ما ينبت فيه الشجر.

١٥ ـ ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾.

١٦ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

ما ينتظر كفار مكة إلاّ صيحة واحدة، هي النفخة يوم القيامة ما لها من توقف مقدار فواق، وهو أن تحلب الناقة وتترك ساعة حتى تنزل شيئاً من اللبن، ثم تحلب فما بين الحلبتين فواق، أي راحة، ولما ذكر لهم ما في الجنة سألوه نصيبهم استهزاء لتكذيبهم بالقيامة، والقط هنا النصيب.

القــــراءة

﴿فواق﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، بضم الفاء ﴿فُواق﴾ أي ما لها من رجوع، وقرأ الباقون بالفتح أي ما لها من راحة.

قصة داود

١٧ ـ ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

قال ابن جرير الطبري: إن القوم سألوا ربهم تعجيل فكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر، الذي وعد الله عباده، أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه اصبر على ما يقولون فكان معلوماً بذلك أن مساءلتهم ما سألوا لو لم تكن على وجه الاستهزاء منهم، لم يكن بالذي يتبع الأمر بالصبر عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاء وكان فيه لرسول الله ﷺ أذى، أمره الله بالصبر عليه منهم حتى يأتيه قضاؤه فيهم، حتى قال إن مساءلتهم كانت بما ذكر من حظوظهم من الخير والشر.

ووجه المناسبة أنه أمره أن يتقوى على ذلك الصبر بذكر قوة داود على العبادة والطاعة، ومعنى ذا الأيدي أي ذا القوة في العبادة، وأواب كثير التوبة والرجوع إلى الله.

١٨ ـ ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾.

بعد ما ذكر أحوال المشركين وعنادهم وأذاهم لرسول الله ﷺ، أمر النبي بالصبر على ما يقولون، وأن يذكر إخوانه الأنبياء الذين لاقوا ما لاقوا وصبروا، محتسبين صبرهم عند الله، قدم في الذكر داود عليه السلام، لقد سخر الله لداود الجبال حالة كونها تسبح معه وتردد تسبيحه، حتى يسمعها الله بالعشي وقت صلاة العشاء، والإشراق، وقت طلوع الشمس وإضاءتها، والآية تشير إلى صلاة الضحى.

١٩ ـ ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾.

أي أن الطير مجموعة له تسبح معه، وكل من الجبال والطير له أواب، رجاع إلى طاعته وأمره والمعنى: كل له مطيع بالتسبيح معه ﴿وأوّاب﴾ معناها المطيع بلغة كنانة، وهذيل، وقيس عيلان، وليس معنى هذا أن كل الجبال وكل الطير في العالم مسخرة لداود، بل إنها أنواع مخصوصة التي يستطيع أن يتفقدها حين تجتمع حوله، وهذه الكائنات والمخلوقات تسبح وتتكلم بلغة يفهمها داود، والتي علمه الله لغتها كما قال نبي الله سليمان في سورة ﴿النمل﴾ علمنا منطق الطير.

٢٠ ـ ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾.

أي قويناه بالقوى المادية والأدبية بالجنود والعتاد، وآتيناه الحكمة التي هي النبوة والفهم وأرشدناه إلى فصل الخطاب في الخصومات في القضاء والبيان الكافي في كل غرض مقصود.

ثم إنّه سبحانه لما مدحه بالوجوه العشرة أردفه بذكر واقعته قائلاً:

٢١ ـ ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾.

ولما مدح الله داود وذكر له صفات عشرة كلها ثناء عليه أتبع ذلك حادثة له، وبدأها باستفهام للتنبيه والتعجب والتشويق إلى إسماع ما بعده، وهل أتاك يا محمد أي قد أتاك فاستمع له نقصص عليك، وقد ساق بعض المفسرين قصة في تفسير الآيات ونسبوا إلى نبي الله داود أموراً ينزه عن مثلها الأنبياء عليهم السلام، وتستكثر على الصالحين، ونبي الله داود القوي في العبادة الذي كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويقوم نصف الليل، وينام ثلثه، ويقوم سدسه، وأنه أواب إلى مرضاة الله، لا يليق به أن ينسب إليه ما فيه نقص أبداً.

والتفسير الصحيح للآيات هو أن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله وخص كل يوم بعمله فجعل يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء وفصل الخصومات، ويوماً لشؤون نفسه، ويوماً للوعظ وفي يوم عبادته بينما كان في

محرابه، صادف أن تنازع في ذلك اليوم خصمان شريكان على غنم لهما، ولما أرادا الدخول عليه منعهما الحرس ففوجىء بدخولهما وقد تسورا عليه السور، ولم يدخلا من الباب المعتاد، فارتاع منهما، وفزع فزعاً لا يليق بمثله، وظن بهما سوءاً فربما جاءا ليقتلاه، أو أنهما أرادا به شراً، ثم بعد ذلك تبين له أن الأمر على خلاف ما ظن، وأنهما جاءا يحتكمان إليه، فلما قضى بينهما وتبين له أنهما بريئان مما ظنه بهما، استغفر ربه واستمر في عبادته، فخر ساجداً لله تعالى وأناب، قالا لا تخف نحن خصمان، وإنما قال ﴿الخصم﴾ بلفظ الواحد، وقال ﴿تسوروا﴾ بلفظ الجماعة، لأن قولك: خصم، يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى، وطلبا منه أن يحكم بينهما وينهي خلافهما فقال أحدهما:

٢٣ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِىَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴾.

أي أن هذا أخي في الدين والإنسانية له تسع وتسعون نعجة، هي الواحدة من الغنم، ولي نعجة واحدة، فقال صاحب الغنم الكثيرة أعطني نعجتك أكفلها لك وأضمها لغنمي، وغلبني في المخاصمة والمجادلة.

القـــراءة

﴿ولي نعجة﴾ فتح الياء قرأ حفص عن عاصم، وسكنها الباقون ﴿ولي نعجة﴾.

وأما ما ذكره بعض المفسرين مما نسب إلى نبي الله داود عليه السلام غير صحيح من قصص وحكايات مدسوسة من علماء اليهود، الذين يكرهون أنبياء الله ويسيئون إلى تاريخهم نبين رأي العلماء فيه بالآتي:

رأي العلماء في رواية هذه القصة

قال الحافظ ابن كثير(١) عند تفسير هذه الآية: وقد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، وقال القاضي عياض في (الشـفـا): وأما قصة داود عليه السلام، فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطّره الأخباريون على أهل الكتاب الذين بدّلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين، قال، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد فيه حديث صحيح.

وقال الخازن في تفسيره: (اعلم أن من خصّه الله بنبوته، لا يليق أن ينسب إليه ما لو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدث به عنه، فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك)

وقال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل القصة يرجع إلى أمرين:

إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته، قال: وكلاهما منكر عظيم، فلا يليق بعاقل أن يظن بداود عليه السلام هذا، وقال أيضاً: إن هذه القصص إنما ذكرها الله عقب قوله: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ وأن الكفار لما بلغوا من السفاهة هذا الحد قال الله لنبيه ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود..﴾ وهذا الكلام لا يكون لائقاً إلا بقولنا: إن داود وسليمان أتيا بالأعمال الفاضلة

(١) المجلد الرابع ص ٣١.

الحميدة ولو كان المقصود أنهما أقدما على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر القصة لائقاً بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله تعالى ينأى عن هذه الأقوال بالرد والبطلان.

٢٤ ـ ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾.

أي لقد ظلمك بإلحاحه عليك بضم نعجتك إلى نعاجه، ويبدو أن الخصمين شركاء في بعض المال ومن جملتها الغنم، فقال ذلك، والخلطاء في الآية هم الشركاء ﴿يبغي﴾، يظلم بعضهم بعضاً حباً في الدنيا، وشحاً في النفوس، ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فلا يبغي بعضهم على بعض خوفاً من الله، وهؤلاء الصالحون قليلون في الدنيا، ﴿وما﴾ هنا لتأكيد القلة وليست زائدة.

فتناه، اختبرناه، أي ظن داود أن هذه الحادثة، وهي تسور الخصوم السور ودخولهم عليه بغير إرادة الحرس، والفزع الذي أصابه منهما، وظنه كذلك بأن منع الخصوم من الدخول للتحاكم عنده فيه تقصير منه في ذلك اليوم كل ذلك حاك في نفسه، وهو الصوام الأواب صاحب الزلفى عند الله وحسن المآب، فحمله كل ذلك على الاستغفار من ربه، فخرّ راكعاً لله منيباً إليه، متّجهاً إليه بكل جوارحه وحركاته وسكناته.

٢٥ ـ ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

الإشارة هنا إلى الظن، إذ لا يجوز أن يظن الإنسان إلّا خيراً، وإذا أضفنا ما سبق أن حكم به داود في الغنم التي نفشت في الزرع فأكلته، فحكم بإعدامها، وفهم الله الحكم المطابق لواقع القضية سليمان، كل ذلك يجعله يستغفر الله ويطلب المغفرة ثم يستجيب الله له دعاءه فيغفر له، ذلك لأنه له مقام محمود ودرجة رفيعة.

٢٦ ـ ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾.

جعلناك خليفة في الأرض أي: صيّرناك خليفة تدبر أمر العباد من قبلنا بأمرنا، والحق هو العدل. وهذه وصية من الله عزّ وجلّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلّوا عن سبيل الله، وقد توعّد تبارك وتعالى من ضلّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد، ومثل هذه الآية قد جاء مثلها للنبي محمد ﷺ كما في الشعراء ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين، وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾.(١)

الثواب والعقاب

وحين تمّم واقعة داود ونصحه وما فرض عليه في شأن الاستخلاف أشار إلى أنّ الأمور الدنيوية التابعة

(١) الآية: ٢١٣ ـ ٢١٥.

للحركات السماوية ليست واقعة على الجزاف وبمقتضى الطبائع ولكن لها غاية صحيحة فأجمل هذا المعنى أولاً بقوله:

٢٧ ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾.

أي ﴿وما خلقنا السماء والأرض﴾ وما بينهما من أجرام أخرى عبثاً بلا حكمة فيها، وما خلقناهما لاعبين، بل كان خلقهما لأسرار وحكم عالية منها الاستدلال على كمال القدرة وتمام العظمة، وإنما للثواب والعقاب، الثواب لمن يطيع والعقاب لمن يعصي، وما خلقهما ﴿باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾ والظن هنا معناه: الاعتقاد بإنكار البعث.

ثم صرّح بالغاية قائلاً:

٢٨ ـ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾.

أم هنا منقطعة تقدر بـ ﴿بل﴾ التي للاضراب الانتقالي والهمزة استفهامية، ويراد بها الإنكار، وهو انتقال إلى تسفيه أماني الكفار بمساواتهم بالمؤمنين الصالحين في الآخرة، فكيف يستوي هؤلاء وهؤلاء.

وحين ذكر هذه المعاني اللطيفة والقواعد الشريفة منّ على رسوله بقوله:

٢٩ ـ ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

أي هذا كتاب، يعني القرآن الذي نزل تبياناً لكل شيء من أحكام الدين ليتفكروا في آياته فيتقرر عندهم صحتها، وليتذكر ويتعظ أصحاب العقول بما ينظرون في معاني الآيات فيؤمنون بها.

سليمان عليه السلام

وبعد تتميم قصة داود شرع في قصة ابنه سليمان ومدحه بقوله:

٣٠ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

٣١ ـ ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾.

عرض على سليمان عليه السلام في حال مملكته وسلطانه بعد زوال الشمس الصافنات من الخيل، وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد السراع في الجري، ولم تزل تعرض عليه من كثرتها إلى أن غابت الشمس، ففاته وقت مهم يذكر الله فيه، وكان مهيباً لا يبتدئه أحد بشيء، ولم يتنبه إلى ذلك حتى توارت الشمس بالحجاب، أي غابت فقال إني أحببت حب الخير، أي آثرت حب الخير أي المال عن ذكر ربي، وعن هنا بمعنى (على) قال ابن قتيبة: سمى الخيل خيراً، لما فيها من الخير.

القـــراءة

﴿إني﴾ فتح الياء أهل الحجاز وأبو عمرو. ﴿إنّيَ﴾.

٣٣ - ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

أي أنه طلب ردها عليه مرة أخرى لتعرض في وقت متسع فجعل يمسح بيده سوقها وأعناقها، وهي الأماكن التي تتلذذ الفرس من ملمسها، قال ابن جرير الطبري جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حباً لها، وهذا القول مروي عن ابن عباس، وهو أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، يعني ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها.

أقول لا حجة لمن يقول إنه ذبحها وقطع أعناقها وأرجلها تقرباً إلى الله حيث اشتغل بها وتصرف بلحمها.

فتنة سليمان

٣٤ - ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

نسب إلى نبي الله سليمان من الباطل مثل ما نسب إلى أبيه من البهتان. فقال الإخباريون القصاصون إن سليمان دخل بيت الخلاء ذات يوم فأعطى خاتمه لإحدى زوجاته فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتِ خاتمي، فأعطته، فلما لبسه، دانت له الجن والإنس والشياطين، فلما خرج سليمان عليه السلام، وسأل عن خاتمه أنكرته زوجته، وقام الشيطان يحكم بين الناس وذلك معنى قوله تعالى ﴿وألقينا على كرسيه جسداً﴾ وهناك بعض الروايات المنسوبة لابن عباس، أن هذا الشيطان كان يسمى صخراً وعن مجاهد أن اسمه آصف، وأن سليمان سأله: كيف تفتنون الناس؟ فقال الشيطان: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، حتى كان ما كان من أمر السمكة التي تلقته حيث كان سليمان يعمل على شاطىء البحر الأحمر، حيث أعطاه رجل السمكة التي في بطنها الخاتم، فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها فأخذه فلبسه ثم دانت له الإنس والجن والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان.

رأي العلماء المحققين في القصة

قال القاضي عياض في: (الشفاء)[1] ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله.

وقال الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره[1] قال بعد أن ذكر الكثير منها (وهذه كلها من الإسرائيليات) ثم

(١) الجزء الثامن ص ١٦٢.

(١) المجلد الثالث.

ذكر الرواية عن ابن عباس قال إن صح عنه من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام فالظاهر: أنهم يكذبون عليه، ولهذا: كان من السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، يعني: مباشرتهن من قبل الشيطان بالحرام.

وقال الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة في كتاب الإسرائيليات في كتب التفسير[٢]:

أقول: كلها أكاذيب، وتلفيقات، ولكن بعض الكذبة من بني إسرائيل، كان أحرص وأبعد غوراً من البعض، فلم يتورط فيما تورط فيه الآخرون، من ذكر تسلط الشيطان على نساء سليمان وذلك حتى يكون لما لفقه وافتراه بعض القبول عند الناس.

ثم قال: والحق أن نسج القصة مهلهل، عليه أثر الصنعة والاختلاق، ويصادم العقل السليم، والنقل الصحيح، وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان، فأي ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه، وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرها على خاتم.

التفسير الصحيح

جاء في الصحيحين فيما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال:

(قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل واحدة منهن شيئاً، إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله أجمعين).

وقد ترك سليمان كلمة إن شاء الله نسياناً، وأما صاحبه يعني بذلك الملك وبذلك يتضح المعنى الصحيح للجسد ويظهر بوضوح معنى ﴿فتناه﴾.

٣٥ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

ثم حكى الله تعالى أنّ سليمان سأل الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر، وهذا هو ظاهر السياق من الآية كما قاله ابن كثير، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، أما ما أورده القصاصون مستندين إلى أن طلب المغفرة يدل على سبق الذنب، ومن تسلط الشيطان عليه وجلوسه على كرسي الحكم بدلاً عنه، فذلك لا يليق بالأنبياء المعصومين من الذنوب، وإنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له، ويعرف منزلته فأجاب دعوته.

القـــراءة

﴿من بعدي﴾ فتح الياء نافع، وأبو عمرو، ﴿من بعديَ﴾.

٣٦ ـ ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

(٢) صفحة ١٤٩.

لم يكن في ملكه حين دعا بهذا الريح ولا الشياطين، وبهذا الدعاء سخر الله له أنواع الرياح حالة كونها جارية بأمره، وهنا جاءت رخاء أي لينة، وفي سورة الأنبياء وصفها بأنها عاصفة ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين﴾[1]، قال المفسرون: كان يأمر العاصف تارة، ويأمر الرخاء أخرى، أي كأنها تشتد إذا أراد، وتلين إذا أراد، وحيث أصاب أي حيث قصد وأراد، وهي بلغة عمان.

٣٧ - ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

٣٨ - ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

أي وسخرنا له الشياطين يبنون له ما يشاء، ويغوصون له في البحار فيستخرجون الدر، قال ابن جرير الطبري: فسلطناه عليها يستعملها فيما يشاء من أعماله، من بناء وغواص، فالبناؤون منهم يصنعون محاريب وتماثيل، والغواصون يستخرجون له الحلي من البحار، وآخرون ينحتون له ما يشاء من محاريب وقصور ومساجد، وتماثيل صور، وجفان كالجواب، أحواض ضخمة، وقدور للطبخ وغيرها، وسخّر له كذلك مردة الشياطين سخرهم له حتى قرنهم في القيود بجمع أيديهم إلى أعناقهم، وهذا يدل على تشكلهم له بصورة خاصة، أو بتسليط جماعة منهم على بعض.

٣٩ - ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الإشارة إلى ما تقدّم من إعطاء الملك الواسع والتسليط على الرياح والجن والشياطين، عطاؤنا أي قلنا له: هذا عطاؤنا، فأعط من شئت من المال، وامنع من شئت، والمن الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه، والله لا يحاسب على ما أعطى من ذلك الملك والسلطان فهو جائز له.

وحين فرغ من تعداد النعم الدنيوية أردفه بما أنعم به عليه في الآخرة قائلاً:

٤٠ - ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

إن لسليمان عند ربه لزلفى وقربة وكرامة وحسنى، وله حسن مآب، مرجع في الجنة، وختام القصة بهذه الآية، لدليل ناصع وتبرئة له على أن كل ما قيل عن سليمان ونسب إليه من المهانة خرافة وأكاذيب لا تليق بمركز النبوة، وهو تلفيق أهل الكتاب.

أيوب عليه السلام

ثم سلّى رسوله ﷺ ببيان مثل آخر في الصبر بعبده الصالح أيوب الذي مني ببلاء ومحنة عظيمة.

٤١ - ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

أمر الله محمداً ﷺ أن يذكر عبده الممتثل لأمره أيوب، وقت أن نادى ربه مستغيثاً به، أني مسني الشيطان

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨١.

بنصب أي ضر وهو الشر، ثم فسر ذلك النصب بأنه عذاب وألم، ولا شك أن مس الشيطان ضر وعذاب للمتقين، وهو وسوسته وإلقاء الخواطر الفاسدة في ذهنه، وإبليس وجنوده يتحينون الفرص، فصبر على ذلك الأذى والامتحان الصعب.

٤٢ ـ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾.

أي اضرب الأرض برجلك، استجبنا له وقلنا له اركض برجلك أي اعد بها وامش فقد برئت وشفيت من الضر وربما كان مرضاً وقوي جسمك منه وصحّ بدنك، هذا مغتسل بارد ماء تغتسل به وتشرب منه، الإشارة إلى عين أو نهر، فقد خرج عنك البلاء.

٤٣ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

أعطاه الله زوجة وأولاداً وزاده الضعف عليهم نعمة من الله وفضلاً جزاء الصبر والإيمان.

٤٤ ـ ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به، الضغث: حزمة من عشب الأرض، أو هو كل ما جمعته من شيء مثل الحزمة الرطبة، وقال ابن قتيبة: هو الحزمة من الخلال والعيدان، وقيل شمارخ، قال ابن كثير: إن أيوب عليه السلام كان غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته، فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله عز وجل، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً، وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برت يمينه وخرج من حنثه، ووفى نذره، قال وهذا هو الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، وصبر على البلاء، وشكر على النعماء مثل أيوب، وإنما مدحه بهذا لأنه أواب.

ثم أجمل ذكر طائفة من مشاهير الأنبياء فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾.

أولي الأيدي: أصحاب القوة في العبادة، والأبصار جمع بصر، أي أصحاب بصيرة في الدين فهم من أولي العزم الثابت والنظر الكامل في أمور الدين، وأخلصناهم أي جعلناهم خالصين بخالصة هي ذكرى الدار الحقيقية، دار المثوبة، وهو تعليل للحكم عليهم بأنهم أولو قوة وبصيرة.

٤٨ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾.

واذكر إسماعيل بن إبراهيم الذي انحدر من سلسلته النبي محمد ﷺ، وذا الكفل وكل الأنبياء والمرسلين

الذين ذكروا هنا أو ذكروا في غير هذا الموضع من الأطهار والأخيار.

وحين تمم ذكر الصالحين وما لقي كل منهم من أنواع الابتلاء تثبيتاً لنبيه ﷺ وهو باب من أبواب التنزيل أراد أن يذكر على عقيبه باباً آخر وهو ذكر جزاء المتقين والطاغين فقال:

٤٩ - ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾.

٥٠ - ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾.

٥١ - ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾.

الإشارة إلى ما وصفهم به من ذكر وشرف وأي ذكر أبعد من هذا؟ وللمتقين من أتباعهم حسن المآب وهو الجنة، جنات عدن يقيمون فيها حالة كونها مفتحة أبوابها لهم يطلبون فيها ما يشاؤون من أنواع الفاكهة الكثيرة والشراب المختلف كذلك.

وحين بيّن أمر المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح فقال:

٥٢ - ﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾.

٥٣ - ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

٥٤ - ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾.

القـــراءة

﴿توعدون﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ﴿هذا ما يوعدون﴾.

وعندهم الحور العين قاصرات الطرف على أزواجهن، وأتراب جمع تربة أي: أعمارهن واحدة.

تخاصم أهل النار

ثم بيّن أنّ حال الطاغين مضادة لحال المتقين فقال:

٥٥ - ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾.

٥٦ - ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

هذا المذكور سابقاً كان للمتقين المؤمنين، وما هنا للطغاة المشركين ، وهو كلام مستأنف فيه توعد لسوء المصير، فالمآب هو المصير، ومصيرهم هو جهنم يصلونها وبئس ذم للنار، أي ساء الفراش، وعبر بالمهاد إشارة لما مهدوه لأنفسهم من أعمال.

٥٧ - ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾.

٥٨ - ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾.

هذا أي العذاب المفهوم مما بعده، والإشارة إليه أولاً كأنه لا عذاب إلاّ هو معروف سلفاً، وإذا كان الأمر كذلك فليذوقوه ماءً حاراً محرقاً، وغساق: اسم لما يجري من صديد أهل النار﴿من شكله أزواج﴾ أي على مثله أو شاكلته من الحميم والغساق، والمعنى: أنّ عذابهم أنواع مختلفة.

القــــراءة

﴿غساق﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بالتشديد ﴿غسّاق﴾ وقرأ الباقون بالتخفيف. ﴿وآخر﴾ قرأ أبو عمرو بضم الألف ﴿أُخر﴾.

وحين وصف مسكن الطاغين ومأكولهم ومشروبهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا يعدونهم أحباءهم في الدنيا ثم مع الذين كانوا يعدونهم أعداءهم فقال:

٥٩ ـ ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾.

هنا جمع آخر مقتحم داخل النار فيها معكم أيها القادة والمتبوعون، وتقول الملائكة لهم: لا مرحباً بهم إنهم صالو النار، ثم يقول الأتباع الداخلون النار للمتبوعين:

٦٠ ـ ﴿ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾.

أي لا مرحباً بكم أيها القادة المتسلطون، أنتم قدمتم العذاب لنا بإغرائكم لنا في الدنيا، فأنتم أحق بهذا الدعاء فبئس المقر جهنم لنا ولكم ثم قال الأتباع:

٦١ ـ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾.

أي مثل عذابه على كفره، وقال الطغاة بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر:

٦٢ ـ ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴾.

٦٣ ـ ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾.

٦٤ ـ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾.

يتساءل الكفار في جهنم عن بعض الأشخاص المؤمنين، الذين كانوا يضطهدونهم ويسخرون منهم في الدنيا، ويحتقرونهم لفقرهم أين هم لا نراهم، وهل أعيننا مارت فلا تراهم، إن ذلك الذي حكي عنهم لحق ثابت لا شك في وقوعه وهو تخاصم أهل النار، وهو استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ، والمعنى: أنّهم يوبّخون أنفسهم ما صنعوا بالمؤمنين.

القــــراءة

﴿أتخذناهم﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالوصل على الخبر أي إنا ﴿اتخذناهم﴾ وهؤلاء يبتدئون بكسر الهمزة.

﴿سُخرياً﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي بالرفع ﴿سِخريا﴾ وقرأ الباقون بالكسر.

من الأدلة على صدق النبي

ثم عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي صحة نبوة محمد ﷺ وصدق ما يدعو إليه من التوحيد والإخلاص فقال:

٦٥ - ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾.

٦٦ - ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾.

٦٧ - ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾.

٦٨ - ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾.

هذا رجوع إلى مناقشة الكفار وإثبات النبوة والتوحيد والبعث، والمعنى: قل لهم يا محمد: إنما أنا منذر ومخوف لكم من عقاب الله الواحد القهار في الآخرة، المتفرد بربوبيته وملكه للسماوات والأرض، وما بينهما من أجرام ومخلوقات، العزيز في ملكه، الغفار لعباده، وإن ما جئتكم به هو نبأ عظيم خبر جد مهم ليس بالهزل فلماذا أنتم عنه معرضون ثم بيّن أنه حاصل من قبل الوحي بقوله:

٦٩ - ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

ثم صرّح بما عليه مدار الوحي قائلاً:

٧٠ - ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

فما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون، والمراد بالملأ الأعلى ما عدا البشر على الأرض، ويختصمون إشارة إلى قول الملائكة في شأن آدم إني جاعل في الأرض خليفة، وردهم أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء، وقول إبليس لآدم أنا خير منه، وقول الله على لسان ملك لآدم: أنبئهم بأسمائهم، فإخبار النبي ﷺ عن كل ذلك دليل واضح على صدقه، وأن علمه عن كل ذلك عن طريق الوحي.

قصة خلق الإنسان وإكرام الله له

ختم الله تعالى السورة بذكر قصة آدم وما وقع فيه إبليس من الرجم واللعن حين حسد آدم واستكبر فقال:

٧١ - ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾.

٧٢ - ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

هذا تفصيل لما جاء في الآيات السابقة من إجمال من الاختصام في الملأ الأعلى ما كان للرسول ﷺ علم سابق به ولا لقومه، فهو من الأدلة على نبوته.

﴿إذا قال ربك للملائكة﴾ ويدخل معهم إبليس الحاضر معهم فقد صدر الأمر له وللملائكة، وإن لم يكن

منهم لأنه ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ قال لهم إني خالق بشراً من طين فإذا أتممت خلقه المادي ونفخت فيه الروح، والمعنى: إذا أكملت استعداده ﴿فقعوا له ساجدين﴾ سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتأليه.

٧٣ - ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

فيه تأكيد أن كلهم، وأجمعون، الأول للإحاطة والثاني للاجتماع، بمعنى أنه لم يتخلف من الملائكة أحد.

٧٤ - ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

الاستثناء منقطع لأنه ليس من الجنس، لكي لا يدل على أن الأمر لم يشمله بل في آيات أخرى جاء الأمر صريحاً ﴿إذ أمرتك﴾ وإبليس من الجن كافر بالله إذ عصى أمره تعالى.

٧٥ - ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾.

أي أتكبرت ادعاء من غير استحقاق أم كنت من العالين المستحقين لذلك؟ والمراد إنكار هذا وذاك، قال إبليس مدفوعاً بطبعه:

٧٦ - ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

قال ذلك وكأن النار أفضل من الطين، وما علم أن آدم وذريته أفضل منه ومن ذريته وأن الطين يفضل النار من عدة وجوه.

٧٧ - ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.

٧٨ - ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

قال الله رداً على قبح عمله، اخرج من المكانة التي أنت فيها من بين الملائكة إلى مكانة تناسبك وتليق بفعلك.

٧٩ - ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

طلب إبليس إمهاله مع آدم وذريته إلى يوم البعث ليظلّ يوسوس لآدم وذريته لأنه السبب في طرده من رحمة الله فاتعظوا يا أولي الألباب.

٨٠ - ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾.

٨١ - ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾.

هكذا اقتضت إرادة الله وحكمته، أن يظل إبليس وجنده وذريته، في وضع يتمكن فيه من التسلط على

خلق الله، فيوسوس ويغوي كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يجازي كل من عصى الشيطان ولم يسمع لإغوائه، ولم يتبع هواه فلا يكون له تسلط عليه، إنما سلطته على الذين يتولونه وهم به مؤمنون.

٨٢ - ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

٨٣ - ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

أقسم إبليس بجلال الله وعزته، بما له من سلطان بإغواء أكثر الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقوله أجمعين، معناه أنه ما من إنسان إلا وقد وسوس إليه الشيطان وحاول معه واستماله للمعاصي، أما عباد الله المخلصون الذين أخلصهم لعبادته واصطفاهم لنصرة دينه، وعصمهم من الغواية باختيارهم الخير على الشر وخوفهم من الله وخشيته في السر والعلن، فلن يستطيع الشيطان التأثير عليهم رغم محاولاته معهم لقوة إيمانهم والناس في هذا درجات ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[1]

٨٤ - ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾.

٨٥ - ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

الحق مني وأنا الحق ولا أقول إلاّ الحق.

القــــراءة

﴿الحقُّ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالضم، وقرأ الباقون بالنصب ﴿الحقَّ﴾.

٨٦ - ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾.

٨٧ - ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

٨٨ - ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

خاطب النبي الكفار بأنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أية أجور، وأنه ليس من المتكلفين المتصنعين والمتقولين، وما هذا النور الذي أسوقه إليكم إلاّ وحي من الله عز وجل، ولتعلمن خبر صدقه يوم القيامة.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٣.

سورة الزمر

سورة الزمر سميت لورود كلمة الزمر في آخر السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ختم الله سورة ﴿صٓ﴾ بذكر القرآن وافتتح هذه السورة أيضاً به فقال:

١ ـ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

يستهل الله سبحانه هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن الكريم منزل من عنده على رسوله محمد ﷺ ويقول: إن هذا الكتاب وهو القرآن، منزل من عنده ومن صفاته العزيز الحكيم، أي القوي الغالب كل شيء، الذي يفعل ما يشاء بحكمة وإتقان، والذي يضع كل شيء في موضعه.

٢ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾.

أنزلنا إليك القرآن يا محمد مؤيداً بالحق الذي لا لبس فيه ولا شك فيه، وبالصدق الذي ليس معه باطل ولا هزل، فكل ما فيه حق يجب الإيمان والعمل به، وإذا كان الأمر كذلك، فاعبد الله أيها الإنسان ﴿مخلصاً له الدين﴾ عبادة ليس فيها رياء ولا سمعة، خالصة لوجه الله.

والدين معناه هنا: الطاعة والعبادة، ومن معانيه الجزاء والشريعة.

وحين حثّ على التوحيد والإخلاص ذم طريقة الشرك والتقليد فقال:

٣ ـ ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾.

وحده سبحانه له الدين الخالص من غير شريك ولا ند، وفي هذه الآية ينفي الله الشريك معه، والمراد بالأولياء هنا هم الأوثان والأصنام، فقد عبدها المشركون من دون الله وقالوا ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى، أي ما نعبدهم إلاّ للتقرب إلى الله فهم شفعاء عند الله على حد زعمهم.

فالمشركون ابتدعوا بنوة الملائكة لله سبحانه، ثم عملوا لها تماثيل من عند أنفسهم يعبدونها، وأطلقوا عليها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، اللات والعزى ومناة، وغير ذلك من الأسماء، وهي في نظرهم آلهة تشفع لهم عند الله وتقربهم زلفى، أي درجة.

واليوم نرى بعض أتباع الأديان الأخرى يعبدون الأنبياء والقديسين ويصوغون لهم تماثيل من حجر أو ذهب، ويجعلونها في دور عبادتهم زاعمين أنها تشفع لهم وتقربهم إلى الله، إن الله سوف يحكم بين الخلائق فيما اختلفوا فيه من الدين فيجازي كل عامل بعمله.

الهداية

ثم سجّل عليهم بالخذلان والحرمان فقال:

﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ هذه الهداية هي من هداية البيان والإرشاد فمن اختار الكفر والكذب وأعرض عن هدى الله وبيانه، فالله سبحانه وتعالى لا يوفقه، لأنه ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾[1]

ثم احتجّ على إبطال معتقدهم بقوله:

٤ ـ ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾.

لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما قالوا ﴿اتخذ الله ولداً﴾ لاختار من خلقه ما يشاء، لكنه منزه عن الولد الذي لا يأتي إلا من الصاحب والصاحبة، والله فرد صمد قهار، ومن كانت هذه صفته فلا يحتاج إلى الولد ولا إلى شيء من ذلك، سبحانه وتعالى جده له الملك وهو على كل شيء قدير.

من دلائل عظمة الله وكمال قدرته

وحين طعن في ألوهية الأصنام عدّد الصفات التي بها يستدل على الألوهية الحقة فقال:

٥ ـ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾.

﴿خلق السماوات والأرض﴾ وما فيهما من الموجودات والكائنات بالحق لا بالباطل لحكمة، ولم يخلقها عبثاً والمحظوظ الذي يدرك هذه الحكمة ومن دلائل قدرته ووحدانيته ووجوده المتفرد تكوير الليل على النهار وبالعكس، والتكوير: طرح الشيء على بعضه، ومنه كور المتاع والعمامة، ألقى بعضه على بعض، وتكوير الشيء جعله مستديراً كالكرة، والأرض كرة وشكلها كروي، فهي تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء فيكون نهاراً، وكلما دارت بدأ الليل يغمر سطح الأرض الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور، والليل الذي يغطيه مكور كذلك، وهذا في حركة دائبة لاستمرار دوران الأرض، وهذه الآية فيها دلالة على كروية الأرض.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وذلل الشمس والقمر للسير على ما أراد، فالقمر يسير في مداره وجاذبيته، وفلكه بنظام مع مجراته، والشمس كذلك تجري لمستقر لها إلى الوقت الذي حدّده الله لفناء العالم، فالله هو العزيز الغالب القوي فتنبهوا أيها الناس، وهو سبحانه الغفار كثير المغفرة والغفران، وإلى عظمة خلق السماوات والأرض يلفت القرآن الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلهية المتمثلة في خلق الإنسان والحيوان فقال:

٦ - ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

النفس الواحدة آدم، ثم خلق من تلك النفس زوجها وهي حواء، فخلق الذكر بجانب الأنثى للتكاثر، ومن خلق إنساناً من العدم ، أهون عليه خلق إنسان من إنسان كحواء وعيسى.

وأنزل لكم من الأنعام، أي خلق لكم لمنفعتكم، وهو الذي أنزل المطر الذي ينبت الزرع فتعيش وتنشأ الأنعام التي هي البقر والغنم والإبل، ثمانية أزواج من كل صنف زوجان، الإبل والبقر والضأن والماعز.

ثم يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى خلق الإنسان فيقول:

﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.

﴿ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنّى تصرفون﴾.

أي يخلقكم الله في بطون أمهاتكم طوراً بعد طور، فتكوين الإنسان بدءاً بالنطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم يكسو الله العظام لحما، ثم ينشئه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا الخلق للإنسان يكون في ظلمات ثلاث هي:

الأولى: ظلمة تجويف قناة الرحم، حيث يبدأ أول التخلق بالتقاء الحيوان المنوي بالبويضة.

الثانية: هي ظلمة تجويف الرحم، عندما تتعلق البويضة الملقحة التي بدأت بالتكاثر والانقسام بالغشاء الداخلي للرحم.

الثالثة: هي ظلمة السائل الأميوني، الذي يسبح فيه الجنين، ويحده الغشاء الأميوني أو غشاء السلي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من الحقائق العلمية في زمن لم يكن قد نشأ فيه علم التشريح والكون، ولم يكن قد تطور إلى هذا الحد الذي اكتشفت فيه هذه الأمور والكنوز القرآنية.

ثم عقب القرآن على خلق الإنسان بقوله ﴿ذلكم﴾ أي هذا الذي خلق الخلق هو ربكم له الملك لا إله غيره فكيف يصرفكم غيره إلى من هو دونه.

ثم بيّن أنه غني عن طاعات المطيعين وأنّها لا تفيد إلاّ أنفسهم فقال:

٧ - ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

إن ربكم أيها الناس غني عن عبادتكم لا تضرّه معصيتكم، إن تكفروا فالله غني عنكم، ليس محتاجاً إلى إيمانكم، ولكنّه لا يرضى ويغضب لعباده إن اختاروا الكفر، والرضى والغضب غير الإرادة، فالإرادة الإلهية محيطة بكل شيء، ولا يستطيع إنسان أو مخلوق فعل شيء إن أراد الله رده.

وإن تشكروا الله سبحانه والشكر هو الإقرار والخضوع له سبحانه، يرضى لكم ذلك ويثيبكم عليه، ولا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا يؤخذ إنسان بعمل غيره، وهو نص صريح بشخصية العقوبة الذي أخذت به جميع دساتير العالم، فكل نفس بما كسبت رهينة، ثم إلى ربكم مرجعكم يوم القيامة، يجازي كلاً على عمله بالعدل والقسطاس المستقيم، لأن الله خبير بما تعملون، وهو العليم بما في الصدور التي لا يطلع عليها إلاّ أصحابها.

القـــراءة

﴿يرضه﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿يرضهو لكم﴾ موصولة بواو وقرأ الفراء: ﴿يرضَهْ﴾ بإسكان الهاء.

المؤمن والكافر

ثم حكى نهاية ضعف الإنسان وتناقض آرائه بقوله:

٨ - ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن
قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾.

أي إذا أصاب الإنسان بلاء في جسده من مرض أو فقر أو شدة في وضعه استعان بربه، ودعاه راجياً إليه ورغب في كشف ما نزل به من الضر والشدة، وأخذ يعبد الله، ثم إذا كشف الضر عنه وخوله نعمة سابغة له نسي دعاءه وتضرعه الذي كان يدعو به ربه من قبل ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾[1].

﴿وجعل لله أنداداً﴾ الأنداد هم الشركاء في العبادة والند هو المساوي للشيء، وهؤلاء الكفار يتخذون أنداداً له ليضلّوا أنفسهم ويضلّوا غيرهم عن طريق الحق، ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً﴾ هذا تهديد من الله لهؤلاء الكفار بما استمرؤوا من الحياة بكفرهم، والتعبير ﴿بقليل﴾ فيه إشارة إلى سرعة انقضاء العمر.

ثم أردفه بشرح حال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلاّ على فضله فقال:

٩ - ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.

أم من: استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، والمعنى: هذا القانت لله أفضل أم الذي يشرك بالله؟ والقانت لله: هو الذاكر لله سبحانه، العابد له، المطيع له بجميع ما أمر به، ويقال للمصلي قانت: وآناء الليل ساعات الليل، أوله ووسطه، وآخره، والحذر من الآخرة، الخوف من عقاب الله فيها، ورجاء رحمته ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ أي قل يا محمد لقومك هل يتساوى العالم بالله والجاهل به، وهل يتساوى الذين يعلمون بما في طاعتهم لربهم من الثواب، وما في معصيتهم إياه من العقاب، مع الذين لا يعلمون ذلك، فهم غفل لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً، إنما يتعظ بذلك ويتذكر أولوا الألباب أي العقول السليمة الصافية من المؤمنين الذين يخافون ربهم، ويتقربون إليه.

القــــراءة

﴿أمّن﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة: ﴿أمن﴾ خفيفة الميم.

ثم بعد ذلك يأتي النداء الرباني بدعوة المؤمنين إلى التقوى واعداً إياهم سبحانه وتعالى بالأجر الجزيل جزاء إحسانهم وصبرهم فقال:

التقوى والإخلاص واجتناب الطاغوت

١٠ ـ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

ففي نداء الله للمؤمنين ﴿يا عباد﴾ تشريف لهم حيث أضافهم إلى نفسه، ووصفهم بالعبودية داعياً إياهم للاستجابة لأمره، وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول لعباده من المؤمنين مذكّراً لهم وواعظاً أمره، أن يأمرهم بالتقوى، وتقوى الله أخذ الوقاية من عذابه، وامتثال أمره، واجتناب نواهيه، لأنه سبحانه قد حكم بأنه للذين أحسنوا في هذه الدنيا بامتثال أمر الله وتنفيذ أحكامه حسنة عظيمة، حسنة في الدنيا بالعزة والسلطان والغنى والجاه، وحسنة في الآخرة بالثواب الجزيل والعطاء الكثير.

التعبير يقول ﴿هذه الدنيا﴾ إشارة إلى الأرض التي نعيش عليها، فمن لم يستطع أن يتقي الله ويحسن العمل حق التقوى، فأرض الله واسعة فليهاجر إلى غيرها ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وعلى المؤمن ألّا يقبل الاضطهاد والظلم من الكفار، وإن لم يستطع أن يفعل واضطر للبقاء فإنما يوفي الله الصابرين أجرهم يوم القيامة بغير حساب، بحيث يكون من الكثرة بما لا يمكن حصره، والدين يسر وليس بعسر، ثم يأتي خطاب الله للنبي ﷺ بالسير على درب الإخلاص لله وحده وهو خطاب لأمته فيقول:

١١ ـ ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

أي قل يا محمد للمشركين من قومك: إن الله أمرني أن أعبد الله سبحانه مفرداً له الطاعة مخلصاً له

العبادة، وحده لا شريك له، عبادة خالية من الرياء والسمعة، وأوحى الله إليّ بأن أكون أول من بدأ بتوحيد الله وأسلم له، فأنا أول المسلمين المقدم في الشرف والرتبة والعمل الكامل، وفي الآية حث للقادة والرؤساء والمسؤولين إذا أمروا بأمر أن يكونوا هم أول البادئين بأنفسهم ليقتدي بهم غيرهم.

وحين بيّن أنّ الله أمره بإخلاص القلب وبأعمال الجوارح وكان الأمر يحتمل الوجوب والندب بيّن أنّ ذلك الأمر للوجوب فقال:

١٣ - ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

أمر الله سبحانه نبيه أن يجري هذا الكلام على نفسه، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي، وفي هذا تحذير وأي تحذير، لأنه عليه الصلاة والسلام مع جلالة قدرة وشرف نبوته إذا وجب أن يكون حذراً، فغيره بذلك أولى.

١٤ - ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾.

قل لهم يا محمد: إني أخاف الله ولذلك أعبده مخلصاً له ديني، وليس هذا تكراراً مع قوله ﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ إنه إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة مع الإخلاص، أما قوله ﴿الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ فهو إخبار بأنه لا يعبد أحداً غير الله، فتقديم المفعول - الله - على الفعل يفيد القصر أي قصر العبادة عليه سبحانه.

وبعد أن أعلن النبي ﷺ منهجه، الذي يتحدد بعبادة الله وحده، تأتي الآيات التالية تحمل طابع التهديد والوعيد للمشركين، الذين يتوجهون إلى غير الله في العبادة فقال:

١٥ - ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

هذا الأمر، المقصود منه الزجر والتهديد للمشركين، حيث ظلوا على كفرهم معاندين، فالخاسرون الخسارة الكبرى هم الذين خسروا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وخسروا أهاليهم وأتباعهم حيث ضلوا وأضلوا وذلك الخسران هو الخسران الواضح الظاهر الذي ليس بعده خسران.

وقد أشار إلى هذا الخسران بقوله:

١٦ - ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾.

الظلل جمع ظلة، وأصلها السحابة تظل ما تحتها، وتسميتها ظلة تهكم بهم لأنها من النار محرقة. والمراد بالظلل هنا ما يعلوهم ويحيط بهم من طبقات النار تعلو رؤوسهم، ولهم من تحتهم ظلل، ذلك العذاب الفظيع يخوف الله به عباده، فيجتنبوا ما يوقعهم فيه ﴿يا عباد فاتقون﴾، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي وعذابي، وبعد أن ذكر الله سبحانه وعيده لعبدة الأصنام والأوثان، ذكر بعد ذلك وعده الحسن لمن اجتنب عبادتها فقال:

١٧ـ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

١٨ـ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

الطاغوت: هو الشيطان من الجن والإنس لأنه سبب الكفر والعصيان، أو هو كل معبود من دون الله فالذين اجتنبوا عبادة ما أمر به الشيطان ودعا إليه من الأصنام وغيرها وابتعدوا عنها وتابوا إلى الله ورجعوا إلى الإقرار بتوحيده، لهم البشرى بالثواب من الله على ألسنة الرسل الكرام. فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأرشده، أولئك الذين اختاروا الخير عن الشر فهداهم الله، وأولئك أولوا الألباب أصحاب العقول السليمة.

وبعد أن أثنى الله على الذين أقروا بتوحيده، واجتنبوا عبادة الطاغوت أخبر نبيه بأنه لا يقدر على إنقاذ الكافرين من عذاب الآخرة.

١٩ ـ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾.

والمعنى: أأنت مالك أمر الناس؟ فمن وجبت عليه كلمة العذاب بسبب اختياره للكفر وعبادته للشيطان أفأنت تنقذ يا محمد من في النار، لا لست على ذلك بقادر وليس أمر الناس بيدك بل بيد الله سبحانه، فقد جعل استحقاقهم للعذاب وهم في الدنيا بمنزلة دخولهم النار يوم القيامة، وقد جعل حالة النبي ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام ويبالغ في تحصيل هدايتهم ويتحسر عليهم بمنزلة من ينقذهم من النار ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾[1].

ثم صرّح بجزاء المتقين فقال:

٢٠ ـ ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

أي لكن الذين اتقوا ربهم باستجابتهم إليه وخضوعهم لأمره، واجتنابهم لما حرم عليهم، لهم في الجنة غرف، من فوقها غرف مبنية بعضها فوق بعض، تجري من تحت أشجار بساتينها الأنهار، هذا ما وعد الله به عباده المتقين والله لا يخلف وعده.

هذه هي الدنيا

وحين وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها أراد أن يصف الدنيا بما يقتضي النفرة عنها فقدّم لذلك مقدمة ليستدل بها على حقيقة الصانع فقال:

٢١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

هذه الآية بيان للقدرة الإلهية الحكيمة، كما أنها تصوير للحياة الدنيا في سرعة زوالها بما ذكر من أحوال الزروع، ترغيباً في البعد عن زخارفها وزينتها، وتحذيراً من الاغترار بها اغتراراً يصرف الإنسان عن واجباته نحو خالقه.

فالعاقل الذي ينظر إلى تلك المظاهر، مثلها مثل الماء الذي أنزل الله من السماء فسلكه ينابيع في الأرض، وأرسل منه عيوناً متفجرة أخرج بها زرعاً مختلف الأشكال والألوان والأنواع ثم يهيج، ييبس ويصفر لونه ثم يكون حطاماً أي فتاتاً متكسراً، إذا نظر العاقل إلى تلك المظاهر، التي يمر بها النبات يعرف أنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[٢].

النور وشرح الصدور بالقرآن

وحين بالغ في تقدير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله والإعراض عن الدنيا الفانية بيّن أن ذلك البيان لا يكمل الانتفاع به إلّا إذا شرح الله صدره ونوّر قلبه فقال:

٢٢ ـ ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

لقد شرح الله صدور الناس جميعاً للإيمان به وبأنبيائه ووضع أمامهم النور بالكتب والدلائل والرسل لكن بعض الناس اختاروا غير ذلك، فجعلوا قلوبهم تقسو على الحق وتصدّ عنه، فاستحقوا الويل وهو الهلاك والعذاب بما اختاروا من الشر، وشرح الله لصدور البشر بالفطرة التي فطر الناس عليها، فالذين آمنوا وبقوا على تلك الفطرة السليمة تمكن نور الحق واستقر في صدورهم فلا يستوون، ومن قست قلوبهم وضاقت صدورهم أولئك في ضلال مبين.

ثم أكّد وصف القرآن وكيفية تأثيره في النفوس بقوله:

٢٣ ـ ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾.

القرآن أحسن الحديث من جهة اللفظ والأسلوب والمعنى، وهو أفصح الكلام وأجزله وأبلغه، فيه الإطناب والإيجاز والأمثال والقصص والأحكام والآداب والأخلاق والتشريعات الصالحة لكل زمان ومكان، وفيه أخبار الماضين، وأخبار الأنبياء والرسل وما في حياتهم من دروس وعبر، إلى غير ذلك الشيء الكثير.

وكونه متشابهاً يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً بدون اختلاف أو تناقض، ورغم ما في آياته من الشَبَه بعضها ببعض، إلا أن القارىء لا يمل ولا يكل ولا يسأم، وكلما قرأه شعر وكأنه يقرأه للمرة الأولى

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

﴿مثاني﴾ جمع مثنى من التثنية بمعنى مردد ومكرر، فقد تكررت فيه القصص والأحكام، والثواب والعقاب والمواعظ والأوامر والنواهي بأساليب شتى، هذا وصفه في نفسه فإذا سمعه المؤمنون اقشعرت منه الجلود، واضطربت منه القلوب، ووجلت منه النفوس، إذا سمعوا وعيد الله، ورأو بعيون البصيرة ما أعدّ للمكذبين الكفار دمعت عيونهم، وخشعت أصواتهم واقشعرت جلودهم، ثم تلين قلوبهم وتسكن حينما يسمعون ذكر رحمة الله بالمؤمنين، وتفرح نفوسهم وتنشرح صدورهم إلى ذكر فضله على المؤمنين يوم لقائه.

الهدى والضلال

ذلك والإشارة إلى الكتاب الذي مر ذكره ووصفه، هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، وهذه الهداية بمعنى البيان والإرشاد ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ ثم أعقب ذلك بالهداية بالمشيئة وهي بمعنى الإرادة، ومعنى ذلك أنه لا يهدي ولا يضل أحداً جبراً عن الله بل يهتدي من يهتدي بإرادة الله عز وجل وبمشيئته، قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾(١).

ثم بيّن سبحانه ما أعدّ للكافرين من عذاب شديد يوم القيامة فقال:

٢٤ ـ ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أكل الناس سواء، فمن شأنه أن يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه يتقي به العذاب السيء يوم القيامة، لأن يده التي جعلت للاتقاء بها مغلولة إلى عنقه، أفمن كان هذا شأنه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه، ولا يصيبه سوء أبداً؟.

من يسوي هذا بذاك، وكيف يستويان، أحدهما كافر بالقرآن متحزب مع الشيطان، والآخر قد اهتدى بنور القرآن، والهمزة في ﴿أفمن﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة عليه، والتقدير أكل الناس سواء، وما دام الأمر كذلك في عدم التساوي فقد قيل للكافرين وربما القائل الملائكة، ذوقوا ما كنتم تكسبون في دنياكم من أعمال سيئة، ثم ذكر عذابهم في الدنيا فقال:

٢٥ ـ ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي كذّب الكفار الذين عاشوا قبل كفار مكة رسل الله، ولم يتبعوا ما جاؤوهم به من الهدى فأتاهم العذاب المقدر لهم كالخسف والإبادة من حيث لا يشعرون، أي بغتة بحيث لم يخطر لهم ببال ومنهم من أذاقه الله في الحياة الدنيا نوعاً آخر من العذاب فقال:

٢٦ ـ ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي أن الله سبحانه عذب الكفار السابقين في الحياة الدنيا عذاباً نفسياً بالذل والخزي، وهناك في الآخرة العذاب الأكبر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

وهذا إنذار لكفار مكة وتهديد لهم، وبعد أن بين القرآن ما أعد الله للكافرين من عذاب الدنيا والآخرة، أشار إلى ما يحتويه القرآن من الأمثال التي فيها عظة وعبرة لكل معتبر فقال:

الأمثال في القرآن

٢٧ - ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

أي لقد بينا وأوضحنا للناس في هذا القرآن العبر بضرب الأمثال، والمثل هو الشيء الذي يقاس به فيجعل مثله وهو جزئي يذكر لإيضاح القاعدة ويأتي المثل بمعنى الشبه والعبرة، وقد يكون المثل جملة من القول فيها عظة لعلّهم يتعظون فيعملون بالحكمة المأخوذة من المثل، في القرآن كثير من الأمثال، سواء في الحكم أو أحوال الأمم الغابرة للبيان والتوضيح، وتقرير الحجة والإشارة ﴿في هذا﴾ للتعظيم.

٢٨ - ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي لعلّهم يتذكّرون ويتعظون، في هذا القرآن حالة كونه قرآناً عربياً لا اختلال فيه بوجه من الوجوه، فهو المستقيم في كل قصد، وإنما كان ذلك كذلك، لعلّهم يتقون، فأنت ترى أن الأمثال في القرآن تضرب للتذكرة والموعظة لتحصل التقوى التي هي الغرض الأسمى، وبعد أن أشار سبحانه بأنه ضرب في القرآن من كل مثل للعظة قدم مثالاً للمؤمن الموحد لله، وآخر للمشرك الذي يعدد الآلهة فقال:

٢٩ - ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

رجل مملوك لشركاء متشاكسين مختلفين كل له رأي وحاجة، فكل يطلب من هذا العبد حاجة لا يطلبها الآخر فماذا يفعل؟ وقد تقاسمته الأهواء واختلفت به السبل؟.

وهذا رجل آخر مملوك لشخص واحد فهو سالم له ليس لغيره سبيل عليه، هكذا المسلم لا يعبد إلا الله، ولا يسعى إلاّ لرضاء الله.

أما المشرك فهو يعبد آلهة، ويتجه إلى شركاء مختلفة، فهو دائماً في حيرة وارتباك لا يدري كيف يرضي الجميع.

ورغم أن القرآن قد ضرب بعض الأمثال في العبد وذكر بعض الأحكام له، إلاّ أنه يقرر واقعاً موجوداً حثّ على التخلص منه، فقد ضيق المدخل ووسع المخرج، وذلك واضح في القرآن، ولما كان كثير من المشركين لم يتعظوا بهذا المثل فقد بين القرآن بأن مصيرهم جميعاً هو الموت فقال:

٣٠ - ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾.

٣١ - ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾.

فالكل فانٍ ولا يبقى غير الله، ويوم القيامة تتنازعون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ظالمكم ومظلومكم ويفصل بينكم بالحكم، يوم فيه قضاء عادل وخصومة بين متنازعين.

من أظلم الناس ومن أصدقهم

ثم بين سبحانه الفريقين فقال:

٣٢ ـ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

بين سبحانه الفريقين الظالمين والصادقين فبدأ بالظالمين ﴿فمن أظلم﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً أو شريكاً أو صاحبة، ﴿وكذب بالصدق﴾، وهو ما جاء به رسول الله ﷺ من دعاء الناس إلى التوحيد، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع، ونهيهم عن محرماته، وإخبارهم بالبعث، ثم أعقب ذلك باستفهام تقرير ﴿أليس﴾ ومعناه إنّه لكذلك، والمثوى المنزل والمقام للجاحدين في جهنم يوم القيامة.

وحين بيّن وعيدهم عقبه بوعد الصادقين المصدقين فقال:

٣٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

﴿الذي جاء بالصدق﴾ هو النبي محمد ﷺ، والذي صدق به هم أتباعه، اتقوا الشرك بتوحيد الله، والبراءة من الأوثان والأنداد، وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، فخافوا عقابه، ثم منّ سبحانه بما أعدّ لهم من النعيم فقال:

٣٤ ـ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

لهم ما يشاؤون ويطلبون عند ربهم من كل نافع ومفيد يوم القيامة، وذلك جزاء إحسانهم في الدنيا.

٣٥ ـ ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أعطاهم ما شاؤوا ليكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا، فيمحو عنهم أعمالهم في الدنيا فلا يعاقبهم عليها، ويجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء، وبعد أن بيّن الله ثواب الذين صدقوا بالقرآن وساروا على نهجه أتبع ذلك بتطمين رسوله محمد ﷺ بحفظه من كل مكروه وأذى من قومه فقال:

٣٦ ـ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي ﴿ليس﴾ فأفاد معنى الكفاية وتقريرها، والكفاية هي الوقاية والحفظ، والمعنى: الله وحده حافظ رسوله محمداً من كل شر، يكفيه عداوة من يعاديه ويناوئه، وهذا من الأمور الغيبية والمعجزات للنبي محمد ﷺ، فقد تحقق له ذلك حيث تعرّض له الكفار عدة مرات، وقد كان الكفار يخوفون النبي بالذين من دونه بالأصنام وغيرها من معبوداتهم، ولكنّ الله حافظه.

القــــراءة

﴿عبده﴾ قرأ حمزة والكسائي بالجمع ﴿عباده﴾ وهم الأنبياء لأن الأمم قصدتهم بالسوء فالمعنى: أنه كما كفى الأنبياء قبلك، يكفيك.

الضلال والهدى
﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾

٣٧ ـ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾.

الهداية والإضلال هنا داخلان في مشيئة الله، والمعنى: يخبر الله سبحانه بأنه من يشأ الله أن يجعله ضالاً فلا يستطيع أحد أن يهديه، ومن يشأ أن يجعله مهتدياً فلا يستطيع أحد أن يضلّه، وهذا مثل قوله تعالى في سورة (الكـهـف) ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾[1] لكنا وجدنا أن الله سبحانه قد وضع أمام الإنسان النجدين، الخير والشر، وجعل له اختياراً يميز بعقله ليحاسب عليه، فمن يختار الشر والكفر فلا يجد له من ينصره، ولا من يعينه ويرشده إلى مصيره غير الله الذي وضع له هداية البيان بقوله ﴿وهديناه النجدين﴾، ﴿أليس الله بعزيز﴾ القوي الغالب المنتقم من أعدائه الذي يكفي رسوله شر أعدائه، وهذا وعيد للمشركين بالخسران والهزيمة، ووعد للمؤمنين بالنصر، وهذا قد تحقق بعد فترة وجيزة، ثم ينتقل القرآن إلى تفنيد مزاعم المشركين بأن أصنامهم تنفع أو تضر فيقول:

مناقشة أهل الشر في عبادتهم

٣٨ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرضين؟ ليقولن مجيبين بجواب واحد خلقهن الله، ولكنهم كانوا رغم ذلك يشركون بعبادة الله أصنامهم وأوثانهم مدعين بأنها تنفع وتضر، وتقربهم إلى الله زلفى، وإذا كان الأمر كذلك فأخبروني هل تستطيع آلهتكم إن أرادني الله بضر أي أصابني بمكروه، من شدة مرض أو فقر أو مصيبة، هل تقدر آلهتكم على كشف ما أراده الله بي من الضر، أو هل تستطيع أن تتوسل إلى الله إذا كانت تقربكم إليه زلفى، كما تزعمون في غير هذه الآية؟ أو أراد ربي أن يرحمني بسعة معيشتي وكثرة مالي وعافية في بدني، هل آلهتكم تمنع عني رحمة الله؟ هل هذه الأصنام تمنع ضراً أراده الله؟ أو تمسك رحمة أرادها الله؟ والمعنى: أن من عجز عن النفع والضر وكشف السـوء والشر عمن يتقرب إليه، كيف يحسن منه عبادته، وإنما يحسن العبادة لمن قدر على جميع ذلك، ولا يلحقه العجز والمنع وهو الله تعالى.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.

لا هذا ولا ذاك، فقد سكتوا ويسكت غيرهم ممن جاء بعدهم واتخذ أصناماً وتماثيل على شاكلتهم، قل لهم بعد أن انقطعت حجتهم، الله حسبي وكفى، عليه أتوكل وإليه ألجأ فهو نعم المولى ونعم النصير.

القـــراءة

(كاشفات ضرّه وممسكات رحمته) قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم منوناً على الإضافة (كاشفات وممسكات) وبعد إقامة الحجة على المشركين في بطلان عبادتهم يأتي التهديد من الله لمن يظل على شركه فيقول:

٣٩ ـ ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

فالله سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يخاطب المشركين متوعداً لهم، قل لهم اعملوا على طريقتكم وحالكم التي أنتم عليها، ما دمتم مصرين على العداوة لهذا الدين، إنّي عامل على طريقتي التي أرشدني إليها ربي، فسوف تعلمون عاقبة كفركم وإصراركم عليه، وتدركون من منا الذي يأتيه عذاب يهينه ويذلّه، وينزل عليه عذاب دائم لا يفارقه.

ولما كان يعظم على رسول الله ويؤلمه إصرار المشركين على الكفر أخبره الله سبحانه بأنه لم يكلف إلّا ببيان هدى الله فقال:

الهدى والضلال

٤١ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

الكتاب هو القرآن وأنزل لجميع الناس بالحق، أي ليس فيه شيء من الباطل، فمن اهتدى بما فيه أي اختار طريق الحق والخير وسلكها ﴿فلنفسه﴾ لأن النفع في عاقبته يعود عليه ﴿ومن ضل﴾ أي اختار طريق الباطل والشر وسلكها وحاد عنه ﴿فإنّما يضلّ عليها﴾ أي على نفسه لأن مضرة عاقبته تعود عليه، وما أنت يا أيها الداعي إلّا مبلغ مبين مرشد تبين طريق الخير وطريق الشر، ولست عليهم برقيب في إيصال الحق ولا مكلفاً بهدايتهم، ولا بمخاطب بها، بل عليك البلاغ وعلينا الحساب.

وفي هذه الآية إرشاد وتعليم للدعاة والولاة بعد النبي محمد ﷺ، ليتعلّموا من سيرته ويعملوا بهديه، فمن كان منهم في معاملة الكفار في موقف اللين لان، ومن كان منهم في موقف الشدة والقوة والعزة اشتد ورفع راية الجهاد.

ثم يعرض القرآن بعض مظاهر القدرة الإلهية التي تحيي وتميت والتي هي أحق بالعبادة من أصنامهم التي لا تملك موتاً ولا حياة فيقول:

٤٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

يقبض الله الأرواح حين موت أجسادها، كما يتوفى الأنفس حين تنام فيحول بينها وبين التصرف في الجسد مع بقاء الروح متصلة بالجسد، فيمسك الله الأرواح التي قضى عليها الموت في الأزل في الوقت المحدد لها، ولا يردها إلى أبدانها بل يحبسها، ويرسل الأنفس النائمة إلى أبدانها فتعود إلى إحساسها السابق ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو الوقت المحدد لانتهاء آجالها ﴿إن في ذلك﴾ التوفي والإمساك والإرسال للنفوس لآيات عجيبة دالة على القدرة الباهرة لقوم يتفكرون في ذلك ويتدبرونه.

قال ابن كثير: (قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام)، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[(١)].

فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى قال: وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾.

فالموت هو السلطان المسلط على البشر كافة، الذي قهر به العباد ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، والنوم هو كذلك آية من آيات القدرة الإلهية، ودليل على ضعف الإنسان وحاجته لربه الذي خلقه.

ثم ينتقل القرآن إلى ذم المشركين في اتخاذهم أصنامهم شفعاء لهم عند الله فيقول:

٤٣ ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

أي بل اتخذ المشركون من غير الله وبدون إذنه شفعاء لهم عنده، وهي أصنامهم التي يعبدونها، كيف تتخذونهم شفعاء لكم عند الله وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، حتى وهم لا يعقلون شيئاً من الأشياء لأنها جمادات لا عقل لها.

الشفاعة

٤٤ ـ ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

أي لا يملكها أحد إلا بتمليكه، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، قال الله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾[(٢)]، وقال: ﴿لا يشفعون إلّا لمن ارتضى﴾[(٣)].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

والشفاعة عقيدة عند بعض أصحاب الأديان والمذاهب المعاصرة الباطلة، يتوجهون إلى زعيم الطائفة يقدمون له النذور والقرابين، ومنهم من يصوغ تماثيل لتكون شفيعة لأصحابها في استجابة طلبهم.

أما عقيدة الإسلام فهي العقيدة الصحيحة التي تقبلها الفطرة الإنسانية وتحول دون كل الخرافات، وبعد أن بين القرآن بطلان شفاعة الأصنام، وصف بعد ذلك مشاعر المشركين إزاء الدعوة فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

إذا قيل لهم لا إله إلّا الله انقبضوا ونفروا، ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم فقال: ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ وهم الآلهة المزعومة كاللات والعزى وغيرها من الأصنام في هذا العصر، ولا زال بعض الناس من تشمئز قلوبهم وتتغير وجوههم كلما دعوا إلى عبادة الله وحده وإلى العمل بشريعته، ولكن إذا ذكرت الأنظمة المادية الملحدة الكافرة، تراهم لذكرها يستبشرون.

٤٦ ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

فاطر السماوات والأرض: خالقهما ومنشئهما، وعالم الغيب والشهادة: عالم ما غاب علمه عن جميع الخلق، وعالم ما شهدوه وعلموه.

والمعنى: يا خالق السماوات والأرض ويا عالم الشهادة والغيب، أنت وحدك تحكم وتجازي الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، في دار الدنيا من أمر دينهم ودنياهم، وتفصل بينهم بالحق في الحقوق والمظالم، فاحكم بيني وبين قومي بالحق، وفي هذا بشارته للمؤمنين بالظفر والنصر.

وتتابع الآيات تهديدها للمشركين، متوعدة إياهم بعذاب يفوق الوصف في الآخرة إذا ظلوا على ضلالهم وعنادهم وكفرهم وشركهم فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾.

أي لو أن هؤلاء المشركين بالله ملكوا كل ما في الأرض من الأموال، وملكوا مثله معه ﴿لافتدوا به﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب يوم القيامة ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ أي لظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ما لم يكونوا ينتظرونه، ولا يظنونه واصلاً إليهم ولم يكن في حسابهم.

ثم صرّح بما أبهم قائلاً:

٤٨ ـ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي ولظهر لهم يوم القيامة ونزل بهم العذاب ما كانوا به يستهزؤون من دعوة الإسلام، فقد كانوا يظنون أعمالهم حسنات فبدت لهم سيئات، فأحاطت بهم أعمالهم وظنونهم بالله.

الإنسان في الشدة والنعمة

ثم حكى نوعاً آخر من قبيح أعمالهم قائلاً:

٤٩ ـ ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وهذه سيئة من سيئاتهم فإذا مسهم الضر من مرض أو فقر أو شدة لجأوا إلى الله ودعوه منيبين إليه، ثم إذا كشف الضر عنهم وخوّلهم ربك نعمة وأعطاهم خيراً من عنده، نسوا ما كانوا يدعون من قبل، وقالوا إن هذا الخير وصل إلينا لعلم عندنا بأمور الدنيا، ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾[1] وهكذا الإنسان يلجأ إلى الله في الشدائد حتى إذا نجا وأدرك ساحل السلامة وآتاه الله بسطة في المال والجاه، قال إنما حصل لي بسبب نشاطي وكمال عقلي وحدي، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم دائماً يذكرون الله في السراء والضراء، فإن مسّهم خير شكروا الله لأنه صاحب النعمة، وإن مسّهم ضر صبروا ولجؤوا إلى الله، لأنه وحده هو الذي يكشف الضر، فيا أيها الإنسان لا يأخذك الغرور بما أوتيت ﴿بل هي﴾ أي النعمة التي أنعم الله بها ﴿فتنة﴾ أي بلوى واختبار يبتلى بها العبد ليشكر أو يكفر، ولكن أكثر الناس يأخذهم الغرور ولا يعلمون أن ذلك استدراج وامتحان، ولذلك يخوضون في نعم الله بالباطل دون مراقبة المنعم، فعلى العاقل أن يأخذ حذره.

٥٠ ـ ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

قال هذه الكلمة، وهي قولهم: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ الذين من قبلهم قارون وغيره من الأمم الماضية، ثم أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفار فقال:

٥١ ـ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

أصاب العذاب الذين ظلموا أنفسهم بالكفر أو الشرك، قارون ومن على شاكلته من الأمم السابقة، والذين ظلموا من هؤلاء أي كفار قومك يا محمد سيصيبهم العذاب جزاء كفرهم بالقتل والأسر والقهر، وما هم بفائتين على الله ، بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما يشاء من العقوبة.

٥٢ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له، ويقبضه لمن يشاء أن يقبضه ويضيقه عليه.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

قبول التوبة

وحين أطنب في الوعيد أردفه ببيان كمال رحمته ومغفرته فقال:

٥٣ ـ ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

المراد بالإسراف: الإفراط في المعاصي والاستكثار منها، و ﴿لا تقنطوا﴾ أي لا تيأسوا من رحمة الله، وسبب نزولها أن ناساً من المشركين كانوا قد ارتكبوا ذنوباً فأكثروا، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عَمِلْنا كفارة، فنزلت الآية[1]، وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه، لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك بغفران جميع الذنوب إلاّ الشرك، الذي لم يتب منه صاحبه لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾[2].

وعظ وإرشاد

ثم دعا سبحانه عباده إلى التوبة وأمرهم بالإنابة إليه فقال:

٥٤ ـ ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً أمرهم بالرجوع إليه، بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، والاستسلام لأمره، والخضوع لحكمه ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ وهو ساعة الموت وطلوع الروح لا تجدوا من ينصركم من الله ويمنعكم منه.

٥٥ ـ ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾.

الأحسن هو القرآن فقد أنزل الله كتباً، التوراة والإنجيل والزبور، ثم أنزل القرآن: فالكتب المتقدمة حرّفت وبدّلت لكن القرآن تكفل الله بحفظه وصونه من التحريف والتبديل، وجعله يحفظ بالصدور، فأمر باتباعه البشر عامة وأنزل على نبي هو خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فهو أحسن الكتب المنزلة، والعذاب في الآية الموت.

لما أمر الله سبحانه باتباع الطاعات واجتناب المقبحات تحذيراً من نزول العقوبات بيّن الغرض في ذلك بقوله:

---

(١) رواه البخاري عن سعيد بن جبير.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

٥٦ ـ ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ .

بادروا قبل أن تقول نفس، وحذراً من أن تقول نفس، ومعنى ﴿يا حسرتا﴾ يا ندامتا ويا حزنا والمعنى: بادروا أيها العصاة إلى التوبة والعمل الصالح قبل أن تقول نفس يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة يا ندامتي على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في طلب قرب الله، وكنت في الدنيا من الذين يسخرون بالله وآياته ورسله.

٥٧ ـ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أي تقول لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي.

بلى لقد هدى الله الهداية البيانية، فأرسل الرسل وأنزل لهم الكتب ويسّر لهم سبل الاطلاع عليها، ولم يعاقب من لم تبلغه الدعوة ففيم هذا الإنكار والنسيان، وكل هذه الآيات والتذكير والوعظ، والإرشاد والإعادة والتكرار، والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، حتى تقوم الحجة على المنكرين العائدين فلا يقولوا مثل هذا القول.

٥٨ ـ ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أي تقول لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحدين المطيعين، ثم قال سبحانه منكراً على هذا القائل:

٥٩ ـ ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

هذا هو الجواب الرباني على تحسرات كل مذنب، بلى قد جاءك الهدى والبيان من الله فكذبت بآيات القرآن وقلت بأنها ليست من عند الله وتكبرت عن الإيمان وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويتبع منهاجهم، ثم يعطينا القرآن صورتين من صور يوم القيامة، صورة للمذنب وصورة للمتقي.

لا إله إلا هو وهو يجزي كلاً على عمله

ثم صرّح ببعض أنواع العذاب قائلاً:

٦٠ ـ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

مسودة لما أحاط بها من العذاب وبما نالها من الشدة، بعد أن انكشف أمرها وانفضح حالها، والمثوى هو مكان الإقامة، يقال ثوى بالمكان أقام به، والاستفهام للتقرير، أي فيها مثواهم ومقامهم.

ولما ذكر سبحانه حال الكفار عقّبه بذكر حال الأتقياء الأبرار فقال:

٦١ ـ ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

المفازة من الفوز، والمعنى: ينجيهم الله بفوزهم، أي بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة، وأصل المفازة النجاة، وبذلك سميت المفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها، كما سموا اللديغ سليما.

القــــراءة

﴿بمفازتهم﴾ قرأ حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بالألف ﴿بمفازاتهم﴾ على الجمع.

ولما ذكر الوعد والوعيد بيّن سبحانه أنّه القادر على كل شيء فقال:

٦٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

ثم أكده بقوله:

٦٣ ـ ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

فالله سبحانه هو الخالق للأشياء جميعها، وإذا كانت هذه صفته فهو وحده الجدير بالعبادة، وهو القائم الحافظ المدبر وحده من غير مشارك، المتكفل بأرزاق العباد بما لديه من مقاليد السماوات والأرض أي مفاتيحها وخزائنها وهي بلغة حمير، وواحدها إقليد ومقليد ومقلاد، ثم أعلم سبحانه أنه المعبود لا معبود سواه فقال:

٦٤ ـ ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿تأمروني﴾ قرأ نافع بالتخفيف مع فتح الياء ﴿تأمرونيَ﴾ وقرأ ابن عامر بنونين على الأصل من غير تشديد ﴿تأمرونني﴾ وقرأ ابن كثير بتشديد النون وفتح الياء ﴿تأمرونّيَ﴾.

أي قل لهم أفتأمروني أيها الجاهلون أن أعبد غير الله، ثم قال لنبيه ﷺ مهدّداً الأمة على الشرك.

٦٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

يخاطب الله سبحانه رسوله محمداً ﷺ مؤكداً أن الشرك يبطل ويفسد الأعمال مهما كانت في المجتمع، وصاحبها خاسر في تعبه وصنعه، وهذا أدب من الله تعالى لنبيه ﷺ، وتهديد لغيره، وهو على سبيل الفرض، أي لو فرض منك إشراك لكان كذا وكذا، وذلك ليعلم الكل فظاعة الشرك وقبحه، فقد نهى عنه من يستحيل عليه الإلمام به فكيف من يأتيه؟ والله سبحانه قد عصم نبيه من الشرك ومداهنة الكفار، ثم أمر سبحانه بالتوحيد فقال:

٦٦ ـ ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

أي احصر العبادة بالله وحده، ولا تعبد ما أمرك به قومك، واشكر الله الذي هداك ووفقك، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ثم أخبر سبحانه عن أحوالهم فقال:

٦٧ ـ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

أي ما عظموا الله حق عظمته إذ عبدوا غيره، وأمروا نبيه بعبادة غيره، أخبر سبحانه عن كمال قدرته فذكر أن الأرض كلها مع عظمها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه، فيكون في قبضته وفي الحديث ﴿يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض»؟[١] .

أحوال الخلق يوم القيامة والنفخ في الصور

ثم ذكر سائر أهوال القيامة وأحوالها بقوله:

٦٨ - ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله ﴿ونفخ﴾ هذه النفخة الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلاّ من شاء الله، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ثم ينفخ في الصور مرة أخرى وهي النفخة الثالثة، نفخة البعث، قال الله عز وجل ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

ثم وصف أرض القيامة بقوله:

٦٩ - ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

كانت السماوات والأرض منورة في الحياة الدنيا بنور الله عز وجل، وبالأسباب التي وضعها فيها، كما أخبر بذلك في قوله تعالى في سورة النور ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ وفي هذه الآية يخبر الله تعالى بأن الأرض في الآخرة عند الحساب تشرق بنور ربها، وجاء في لسان العرب، (أشرق وجهه ولونه أسفر وأضاء وتلألأ حسناً) والأرض في هذا اليوم قد تخلصت مما عليها من البشر، الذين يحملون من الذنوب والآثام والعداوات والكفر والشرك بالله، خالق الكون والحياة، ومما في بطنها من الأموات في القبور، وألقت أثقالها، وهذا واضح في سورة الزلزلة، فلها أن تشرق بنور ربها وتضيء، وقد وضع كتاب الأعمال للحساب والجزاء ﴿والشهداء﴾ هم الذين يقتلون في سبيل الله، وهم المعنيون بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ وهذا هو الذي يتفق مع أسلوب الآية التي تشير للقضاء بينهم بالحق وأنهم لا يظلمون بما قدموا في الدنيا.

---

(١) مشفق عليه.

والصدّيقون: قد يكون بعضهم أنبياء، أو في مرتبة الأنبياء كأم موسى، ومريم أم عيسى عليه السلام ولقمان والمهدي، والصالحون: كل من رضي الله عنهم وأرضاهم من عباده، وبعضهم جاء ذكرهم في القرآن كامرأة فرعون وزوجات النبي وأهل بيته، والصحابة السابقين ﴿السابقون﴾ أولئك المقربون والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، والناس في هذا درجات ويدخل فيهم المهاجرون والأنصار وكل من عمل صالحاً في دنياه، ومرد ذلك ومرجعه إلى الله عز وجل فهو الذي يعلم الصالح من الطالح.

٧٠ ـ ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

أي أعطى الله كل نفس جزاء عملها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر دون أن يحتاج إلى معاون ثم يعرض القرآن لمشهدين عن مصير الناس يوم القيامة، مشهد للكفار حيث يساقون إلى عذاب النار، ومشهد للمتقين وهم يساقون إلى نعيم الجنة فقال:

٧١ ـ ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

الزمر: جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض، واحدها زمرة، قال ابن كثير يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار، قال: وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا﴾[1]، أي يدفعون دفعاً، هذا وهم عطاش ظماء، وهم في تلك الحال صم وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه ﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً ليدخلوها، كأبواب السجون المغلقة دائماً، حتى يأتي أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها أغلقت عليهم، ﴿وقال لهم خزنتها﴾ أي قالت لهم الملائكة القائمون بأمور جهنم، الموكلون بتعذيب الكفار فيها ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ وهذا القول من خزنة جهنم هو على سبيل التوبيخ والتقريع، فيجيب الكفار ﴿قالوا: بلى﴾ و ﴿كلمة العذاب﴾ هي قوله تعالى: في الأعراف ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾.

وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف يقال لهم زيادة في توبيخهم وإيلامهم:

٧٢ ـ ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

أي بئس المثوى لهم: أي المسكن، جهنم، وبعد هذا يأتي مشهد النعيم الذي خص الله به المتقين فيقول:

٧٣ ـ ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ

(١) سورة الطور، الآية: ١٣.

خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾.

المتقون يساقون إلى الجنة برفق جماعة إثر جماعة ﴿وفتحت أبوابها﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها كما يفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه، وفي ذلك من الاحترام والإكرام له ما فيه، وفي زيادة الواو هنا عن الآية (٧١) فيه زيادة للمعنى وهي واو الحال، فالمعنى: جاؤوها وقد فتحت أبوابها، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أهل الجنة جاؤوها وقد فتحت أبوابها ليستعجلوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتونها وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها.

الثاني: أن الوقوف على الأبواب المغلقة نوع ذل، فصين أهل الجنة عنه، وجعل في حق أهل النار.

الثالث: أنه لو وجد أهل الجنة بابها مغلقاً لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أهلها، لأن الكريم يعجل المثوبة، ويؤخر العقوبة، وقد قال عز وجل: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً﴾[1].

وقيل إن الواو زيدت، لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة كما في قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾[2].

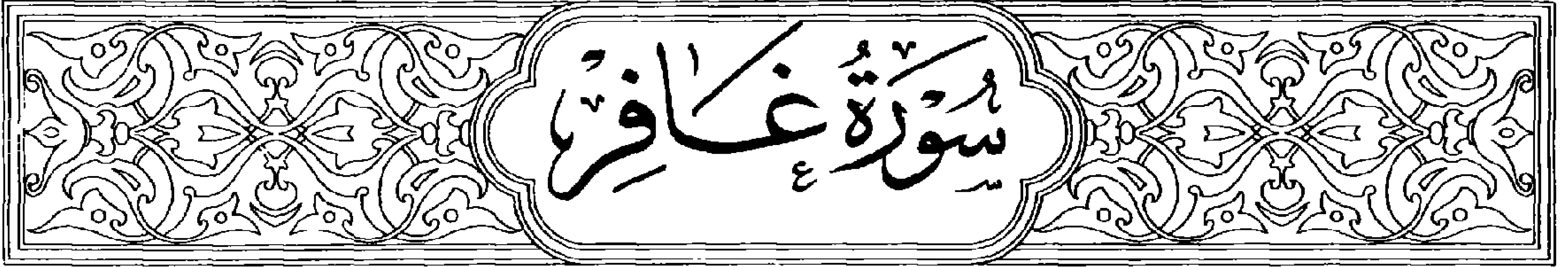
٧٤ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

وعد الله لهم بالجنة، والأرض أرض الجنة، نتخذ فيها من المنازل ما نشاء، فنعم ثواب المطيعين في الدنيا، الجنة:

٧٥ ـ ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

حافّين من حول العرش: أي محدقين به، حف القوم بفلان: إذا أحدقوا به، ودخلت ﴿من﴾ للتأكيد كقولك ما جاءني من أحد، ويسبحون بحمد ربهم، أي حال كونهم مسبحين لله، وقال ابن جرير: التسبيح ها هنا بمعنى الصلاة، ﴿وقضي بينهم﴾ أي بين الخلائق بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين هذا قول أهل الجنة شكراً لله تعالى على إنعامه، والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٢.



سميت هذه السورة ﴿سورة غافر﴾ لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الذي هو من صفاته واسم من الأسماء الحسنى في مطلع هذه السورة ﴿غافر الذنب﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما ختم سبحانه سورة الزمر بذكر الملائكة والجنة والنار افتتح هذه السورة بمثل ذلك فقال:

١ ـ ﴿ حمٓ ﴾.

سبق تفسيرها.

القــراءة

﴿حمٓ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بكسر الحاء ﴿حِمٓ﴾.

٢ ـ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

أي هذا تنزيل الكتاب، والعزيز الغالب القاهر، والعليم: البالغ العلم بخلقه ما يقولونه ويفعلونه.

ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد فقال:

٣ ـ ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿غافر الذنب﴾: أي ساتره من الستر والتغطية، هو وما بعده صفات للاسم الجليل وكلها للترغيب إلّا الثالثة فإنها للترهيب، ومجموعها للحث على ما هو المقصود من إنزال الكتاب، والتوب جمع توبة، والطول الفضل والإنعام، لا معبود سواه وله المرجع يوم القيامة.

ثم بيّن أحوال من لا يقبل هذه التقريرات ولا يخضع لها فقال:

٤ ـ ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾.

أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلّا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل، والقصد إلى دحض الحق، فأما الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس، وردهم بالجدال إلى الحق، فهو أعظم ما يتقرّب به إلى الله ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن﴾(١)، ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ أي تصرفهم فيها

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

بالتجارات الرابحة، وسلامتهم مع كفرهم، والتقلب: الخروج من أرض إلى أخرى، لا يغررك ذلك فإنه استدراج وعما قريب يؤخذون بكفرهم وإنْ أمهلوا فإنّهم لا يهملون.

ويتابع القرآن فيذكر ما حلّ بالأمم المكذبة لأنبيائها، من هلاك وعذاب ليتعظ بذلك كفار مكة وغيرهم.

٥ - ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾.

أي وكذبت الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل من بعد نوح، كعاد وثمود، وهمّت كل أمة منهم ليأخذوا رسولهم المرسل إليهم من الله ليقتلوه، أو ليعذّبوه، أو ليحبسوه، وخاصمت كل أمة أي كل جماعة منهم رسولها ليدحضوا به الحق أي ليزيلوا بذلك الحق بإيراد الشبهات والأكاذيب ﴿فأخذتهم﴾ أي فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل بإنزال العذاب بهم ثم هلاكهم جزاء ما قاموا به من اضطهاد الرسل ﴿فكيف كان عقاب﴾ أي عقابي الذي عاقبتهم به، إنّه عقاب يتعظ به.

٦ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾.

أي وكما وجب وثبت حكم الله تعالى بإهلاك الأمم الماضية المكذبة لرسل الله، حقت على الذين كفروا بك يا محمد، وجادلوك بالباطل، وتحزّبوا عليك ﴿أنّهم أصحاب النار﴾ أي وتلك الكلمة هي أنّهم مستحقون للنار قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿لأملأن جهنّم منكم أجمعين﴾[1].

القـــراءة

﴿حقت كلمة ربك﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿حقّت كلمات ربك﴾.

استغفار الملائكة لبني آدم

وحين بين أن الكفار بالغوا في إظهار عداوة المؤمنين حكى أنّ حملة العرش يبالغون في محبتهم ونصرتهم فقال:

٧ - ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

الذين يحملون العرش ويحفون حوله هم الملائكة، أما عرش الله فهو من الأمور الغيبية التي نؤمن بها ولا ندري كيفها، وكذلك حمل الملائكة للعرش، والتسبيح: عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي له، والحمد: هو الثناء على الله والاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق واجب الشكر، والملائكة يسألون الله عز وجل

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨.

المغفرة للتائبين ﴿ربنا﴾ أي يقولون في تسبيحهم ودعائهم واستغفارهم، ثم يسألون الله تعالى أن يغفر للمؤمنين أيضاً، أن يخص المؤمنين بنعيم الآخرة، وفي هذا بشرى للمؤمنين بما ينتظرهم، من ثواب الله لأن الملائكة لا ندعوا إلّا بعد الإذن واليقين من استجابة الله.

وحين طلبوا لأجلهم إسقاط العذاب ضمناً وصريحاً طلبوا إيصال الثواب إليهم بقوله:

٨ ـ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي وأدخل معهم من صلح من هؤلاء بأن كان مؤمناً موحداً قد عمل الصالحات، تكميلاً لنعمتك عليهم تماماً لسرورهم.

ثم قالوا:

٩ ـ ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

أي احفظهم في الدنيا وأبعد الشيطان عنهم المسبب للسيئات لهم وأحسن عاقبتهم، ولا تؤاخذهم على ما اقترفوا من ذنوب، وقيل أبعد العذاب عنهم، ﴿ومن تق السيئات﴾ أي تبعدها عنه يوم القيامة بالمغفرة فقد رحمته من عذابك وأدخلته جنتك، وذلك هو الظفر الذي لا ظفر مثله.

ثم تعود بنا الآيات إلى الحديث عن الكفار، فتذكر اعترافهم بذنوبهم أمام ربهم في الآخرة.

١٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾.

لما رأى الكفار أعمالهم وأدخلوا النار مقتوا أنفسهم لسوء فعلهم، فناداهم مناد: لمقت الله إياكم في الدنيا ﴿إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ أكبر من مقتكم لأنفسكم إذ عاينتم النار.

ثم أخبر عما يقولون في النار فقال:

١١ ـ ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾.

المراد بالإماتتين: أنهم كانوا نطفاً لا حياة لهم، في أصلاب آبائهم، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء في الدنيا، والمراد بالإحياءتين: أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ثم أحياهم عند البعث.

فاعترفوا بذنوبهم حيث لا ينفع الاعتراف، وندموا حيث لا ينفع الندم، ﴿فهل إلى خروج﴾ أي من النار إلى الدنيا لنعمل بالطاعة غير الذي كنا نعمل في دنيانا السابقة، وهنا يأتي الجواب الإلهي حيث رمز سبحانه إلى عدم الخروج بقوله:

١٢ ـ ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ

أي ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنكم كنتم إذا دعي الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به وتركتم توحيده ﴿وإن يشرك به﴾ غيره من الأصنام أو ما شابهها ﴿تؤمنوا﴾ بالإشراك به وتجيبوا الداعي إليه، فالحكم وحده لله دون غيره، وهو الذي حكم عليكم، والعلي: المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته ولا صفاته.

ثم أراد أن يذكر طرفاً من دلائل وحدانيته وكماله فقال:

١٣ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

أي دلائل توحيده وعلامات قدرته بالآيات الكونية والعقلية، والرزق هنا هو المطر فإنه سبب الأرزاق، جمع سبحانه بين إظهار الآيات، وإنزال الأرزاق، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان، وبالأرزاق قوام الأبدان، وما يتعظ بتلك الآيات الباهرة إلاّ من ينيب أي من يرجع إلى طاعة الله.

ثم قال للمنيبين:

١٤ ـ ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

أي مخلصين له العبادة التي أمركم بها، وأما الكفار فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم.

الروح هي الوحي

١٥ ـ ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾.

أي لا أحد أعلى منه درجة لا في صفاته ولا في أسمائه، المستحق لأعلى درجات المدح والثناء وهو خالق العرش ومالكه ﴿يلقي الروح من أمره﴾ ينزل الوحي بأمره على من يشاء من رسله، وسمي الوحي روحاً، لأن الناس يحيون به من موت الكفر، كما تحيا الأبدان بالأرواح، ومعنى ﴿من أمره﴾ أي من شرائعه التي يوحي بها إلى أنبيائه ليمتثلوا بها، ويسيروا في حياتهم بموجبها، و ﴿يوم التلاق﴾ يوم القيامة حيث يلتقي فيه الأولون والآخرون للحساب والجزاء.

القــراءة

﴿يوم التلاق﴾ قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو جعفر بياء ﴿التلاقي﴾ في الحالين.

١٦ ـ ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.

أي ظاهرون من قبورهم لا يخفى على الله منهم شيء من أعمالهم، ولا يستترون منه بجبل ولا مقر، إذا حضر كل من في السماوات والأرض، يقول الرب تبارك وتعالى ﴿لمن الملك اليوم﴾ يعني يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فيجيب بنفسه فيقول ﴿لله الواحد القهّار﴾.

١٧ ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

تجزى كل نفس من إنسان أو حيوان أو جن أو شيطان بما كسبت في الدنيا، لأن يوم القيامة يختلف عن أيام الدنيا، فالظلم بين الناس والمخلوقات قد انتهى واليوم حساب سريع، لأن الله أسرع الحاسبين.

ثم وصف يوم القيامة بأنواع أخر من الصفات الهائلة فقال:

١٨ ـ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها من أزف دنا وقرب، ثم جعلت اسماً للقيامة كما قال الله تعالى ﴿أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة﴾[1] وكما قال سبحانه ﴿اقترب للناس حسابهم﴾[2] ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود، من شدة الخوف، وكأنها متشبثة بحلوقهم، والحناجر جمع حنجور أو حنجرة، وهي الحلقوم، ﴿كاظمين﴾ ممسكين عليها لا تخرج مع أنفاسهم، كما يمسك صاحب القربة فمها لئلا يهراق الماء، وهو كناية عن شدة الفزع، وفرط الغم، ونصب على الحال والمعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم ﴿ما للظالمين من حميم﴾ قريب مشفق ينفعهم ولا شفيع لهم فتقبل شفاعته.

١٩ ـ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾.

أي أن الله سبحانه يعلم النظرة الخائنة، كاستراق النظر إلى المحرمات وما نهى الله عنه، كما يعلم سبحانه ما تكنه الصدور وما تخفيه من الخواطر والأسرار.

وفي الآية يخبر عز وجل عن تمام علمه المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيتقوه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنّه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر وإن بدت الحواس طبيعية.

٢٠ ـ ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

أي يحكم به فيجزي بالحسنة والسيئة وغيره من الآلهة من الأصنام والمعبودات لا يحكمون بشيء، ولا يجازون به، وقد نبّه الله عز وجل بهذا على أنه حي، لأنه إنما يأمر ويقضي من كان حياً، وأيد ذلك بذكر السمع والبصر، لأنّهما إنما يثبتان لحي.

القـــراءة

﴿يدعون﴾ قرأ نافع، وابن عامر،: بالتاء ﴿تدعون﴾ على معنى: قل لهم.

٢١ ـ ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

---

(١) سورة، النجم الآية: ٥٨.

(٢) أول سورة الأنبياء.

أرشدهم الله سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم، فإنّ الذين مضوا من الكفار ﴿كانوا هم أشدّ منهم قوة﴾ في الأرض بما عمروا فيها من الحصون والقصور ﴿فأخذهم الله﴾ بسبب ذنوبهم وما كان لهم من الله من دافع.

القـــراءة

﴿أشد منهم﴾ قرأ ابن عامر: بالكاف ﴿أشد منكم﴾ وهي كذلك في مصاحف أهل الشام.

٢٢ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي ذلك العذاب سببه أنه كانت تأتيهم رسل الله بالبينات الواضحة على وحدانية الله ووجوب طاعته، فأنكروا تلك الوحدانية واستمروا على عصيانهم ﴿فأخذهم الله﴾ أي أهلكهم الله بسبب خطاياهم.

وبعد الكلام عن الأمم السابقة التي أصابها الهلاك بسبب ذنوبها يقدم القرآن مثالاً على موقف الطغاة من دعاة الحق، وذلك بعرض جانب من قصة موسى وفرعون لأن فيها تسلية للنبي ﷺ وزيادة توبيخ وتذكير للكفار.

موسى وفرعون

٢٣ - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٢٤ - ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

الآيات هي التسع التي تقدم ذكرها في سورة النمل:[١] وكذلك في سورتي الأعراف[٢] والإسراء [٣] وفرعون هو ملك مصر في ذلك الوقت وهو لقب لكل ملك، وهامان وزيره الأول، وقارون هو صاحب الأموال الوفيرة والكنوز الثمينة، وقد ذكروا مع بعض لأن هامان كان الوزير المشجع للملك على الكفر والضلال، والتسلط على الشعب، وقارون كان صاحب الأموال المستغل للشعب الذي لا يعرف حق الله وحق عباده.

٢٥ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

لقد قالوا عن موسى إنّه ساحر كذّاب لما عجزوا عن معارضته ومجابهته بما أتى به من المعجزات والآيات الدالة على أنّه رسول من عند الله، ولم يكفهم ذلك بل قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشؤوا على دين الله فيقوى بهم ﴿واستحيوا نساءهم﴾ اتركوا نساءهم أحياء للخدمة.

---

(١) الآية: ١٢.
(٢) الآية: ١٣٣.
(٣) الآية: ١٠١.

٢٦ ـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.

وإنما قال فرعون هذا، لأنه كان في خاصّة فرعون من يمنعه من قتله خوفاً على البلاد ﴿وليدع ربه﴾ الذي يزعم أنه أرسله فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك، فإنه لا رب له حقيقة، بل أنا ربكم الأعلى ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾ أي الذي أنتم عليه من عبادتكم إياي ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ أي يوقع بين الناس الخلاف والفتنة.

القــــراءة

﴿أو أن يظهر﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالألف قبل الواو، وقرأ الباقون بغير ألف ﴿وأن يظهر﴾ والمعنى: على من قرأ بغير ألف قبل الواو ﴿وأن﴾ أخاف إبطال دينكم والفساد معه، أي: خاف الأمرين جميعاً. ﴿يُظهر﴾ قرأ نافع وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، بضم الياء مع نصب الفساد، أي يظهر موسى في الأرض الفساد، وقرأ الباقون بنصب الياء ﴿يَظهر﴾، ورفع الفساد، أي إذا بدل الدين يظهر الفساد بالتبديل.

فلما قال فرعون هذا استعاذ موسى بربه فقال:

٢٧ ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

استعاذ بالله عز وجل من متعظم عن الإيمان بالله، غير مؤمن بالبعث والنشور، أي لجأت إليه واستجرت به من شر كل مستكبر عن الإذعان للحق، يقال: عاذ به واستعاذ لجأ إليه واستجار به. فقصد فرعون قتل موسى وهنا تنتقل بنا الآيات إلى الحديث عن قصة مؤمن آل فرعون إذ قال:

٢٨ ـ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾.

الرجل المؤمن من خاصة فرعون، وكان قد آمن بدعوة موسى عليه السلام وكتم إيمانه، استدرج قومه ينصحهم بأسلوب حكيم فقال ﴿أتقتلون رجلاً﴾ تنكير ﴿رجلاً﴾ ليوهم قومه أنه لا يعرف موسى، ولم يقل أتقتلون نبي الله، والاستفهام للإنكار و﴿أن يقول﴾ أي لأن يقول ﴿ربي الله وقد جاءكم بالبينات﴾ أي والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات، والدلالات الظاهرات على نبوته وصحة رسالته، ثم تلطف بهم في الدفع عنه فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ أي لا يضركم ذلك ﴿وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ من العذاب.

قال الزجاج: هذا باب من النظر يذهب فيه المناظر إلى إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس في هذا نفي إصابة الكل، ومثله قول الشاعر القطامي:

«قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل»

وإنما ذكر البعض ليوجب الكل، لأن البعض من الكل، ولكن القائل إذا قال: أقلّ ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة، وأقلّ ما يكون للمستعجل الزلل، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعه، فكأن المؤمن قال لهم: أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وفي بعض ذلك هلاككم، ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن، أي لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات، ولا أيده بالمعجزات، ولو كان كذاباً خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله.

ويتابع هذا المؤمن من آل فرعون نصحه لقومه ولكنه يجابه بمعارضة فرعون له فيقول:

٢٩ - ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ليشكروا الله ولا يتمادوا في كفرهم، والظهور على الناس الغلبة والاستعلاء في أرض مصر ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ فمن يدفع عنا عذابه إن حلّ بنا.

فقال فرعون عند ذلك: ما أشير عليكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلّا ما أراه مناسباً، وهو قتل موسى ﴿وما أهديكم﴾ أي: ما أدعوكم إلّا إلى طريق الهدى في تكذيب موسى والإيمان بي، وهذا يدل على أنه انقطع عن جواب المؤمن.

ثم يحذر هذا المؤمن قومه من عذاب الله في الدنيا والآخرة فيقول:

٣٠ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

أي مثل يوم تحزّب الأحزاب، والحزب الطائفة من الناس التي تجتمع على رأي واحد، والأحزاب ها هنا هم الطوائف التي اجتمعت على محاربة الأنبياء، والمعنى: أخاف أن تقيموا على كفركم فينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بالأمم المكذبة رسلهم، وقد ذكر القرآن بعض هذه الطوائف بقوله:

٣١ - ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

أي مثل حالهم في العذاب أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب.

وحين خوّفهم عذاب الدنيا خوّفهم عذاب الآخرة أيضاً فقال:

٣٢ - ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

يوم التناد: هو يوم القيامة فيه ينادي الناس بعضهم بعضاً من جرّاء ما يرون من أهوال ذلك اليوم كما بيّنا في سورة الأعراف[1].

---

(١) الآية: ٤٤ - ٥٠.

٣٣ ـ ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿تولون مدبرين﴾ أي منصرفين عن الموقف إلى النار، وليس لكم من الله مانع يمنعكم من عذابه ﴿ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ هذا تهديد للكفار ليعلموا أن الله قادر على أن يضلّهم بغير إرادتهم ولا يستطيع أحد أن يهديهم، ولكن الله سبحانه ترك لهم حرية الاختيار ولم يجبرهم على الضلال، وإنما طلب منهم الاهتداء وسوف يجازيهم على اختيارهم بإرادتهم.

٣٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ .

ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل موسى بالبينات، وهي الدلالات على التوحيد، فبقيتم مرتابين فيما أتاكم به يوسف، حتى إذا توفّاه الله ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ أي: أنكم أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدد إيجاب الحجة عليكم ﴿كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يتركه الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه، لأن ذلك هو اختياره وإن مرده للنار.

٣٥ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ قال الزجاج: هذا تفسير المسرف المرتاب، والمعنى: هم الذين يجادلون في آيات الله، يجادلون في إبطالها، والتكذيب بها بغير سلطان، أي بغير حجة أتتهم من الله ﴿كبر مقتا﴾ أي كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا، والمعنى: يمقتهم الله ويمقتهم المؤمنون بذلك الجدال، والباقي سبق تفسيره في السور السابقة[1].

القــــراءة

﴿على كل قلب﴾ قرأ أبو عمرو بالتنوين ﴿على كل قلب﴾ والمعنى: يطبع على جملة القلب من المتكبر.

ثم أخبر الله سبحانه عن بناء فرعون ليطلع على السماء:

٣٦ ـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ .

فلما وعظ المؤمن فرعون وزجره عن قتل موسى، قال فرعون لوزيره هامان، ابن قصراً مشيداً عالياً، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، طلب ذلك من وزيره وهو على يقين من عجزه، ولكنه أراد أن يموّه على عقول قومه، ثم بين الغاية التي يقصدها بقوله ﴿لعلّي أبلغ الأسباب﴾ وكأن ذلك أبهم على السامع أسباب ماذا؟ فقال:

---

(١) راجع سورة الروم، الآية: ٥٩.

٣٧ ـ ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾.

أي أصعد إلى الصرح فأصل إلى السماء، فإذا وصلت إليها بحثت عن الإله الذي يدعي موسى أنه هناك ﴿فأطلع إلى إله موسى﴾ أي فأنظر إليه، وكان موسى أخبره أن الله في السماء ﴿وإني لأظنّه كاذباً﴾ في إثبات إله غيري، والظن هنا لليقين كما في سورة القصص، ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ والواضح من أمره ببناء الصرح ورجائه الاطلاع على إله موسى، من ضروب التهكم والسخرية بموسى عليه السلام أمام القوم ﴿وكذلك﴾ أي ومثل ما وصفنا ﴿زين لفرعون سوء عمله وصُدّ عن السبيل﴾ زين له الشيطان عمله من الشرك والتكذيب فتمادى في الغي واستمر على الطغيان وصد عن سبيل الرشاد ﴿وما كيد فرعون إلاّ في تباب﴾ كيده هو تدبيره الذي دبّره ليصرف الناس عن الإيمان بموسى عليه السلام، والتباب: الخسار والهلاك تبت يداه: خسرتا، وتب الشيء قطعه.

القــــراءة

﴿صُدّ﴾ قرأ عاصم، وحمزة والكسائي بضم الصاد، والباقون بفتحها ﴿صَد﴾ أي فرعون، ويتابع مؤمن آل فرعون النصح لقومه فيقول:

٣٨ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

ثم استأنف مفصلاً قائلاً:

٣٩ ـ ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾.

سبيل الرشاد: طريق الهدى الموصل للحق وهو طريق الجنة، لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ثم زهّدهم في الدنيا التي آثروها على الآخرة وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام، فقال: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ متاع يتمتع بها أياما قليلة ثم تنقطع لأنها زائلة فانية، عمر الإنسان فيها محدود، وعمله محسوب ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ أي الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، بل إما نعيم، وإما جحيم.

ثم بيّن أنّه كيف تحصل المجازاة في الآخرة فقال:

٤٠ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

القــــراءة

﴿يدخلون﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بضم الياء: ﴿يدُخلون﴾.

أي من عمل بمعصية في هذه الدنيا فلا يجزيه الله في الآخرة إلاّ سيئة مثلها، وذلك بأن يعاقبه عليها ﴿ومن عمل صالحاً﴾ بطاعة الله في الدنيا وهو مصدق بوجود الله ووحدانيته فهؤلاء يدخلون في الآخرة الجنة التي هي دار النعيم و﴿بغير حساب﴾ يصب عليهم الرزق صباً بغير تقتير ولا حساب ولا تبعة عليهم فيما يأكلون في الجنة، وذلك أن رزق الجنة رزق لا انقضاء له ولا نفاد، وأخيراً يختم هذا المؤمن نصحه بصراحة وجرأة مظهراً إيمانه فيقول:

٤١ ـ ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

كرر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله، وصرح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم، والمعنى: أخبروني عنكم كيف هذه الحال أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة ﴿وتدعونني إلى النار﴾ بما تريدونه مني من الشرك ثم فسّر الدعوتين فقال:

٤٢ ـ ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾.

تدعونني للكفر بوحدانية الله وإشراك آلهة معه في العبادة، ليس لي بها علم بربوبيتها لأنّها آلهة من تسميات البشر وأوهامهم، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد القوي الغالب، الذي هو في نفس الوقت غفار لذنوب العباد إذا تابوا عنها.

٤٣ ـ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾.

أي ليس الأمر كما تزعمون، بل حق وصدق ما أذكره لكم أن ليس لآلهتكم دعوة أصلاً، فليست آلهة حقاً ﴿أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أي حق ووجب بطلان دعوة كل من يدعي من دون الله، فإن كل من يرفع إليه الدعاء، من الأصنام والموتى، لا يقدر أن يستجيب لداعيه، بأن يصنع له شيئاً مما يطلبه، أو ينفع داعيه بشيء من وجوه النفع ﴿والمسرفين﴾ في الآية يدخل فيه المشركون، سفاكو الدماء، والمستكثرون من المعاصي كلّهم أصحاب النار يعذبون بنارها يوم القيامة.

٤٤ ـ ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾.

قال ابن جرير الطبري: يقول الله تعالى مخبراً عن قول المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه: فستذكرون أيها القوم ـ إذا عاينتم عقاب الله قد حل بكم، ولقيتم ما لقيتموه ـ صدق ما أقول، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار، ثم قال: وقوله ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ يقول وأسلم أمري إلى الله وأجعله إليه وأتوكّل عليه، فإنه الكافي من توكل عليه.

ولما تمم هذا المؤمن نصحه لقومه، وأظهر إيمانه خرج عنهم، فطلبوه فلم يقدروا عليه، ونجا مع موسى لما عبر البحر فذلك قوله تعالى:

٤٥ ـ ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾.

وقاه الله ما أرادوا به من المكر السيىء وما أرادوا به من الشر، ﴿وحاق بآل فرعون﴾ أي ونزل عليهم سوء العذاب، وقد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق، وسيعذبون في الآخرة بالنار.

الأرواح في البرزخ وعذاب القبر

٤٦ ـ ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

ذهب المفسرون: إلى أن هذا العرض هو في البرزخ، أي بعد موتهم وقبل مجيء القيامة، وأن في الآية دلالة على عذاب القبر.

أقول: إن الآية مكية، ومفادها عرض أرواح آل فرعون على النار غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، أما عذاب القبر وفتنته بالنسبة لأمة محمد ﷺ، فقد ثبتت بأدلة أخرى تكاد تصل إلى حد التواتر، واستقرت في أذهان الناس كأمر مسلم به منذ الوحي للنبي ﷺ إلى يومنا هذا.

﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا﴾ أي يوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وأتباعه أشد العذاب في جهنم.

القــــراءة

﴿أَدْخِلوا﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو بكر وأبان عن عاصم بضم الهمزة وضم الخاء ﴿أُدْخُلوا﴾ على معنى الأمر لهم بالدخول، وقرأ الباقون بالقطع مع كسر الخاء على جهة الأمر للملائكة بإدخالهم.

ولما انجر الكلام إلى شرح أحوال أهل النار عقّبه بذكر المناظرات التي تجري فيها بين الرؤساء والأتباع فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾.

اذكر لهم يا محمد حين يختصم الرؤساء والأتباع وهم في نار جهنم، فيقول الأتباع للرؤساء إنا كنا لكم تبعاً، وكنتم قادتنا ورؤساءنا، وقد صدقناكم فيما تقولونه لنا، وبسبب اتباعنا لكم دخلنا النار فهل تدفعون عنا قسماً من العذاب، فيجيب هؤلاء الكبار:

٤٨ ـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾.

أي إنّا نحن وأنتم جميعاً في جهنم فكيف نغني عنكم، والله سبحانه قد قضى بين عباده، فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم تبين الآيات ما يقاسي الكفار من شدة العذاب في النار يوم القيامة.

٤٩ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

يستغيث الكفار في جهنم كبيرهم وضعيفهم قائلين ﴿ادعوا ربكم﴾ للملائكة القائمين عليها بتعذيب أهل النار، طلبوا من الملائكة أن تشفع لهم لدى الله تعالى لتخفيف يسير، فتجيبهم الملائكة:

٥٠ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾.

الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي ألم تجئكم في الدنيا رسل الله بالبينات بالحجج والبراهين والآيات الواضحات ﴿قالوا بلى﴾ أي أتونا بها فكذّبناهم، ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج فلما اعترفوا قالت لهم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ﴿فادعوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنا لا ندعو لمن كفر بالله وكذب رسله، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً، وأن الطلب منهم أن يدعوا لأنفسهم من باب التهكم عليهم، فقالوا ﴿وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال﴾ أي في ضياع وبطلان فلن يستجاب، بل يقال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون.

ثم يأتي الوعد من الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الدنيا والعاقبة الحسنة في الآخرة:

٥١ ـ ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾.

أي نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، قال ابن الجوزي في زاد المسير وفصل الخطاب أن نصرهم حاصل لا بد منه، فتارة يكون بإعلاء أمرهم كما أعطي داود وسليمان عليهما السلام من الملك ما قهروا به كل كافر، وأظهر محمداً ﷺ على مكذبيه، وتارة يكون بالانتقام من مكذبيهم بعد وفاة الرسل، كتسليط بختنصر على قتلة يحيى وزكريا، وأما نصرهم يوم يقوم الأشهاد فإن الله منجيهم من العذاب، وواحد الأشهاد شاهد، كما واحد الأصحاب صاحب ويوم الأشهاد هو يوم القيامة.

ثم بيّن أن يوم القيامة لا اعتذار فيه لأهل الظلم والغواية فقال:

٥٢ ـ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾.

أي لا يقبل منهم إنْ اعتذروا لأن معذرتهم باطلة ﴿ولهم اللعنة﴾ أي البعد من الرحمة و ﴿سوء الدار﴾ النار.

القــــراءة

﴿ينفع﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بالتاء تنفع، والباقون بالياء.

وبعد أن بين الله أنه ينصر رسله في الدنيا، طمأن نبيه محمداً ﷺ بذكر حال موسى الذي نصره الله على فرعون فقال:

٥٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي آتيناه التوراة والنبوة، قال مقاتل: الهدى من الضلالة: و ﴿الكتاب﴾ التوراة بقيت بعد موسى فيهم

وتوارثوها خلفاً عن سلف، وحرّفوها وغيّروا وبدّلوا فيها كثيراً.

٥٤ ـ ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾.

أي هادياً ومذكراً لأهل العقول السليمة، ثم خاطب الله نبيه محمداً ﷺ فقال:

٥٥ ـ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾.

أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر من قبلك الرسل ﴿إنَّ وعد الله حق﴾ أي: وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك، ﴿واستغفر لذنبك﴾ وقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، أقول: استغفار المعصومين المغفور لهم، شكرهم الله عز وجل بدليل قوله تعالى: ﴿وسبّح بحمد ربك﴾ أي نزّه ربك عن كل ما لا يليق به، من الصفات والأفعال مقرناً ذلك بالشكر والثناء عليه ﴿بالعشي﴾ وقت زوال الشمس إلى الليل أو آخر النهار، ﴿والإبكار﴾ وقت طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس بمعنى أول النهار.

٥٦ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من الله سبحانه ﴿إنْ في صدورهم إلاّ كبر﴾ أي ما يحملهم على تكذيبك إلاّ ما في صدورهم من التكبر عليك، وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، لأن الله تعالى مذلّهم ﴿فاستعذ بالله﴾ من شرهم، ثم نبّه على قدرته بقوله:

٥٧ ـ ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي أعظم في النفوس وأجلّ في الصدور لعظم أجرامهما، واستقرارهما من غير عمد، وجريان الأفلاك بالكواكب، أي فكيف ينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه كما في قوله سبحانه:

﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾(١).

ثم نبّه على الفرق بين الجدال المستند على العناد والتقليد وبين الجدال المستند إلى الحجة والدليل قائلاً:

٥٨ ـ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

مثّل الله سبحانه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير، فالكافر لا يرى حجج الله ولا يفكر فيها، ولا يستدل

---

(١) سورة يسٓ، الآية: ٨١.

بآيات الله على توجيهه، فمثل الكافر كمثل الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، أما المؤمن فيرى بعينيه، ويدرك بقلبه حجج الله الدالة على وحدانيته وقدرته، فيتعظ ويتذكر ويسلك سبيل الله فهو بهذا بصير، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي وكما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المحسن والمسيء.

القـــراءة

﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿قليلاً ما يتذكرون﴾ بالياء.

الساعة

ثم صرّح بوجود القيامة قائلاً:

٥٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

الساعة هي يوم القيامة أي لا شك في مجيئها وحصولها، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالبعث بعد الموت، لقصور أفهامهم وضعف عقولهم عن إدراك الحجة، ومن الطبيعي أن الإنسان في ذلك اليوم لا ينفعه إلاّ طاعة الله وعبادته، ومن أشرف العبادات الدعاء والتضرع لله وحده، ولهذا أمر سبحانه به فقال:

دعاء الله

٦٠ ـ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

المراد بالدعاء: السؤال بجلب المنافع، ودفع الضر، والدعاء في نفسه عبادة، بل هو مخ العبادة، ﴿الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ أي عن دعائي، وداخرين صاغرين، وفي هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وترك دعاءه.

وإذا كان الدعاء عبادة، وجب أن يتوجه الإنسان إلى الله فيه بكل احترام وإجلال وهدوء ونظافة.

القـــراءة

﴿سيدخلون﴾ قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، وعباس[1] بن الفضل عن أبي عمرو بضم الياء ﴿سيُدخلون﴾ مبني للمجهول وقرأ الباقون بفتحها.

ثم ذكر نعمته على الخلائق بوجود الليل والنهار فقال:

٦١ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

---

(١) هو عباس بن الفضل الواقفي الأنصاري البصري ١٠٥ ـ ١٨٦ هـ قاضي الموصل، أستاذ حاذق، من أكابر أصحاب أبي عمرو بن العلاء في القراءة، لم يشتهر لأنه لم يجلس للإقراء.

ذكر الله سبحانه في هذه الآية وما بعدها ستة أدلة على قدرته تعالى على البعث، توجب الإقرار به وتوحيده في العبادة والمعنى: جعل لنا الليل لنهدأ ونستريح فيه من عناء العمل، كما جعل النهار مضيئاً لنعمل فيه، إنَّ الله لصاحب فضل عظيم على الناس، ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالإيمان به ويوحّدونه.

٦٢ ـ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

إنَّ الذي فعل هذه الأشياء هو الله ربكم الواحد خالق كل شيء لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادة الله وتعبدون غيره.

٦٣ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

أي مثل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله، المنكرون لتوحيده، أي يصرفون عن اتباع الصراط القويم.

٦٤ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي موضع قرار تستقرون عليها، وتستقر عليها بيوتكم، وفيها تحيون، وفيها تموتون.

٦٥ ـ ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

هو الحي الذي لا يموت الدائم الباقي، لا معبود بحق إلاّ هو سبحانه، فاعبدوه مخلصين له الطاعة قائلين: الحمد لله، لأنه المالك والمنعم فالحمد لله أولاً وآخراً.

٦٦ ـ ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

الذين من دون الله: هم الأصنام وأمثالها من الحجر والبشر، والبينات: الأدلة العقلية والنقلية، التي توجب التوحيد ﴿وأمرت أن أسلم لربِّ العالمين﴾ أستسلم بالانقياد والخضوع.

ثم يورد القرآن مظهراً من مظاهر قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وتدرجه في التكوين فقال:

٦٧ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

في الآية السابقة يبين الله لنا أن الكفار طلبوا من النبي محمد ﷺ أن يترك الدعوة إلى الإسلام، وأن يرجع إلى دين آبائه وأجداده، فأمره الله أن يؤكد لهم أن الله سبحانه نهاه أن يعبد الآلهة التي يعبدونها، بعد أن ثبت له

ثبوتاً قاطعاً أنها أصنام لا تضر ولا تنفع، وأمره ألا يخضع لأحد غيره، وفي هذه الآية يبين لهم أنه هو الذي خلق الناس أولاً من تراب، والمراد: آدم ثم تناسلوا، وخلقهم أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، وبعد أن تتم أطوار النمو في الرحم، يخرج الإنسان طفلاً، ينمو هذا الطفل ويتدرج حتى يتكامل خلقه، ويتناهى شبابه، ثم يكبر وتتقدم به السن، حتى يصير شيخاً هرماً، وبعد ذلك ينتهي أجله ويموت، وبعضهم ينتهي أجله قبل أن يستكمل أطوار الحياة فيموت قبل أن يهرم، فقد يموت جنيناً أو طفلاً أو شاباً، فهل يرجى بعد أن يتأمل الإنسان هذا كله، وهو متعلق به في أطوار حياته، أن يعقل ويعتبر ويؤمن؟.

وفي سورة الحج يقول الله: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يتوفّى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

وحيث انجر الكلام إلى ذكر الأجل وصف نفسه بأن الإحياء والإماتة منه فقال:

٦٨ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

من دلائل قدرة الله أن الإحياء والإماتة من الأعمال التي اختص بها، فإذا أراد الله شيئاً كان، ومجرد المشيئة يوجده سريعاً يقول له كن فيكون.

ثم عاد إلى ذمّ المجادلين وذكر وعيدهم قائلاً:

٦٩ ـ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾.

يجادلون في القرآن يقولون ليس من عند الله، وموقف هؤلاء الكفار المجادلين يدعو للاستغراب أفبعد كل الذي بينه الله لهم من الحجج الدالة على عظمة قدرته، والموجبة لوحدانيته، كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟ وكيف يعدلون عن الحق؟ وبأي وجه يظلون متمسكين بالباطل؟.

٧٠ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

وهؤلاء القوم يكذبون بما جاء به القرآن، وبما جاءت به الكتب السماوية، ويكذبون بما أرسل الله به رسله جميعاً وهو التوحيد، ثم هدّد الله أولئك الناس بأنهم سوف يعلمون وجه الحق يوم يجري عليهم العذاب فقال:

٧١ ـ ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾.

٧٢ ـ ﴿ فِى ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾.

ستوضع الأغلال والسلاسل في أعناقهم، ثم يسحبون بالسلاسل من قبل الملائكة في الحميم أي الماء الحار الذي بلغت حرارته درجة قصوى، ثم بعد ذلك يحرقون في النار.

ثم تأتي الآيات وفيها تبكيت للمشركين وتوبيخ لهم على إشراكهم بالله وتكبرهم في الأرض:

٧٣ ـ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ .

٧٤ ـ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

تقول لهم الملائكة تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿أين ما كنتم تشركون من دون الله﴾ أي أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ما لهم لا ينقذونكم مما أنتم فيه؟ ﴿قالوا ضلّوا عنا﴾ أي ذهبوا وفقدناهم فلا نراهم ولم نكن نعبد شيئاً، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، ﴿كذلك يضلّ الله الكافرين﴾ أي وكما عاقب الله أولئك الذين كذبوا بكتب الله ورسله، لاختيارهم الشر والمعاصي، كذلك يعاقب الله كل كافر به يوم القيامة مثلهم بسبب تنكّبهم عن الحق يفعل سبحانه بكل كافر فلا يرحمه ولا ينجيه من عذاب النار.

٧٥ ـ ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ .

أي ذلك العذاب سببه فرحكم بغير الله في الدنيا وبما كنتم تأتون من باطل، وترتكبون من خطايا الشرك وغيرها، مما لم يأذن به الله ﴿وبما كنتم تمرحون﴾ أي تبطرون وتأشرون، والمرح: البطر والخيلاء.

٧٦ ـ ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

أي يقال لهم هذا بعد ما يدخلونها، تبكيتاً لهم وتوبيخاً، وتيئيساً لهم من إمكانية تفادي العذاب أو الخلاص منه ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي فبئس مقامهم جهنم لتكبرهم عن الحق، من ثوى بالمكان: إذا أقام فيه.

وبعد هذا التهديد والوعيد للكافرين تأتي البشرى لمحمد ﷺ بالنصر على أعدائه فيقول الله:

العذاب في الدنيا

٧٧ ـ ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

أي اصبر يا محمد على مجادلة الكفار إياك بغير الحق، فإن الله وعدك أن يعاقبهم ويعذبهم، ووعده حق بالانتقام منهم كائن لا محالة، وقد يقع بعضه في الدنيا، وتراه بعينك مثل القتل والأسر، وهذا ما تحقق فعلاً يوم معركة بدر فذاك ما يستحقونه، والإ فإنه واقع كله في الآخرة حيث يرجعون إلى الله، ويحاسبهم ويعذبهم.

ثم سلّى نبيه محمداً ﷺ بحال الأنبياء السابقة ليقتدي بهم في الصبر والتماسك فقال:

٧٨ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

يخبر الله تعالى بأنه أرسل إلى الناس في الأزمان المختلفة رسلاً كثيرين، منهم من أنبأ النبي محمداً ﷺ عن أخبارهم، وهم خمسة وعشرون نبياً ﴿ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن

الله﴾ وفي هذا رد على الكفار حيث اقترحوا على الرسول ﷺ أن يأتيهم ببعض المعجزات، فإذا جاء أمر الله أي جاء الوقت المعين لعذابهم وحسابهم في الدنيا أو في الآخرة، قضي بينهم بالعدل، ينصر رسله والذين آمنوا معهم، ويجازي أصحاب الباطل.

ثم عاد إلى نوع آخر من دلائل التوحيد قائلاً:

٧٩ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

٨٠ ـ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾.

ثم وبخهم بقوله:

٨١ ـ ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾.

الأنعام هي الإبل والبقر والغنم، الثمانية الأزواج المذكورة في سورة الأنعام(١)، ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ تنجزوا رغبة في صدوركم وهي حمل أثقالكم من أمتعة وتجارة من بلد إلى بلد، وقد كانت الإبل قبل اختراع وسائل المواصلات الحديثة، الأداة الوحيدة للأسفار البعيدة عند العرب وغيرهم من الشعوب، ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ استفهام توبيخ والمعنى: أي آيات الله على كثرتها لا يمكنكم أن تنكروا واحدة منها، فهي من الظهور والوضوح بحيث لا يستطيع أن يجحدها جاحد.

ويتابع القرآن فيدعو المشركين المكذبين لرسالة محمد ﷺ، إلى النظر والاعتبار بما حلّ ببعض الأمم السابقة من الهلاك جزاء تكذيبهم لرسل الله.

٨٢ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

٨٣ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الزمان وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، وذلك لأنّهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم، وقد بدأ الآية الأولى بقوله ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بالاستفهام أي ألم يسر ويسافر هؤلاء المشركون في البلاد ويعتبروا ويقصوا على غيرهم ما حلّ بالأمم قبلهم.؟

٨٤ ـ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾.

---

(١) الآية: ١٤٣.

أي فلما عاينوا وقوع العذاب ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين﴾ أي وحّدوا الله عز وجل، وكفرنا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿آمنت﴾ فلم يقبل منه، لأن الله قد استجاب لنبيه موسى عليه السلام دعاءه عليه حين قال: ﴿واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾، وهكذا قال تعالى هاهنا:

٨٥ - ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

فلم ينفعهم هذا الإيمان عندما حلّ بهم عذاب الله لأنه إيمان ينبيء عن يأس واضطرار وقهر، لا إيمان استجابة طوعية، فإنه عند معاينة الحق لا يبقى للتكليف مجال، فالكل يؤمن حينئذ، وهكذا في الآخرة لا ينفع الإيمان لمن آمن عند قيام الساعة، ولم يكن آمن في الدنيا ﴿سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ والمعنى: أن الله سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها: أنّه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب.

ولقائل أن يتساءل عن قوم يونس في قوله تعالى ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

قال المفسرون إن قوم يونس لم يجروا على سنة أسلافهم، الذين لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، بل بادروا إلى الإيمان قبل نزول العذاب وحلوله بهم، حين رأوا أماراته، فقبل الله إيمانهم وكشف عنهم العذاب ومتعهم إلى ما بعد كشف العذاب عنهم، والسبب في ذلك أنهم فقدوا نبيهم الذي تركهم وهو مليم أي: مكتسب ما يلام عليه من مفارقة قومه.

سورة فصلت

تسمى سورة حم السجدة لما احتوته من سجدة التلاوة، وسميت فصلت كأبرز كلمة في السورة، كتسمية غيرها من السور مثل: الزمر، غافر، الزخرف، الدخان. .

والقول بأن السورة سميت فصلت لأن الله سبحانه فصل فيها الآيات، ووضح الدلائل، قول فيه قصور، فرغم ما اشتملت عليه السورة مما ذكر، لكن التفصيل وارد على الكتاب الذي هو القرآن ﴿كتاب فصلت آياته﴾ وليس التفصيل منصباً على هذه السورة فقط، وهذا ما سوف نبينه إن شاء الله عند تفسير الآيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القرآن وموقف المشركين منه

ختم الله سورة غافر بذكر المتكبرين لآيات الله وافتتح هذه السورة بمثل ذلك فقال:

١ ـ ﴿ حمٓ ﴾.

٢ ـ ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾.

أي هذا القرآن المؤلف من حروف الهجاء التي يتكلم بها العرب، ومنظوماً مما ينظمون به أقوالهم في شعرهم ونثرهم، مثل الحاء والميم، تنزيل منه تبارك وتعالى الرحمن الرحيم.

٣ ـ ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿فصلت آياته﴾ أي بينت ووضحت وشرحت، فتفصيل القرآن جاء لعدة معان، فالآيات المحكمات تفصيلها تقييد مطلقها، وتخصيص عامها، وبيان مجملها وهكذا، كما يقول سبحانه في سورة هود ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ أي فصلت بآيات أخرى محكمة من جنسها، أي بينت أحكام حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته، وجعلت معانيه تفهم بيسر وسهولة، وميزت آياته لفظاً ومعنى، ﴿قرآناً عربياً﴾ أي بلغة العرب ليكون لهم ذكراً ونعمة، ويكون حجة يوم القيامة، لهم أو عليهم، لأنّه جعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليهم.

قال تعالى: ﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم﴾[1] من هذا الباب

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

يأتي تفسير القرآن بالقرآن، وقد بينا كل ذلك في أول سورة آل عمران، وفي سورة هود.

٤ ـ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

نزل القرآن عربياً على العرب ليقرؤوه، ويفهموا ما فيه، ويقفوا على غاياته ومراميه، ويعرفوا تبشيره، ويتأثروا بإنذاره، يبشر المطيعين ربهم بما يسر لهم من الثواب، ويخوف الكافرين والعاصين ربهم بالعقاب الأليم في الآخرة ﴿فأعرض أكثرهم﴾ وفي بداية الدعوة عند نزول القرآن أعرض أكثر الذين جاءهم القرآن، ولم يسمعوه سماع متفهم يريد أن ينتفع به فكأنّهم لم يسمعوا شيئاً.

ثم أكد بيان إعراضهم بقوله:

٥ ـ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾.

﴿أكنة﴾: جمع كنان وهو الغشاء والغطاء، والوقر: الثقل، صمم في الأذن والمعنى: المشركون الذين أعرضوا عن محمد، ولم يستمعوا له، قالوا له: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ أي حاجز يمنعنا من الفهم، و ﴿من﴾ للتأكيد وهذه تمثيلات منهم لنبو قلوبهم عن إدراك الحق ومجّ أسماعهم له، وامتناع المواصلة بينهم وبين رسول الله ﷺ، ثم حكى عنهم ما قالوا على سبيل التهديد ﴿فاعمل إنّنا عاملون﴾ أي اعمل على دينك إنّنا عاملون على ديننا، والكافر والعاصي والظالم إذا تمادى في كفره وعصيانه وظلمه وعناده وآثر ما هو عليه من شر على الخير، أورثه الله ثمرة ما كان عليه.

ثم أمر رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم بقوله:

٦ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾.

أي إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى لا تفهموني، ولم أدعكم إلى ما يخالف العقل، وإنما أدعوكم إلى التوحيد ﴿فاستقيموا إليه﴾ توجهوا إليه بالطاعة واستغفروه من الشرك، والزموا الإخلاص في عبادته، ﴿وويل للمشركين﴾ هلاك وخزي لهم.

٧ ـ ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

أي يمنعونها ولا يخرجونها إلى الفقراء، بسبب كفرهم وجحدهم.

ثم ذكر جزاء المطيعين فقال:

٨ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

أي إن الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته، وعملوا بما أمرهم الله به من صالح الأعمال، ونهوا أنفسهم

عما حرّمه عليهم، لهم عند ربهم جزاء دائم غير منقطع، ولا ممنون به عليهم.

ثم بين سبحانه عظمة خلق هذا الكون الذي يستدعي الانقياد لله وحده بالطاعة والعبادة فقال:

خلق الأرض

٩ ـ ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

الاستفهام للاستنكار والتوبيخ لكفرهم، أي قل لهم كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين، أي فترتين من الزمان، كل واحدة ألف سنة من أيامنا، لأن الله سبحانه يقول: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[1]، والآية تنديد بالمشركين لتماديهم في الشرك مع ظهور الدلائل الموجبة للإيمان بوحدانيته تعالى وكمال قدرته، والأنداد هم الشركاء المساوون له في القدر في نظرهم.

١٠ ـ ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾.

أي جبالاً ثوابت من فوق الأرض، وذلك أن السلاسل الجبلية الممتدة على سطح الأرض، موزعة عليها توزيعاً يجعلها كالأعمدة التي يعتمد عليها، فهي متصلة متماسكة، على أطوال وأبعاد خاصة، وليست المحيطات الواسعة التي تفصل القارات بعضها عن بعض قاطعة هذا الاتصال، فإن أصول الجبال متصلة في باطن الأرض اتصالاً صخرياً قوياً يطوق الهيكل الأرضي، كما تطوق الأطواق الحديدية جسماً من الأجسام، فتجعله متماسكاً لا تنفصل أجزاؤه، وبفضل هذا الاتصال تقاوم الأرض جميع العوامل الخارجية أو الداخلية، التي تعمل على تمزيقها، أو اختلال توازنها، أو تبعثر أجزاء منها في الفضاء.

﴿وبارك فيها﴾ أي وكثر الخير في الأرض بأنواع النبات، وأنواع الحيوانات، وكثرة المياه، وغير ذلك من الفوائد التي لا تخفى ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها وما يصلح لمعاشهم من المنافع، وجعل في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار، من بلد إلى بلد، ﴿في أربعة أيام﴾:

أي في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين، أربعة أيام من حين ابتداء الخلق، أي خلق الله الأرض في يومين، وخلق الجبال وأقوات الأرض في يومين، فيصبح المجموع أربعة أيام ﴿سواء للسائلين﴾ أي خلقاً مستوياً كاملاً، ينتفع به الأحياء بنظام بديع، وفي ذلك جواب للذين يسألون عن خالق الكون والإنسان والحياة، أفلا يتدبّرون ويؤمنون بقدرة الله؟.

١١ ـ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾.

كانت الأرض والسماوات بما فيها المجموعة الشمسية وما علا ذلك وأحاط به من نجوم وكواكب وأغلفة في الأصل شيئاً واحداً، دخان أي غاز، وبقدرة الحكيم الخبير انفصلت الأرض، وهو بدء خلق الأرض عبر عنه

(١) سورة الحج، الآية: ٧.

القرآن في الآية السابقة في يومين والذي ذكره الله سبحانه في سورة الأنبياء بقوله ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي أنهما كانتا في الأصل ملتصقتين أي شيئاً واحداً من الماء الذي هو الغاز وهو الدخان.

ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾[٢]، وهذه السماء التي تتشكل من الغاز والدخان، قال المفسرون (إنه سبحانه لما خلق الماء أرسل عليه الريح فثار منه دخان فارتفع وسما، فسماه سماء)، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ الضمير في ﴿لها﴾ يعود على السماء، أي أمر سبحانه السماء والأرض أن تكونا مسخرتين لعباده بما خلق فيهما من المنافع لهم، وأن تأتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من نظام الجاذبية والتماسك والغلاف الجوي المحيط بالأرض فلم تمتنعا عليه، وأجابتا: أنهما طوع إرادة الله، ولما كان الخطاب والإجابة من لوازم العقلاء، أنزلهما الله منزلتهم، فعبر عن السماء والأرض بقوله ﴿أتينا طائعين﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾[٣] وإذا كانت الأرض والسماء ومن فيهما من غير العقلاء أجابتا بالطاعة لله سبحانه أفلا يجدر بالبشر الذين أرسل إليهم الأنبياء أن يأتوا لله طائعين خاضعين خاشعين شاكرين قبل أن يأتي بهم ويحشروا وهم كارهون.

١٢ - ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

أي خلقهن في يومين، فيكون مجموع مدة خلق السماوات والأرض ستة أيام، وهي يومان لخلق الأرض ويومان لخلق الجبال وأقوات الأرض، ويومان لخلق السماوات ﴿أوحى في كل سماء أمرها﴾ أي رتّب في كل سماء من السماوات السبع ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من العناصر التي لا يعلمها إلاّ هو، ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ أي وزين الله السماء الدنيا القربى إلى الأرض ﴿بمصابيح﴾ بالنجوم والكواكب التي تبدو في الليل تتلألأ كالمصابيح من انعكاس ضوء القمر والشمس عليها ﴿وحفظاً﴾ وحفظناها من استماع الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي هذا النظام البديع هو من ترتيب الله القادر على صنع كل شيء الذي يعلم كل شيء.

تهديدهم بمثل ما حل بعاد وثمود في الدنيا

١٣ - ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان فقل لهم يا محمد، فإني أنذرتكم أي أخاف عليكم حلول نقمة

---

(١) الآية: ٣٠.

(٢) الآية: ٢٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٤.

الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين، والصاعقة: المهلك من كل شيء، ومن رحمة الله بعباده ودعاء النبي محمد ﷺ، أن رفع الله عذاب الاستئصال الجماعي عن أمة محمد في الدنيا، والآية فيها تهديد وتخويف.

١٤ ـ ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿الرسل﴾: هود وصالح ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ فمن لم تبلغه الدعوة مباشرة من الرسل، بلغته عن طريق غير مباشر بواسطة من آمن بالرسل، والمعنى: أن الرسالة بلغت لهم خير تبليغ وأعمّه وأدقّه.

ثم فصّل حال كل فريق قائلاً:

١٥ ـ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

عاد من الشعوب العربية البائدة، نسبة إلى عاد من ولد سام بن نوح، كانت تسكن الأحقاف بين مسقط وحضرموت باليمن، وسبق الكلام عليها في تفسير سورة الأعراف، وقد أرسل الله إليهم رسوله هوداً عليه السلام فلم يستجيبوا لنداء الله بل أصرّوا على كفرهم، فالله يصفهم بأنهم استكبروا على ربهم وتجبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا مغترين بأنفسهم ﴿من أشدّ منا قوة﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب ﴿أو لم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة﴾.

ثم أخبر عن إهلاكهم فقال:

١٦ ـ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

الصرصر: الريح الشديدة البرودة التي لها صوت من شدتها، تحرق الزروع والأشجار كما تحرقها النار ﴿في أيام نحسات﴾ أي مشؤومات ذوات نحوس، وكانت سبع ليال وثمانية أيام حسوماً: أي تحسمهم وتفنيهم، وعذاب الخزي: هو الذل والهوان، بسبب ذلك الاستكبار.

القـــراءة

﴿نحسات﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، بإسكان الحاء ﴿نحْسات﴾.

ثمود

١٧ ـ ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

ثمود القبيلة من العرب وقد شرحنا معناها في تفسير سورة الأعراف الآية (٧٣) ﴿فهديناهم﴾ هذه هي هداية البيان، أي بينا لهم طريق الخير وطريق الشر، على لسان رسولنا إليهم، ولكنّهم فضلوا الضلالة على الهدى فأتتهم صاعقة أهلكتهم بعذاب مذل مهين.

ثم بيّن أحوال الذين آمنوا واتقوا المعاصي بقوله:

١٨ ـ ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾.

وهم صالح ومن معه من المؤمنين.

تهديدهم بعذاب يوم القيامة

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الكافرين في الآخرة وما يقاسونه من عذاب فيقول الله:

١٩ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

القـــراءة

﴿يحشر﴾ قرأ نافع ﴿نحشر﴾ بالنون و﴿أعداء﴾ بالنصب أعداء.

أي يساقون إليها بعنف، وأعداء الله كل من كذب رسله، واستكبر عن عبادته ﴿فهم يوزعون﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا.

٢٠ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

فإذا وصلوا إلى النار، وظنّوا أن لا شاهد يشهد عليهم، أنطق الله جلودهم وأسماعهم وأبصارهم وبينت ما سجلت عليهم من سيئات ارتكبوها في الدنيا.

ثم حكى الله عنهم أنّهم يسألون تلك الحواس سؤال توبيخ فيقول:

٢١ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر، فقال أحدهم: أترون الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخران: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإن لم نرفع لم يسمع، وقال الآخر: إنْ سمع منه شيئاً سمعه كله، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم. . .﴾ إلى قوله ﴿من الخاسرين﴾ ومعنى تستترون تستخفون.

٢٣ ـ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

والمعنى: أنكم حين ارتكبتم خطاياكم في الدنيا مستخفين في زعمكم، ما كنتم مستخفين ولا مستترين فإنكم إن لم تقع عليكم عين، فإن عين الله تنظر إليكم، ورقابته قائمة عليكم، وتمثلها جلودكم وأبصاركم وأسماعكم، وما كنتم تظنون أنها شاهدة عليكم يوم القيامة، وظننتم كذلك أن ما تفعلونه في سر من الناس، هو كذلك في سر من الله، ولكن الله ليس عليه سر،: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ وهذا الظن الذي ظننتموه بالله هو الذي أهلككم، وأدّى بكم إلى جهنم، فأصبحتم من الخاسرين.

روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموت أحدكم إلّا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» أي يؤمن بعدله ويرضى بقضائه.

٢٤ ـ ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾.

أي إن يصبر الكفار على النار فهي مسكنهم، وإن طلبوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى جزعاً مما هم فيه ﴿فما هم من المعتبين﴾ أي المجابين إليها.

لما ذكر وعيد الكفار أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال:

٢٥ ـ ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾.

أي هَيَّأنا وسببنا لهم من حيث لم يحتسبوا قرناء السوء أصحاباً يلازمونهم من الشياطين من الجن والإنس يضلّونهم بالإغواء، والقرناء جمع قرين، وهو النظير.

﴿فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ حسّنوا وجمّلوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا، وزيّنوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، من التكذيب بالبعث وأنه لا حساب ولا عقاب ﴿وحقّ عليهم القول﴾ وجب وتقرر عليهم العذاب، مع أمم قد مضت قبلهم بعضهم من الجن وبعضهم من الإنس.

الكفار وأعمالهم وجزاؤهم

٢٦ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾.

قال الكفار لأتباعهم: حينما ترون قارئاً يقرأ القرآن لا تستمعوا له، ولا تلقوا آذانكم إليه، ولا تصغوا إلى قارئه، والهوا عنه، بل شوشوا عليه حتى لا يسمعه أحد، وذلك بالصفير والتصفيق، وإحداث الجلبة والضوضاء، حتى لا يفهم أحد ما يقول، ﴿لعلّكم تغلبون﴾ لكي تغلبوهم فيسكتوا.

وحين حكى حيلتهم ذكر وعيدهم بقوله:

٢٧ ـ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾.

يؤكد الله سبحانه أنه سيعذّب الكفار عذاباً شديداً يوم القيامة، والذوق إنما يكون في الشيء القليل في اللسان لمعرفة طعم الزاد، فكيف يكون الحال إذا كان المذاق عذاباً شديداً ﴿ولنجزينّهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي يجازيهم ويحاسبهم على شركهم ومعاصيهم.

وهذا العذاب الشديد هو النار التي سيخلدون فيها إلى ما شاء الله، جزاء جحودهم وإنكارهم آيات الله.

٢٩ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾.

القـــراءة

﴿أرنا﴾ قرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، ﴿أرْنا﴾ بسكون الراء.

طلبوا من الله سبحانه أن يريهم من أضلهم من فريق الجن والإنس من الشياطين الذين كانوا يسوّلون لهم الكفر ويزينون لهم المعاصي، وذلك لنجعلهما تحت أقدامنا لنتشفى منهم، وأسفل منا بالعذاب إذلالاً ومهانة، أو ليكونا أشد عذاباً منا.

الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا

ثم ذكر الله المؤمنين فقال:

٣٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾.

شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدارين، بعد بيان سوء أحوال الكافرين فيهما ﴿استقاموا﴾ أي ثبتوا على الاستقامة في أمر الدين والتوحيد.

ثم حكى سبحانه أنّ الملائكة تقول للمؤمنين الذين استقاموا بعد البشارة.

٣١ ـ ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴾.

هذا قول الملائكة لهم، والمعنى: نحن الذين كنا نتولّاكم في الدنيا، لأن الملائكة تتولى المؤمنين وتحبهم لما ترى من أعمالهم المرفوعة إلى السماء ﴿وفي الآخرة﴾ أي: ونحن معكم في الآخرة لا نفارقكم

حتى تدخلوا الجنة ﴿ولكم فيها ما تدعون﴾ أي ولكم في الجنة من صنوف الملذات والنعم، وما تطلبون مما تشتهيه أنفسكم.

﴿نزلاً﴾ أي رزقاً وضيافة مهيأة لكم من الله تعالى، والنزل: هو القرى الذي يهيأ للضيف النازل لإكرامه.

الدعوة إلى الله والقائمين بها

إن القوم لما أتوا بأنواع السفاهة والإيذاء كقولهم قلوبنا غلف لا تسمعوا لهذا القرآن حرّض سبحانه نبيه ﷺ على مواظبة التبليغ والدعوة واحتمال أعباء الرسالة والتزام السيرة الفاضلة إظهاراً لمزيته على الجهال وتحصيلاً للفرض باللطف والرفق ما أمكن فقال:

٣٣ ـ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

لا أحد أحسن قولاً ممن دعا العباد إلى ما شرعه الله، وعمل به عملاً صالحاً، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرّمه عليه، وكان من المسلمين ديناً، فلا شيء أحسن منه ولا أوضح من طريقته، ولا أكثر ثواباً من عمله، وبعض المفسرين قصرها في المؤذنين، والصحيح أنها عامة في كل شيء، فالسورة مكية والأذان شرع في المدينة، قال الخازن في تفسيره: إن كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق فهو داخل في هذه الآية، قال: والدعوة إلى الله مراتب.

الأولى: دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الثانية: دعوة العلماء.

الثالثة: دعوة المجاهدين في سبيل الله.

الرابعة: دعوة المؤذنين إلى الصلاة قال: فهم أيضاً دعاة إلى الله تعالى وإلى طاعته.

ثم علم نبيه ﷺ الأدب الجميل في باب الدعاء إلى الدين بل في مطلق أمور التمدن فقال:

٣٤ ـ ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

لا يتماثل الكفر والإيمان، ولا المعصية والطاعة، ولا الخبيث والطيب ولا الحسن والقبيح، ولا الشر والخير، ولا النفور والصبر، ولا الحلم والفحش، ولا يتساوى كل ما يكرهه الله ويعاقب عليه، مع ما يحبه ويثيب عليه، ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ أي ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، وذلك بمقابلة ذنبه بالعفو، وغضبه بالصّبر، واعتدائه بالحلم، وإساءته بالإحسان ﴿كأنّه ولي حميم﴾ أي إذا قابلت الإساءة بالإحسان انقلبت العداوة إلى محبة، وأصبح العدو كالصديق المحب، والقريب المشفق.

ثم مدح هذه السيرة وأهلها بقوله:

٣٥ - ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلّا من صبر على ذلك فإنّه يشقّ على النفوس ﴿وما يلقّاها إلّا ذو حظ عظيم﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر طريقاً آخر في دفع الغضب والانتقام قائلاً:

٣٦ - ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

والنزغ هو ما يوسوس به الشيطان إلى الإنسان، ويتوصل به إلى فعل السوء والشر، والاستعاذة بالله: هي الاستجارة به واللجوء إليه، والمعنى: إن تعرّض لك من الشيطان وسوسة فاستجر بالله والجأ إليه في دفعها عنك، فقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» وقد وردت مثل هذه الآية في الأعراف.

بعض دلائل قدرة الله وآياته الكونية

وحين ذكر أنّ أحسن الأقوال هو الدعوة إلى الله بيّن الدلائل على وجوده فقال:

٣٧ - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

من الدلائل على قدرة الله، أنّه خلق الليل والنهار متعاقبين يختلفان طولاً وقصراً، وحراً وبرداً، وضوءاً وظلمة، وخلق الشمس والقمر، وجعل كلّا منهما يسبح في فلكه، لا الشمس تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، خلقهما الله وسخّرهما لمنافعكم ومصالحكم فهو أولى بالعبادة وأحقّ بالسجود.

٣٨ - ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴾.

أي فإن استكبر هؤلاء عن العبادة والامتثال، فالملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته تعالى، لا يفترون ولا يملون عن تنزيهه والصلاة له، وقوله تعالى ﴿لا يسأمون﴾ هو موضع السجدة.

آيات الله الدالة على البعث

ولما فرغ من تقرير الآيات السماوية شرع في الدلائل الأرضية فقال:

٣٩ - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

أي من العلامات الدالة على وجود الله وقدرته أنك أيها الإنسان ترى الأرض ﴿خاشعة﴾ غبراء متهشمة،

إذا يبست الأرض ولم تمطر يقال لها خاشعة، وفي سورة الحج ﴿هامدة﴾ أي يابسة لا نبات فيها فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت بالنبات قبل بروزه على سطحها وبعده ﴿وربت﴾ انتفخت وعلت لأن النبات إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت، ثم تصدّعت عنه يقال: هزّ الشيء فاهتز، حرّكه فتحرك.

وبعد هذه الدلائل على وجود الله والبعث، تعود الآيات مهددة من يرفض هذه البراهين.

٤٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

أي إن الذين يميلون عن الحق في حجج الله والأدلة التي وضعها سواء في الآيات القرآنية بالطعن والتحريف والتأويل الباطل، واللغو فيها، أم آياتنا في الكون والإنسان والحياة الشاهدة على ربوبيته، فالله على علم تام بأمرهم، وليس هناك غطاء يخفيهم عنه ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي ءامناً يوم القيامة﴾ هذا عام والمراد أن الملحدين يلقون في النار، وأن المؤمنين بالله وآياته يأتون آمنين يوم القيامة ﴿اعملوا ما شئتم﴾ هذا أمر ينطوي على التهديد.

٤١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾.

المراد بالذكر القرآن الكريم، وسمي بذلك لأنه يذكر الناس بالله ودينه، وخبر ﴿إنَّ﴾ محذوف لدلالة السياق عليه، والمعنى: إنَّ الذين كفروا بالقرآن يجازون بكفرهم، ثم أخذ الله سبحانه في وصف الذكر بقوله ﴿وإنّه لكتاب عزيز﴾ أعزه الله لأنه كلامه، ثم تابع الله وصف كتابه فقال:

٤٢ ـ ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾.

قال مجاهد، المراد بالباطل هنا: التبديل أو أنه يدخل فيه ما ليس منه، والمعنى: كتاب الله عزيز عليه، محمي بحمايته، مصون بعنايته، فلا يستطيع كائن من كان من إنس أو جن أن يغير أو يبدّل أو يحرّف أو يزيد عليه، أو ينقص منه، فإنه كلام الله المنزل على نبيه، والله حكيم في كل ما يقول، مستحق لكل حمد وثناء.

ثم سلّى نبيه ﷺ بقوله:

٤٣ ـ ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴾.

لا تجزع يا محمد مما يلقاك به قومك، ولا تحزن لقولهم لك إنّك شاعر أو ساحر أو كاهن، فإن ما يحصل منهم لك قد حصل مثله لأولي العزم من الرسل قبلك، فقد لقي كل منهم أنواع الأذى فصبروا، والله المطلع على كل شيء يغفر للتائبين ذنوبهم، ويعاقب المذنبين الكافرين عقاباً شديداً موجعاً.

٤٤ ـ ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾.

أي لو جعلنا هذا القرآن بغير لغة العرب الذين أنزل عليهم ﴿لقالوا لولا فصلت آياته﴾ أي هلا بينت بلغتنا، فإننا عرب لا نفهم لغة العجم، والمعنى: هلا نزلت معه ترجمة بلغتنا مصاحبة له، وهذا معنى قولهم أأعجمي وعربي، والمعنى: لقالوا أكتاب أعجمي ونبي عربي؟ قاصدين بذلك إنكار القرآن من أصله، فهم لا يؤمنون به لا عربياً ولا أعجمياً لفرط تعنتهم، والأعجمي يطلق على الكلام الذي لا يفهمه العربي، وعلى المتكلِّم به، والياء في ﴿أعجمي﴾ للمبالغة في الوصف كأحمري وليست للنسب، وهذا استفهام إنكار، أي لو كان كذلك لكان أشدَّ لتكذيبهم، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ أي يهتدون به إلى الحق ويشتفون به من كل شك وشبهة، ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾، ﴿الوقر﴾ معناه الصمم والثقل في الآذان، فهم في عدم سماعهم بمنزلة من في أذنه صمم، ﴿وهو عليهم عمى﴾ قال قتادة: صموا عن القرآن وعموا عنه، ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ هذه الآية تمثيل في عدم قبولهم دعوة الإسلام، ومثل هؤلاء المتصامون عن الحق، المتعامون عن الآيات، مثلهم كمثل من ينادي من مكان بعيد، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه بسبب ما في أذنيه من الثقل.

القـــراءة

﴿أأعجمي وعربي﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿آعجمي﴾ الهمزة ممدودة، وقرأ حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿أأعجمي﴾ بهمزتين.

موسى عليه السلام

ثم بين أن الاختلاف في شأن الكتب الإلهية والشك فيها هو عادة قديمة عند الأمم السابقة:

٤٥ - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

هذه تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: كما آمن بكتابك قوم وكذب به قوم، فكذلك كتاب موسى، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين من أمتك إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ بالعذاب الواقع بالمكذِّبين، أي لقضي بتعجيل العذاب لمن كذب منهم، ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ الشَّك هو تساوي الطرفين، فهؤلاء ليسوا مكذِّبين عن يقين، وإنّما هو مجرد شك في التصديق والتكذيب، والرَّيب: معناه الشك، لكنّه هنا بمعنى السوء، قال في لسان العرب (يريبني ما يريبها، أي يسوؤني ما يسوؤها، ويزعجني ما يزعجها) والمعنى: هم في شك سيىء موقع لهم القلق والاضطراب.

٤٦ - ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

لكل إنسان عمله: فعمل الصالح له، وعمل السيىء عليه، فمن اختار الخير وعمل به كتب له، ومن اختار الشر وعمل به، كتب عليه، والأول له الجنة، وللثاني النار ﴿وما ربك بظلاّم للعبيد﴾ أي لا يعذب أحداً إلّا بذنبه، وبعد قيام الحجة عليه، فالله سبحانه نفى الظلم عن نفسه فهو الحكم العدل لا يرضى الظلم ويكره الظالمين، وظلاَّم صيغة نسب كتمَّار وخبَّاز، أي ليس الله بذي ظلم لهم، وليست صيغة مبالغة.

ثم كان لسائل أن يسأل متى القيامة التي يتعلق بها الجزاء فقال:

٤٧ ـ ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾.

هذا جواب السؤال وفيه إرشاد للمؤمنين في التقصي عن هذا السؤال إذا وجّه إليهم بتفويض العلم فيه إلى الله وحده، وقد سئل الرسول ﷺ من قبل الكفار من المشركين وأهل الكتاب، فقالوا: أخبرنا عن الساعة إنْ كنت نبياً كما تزعم، ومعنى الآية: لا يعلم قيامها إلاّ هو، فإذا سئل عنها فعلمها مردود إليه.

﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ أكمامها، أوعيتها، التي تخلق الثمار فيها، فكل ثمرة تخلق في كم أي قشرة تحميها إلى أن تزهر فتتفتح أو تنضج ﴿ويوم يناديهم﴾ أي ينادي المشركين يوم القيامة أين شركائي الذين كنتم تزعمون من الأصنام وغيرها.

﴿قالوا آذنّاك﴾ أي أعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً فيتبرؤون يومئذ مما كانوا يقولون.

القــــراءة

﴿ثمرات﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿من ثمرة﴾

٤٨ ـ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾.

أي زال وبطل في الآخرة ما كانوا يعبدون في الدنيا من الأصنام ونحوها وكأنه ضاع منهم ﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾ أيقنوا ألا مهرب لهم من العذاب، يقال حاص يحيص حيصاً، إذا هرب.

في القضاء والقدر

٤٩ ـ ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾.

أي لا يملّ من دعاء الخير لنفسه وجلبه إليها، والخير هنا المال والصحة والسلطان والرفعة ﴿وإن مسّه الشر فيؤوس قنوط﴾ أي وإذا مسّه شيء من الدائرة التي تسيطر عليه، كالبلاء والشدة والفقر والمرض، والمعنى: إذا اختبر بذلك يئس من روح الله وهي صلة العبد بخالقه، وقنط من رحمته، وهو من يبدي عليه ذلك في الصورة، وهو التضاؤل والانكسار، وقطع الرجاء من رحمة الله، واللفظان من الألفاظ المترادفة جمع بينهما للمبالغة في قطع الرجاء.

٥٠ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

أي ولئن آتيناه خيراً من الدائرة التي تسيطر عليه كالعافية والرخاء والاستقرار والغنى من بعد ما أصابه من شدة ومرض وفقر ﴿ليقولن هذا لي﴾ أي هذا واجب لي بعملي وكسبي، ولم يفرق بين ما يكسبه باختياره في

الدائرة التي هو يسيطر عليها، وبين ما يقع له أو عليه، في الدائرة التي تسيطر عليه، ثم يشكك في البعث فيقول: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي لست على يقين من البعث، والحسنى: هي الجنة، وسمّيت الحسنى من الحالة الحسنى.

أي لنخبرنهم بمساوىء أعمالهم يوم القيامة، وسنجازيهم على ما عملوا من سيئات عذاباً شديداً.

وحين حكى قول الكافر أخبر عن أفعاله بقوله:

٥١ ـ ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾.

إذا أنعم الله على بعض الناس من خيره، في الدائرة التي تسيطر عليهم، استكبروا وتجبروا ونسوا ربهم الذي متعهم وأنعم عليهم والذي يستحق الشكر وقابلوا كل ذلك بالإعراض ومعنى ﴿نأى﴾ انحرف وتباعد عن الشكر، ولم يفكر في فضل الله عليه.

وإذا أصيب بشر في الدائرة التي تسيطر عليه وهو يعلم أن الخير والشر الذي لا يد له فيه كله من الله عز وجل، رجع إلى الله ودعاه، وأكثر من الدعاء والتضرّع والاستغاثة، وسأله أن يكشف عنه ما به من ضرّ، فهو يعرف ربه عند البلاء وينساه وقت الرخاء.

القـــراءة

﴿نأى بجانبه﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ونأى﴾ بكسر النون والهمزة.

٥٢ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

أي قل أخبروني عن حالكم إن كان هذا القرآن من عند الله حقاً ثم كفرتم به، وأعرضتم عنه إعراضاً من غير حجة ولا برهان، فهل يكون هناك أشد ضلالاً من هؤلاء المتعنتين، الممعنين في الخلاف، والمعنى: فلا أحد أضلّ منكم، ألستم في شقاق للحق وبعد عن الصواب؟

ثم بين أنّ الإسلام يعلو ولا يعلى وأن الغلبة والنصرة تكون لذويه فقال:

٥٣ ـ ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

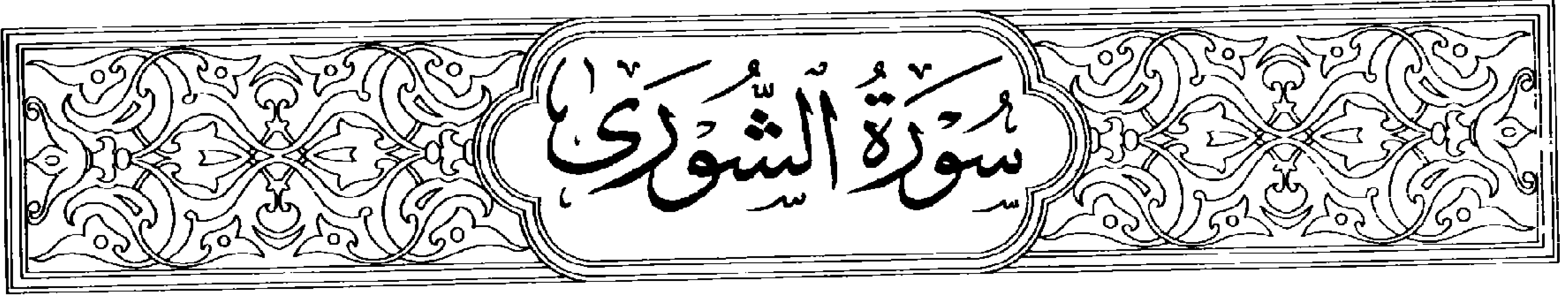
سنريهم ونري ذريتهم من بعدهم آياتنا الكونية التي تظهر في الآفاق، جمع أفق وهو الناحية، ونريهم صدق آياتنا القرآنية في أقطار السماوات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق، والصواعق والزلازل، والنبات والأشجار والجبال، والبحار والطير والدوابّ ﴿وفي أنفسهم﴾ أي في النفس الإنسانية، أي بما أودعنا فيهم من الحواس والقوى، والعقل والروح، وبما نصيبهم به من البلايا والمحن، وما نجريه عليهم من النعم، وقد كشف الطب الحديث أن في جسم الإنسان من الأجهزة المتعددة المتشعّبة ما يحتاج كل جهاز فيه إلى دراسات مستفيضة تجعل الإنسان يقف أمامها مبهوراً مندهشاً،

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ ﴿حتى يتبين لهم أنّه الحق﴾ أي حتى يعلموا حقيقة ما أنزلنا على محمد وأوحينا إليه من الوعد له.

ومن هذه الآيات والدلائل ما تحقق في حياة النبي ﷺ، ومنها ما تحقق بعد وفاته وما زال العلم يكتشف كل يوم صدق آيات الله في القرآن ودلائل وحدانيته وأنّه على كل شيء قدير.

٥٤ ـ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾.

أي في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، قد أحاط علمه بجميع المخلوقات يتصرّف فيها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلاّ هو.



سورة الشورى سميت بها لتضمنها قوله تعالى ﴿أمرهم شورى بينهم﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ختم الله سورة ﴿حم﴾ السجدة بذكر القرآن، وبين القرآن في مستهل هذه السورة، أن الله سبحانه أوحى لرسوله ﷺ من الشريعة مثل ما أوحى إلى الأنبياء من قبله، من الدعوة إلى توحيده وإفراده بالعبادة، والتمجيد لعظمته فقال:

١ ـ ﴿ حمٓ ﴾.

٢ ـ ﴿ عٓسٓقٓ ﴾.

هي حروف تقرأ في أول سور القرآن لتنبيه السامع، ولتدل على أن القرآن المعجز يتألف من هذه الأحرف.

٣ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

والمعنى: أي بمثل ذلك الإيحاء الذي أوحي إلى سائر الأنبياء، يوحى إليك يا محمد في هذه السورة.

القـــراءة

قرأ ابن كثير ﴿كذلك يوحى إليك﴾ بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون ﴿يوحي﴾ بكسر الحاء.

٤ ـ ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿وهو العلي العظيم﴾ ذكر سبحانه لنفسه هذا لدلالته على كمال قدرته ونفوذ تصرفه في جميع مخلوقاته.

٥ ـ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ تكاد السماوات يتشققن من فوق الأرضين هيبة وإجلالاً لعظمته جل شأنه، حالة علمها بأن المشركين يقولون اتخذ الله ولداً أو صاحبة، في حال أن ﴿والملائكة يسبحون بحمد

ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ ومع تسبيحهم وتنزيههم لله عز وجل عما لا يليق بجلاله، يطلبون من الله تعالى أن يغفر لمن في الأرض، ويحلم عليهم ويهديهم إلى طاعته، وألا يعجل بعقوبتهم فيزلزل الأرض، إلا أن الله الذي عظمت قدرته وجلّت حكمته، قد وسعت مغفرته وعمّت رحمته، لا يعجل العقوبة بل يمهل ولا يهمل، ولذا قال ﴿إنّ الله هو الغفور الرحيم﴾ لمن تاب وأناب ورجع عن ذنوبه.

القــــراءة

قرأ نافع والكسائي ﴿يكاد السماوات﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿تكاد﴾ بالتأنيث ﴿السماوات﴾ والفعل متصل بالاسم. قرأ أبو عمرو وأبو بكر ﴿ينفطرن﴾ بالنون، وقرأ الباقون ﴿يتفطرن﴾ بالتاء.

ثم أخبر سبحانه عن إمهاله الكفار بعد تقديم الإنذار فقال:

٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾.

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني الكفار اتخذوا آلهة فعبدوها من دونه ﴿الله حفيظ عليهم﴾ أي حافظ لأعمالهم ليجازيهم بها، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي ليس موكولاً لك يا محمد إجبارهم على الإيمان وإنما وظيفتك الإنذار والله على كل شيء وكيل.

٧ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ أي وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك كتباً سماوية، أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسان قومك ليفهموا ما فيه من الهدى والخير ﴿لتنذر أم القرى﴾ أم القرى هي مكة المكرمة، وسميت بذلك إجلالاً لها لأن فيها البيت الحرام، ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل الشيء أماً ﴿ومن حولها﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ﴿وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه﴾ أي تخوف الناس وتحذّرهم من يوم الجمع وهو يوم القيامة وسمي بذلك لأن الله يجمع فيه الخلائق للحساب، والناس في هذا اليوم فريقان ﴿فريق في الجنة﴾ وهم المؤمنون ﴿وفريق في السعير﴾ وهم الذين كفروا.

ثم بيّن القرآن طبيعة البشر حيال هدى الله وسبب افتراقهم فقال:

٨ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ أي على دين واحد وهو في مقدوره ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ لكنّه سبحانه اقتضت مشيئته وإرادته، أن يجعل الناس مختلفين في العقل والعاطفة والقدرة والتفكير والاختيار، فآمن فريق وعمل صالحاً باختياره الخير على الشر فدخل في مشيئته تعالى ﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ والذين اختاروا الكفر والشر والظلم لأنفسهم، باختيارهم استحقوا عذاب الله لا ينجيهم منه ولي ولا نصير.

ثم يستذكر القرآن عمل الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويبتغون منهم الخير فيقول:

٩ ـ ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿أم اتخذوا من دونه أولياء﴾ أي بل اتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها لتنصرهم.

١٠ ـ ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور فحكمه إلى كتاب الله، وفي هذا المعنى يقول الله عز وجل ﴿وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول﴾.

ويتابع القرآن فيبين أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده فيقول:

١١ ـ ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي خالقهما ومبدعهما من العدم، وإبداع خلقه يدل على أنه الواحد القادر، وأن آيات قدرته المتجلية فيكم أنتم فقد ﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من جنسكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً ﴿ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه﴾ أي يجعلكم تتكاثرون بسبب ذلك النسل ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس والأنعام، وكل إنسان أو حيوان يرث عن والديه صفاتهما وخصائصهما، وأسلوب حياتهما، فهذه من الأمور الدالة على قدرة الله في مخلوقاته، التي وقف العلم أمامها مبهوراً عندما بدأ يكتشف بعض أسرارها مؤخراً.

ثم يختم الله سبحانه الآية بقوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ أي أن الله في أفعاله وصفاته لا يشبهه شيء من مخلوقاته والكاف في ﴿كمثله﴾ للتوكيد.

١٢ ـ ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي مفاتيح خزائن السماوات والأرض، يمسك ويرسل كيف يشاء والمعنى: أنه المتصرّف الحاكم فيهما، ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ـ في ملكه ـ فله الحكم والملك والعدل التام لأنه ﴿بكل شيء عليم﴾.

إيضاح ودروس

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان أن الإسلام ليس بدين جديد بل هو استمرار لما جاء به الأنبياء والرسل من قبل.

١٣ ـ ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ

وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ الخطاب لأمة محمد والمعنى: بين وأوضح لكم من الدين ومن الأصول العامة، وأهمها توحيد الله عز وجل وإفراده في العبادة، مثل ما وصّى به نوحاً، أي مثل ما جاء به الأنبياء السابقون وأولهم نوح بعد آدم عليهما السلام، فذكر نوحاً وذكر محمداً وهو آخر الأنبياء وخاتمهم بقوله ﴿إليك﴾ ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم بقوله ﴿وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ وكما اشتملت آية الأحزاب عليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾[1] والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وذكر هؤلاء الأنبياء من أولي العزم له دلالة، فنوح عليه السلام يقترن اسمه بعد آدم بأكبر حادثة في التاريخ، وهي حادثة الطوفان، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء جميعاً من بعده، وموسى عليه السلام جاء بالتوراة، وكلم الله تكليماً، وعيسى عليه السلام جاء بالإنجيل وولد من غير أب ثم فسر ما تقدم من الوصية بالدين فقال: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ والمعنى: شرع لكم من الدين ولمن قبلكم إقامة الدين من الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، وأمرهم بالوحدة ونهاهم عن الفرقة، والملفت للنظر أن القرآن حذر من الاختلاف قبل أن تظهر بوادره بزمن طويل، وهذا دليل على إعجازه وصدق آياته، فقد اختلف القوم لما تركوا الدين ولم يقيموا شرع الله ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي عظم وشقّ عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد، ورفض الأوثان ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد، ولهذا قال: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾[2].

ثم بين القرآن أسباب التفرق بين أتباع الأديان السابقة فقال:

١٤ ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

أي ما تفرق أقوام الأنبياء السابقين إلاّ عن علم بما جاءهم به أنبياؤهم وأن الفرقة ضلالة وإنما حصلت الفرقة بسبب البغي بينهم وهو العدول عن الحق إلى الظلم والحسد ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظارهم إلى يوم القيامة وذلك بتأخير العقاب إلى ذلك اليوم لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل، ولا برهان وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد.

١٥ ـ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٧.

كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

﴿فلذلك فادع﴾ فإلى ذلك الدين الذي شرع لكم، ووصّى به نوحاً وأوحاه إليك يا محمد فادع عباد الله واستقم على العمل به، ولا تزغ عنه ﴿واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم﴾ يعني الكفار ﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ولا نفرق بين أحد منهم ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ تقع ﴿أمرت﴾ على أن وكي، واللام، يقال أمرت أن أعدل، وكي أعدل، ولأعدل، والمعنى: أمرني الله أن أعدل في الحكم بالحق على كل متخاصم ﴿الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ كلنا عبيد لله هو إلهنا وإن اختلفنا، فهو يجازينا وكل منا مسؤول عن نفسه، فلنا ثواب أعمالنا وعقابها، ولكم ثواب أعمالكم وعقابها، ومؤدى ذلك أننا براء منكم كما قال الله تعالى ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾[1] ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ لا خصومة بيننا وبينكم لأن الحق قد ظهر ووضح ﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ الله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي بيننا بالحق ويجازي كل إنسان بما عمل لأن له المرجع بعد الممات.

ثم يهدد الله الذين يخاصمون بغير الحق فيقول:

١٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾.

يقول الله متوعّداً ﴿والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ أي الكفار يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عن طريق الهدى ﴿حجتهم داحضة﴾ أي باطلة عند الله، وهذا كشف لزيفهم وكذبهم.

ثم حثّ على سلوك طريق العدل حذراً من عقاب يوم القيامة فقال:

١٧ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾.

﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ الله سبحانه أنزل الكتاب والمراد به القرآن وسائر الكتب الإلهية، التي هي مشتملة على الحق في أحكامها، كما أنزل الميزان وهو العدل بين الناس، وقد سمي العدل ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ وأي شيء يعلمك عن الساعة فلعلها تكون قريبة الوقوع، والمناسبة من ذكر القرآن لاقتراب القيامة مع إنزال الكتب الإلهية بالحق والعدل، هو العمل بشرائع الله قبل أن يفاجأ الناس بيوم الحساب وهم منغمسون في الذنوب.

ثم قبّح طريقة منكري الساعة فقال:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤١.

١٨ ـ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ أي يستعجلك يا محمد بمجيئها الذين لا يوقنون بحدوثها استبعاداً لها وكفراً بها واستهزاء ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ والذين صدقوا بوقوعها خائفون من مجيئها لأنهم لا يدرون ماذا سيكون مصيرهم فيها ﴿ويعلمون أنها الحق﴾ أي أنها كائنة لا محالة ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ ألا إن الذين يشكون في القيامة ويجادلون فيها لفي بعد عن الهدى، وزيغ عن سبيل الحق والرشاد.

ثم إنه لا ريب في أن إنزال الكتاب والميزان لطف من الله على خلقه فلذلك قال:

١٩ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ .

أي رفيق بهم يرزق من يشاء فيوسع عليه، ويقتر على من يشاء منهم وهو ﴿القوي﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿العزيز﴾ أي المنيع الذي لا يغلب، وبذلك يكون قد عمّم البر ثم خصّص بقوله يرزق من يشاء، وحين ذكر إنه يرزق من يشاء الزائد على مقدار كفايته، وكان فيه كسر قلوب أرباب الضنك والضيق جبر كسرهم بقوله:

٢٠ ـ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

من عمل صالحاً يريد به ثواب الآخرة جازاه الله على عمله بنعيم الجنة، وزاد في حسناته مضاعفاً له ثوابه، ومن عمل عملاً سيئاً يريد به متاع الدنيا، واكتساب الجاه والسلطان آتاه الله شيئاً مما أراد على حسب ما قسم له، وليس له نصيب من نعم الآخرة، وتسميته بالحرث تشبيهاً للعامل الطالب لثواب الآخرة أضعافاً مضاعفة بالزارع الذي يلقي البذر في الأرض طلباً للزيادة والنماء.

وبعد أن بين القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الدارين، نبّه على أحوال الضلال فقال:

٢١ ـ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ ألهم آلهة من شياطين الإنس والجن ابتدعوا لهم ديناً يحرم ويحلل لهم من الضلالات التي سبق أن أشار القرآن إلى كثير منها ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ وهي القضاء السابق بأن الجزاء يكون في القيامة، وتأخير عذاب الاستئصال في الدنيا ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا بنزول العذاب على المكذبين.

٢٢ ـ ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ .

﴿ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم﴾ لو عاينت الكفار الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بشركهم وكفرهم وعصيانهم يوم القيامة لوجدتهم خائفين وجلين مما عملوا من السيئات في الدنيا، وعذاب الله لا محالة نازل بهم ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾ الروضات المتنزهات.

٢٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴾ .

﴿ذلك﴾ ما تقدم ذكره من الثواب والتبشير بالجنات ﴿الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه، هم المبشرون بتلك البشارة، ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي قل يا محمد: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً ولا نفعاً ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني في قرابتي، وقد خاب وخسر من آذى قرابة محمد ﷺ، وقد خاب وخسر من لا يحب آل محمد، اللهم صل على محمد وآل محمد، واحشرنا معهم يا رب العالمين ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ أي من يكتسب طاعة، والأصل أن الاقتراف مستعمل في الشر واستعير هنا للخير ونزد نضاعفها بالواحدة عشراً فصاعداً.

القـــراءة

﴿يبشر﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وحمزة والكسائي، بفتح الياء وسكون الباء. ضم الشين ﴿يبشر﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿يبشر الله﴾ بالتشديد.

٢٤ ـ ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

﴿أم يقولون افترى على الله كذباً﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل أينما يكونوا أن ينسبوا مثله إلى أعظم أنواع الفرية، أي بل يقول الكفار افترى على الله كذباً بدعوى النبوة ثم أجابهم بقوله ﴿فإن يشأ يختم على قلبك﴾ أي يجعلك من المختوم على قلوبهم، فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلاّ من كان في مثل حالهم، والغرض المبالغة في استبعاد الافتراء من مثله، ثم استأنف فقال: ﴿ويمح الله الباطل﴾ أي من عادته أن يمحو ذلك فلو كان محمد ﷺ مبطلاً، لفضحه وكشف عن باطله، وحذف الواو من الخط، وقال الجبائي: إن الواو حذف للجزم، والمعنى إن افتريت ختم على قلبك ومحا الباطل المفترى كما هو الشأن في كل مدع للنبوة أو كاذب في الدعوة.

وحين وبخهم على البهت والتكذيب ندبهم إلى التوبة وعرّفهم أنه يقبلها من كل مسيء فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

يقول الله ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه وأنه من كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر.

القــــراءة

﴿تفعلون﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالياء ﴿يفعلون﴾.

لمّا تقدم وعيد أهل العصيان عقّبه سبحانه بالوعد لأهل الطاعة فقال:

٢٦ ـ ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

أي يستجيب الله للذين آمنوا ويعطيهم ما طلبوه منه، ويزيدهم، أو على ما يستحقونه من الثواب تفضلاً منه، والضمير في قوله ﴿ويستجيب﴾ عائد إلى الله سبحانه، وأصله ويستجيب لهم، فحذف الجار، وحيث وعد الاستجابة للمؤمنين، كان لسائل أن يقول إنا نرى المؤمن في شدة وبلية وفقر، ثم إنه يدعو الله فلا يجد أثر الإجابة فلا جرم فقال:

٢٧ ـ ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

لقد قسم الله الرزق بين عباده على حسب ما تقتضيه مصالح الأفراد والمجتمع، حتى يتم التعاون وفق ما يريده الله سبحانه لا كما يريده الناس، ولو وسع الله لهم رزقهم كما يريدون جميعاً وجعلهم كلهم أغنياء لشعر كل منهم بالشره والبطر وتحركت في نفوسهم عوامل البغي والظلم، وبغى بعضهم على بعض، وكان فيه دمارهم جميعاً ﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ أي على قدر المصلحة التي يراها الله عز وجل، وهو أعلم بذلك.

وحين بين أن حكمته اقتضت عدم التوسيع بالرزق على كل الخلق أراد أن يبين أنه لا يترك ما يحتاجونه إليه وإن بلغ أمرهم إلى حد اليأس والقنوط فقال:

٢٨ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ .

الغيث هو المطر وهو أنفع أنواع الرزق وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة ﴿من بعد ما قنطوا﴾أي من بعدما أيسوا من ذلك، فيعرفون بهذا الإنزال مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه ﴿وهو الولي الحميد﴾ الولي الذي يتولى أمور عباده بإحسانه فيبسط خيراته وبركاته عليهم، وهو الحميد: المحمود على كل ما يفعله، ولا ريب أن هذه من جملة دلائل القدرة.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف.

ولما كان ما تضمنته الآية السابقة في الدلالة على قدرة الله عطف عليها قوله:

٢٩ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾

أي من العلامات الدالة على وجود الله وسلطانه وقدرته، خلق السماوات والأرض على هذه الكيفية العجيبة، التي نشاهدها ونحسها ﴿وما بثّ فيهما من دابة﴾ أي ما نشره وفرقه فيهما من مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة، وفي الآية دلالة وإشارة إلى أنّ في بعض الأجرام السماوية غير الأرض أصنافاً من الحيوانات المبثوثة فيها، وأن هناك نوعاً من الحياة فيها، ولعلّ اكتشافات المستقبل بما يظهره لنا العلم في غزو الفضاء ترينا أسرار هذا النوع من الحياة وتفسر لنا آي القرآن ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق.

الكسب والاختيار

ثم بين حال المكلفين وأن ما يصيبهم من الذنوب هو من كسب أيديهم فقال:

٣٠ ـ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾.

﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ هذا من الأفعال الاختيارية التي للإنسان فيها كسب واختيار، وهي الدائرة التي يسيطر عليها، فيختار لنفسه الخير فيفعله، والشر فيتجنبه، ومن ذلك فعل المعاصي والذنوب بأنواعها، وخاصة إذا استمر عليها الإنسان وتمادى فيها، وربما ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة، ولا شك أن ذلك من أكبر المصائب وهي بما كسبت أيدي الناس، قال الله تعالى ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾[1]، أما المصائب والبلايا التي تقع على الناس، بغير إرادتهم ودون كسب منهم فهي من الدائرة التي تسيطر عليهم، فلا يحاسبون ولا يجازون عليها كالتي تصدر عنهم أو عليهم، ولكن الله تعالى يمتحن بها عباده فمن ابتلي فصبر وشكر، أثابه الله وقد أثاب نبيه أيوب لما صبر وشكر، والصبر على المصائب والبلايا يخفف الذنوب كما أعلن الله عن ذلك فقال ﴿ويعفوا عن كثير﴾ ومن تضجر وسخر ونقم عاقبه الله وجازاه، وزاده على ما هو عليه ذنوباً وعقاباً يوم القيامة، ويكون بذلك قد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

القــــراءة

﴿فبما كسبت﴾ قرأ نافع وابن عامر بغير فاء ﴿بما كسبت﴾ وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام.

ثم خاطب المشركين بقوله:

٣١ ـ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

أي لستم بفائتين الله عز وجل هرباً في الأرض بل إن أراد عقوبتكم أنزلها بكم، ولا أحد ينصركم من عذاب الله. ثم ذكر دليلاً فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

المراد بالجوار السفن في البحر، وكالأعلام أي كالجبال واحدها علم، وكل شيء مرتفع ـ عند العرب ـ فهو علم فوصف السفن بالأشياء الضخمة العالية قد تجلى في عصرنا اليوم ونحن نشاهد السفن الضخمة العملاقة وحاملات الطائرات وغيرها.

القـــراءة

﴿الجواري﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿الجواري﴾ بياء في الوصل وحذفها في الوقف، وقرأ ابن كثير بالياء في الوصل والوقف على الأصل وقرأ أهل الشام والكوفة بحذف الياء في الوصل والوقف.

٣٣ ـ ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ فتبقى الجواري واقفة على متن البحر، لأن السفن الشراعية لا تسير إلاّ باتجاه الهواء يدفعها.

٣٤ ـ ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾.

﴿أو يوبقهن﴾ أي وإن يشأ يهلكهن بالغرق والمراد أهلها، ويعف عن كثير من الذنوب التي يرتكبها الناس، فلا يؤاخذ الناس بما كسبوا بل يؤخر عقابهم إلى أجل مسمى كما قال عز من قائل ﴿ولو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾[1]، وهذه الآية والتي قبلها تدلان على قدرة الله تعالى في كل مكان سواء في البر والبحر، وأنه قادر على إيقاع العقاب بالناس وإهلاكهم في أي مكان وفي أي وقت، وفيه تهديد للمشركين والكفار والعصاة من أمة محمد.

٣٥ ـ ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾.

يعلم: بالنصب معطوف على تعليل محذوف، تقول لينتقم منهم ويعلم، قاله في الكشاف، ومن رفع فعلى الاستئناف، وقال الفراء: هو مردود على الجزم، إلا أنه صرف، والجزم إذا صرف عنه معطوفه نصب.

والمعنى: وليعلم الذين يخاصمون في الآيات الدالة على قدرة الله، ومنها تسيير السفن في البحر والطائرات في الجو والسيارات في البر، ليعلموا أنهم لا مفر لهم من عقابه، ولا مهرب لهم من ملكوته إن أراد أن يهلكهم ولكن حلم الله على عباده ومغفرته لهم وسعت كل شيء.

القـــراءة

﴿يعلم﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع ﴿يعلمُ﴾.

٣٦ ـ ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي ما أعطيتم من الغنى والسعة في الرزق، فإنما هو متاع

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨.

قليل في أيام قليلة ينقضي ويذهب ﴿وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا﴾ ذكر أن هذه الخيرية تحصل للموصوفين بصفات إحداها: الإيمان، والثانية: التوكل على الرب.

الكبائر والفواحش من الذنوب

ثم ذكر بقية الصفات فقال:

٣٧ ـ ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

الصفة الثالثة: الاجتناب عن الكبائر والفواحش، والصفة الرابعة: الغفران عند الغضب.

الكبائر: من جماع ما وردت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين، نخلص إلى أن الكبيرة هي: كل ذنب ختمه الله بالنار، أو ورد فيه وعيد شديد، أو وجب فيه لعنة، وهي الطرد من رحمة الله، وذلك مثل الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والفرار يوم الزحف في الجهاد في سبيل الله، ورمي المحصنات المؤمنات الغافلات، وشهادة الزور، والزنى بحليلة الجار، واليمين الغموس، وعقوق الوالدين والتسبب في سبهما، والسحر.

الفواحش: هي ما يتعلق منها بالقوة الشهوية، ومنها ما يدخل في باب الكبائر أو باب الصغائر حسب جسامة الجرم وصغره، وقد وردت بعض إطلاقات القرآن للفاحشة على الزنى واللواط، ولا شك أن الفواحش على طرق وأشكال مختلفة ومتعددة، منها ما يكون في السر ومنها ما يكون في العلن.

وقد اقترن الكلام عن الفواحش مع الإثم والبغي، وعدد من الكبائر في القرآن الكريم، في ثلاث آيات غير هذه الآية هي كما يلي:

قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ (١٥١) .

وقال في سورة الأعراف ﴿قل إنّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ (٣٣) .

وقال في سورة النجم ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ (٣٢) .

قال ابن كثير: الإثم، إنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي على الناس، فحرم هذا وهذا. ويتبين من هذا أن الله سبحانه في القرآن الكريم، قد نص على أمور معينة من الذنوب فجعلها من الكبائر، كما جاءت في بعض الأحاديث، وأن ذنوباً أخرى كالفواحش والإثم والبغي، قد يكون منها ما هو داخل في باب الكبائر متى عظم وكبر، ومنها ما ليس كذلك بل هو من باب الصغائر.

القــــراءة

﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿كبير الإثم﴾ على الواحد.

٣٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه، وأطاعوا الرسل ﴿وأقاموا الصلاة﴾ وإنما خصها بالذكر لأنها أعلى أنواع العبادات، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون، ولا ينفردون بالرأي في كل أمر يعرض لهم، فلا يستأثر بعضهم على بعض في الرأي، وهذا من الشؤون العامة، كتولية الخلافة، وشؤون تدبير الدولة، وإدارة مصالحها، وتولية الولاة، وأحكام القضاة.

ويتابع القرآن الكلام عن صفات المؤمنين وكيف يواجهون المعتدين مع التحذير لهم من الظلم والتعدي فيقول:

٣٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

والمعنى: إذا أصاب المؤمنين الظلم والاعتداء من الغير، وقدروا على الرد ﴿هم ينتصرون﴾ ينتقمون منه دون تعد، لأن التذلل لمن بغي عليه ليس من صفات من جعل الله له العزة، وليس العجز من صفات المؤمنين، والمهانة والذلة ليست لهم بل لأعدائهم أهل الكفر والجهل، وهذه السياسة يجب أن تستعمل في مكانها ووقتها، وأن يسبقها الإعداد الكامل والتخطيط الناجح.

وليس بين قوله تعالى ﴿هـم ينتصرون﴾ وبين قوله ﴿يغفرون﴾ في الآية السابقة منافاة، فإن هذه أخص من الأولى، إذ البغي اعتداء على الأمة والنظام والمجتمع بكامله، وهو يؤدي إلى الفساد ولا يصير عفوه سبباً لتسكين ثائرة الفتنة، وهو انتصار يعد رتبة من رتب الجهاد، قال القاضي أبو يعلى، هذه الآية محمولة على من تعدّى وأصرّ على ذلك، وآيات العفو محمولة على أن يكون الجاني نادماً.

حق القصاص والعفو عنه

٤٠ ـ ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

فبين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ فمن عفا فلم يقتص ممن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه، متى قدر عليه وتمكن من الانتقام، أما العجز والذلة فليسا من الفضائل، وإنما سميت الثانية سيئة، ازدواجاً للكلام، أو لأن السيئة هي التي يكرهها الإنسان طبعاً، كالقصاص، وسائر الحدود، ثم كرر أن الانتصار لا يؤخذ به ولا سبيل للوم إليه لئلا يظن أن وعد الأجر على العفو يقتضي قبح الانتصار في نفسه فقال:

٤١ ـ ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

أي من انتقم وأخذ حقه بواسطة الحاكم بعد ظلم الظالم إياه، فليس عليهم مؤاخذة ولا عقوبة ولا حرج، فإن حق القصاص في الجنايات المتعمدة ثابت للمجني عليه شرعاً، وكذلك الضمان في كل التعديات والإتلافات والإضرارات المادية والأدبية.

٤٢ - ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

أي إنما الحرج والمؤاخذة واللوم على المعتدين الذين يبدؤون الناس بالظلم ﴿ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي ويتكبرون في الأرض ويفسدون فيها، ويعتدون على الناس بغير الحق، لهم عذاب شديد موجع في الآخرة.

٤٣ - ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾.

ولمن صبر على الأذى وعفا عن الإساءة ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي الثبات والجد والرسوخ وعدم الانطلاق والتعجل وراء شهوة الانتقام.

يوصينا القرآن إزاء الغير بالدعوة إلى ضبط النفس والاعتدال، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة أو بأكثر منها، وعدم الانجراف مع العاطفة الحاقدة، وفيها إعطاء المعتدي أو الجاني فرصة ليراجع نفسه ويتوب ثم يثوب إلى رشده، ويكون عضواً صالحاً في المجتمع.

ثم ذكر أن الإضلال والهداية التي هي نقيضه إنما تتعلق بمشيئته فقال:

٤٤ - ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾.

﴿ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده﴾ أي من يخذله الله بسبب كفره وعناده وعصيانه وفسوقه المستمر بعد أن وعظ وأرشد وأنذر وحذر فليس له من ناصر يتولاه بعد إضلال الله إياه عقوبة له، وهذا صريح في جواز إضلاله لمن يشاء ممن فسدت جبلته وساءت أفعاله، ثم حكى أن الكفار عند معاينة عذاب النار يوم القيامة يتمنّون الرجعة إلى الدنيا فيقول ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ يقولون يوم القيامة حين ينظرون النار أي هل تتاح لنا الفرصة يا رب للرجوع إلى الدنيا ثانية كي يتبدل سلوكنا، ونعود للإيمان والعمل الصالح، إنها صرخة يائس.

ثم يصف القرآن حال الكفار في جهنم وما هم عليه من ذل وعذاب فيقول:

٤٥ - ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴾.

﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ يخبر الله تعالى عن حال الكفار حالة عرضهم على النار فلو رأيتهم في ذلك اليوم لوجدتهم أذلاء ساكنين خاضعين، بعد أن كانوا مستكبرين متجبرين في الدنيا، تراهم يسارقون النظر إلى النار، ولا تكاد أطراف أعينهم تنفتح حتى تغمض ورؤوسهم منكسة كمن قضي عليه بالإعدام ﴿وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ ولقد عرف المؤمنون عاقبة أمر هؤلاء الظالمين، فقالوا: إنهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم، فقدموها طعمة للنار وخسروا أهليهم

بمفارقتهم لهم وعدم نظرتهم إياهم ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ هذا قول الله تعالى، والمقيم الدائم الذي لا زوال به.

ثم أخبر سبحانه عن الظالمين الذين ذكرهم فقال:

٤٦ ـ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾.

أي لم يكن لهم أعوان يدفعون عنهم العذاب في ذلك الموطن من دون الله، ومن يخذله الله عن طريق الحق بسبب كفره وعناده واختياره فليس له من طريق للوصول إليه لنجاته.

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام حذر منه، وأمر بالاستعداد له فقال:

٤٧ ـ ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾.

أي أجيبوا داعي الله أيها الناس اليوم من قبل أن يأتي يوم القيامة فتبعثوا، حيث لا يقدر أحد على رده ودفعه ﴿ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ إلاّ إليه.

ثم سلى نبيه، وذكر سبب إصرارهم على عقائدهم الفاسدة فقال:

٤٨ ـ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾.

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ يحدد القرآن مهمة النبي ﷺ في قومه وهي إبلاغهم هدى الله، والمعنى: فإن أعرضوا عنك وأصروا على الكفر بعد أن دعوتهم فلا بأس عليك، ولا تأس على كفرهم وضلالهم فما أرسلناك رقيباً عليهم وألزمناك بإيمانهم ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغهم ما أمرت بإبلاغه وليس عليك غير ذلك.

الجبر والاختيار

﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ فالله سبحانه إذا أعطى الإنسان في الدنيا شيئاً من النعمة كالرزق في المال والصحة في البدن، والمطر، والعشب وغيره من الخيرات، في الدائرة التي تسيطر على الإنسان، ولا يد له فيها، فرح بها أي عظم غروره، لم يحمد الله المنعم ولم يشكر ربه الذي أعطاه ﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ جاء الجمع في قوله ﴿وإن تصبهم﴾ لأن الإنسان جنس يشمل أهل الغفلة كلهم، وهذا من الأفعال الاختيارية التي للإنسان فيها كسب واختيار، وهي من الدائرة التي يسيطر عليها، فيختار لنفسه الخير فيفعله والشر فيتجنبه، ومن ذلك فعل المعاصي، كشرب الخمر فيجازى عليه

بما قدمت يداه وهو سيئة له، والفرار يوم الزحف هو سيئة بالنسبة له فيجازى بالقتل أو الأسر أو الجرح، ويدخل في ذلك كل ما يختاره الإنسان من الأمور السيئة، وهذا نظير قوله تعالى في سورة النساء ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً﴾[1] ﴿فإن الإنسان كفور﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر، وفائدته التسجيل على أن هذا الجنس من شأنه ذلك إلا إذا أدب النفس وراضها.

ثم بين كمال قدرته فقال:

٤٩ ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾

والمقصود أن لا يغتر الإنسان بملكه من الجاه والمال، ولا يعتقد أنه حصل بجده أو جهده فيعجب به، ويعرض عن طاعة ربه، ثم ذكر من أقسام تصرفه في ملكه أنه يخص البعض من الحيوان بالأولاد الإناث والبعض بالذكور، والبعض بالصنفين، والبعض يجعله عديم الولد، وقد ذكر الإناث تطييباً لقلوب آبائهن، ولأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الإنسان، فكأن ذكر الإناث هي جملة ما لا يشاء الإنسان أهم، وفيه نقل الإنسان من الغم إلى الفرح.

٥٠ ـ ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

جعل سبحانه الناس أربعة أقسام منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين وذلك قوله ﴿أويزوجهم ذكراناً وإناثاً﴾ ومنهم من يمنعه هذا وهذا أي عقيماً لا نسل له، وذلك قوله تعالى ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ لا ولد له ولا بنت لأنه ﴿عليم﴾ بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قدير﴾ على ما يشاء، ثم أكد كمال القدرة بقوله:

٥١ ـ ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ أي وما صح لأحد أن يكلّمه الله إلا على أحد ثلاثة أنحاء:

الأول: الوحي وهو الإلهام أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى، وإلى سيدنا إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده إسماعيل عليه السلام.

الثاني: التكليم بلا واسطة، ولكن من وراء حجاب كما كلّم الله موسى عليه السلام، ويكلم الملائكة.

الثالث: أن يرسل رسولاً، كجبريل، فيوحي الملك بإذن الله إلى النبي ما يشاء الله.

القـــراءة

﴿أو يرسل﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿يرسلُ﴾ بالرفع ﴿فيوحي﴾ بسكون الياء، وقرأ الباقون بنصب اللام وتحريك الياء.

---

(١) الآية: ٧٩.

الروح هي الوحي

٥٢ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ أي ومثل الذي أوحينا إلى الرسل قبلك يا محمد: أوحينا إليك روحاً من أمرنا أي وحياً بأمرنا ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي لولا هذا الوحي وهذا الروح ما كنت تدري شيئاً عن القرآن، ولا تدري شيئاً عن الشرائع، وخصّ الإيمان لأنه رأسها وأساسها ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ أي ولكن جعل الله القرآن نوراً يهدي الله به من يشاء من عباده ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ هذه هداية البيان والمراد بالطريق طريق الله وهو الإسلام.

ثم فسر الصراط فقال:

٥٣ ـ ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

أي شرعه الذي أمر به الله الذي إليه ترجع الأمور كلها يوم القيامة فيفصلها ويحكم فيها.



سورة الزخرف سميت لورود كلمة الزخرف في السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الحكيم وقريش

لما ختم الله سورة الشورى بذكر القرآن والوحي افتتح هذه السورة بذلك أيضاً فقال:

١ ـ ﴿ حمٓ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

أقسم الله بالقرآن المعجز بأسلوبه وهديه بأنه مؤلف من الحروف التي يتكلّم بها العرب.

٣ ـ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

أنزل الله القرآن بلسان العرب، لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه الذين يتكلّمون لغته ﴿لعلّكم تعقلون﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه ثم تبلغونه للناس، وهذه هي الفائدة من الفهم والتعقل منه.

بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظّمه أهل الأرض فقال:

٤ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾.

والمعنى: إن القرآن في اللوح المحفوظ، لدى الحق تبارك وتعالى، لعلي الشأن رفيع المقام بالنسبة لغيره. ثم أنكر على المشركين استكبارهم ونفورهم فقال:

٥ ـ ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾.

كلما زادهم الرسول دعاء ازدادوا نفوراً واستكباراً، فقال لهم الحق ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ أي أنعرض عنكم؟ وهو استفهام إنكاري للإنكار والتوبيخ، والمراد بالذكر القرآن، والمعنى: أنعرض عنكم فنمهلكم وننحي عنكم القرآن، ونمسك إنزاله لكم من أجل أنكم ﴿كنتم قوماً مسرفين﴾ قال قتادة في تفسير الآية: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة، لهلكوا، قال ابن كثير: إنه من لطفه تعالى ورحمته بهذه الأمة، أن أمر به، يعني القرآن ليهتدي به من قدر الله هدايته وتقوم الحجة على من قدر عليه الشقاوة.

القــــراءة

﴿أن كنتم﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿إن كنتم﴾ بكسر الهمزة على معنى الاستقبال.

ثم سلّى نبيّه بقوله:

٦ ـ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

ثم أعلم نبيه أني قد بعثت رسلاً فكذبوا فأهلكت المكذبين فقال:

٨ ـ ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي فأهلك الله قوماً كانوا أشدّ قوة من المشركين ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أي وسبق أن تحدّث القرآن عن أنواع العذاب وعن الذين أصابهم مما جعلهم عبرة لغيرهم.

من نعم الله علينا

ثم أخبر عن جهلهم حين أقروا بأنه خالق السماوات والأرض ثم عبدوا غيره فقال:

٩ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

لم يكن كفار قريش ينكرون خلق الله سبحانه للعالم، كالدهريين، ولكن كفرهم كفر عناد ولجاج، وإلاَّ فما معنى إنكارهم لرسوله وكتابه، واتخاذ الوسائط بينهم وبين الله من الأصنام والأشخاص، وكانت دعوة النبي ﷺ لإبطال هذه الوسائط وتحقيق التوحيد.

١٠ ـ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

المهاد الفراش والبساط، والسبل الطرق تسلكونها إلى حيث تريدون، وتهتدون في أسفاركم إلى مقاصدكم.

القــــراءة

﴿مهداً﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿مهداً﴾ بغير ألف وقرأ الباقون ﴿مهاداً﴾.

١١ ـ ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ أي بقدر الحاجة، وحسبما تقتضيه المصلحة ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ أي أحيينا بذلك الماء بلدة لا حياة للنبات فيها ﴿كذلك تخرجون﴾ تبعثون من قبوركم بعد موتكم، والقادر على إحياء الأرض، هو بالأحرى قادر على إحياء الموتى من الناس؛ لأن الإنسان خلقه الله من تراب، ومكونات جسمه من النبات الذي يتغذّى من التراب.

القـــراءة

﴿كذلك تخرجون﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿تخرجون﴾ بفتح التاء وضم الراء، أي المبني للمعلوم.

مخلوقات الكون أزواج

١٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ .

﴿خلق الأزواج كلها﴾ والأزواج هي الأصناف التي تتكون من ذكر وأنثى من جميع أصناف المخلوقات، ما نعلمه وما لا نعلمه، وقد كشف لنا العلم أن كل ذرة من أي عنصر من عناصر الكون، تحوي قلباً صغيراً يسمى النواة، وهذه النواة تحوي وحدتين أساسيتين من وحدات البناء، وهما البروتون والنيوترون ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ إشارة إلى وسائل النقل التي كانت مستعملة وقت نزول القرآن، والتي تنوّعت في العصر الحديث.

دعاء السفر

١٣ ـ ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ .

١٤ ـ ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

﴿لتستووا على ظهوره﴾ الضمير في ظهوره عائد إلى ﴿ما﴾ في الآية السابقة والمعنى: لتستعلوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام وغيرها من وسائل النقل القديمة والحديثة، ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ أي هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البر والبحر والجو ﴿وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا﴾ أي الذي ذلّل لنا هذا المركب ﴿وما كنّا له مقرنين﴾ ما كنا مطيقين لتسخيره لولا أن سخّره الله لنا، وقال أبو عبيدة: ﴿مقرنين﴾ أي ضابطين، ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي راجعون إليه، وفيه تذكير بمخاطر السفر واستعداد لنتائجها، أدخل اللام في الخبر هنا ﴿لمنقلبون﴾ على خلاف ما في سورة الشعراء ﴿قالوا لا ضير إنّا إلى ربنا منقلبون﴾[1] لأن الركوب في وسائل النقل عام لكل أحد، وما في الشعراء خاص بالسحرة الذين آمنوا.

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر، كبّر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ اللهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٥٠.

ألوان من مفترياتهم وأباطيلهم والردّ عليهم

ثم عاد إلى ما انجر الكلام منه فقال:

١٥ ـ ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

الجعل: الحكم بالشيء وهم الذين جعلوا لله نصيباً من الولد، والمقصود التنبيه على سخافة عقولهم، وقلة محصولهم فإنّهم مع الإقرار بأن خالق السماوات والأرض هو الله، جعلوا له من عباده جزءاً، أي أثبتوا له ولداً، وذلك أن ولد الرجل جزء منه، ﴿إن الإنسان لكفور مبين﴾ فإنه يجحد نعم الله عليه جحوداً بيّنا، إذ كانت النعم من الله شديدة الوضوح، كان جحودها من أبين الكذب، كما فعل هؤلاء الجهلة، إذ نسبوا إليه الولد وخصوه بأضعف الأولاد.

وحين وبّخهم على إثبات الولد زاد في توبيخهم وتجهيلهم والتعجب من حالهم فقال:

١٦ ـ ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾.

هذا استفهام توبيخ وإنكار، أي هل اتخذ ربكم مما يخلق لنفسه البنات ﴿وأصفاكم بالبنين﴾ وخصّكم أيها الكافرون بالبنين، فلو فرض أن له ولداً، فإنه يمتنع أن يكون أنثى لأن الابن أفضل من البنت ـ في عاداتكم ـ فكيف يتخذ البنات ويعطي لعباده البنين، مع أنه الخالق، والقول قوله والأمر أمره؟.

١٧ ـ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

﴿وإذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً﴾ أي بما جعل لله شبيهاً، وذلك أن ولد كل شيء شبهه وجنسه، لأن الولد يكون مماثلاً لوالده، والمعنى: إذا أخبر أحدهم بولادة بنت له كالبنات اللاتي نسبن إلى الله ﴿ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم﴾ صار وجهه مسودّاً من الكآبة وهو حزين لكراهيته البنات.

ثم زاد في الإنكار بتعديد طرف من صفات الإناث فقال:

١٨ ـ ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾.

الهمزة للإنكار والتوبيخ، أي أوجعلوا لله البنات اللاتي يربين في الزينة والنعمة، فالأنثى من طبيعتها التزيّن لاستمالة الجنس الآخر نحوها، لأنها لا تشعر بالأمان إلاّ بحماية الرجل لها ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾ أي أن الأنثى في النزاع والمجادلة غالباً ما تكون هي الطرف الأضعف في تقرير دعواها.

القــــراءة

﴿أو من ينشأ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ينشأ﴾ بفتح الياء وسكون النون.
ثم خصص أن البنات التي نسبن إليه تعالى من أيّ جنس من بعد ما عمّم فقال:

١٩ ـ ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ

أي أن قولهم السابق الملائكة بنات الله يتضمن فساداً آخر، وهو أن الملائكة إناث، هل حضروا خلق الله إياهم، فرأوا خلقة الملائكة حتى يشهدوا أنهم إناث؟ ثم أوعدهم بقوله ﴿ستكتب شهادتهم﴾ الباطلة على أنوثية الملائكة بصحائف أعمالهم ﴿ويسألون﴾ يوم القيامة.

القـــراءة

﴿عباد الرحمن﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبان عن عاصم، ﴿عبد﴾ الباء من غير ألف.

﴿أشهدوا﴾ قرأ نافع والمفضل عن عاصم ﴿أأشهدوا﴾ بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مضمومة، وفي رواية عنه ﴿أو شهدوا﴾ ممدودة من أشهدت.

ثم حكى نوعاً آخر من كفرهم وشبهاتهم فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ هذا قول الكفار للمؤمنين أي لو شاء الرحمن ما عبدنا هذه الملائكة، وهذا كلام حق يراد به باطل، لأنّهم يريدون بذلك أن الله راض عن عبادتهم للأصنام، وأنه لو لم يرض عبادتنا لها لعجّل عقوبتنا، ونظيره في سورة الأنعام قول المشركين ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾[1] فرد الله عليهم قولهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي أن المشيئة لا تستلزم الأمر الشرعي ولا الرضى بالفعل من العبد، فالله يأمرك وهو عالم بما تختار.

ثم زاد في الإنكار عليهم بقوله:

٢١ ـ ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾.

أي هل وجدوا ذلك الزعم الباطل في كتاب منزل من عند الله قبل القرآن ﴿فهم به مستمسكون﴾ فهم يأخذون بما فيه ويقولون عليه، ثم بين أن دليلهم هو التقليد الأعمى للآباء فقال:

٢٢ ـ ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾.

﴿على أمة﴾ أي على سنة وملة ودين ﴿وإنّا على آثارهم مهتدون﴾ فجعلوا أنفسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حجة، ثم سلّى نبيه ﷺ بأن هذا دأب أسلافهم فقال:

٢٣ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾.

﴿وكذلك﴾ أي وكما قالوا قال مترفو القرى من قبلهم من الأمم السابقة ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ أي إنّا على ملة آبائنا وطريقتهم متبعون ومقلّدون.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

عندما تتشبث الأمة بالتقليد تغلق على نفسها منافذ العقل والنظر، فلا تفكر ولا تهتدي، فالتقليد من آفات الأمم، وسبب ضلالها، وجمود الفكر فيها، فالشعب المقلد لآبائه تقليداً أعمى، لا يستجيب لأي دعوة إصلاحية، ولا يتطور نحو الأحسن في مجال العيش، ويعظم الخطر إذا كان الآباء منغمسين بالفواحش والمنكرات، وسار الأبناء على سيرة آبائهم.

ثم أمر النذير أن يقول لهم:

٢٤ ـ ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

أي أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أصوب وأرشد من دين آبائكم؟.

القــــراءة

﴿قال أو لو جئتكم﴾ قرأ ابن عامر وحفص ﴿قال أو لو جئتكم﴾ على الخبر، وقرأ الباقون ﴿قل﴾ بالأمر.

ثم رجع إلى الأمم الماضية فقال:

٢٥ ـ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

أي الأمم المكذبة السالفة بأنواع من العذاب كما فصّله تبارك وتعالى في قصصهم كيف بادوا وهلكوا.

طرف من قصة إبراهيم

ثم بيّن بقصة إبراهيم عليه السلام أن القول بالتقليد يوجب المنع من التفكير فقال:

٢٦ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾.

وذلك أن إبراهيم عليه السلام كان أشرف آباء العرب، وأنه ترك دين الآباء لأجل الدليل، فلو كانوا مقلّدين لآبائهم وجب أن يتبعوه، في الاعتماد على الدليل لا مجرد التقليد، والبراء بمعنى البريء.

٢٧ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

أي إلّا الله الذي خلقني فإنه سيرشدني للدين الحق ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ أي وجعل الله كلمة التوحيد وهي لا إله إلّا الله باقية في ذريته، ومنهم آل محمد ﴿لعلّهم يرجعون﴾ إلى التوحيد كلّهم إذا سمعوا أن أباهم تبرأ من الأصنام ووحّد الله عزّ وجلّ.

ثم ذكر نعمته على قريش فقال:

٢٩ ـ ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي إني أجزلت لهم النعم ولم أعاجلهم بالعقوبة، ثم أضرب عن رجاء الرجوع منهم إلى أن تمتعهم بالعمر وسعة الرزق، صار سبباً لعظم كفرهم وشدة عنادهم، وانشغالهم عن التوحيد، ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ الحق هو القرآن في الآية، ورسول مبين هو محمد ﷺ.

ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق قائلاً:

٣٠ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

جاؤوا بما هو شر من غفلتهم، وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق، ومكابرة الرسول وإنكار القرآن، وبعد أن وصف المشركون القرآن بأنه سحر، أرادوا أن يضيفوا إلى رفضهم لنبوة محمد ﷺ سبباً آخر، وهو أن محمداً ليس من عظمائهم وأغنيائهم، حتى يتقبلوا منه هذا الدين فقالوا:

٣١ ـ ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

أي هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل كبير في أعينهم ﴿من القريتين﴾ يعنون مكة والطائف، فألزمهم الله تعالى بأجوبة أولها قوله على سبيل الإنكار:

٣٢ ـ ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا، ثم يبيّن الله عز وجل بأنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والأفهام وغير ذلك فقال ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ السخرية في الآية معناها التعاون، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض وذلك لاحتياج هذا إلى هذا، وذلك إلى ذلك، ليتم قوام العالم، وذلك ما يطلق عليه التعايش السلمي.

وبعد أن بيّن الله بأنّه قد قسم الأرزاق بين عباده بين الحكمة في تفاوت الناس في الثروة فقال:

٣٣ ـ ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾.

﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ أي ولولا كراهة أن يعتقد كثير من الناس الجهلة، أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، لاجتمعوا على الكفر لأجل المال فلا يبقى من يوحّد الله ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة يرتقون عليها.

القـــراءة

﴿سَقفاً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لبيوتهم سَقْفاً﴾ بفتح السين وسكون القاف على الإفراد، وقرأ نافع وعاصم

وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿سُقُفاً﴾ بضم السين والقاف على الجمع.

٣٤ ـ ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ أي ولجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة ﴿وزخرفاً﴾ أي ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً في السقف والأبواب والسرر وغيرها، والزخرف: الذهب، أو الزينة والنقوش، يقال زخرفت الدار، أي زينتها، والحاصل: أنه سبحانه إن وسّع على الكافرين كل التوسعة، أطبق الناس على الكفر لحبهم الدنيا، وتهالكهم عليها مع حقارتها عند الله تعالى، وإنما لم يوسع على المسلمين كلهم، لتكون رغبة الناس في الإسلام لمحض الإخلاص، لا لأجل الدنيا، ثم بشر المؤمنين بقوله ﴿وإن كلُّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾.

القـــراءة

﴿لما﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وبقية القراء ما عدا عاصم وحمزة بالتخفيف ﴿لَمَا﴾. ثم بين أن مادة كل الآفات، وأصل جميع البلايا هو الركون إلى الدنيا والإعراض عن ذكر الله فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾.

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾ أي من يتعام عن القرآن وهو يعرف أنه الحق، ولكنه يتجاهل، كالأعشى الذي لا يبصر بالليل، ويبصر بالنهار، والمراد هنا عشا البصيرة ﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ أي نسبب له شيطاناً يلازمه فنجعل ذلك جزاء كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[1] ولهذا قال تبارك وتعالى:

٣٧ ـ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

أي أن الشياطين الذين يقيضهم الله لكل واحد ممن يعش عن ذكر الرحمن، يحولون بينهم وبين سبل الحق، ويمنعونهم منه، ويوسوسون لهم أنهم على الهدى ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ يحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة، أنهم في أنفسهم مهتدون.

٣٨ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾.

﴿حتى إذا جاءنا﴾ الكافر وقرينه الملازم له يوم القيامة، يقول الكافر للشيطان الذي وكل به متبرماً ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ والمراد بالمشرقين ها هنا هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل هاهنـا تغليباً، كما يقال القمران، والأبوان.

القـــراءة

﴿إذا جاءنا﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿جاءانا﴾ بألفين على التثنية، أي الكافر وشيطانه.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

ثم بين تعالى أن ذلك التمنّي لا ينفعهم وعلّله بقوله:

٣٩ ـ ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

تقوية العزيمة

ثم أخبر عنهم بما سبق لهم من الشقاوة فقال:

٤٠ ـ ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

لقد وصف الله الكفار بأن في أعينهم ضعفاً في البصر، وهو ضعف في البصيرة، والمراد أنهم يتعامون عن الحق، وهنا وصفهم بالصم والعمي، وهو تصوير رائع لما عليه الإنسان عند أول اشتغاله بالدنيا، وتعلقه بها مع غفلته عن ذكر الله وطاعته، يكون كمن في عينه رمد بسيط ثم إذا أوغل فيها وتمكّنت منه كان كالأعمى والأصم، والمقصود بالعمى والصمم في الآية، هو عمى القلب وصممه، فهو عمى معنوي لا حسي، ومن كان كذلك فقد ختم الله على قلبه، وجعل على عينه حجاباً كثيفاً فلن يبصر حقاً، ولن يسمع خيراً أبداً، وهؤلاء لا تقدر أنت يا محمد على هدايتهم، وليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم، ولكن الله وحده القادر على هداية من يشاء، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم، ولا تحزن على فقدان الإيمان منهم، فسلاّه ربه بقوله:

٤١ ـ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾.

دخلت ﴿ما﴾ توكيداً للشرط، ودخلت النون الثقيلة في ﴿نذهبنّ﴾ توكيداً أيضاً، والمعنى: إنّا ننتقم منهم إن توفيت، أو نرينك ما وعدناهم ووعدناك فيهم من النصر، وذلك يوم بدر، قال النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن، والحاصل: أنه تعالى توعد الكفار بعذاب الدنيا والآخرة جميعاً، ثم خاطب نبيه داعياً له ولقومه التمسك بالقرآن الكريم وما فيه من الهدى ففيه شرف له ولأمته فقال:

٤٣ ـ ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾.

﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ أي أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعلمهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم، قال ابن قتيبة: إنما وضع الذكر موضع الشرف، لأن الشريف يذكر ﴿وسوف تسألون﴾ يوم القيامة عن تبليغ الدعوة للناس، وهنا مثل قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا

شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[1] وحين كان السبب في بغض الكفار للنبي وعداوتهم له ﷺ إنكاره لأصنامهم، بين أنه غير مخصوص وحده بهذه الدعوة، وهذا الإنكار، ولكنه دين أطبق كل الأنبياء على الدعاء إليه فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

قال الزجاج: ورجحه ابن جرير الطبري، المراد بالخطاب خطاب أمته، فيكون المعنى: سلوا، وانظروا في كتب وأديان الأمم السابقة الذين أرسل لهم رسل لتروا جواب هذا السؤال، وأن الأديان كلها متفقة على التوحيد الخالص البريء، وعلى نفي عبادة غير الله، وهناك أمران، الأول: أن توجه النبي بالسؤال لمثل هذا يجعله غير متيقن بالوحدانية لله وهذا غير صحيح، والثاني: أن سؤال الرسل السابقين محال اليوم.

طرف من قصة موسى وفرعون

طعن كفار قريش في نبوة محمد ﷺ لفقره، ووصفوه بالسحر، وكان فرعون اللعين قد طعن في نبوة موسى بمثل ذلك حيث سجل الله ذلك في القرآن فقال:

٤٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ أرسل الله تعالى موسى إلى فرعون وأعوانه وأتباعه وإلى بني إسرائيل وأيده بعدة آيات، هي التسع: اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات، وبسبب استكبارهم وعصيانهم ترادفت عليهم الآيات، فكانت كل آية لكمالها في نفسها ووفائها بالغرض المقصود منها كأنها أكبر من التي قبلها ﴿وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون﴾ أي كانت تلك الآيات عذاباً لهم، ومعجزات لموسى عليه السلام وكانوا كلما جاءتهم آية من هذه الآيات يفزعون إلى موسى عليه السلام، ويتلطفون له في العبارة ويقولون:

٤٩ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾.

﴿وقالوا يا أيها الساحر﴾ خطاب لموسى، أي يا أيها العالم الماهر، ولم يكن السحر عندهم ذماً، بل كانوا يستعظمونه ولهذا قالوا ﴿إننا لمهتدون﴾ أي مؤمنون بك، فدعا موسى فكشف عنهم، فلم يؤمنوا.

٥٠ ـ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

٥١ ـ ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿ونادى فرعون في قومه﴾ خاف ميل القوم إلى موسى، فأمر منادياً ينادي بقوله ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ استفهام المراد منه التقرير أي قرروا بما تعرفونه من أني ملك مصر والأنهار فرع من فروع النيل الكثيرة تجري من تحت قصوري، وأنا صاحب التصرف فيها، وفي كل ما ينتج عن جريها من مزروعات ﴿أفلا تبصرون﴾ تلك الحقائق، ثم تابع فرعون قائلاً:

٥٢ ـ ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

ثم استأنف فقال بل أنا خير، أي خير من موسى الذي هو ﴿مهين ولا يكاد يبين﴾ ضعيف حقير، لا عز له ولا يكاد يبين أي لا يفصح في الكلام لما في لسانه من العقدة، ثم أذهبها الله عنه، فكأنه عيره بشيء قد كان وزال، ويدل على زواله سؤاله في سورة طه ﴿واحلل عقدة من لساني﴾[(١)] وقوله: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾[(٢)].

٥٣ ـ ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

قال فرعون: فهلا حلي بأساور الذهب إن كان عظيماً، وإنما قال فرعون هذا، لأنهم كانوا إذا سيدوا الرجل منهم سوروه بسوار ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ متتابعين يشهدون بتصديقه.

القــــراءة

﴿أسورة﴾ قرأ حفص ﴿أسورة﴾ بغير ألف وقرأ الباقون ﴿أساورة﴾ جمع إسوار.

٥٤ ـ ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي حملهم على أن يخفوا له في الطاعة بما أدخل عليهم من السفه والكيد والغرور، واستجهل عقولهم فأطاعوه، وقبلوا قوله، وكذبوا موسى، وهو من الاستغلال لحاجة الضعيف ففرعون استغلهم فأطاعوه.

٥٥ ـ ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٥٦ ـ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾.

﴿فلما ءاسفونا﴾ أي أغضبونا، انتقمنا منهم بعاجل العذاب فأغرقنا فرعون ومن معه جميعاً في البحر، ﴿فجعلناهم سلفاً﴾ أي متقدمين وعبرة للمتأخرين ليعتبروا من حالهم، فلا يقدموا على مثل أفعالهم.

---

(١) الآية: ٢٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٣٦.

نظرة المشركين إلى عيسى ابن مريم عليهما السلام

هذا نوع آخر من مفتريات وقبائح كفرة قريش والرد عليها يورده الله في الآيات التالية فيقول:

٥٧ ـ ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ .

لما نزل قول الله عز وجل: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾[1]، فضرب المشركون عيسى مثلاً لآلهتهم فقالوا: أليست النصارى يعبدون المسيح؟ فشبهوه بأصنامهم التي يعبدونها ﴿إذا قومك منه يصدّون﴾ أي إذا بالكفار لما سمعوا هذه المقالة، يضجون ويصيحون فرحاً بذلك المثل المضروب، ويقولون على لسان من يسمى عبد الله بن الزبعرى، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، كما عبدت النصارى المسيح عيسى ابن مريم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل ما يفند به هذه المقالة الباطلة، ويبين أن الذين مضوا على طاعة الله عز وجل من أنبيائه وأوليائه مبعدون عن النار فقال: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾[2]، أي أن هؤلاء يعملون الخير والصلاح ولا يقبلون أن يعبدوا من دون الله، فلا حجة للمشركين في ذلك.

القــــراءة

﴿يصدون﴾ قرأ نافع والكسائي وابن عامر ﴿يصُدون﴾ بضم الصاد وكسرها الباقون.

٥٨ ـ ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ .

﴿وقالوا ءآلهتنا خير أم هو﴾ يعنون أن عيسى ليس بأفضل من آلهتنا، فإن كان في النار لأنه عبد من دون الله، فقد رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلته، لأنها مما عبدها آباؤهم وأطبقوا عليها، فأبطل الله تعالى كلامهم بقوله ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾، أي ما ذكروا عيسى إلاّ ليجادلوك به أي ولم يريدوا الحق، وإلا فهم يعلمون أن عيسى عليه السلام جاء بالتوحيد وأوصى به قومه قائلاً «الرب إلهنا إله واحد» وأن المراد بـ ﴿حصب جهنم﴾ هو أصنامهم التي لا تعقل ولا تنطق ﴿بل هم قوم خصمون﴾ أي هم قوم يلتمسون الخصومة بالباطل.

ثم قرر أمر عيسى عليه السلام بقوله:

٥٩ ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

ثم خاطب الكفار فقال:

٦٠ ـ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ .

أي لو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم ملائكة في الأرض يعمرونها ويخلفونكم فيها، والغرض بيان كمال القدرة وأن كون الملائكة في السماوات لا يوجب لهم الألوهية، ولا نسباً من الله.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

ثم بين مآل حال عيسى عليه السلام بقوله:

٦١ - ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

٦٢ - ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها﴾ الضمير في ﴿إنه﴾ راجع إلى عيسى، والساعة هي القيامة، أي آية للساعة، وبعد أن بين القرآن بأن بعث عيسى علامة من علامات القيامة في آخر الزمان قال سبحانه ﴿فلا تمترن بها﴾ أي فلا تشكوا وترتابوا في حصول القيامة ﴿واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ أي أطيعوني أيها الناس فاعملوا بما أمرتكم به.

ويتابع القرآن الكلام عن عيسى عليه السلام وعن دعوته فيقول:

٦٣ - ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ولما جاء عيسى بالأدلة الواضحة والمعجزات الظاهرة على أنه رسول الله يحمل معه الإنجيل ﴿قال قد جئتكم بالحكمة﴾ النبوة التي ينطق فيها بالحكمة من الله.

٦٤ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

٦٥ - ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾.

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ الأحزاب الفرق التي تحزبت وتناظرت في أمر عيسى من اليهود والنصارى، فمنهم من أقر بأنه عبد الله ورسوله، ومنهم من قال أنه ولد الله وأنه إله، ومنهم من أنكر نبوته أصلاً ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ فهلاك الظالمين الذين كفروا بإسناد صفات الألوهية لعيسى وعذاب مؤلم لهم يوم القيامة.

٦٦ - ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أي هل يرتقب هؤلاء الكفار المخالفون للحق حتى يرجعوا إلى الصواب هل يظلون على عنادهم ويستمرون على كفرهم حتى تأتيهم الساعة التي تقوم فيها القيامة فجأة، وهم لا يشعرون غافلون.

ثم ينتقل القرآن ليبين خطر صداقة السوء القائمة على المعاصي، والتي تنقلب إلى عداوة يوم القيامة فقال:

٦٧ - ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

الأخلاء جمع خليل في الدنيا، إذا كانت صداقتهم في الشر والمعاصي تنقلب يوم القيامة إلى عداوة، فيتبرأ كل صديق من صديقه وكأنه لا يعرفه، أما الذين قامت صداقتهم ومحبتهم في الله وعلى تقوى الله فهي

محبة راسخة غير قابلة للتغيير وهذا هو معنى الاستثناء في قوله ﴿إلا المتقين﴾.

فإذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناد:

٦٨ ـ ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾.

أي يقال لهؤلاء المتقين المتحابين في الله هذه المقالة، فيذهب عند ذلك خوفهم، ويرفع حزنهم.

القــــراءة

﴿يا عباد﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ﴿يا عبادي﴾ باثبات الياء في الحالين، الوصل والوقف وإسكانها.

٦٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾.

٧٠ ـ ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾.

﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ أي ادخلوا الجنة أنتم مع أزواجكم المؤمنات تنعمون وتكرمون.

٧١ ـ ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب فيها ألوان الأطعمة مع أقداح من ذهب فيها ألوان الشراب.

٧٢ ـ ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

٧٣ ـ ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

ولما وصف تعالى حال السعداء ثنى بذكر وصف حال أهل الجرائم من الكفار فقال:

٧٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾.

٧٥ ـ ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾.

٧٦ ـ ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ أي لا يخفف عنهم العذاب، ومبلسون آيسون من رحمة الله، ولما أيسوا من فتور العذاب ونادوا:

٧٧ ـ ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾.

مالك اسم الملك الذي يتولى أمر جهنم ﴿ليقض علينا ربك﴾ بالموت فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما

قال عز وجل: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾[1] فأجابهم مالك ﴿قال إنكم ماكثون﴾.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق فقال:

٧٨ ـ ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

ثم عاد إلى توبيخهم وتجهيلهم والتعجّب من حالهم فقال:

٧٩ ـ ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾.

٨٠ ـ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

الآية تشير إلى ما كان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام في دار الندوة بمكة، وإلى ما كان من إحباط تلك المؤامرة ورد كيدهم في نحورهم ﴿والله يعصمك من الناس﴾[2]، وكما قال الله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾[3] ثم أكد علمه بأن حفظة الأعمال يكتبون كل شيء فقال: ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾.

استحالة الولد والشريك لله تعالى

ثم برهن على نفي الولد عن نفسه فقال لنبيه ﷺ:

٨١ ـ ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾.

المعنى: قل يا محمد إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبد هذا الولد الذي تزعمون ثبوته، ولكنه يستحيل أن يكون له ولد، وهذه قضية شرطية جزاؤها ممتنع، وهذا على سبيل الفرض والتقدير[4]، ثم نزه نفسه عما لا يليق بذاته ثم أمر نبيه أن يتركهم في باطلهم.

٨٢ ـ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

٨٣ ـ ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.

ثم مدح ذاته فقال:

٨٤ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

٨٥ ـ ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ٥٠.
(٤) انظر هامش زاد المسير ج ٧ ص ٣٣١.

الشفاعة

ثم أبطل قول الكفرة أن الأصنام تنفعهم وتشفع لهم فقال:

٨٦ ـ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

والمراد بالذين يدعون من دونه هم الأصنام والأوثان، والمعنى: لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إلاّ من شهد بالحق﴾ هذا استثناء منقطع، والمعنى: لكن من شهد بالتوحيد عن علم وبصيرة هو الذي يملك الشفاعة عند الله، مثل الملائكة وعيسى وعزير، وغيرهم من صالحي المؤمنين.

ثم كرر ما ذكر في أول السورة قائلاً:

٨٧ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿من خلقهم ليقولن الله﴾ أي هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ﴿فأنى يؤفكون﴾ أي فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف.

٨٨ ـ ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وقيله﴾ أي أن الله تعالى يعلم قول نبيه محمد وهو يشكو إليه قومه ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ وهو معطوف على الآية (٨٥) أي عند الله علم الساعة، وعلم قيله.

القـــراءة

﴿وقيله﴾ قرأ عاصم وحمزة: ﴿وقيله يا رب﴾ بكسر اللام، وقرأ الباقون بالنصب.

وهنا يأتي التوجيه الإلهي للنبي ﷺ بأن يقابل موقفهم بالصفح عن أذاهم له، وعدم الاكتراث لأمرهم مع الشعور بالثقة بالله فيقول:

٨٩ ـ ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

والمعنى: أعرض عما يقولون وما يرمونك به من السحر والكهانة، واصبر على دعوتهم إلى أن يأتي أمر الله ﴿وقل سلام﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيىء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ما أعظم هذا التوجيه وهذا النبي، لقد كان ﷺ خلقه القرآن، وإنه لخلق عظيم لرجل كريم ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته.

القـــراءة

﴿فسوف يعلمون﴾ قرأ نافع وابن عامر: ﴿فسوف تعلمون﴾ بالتاء على الخطاب.



سورة الدخان سميت لأنها تتحدث عن الدخان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ختم الله سبحانه سورة الزخرف بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه السورة أيضاً بمثل ذلك في الإنذار بالعذاب الشديد فقال:

١ - ﴿ حمٓ ﴾.

٢ - ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

٣ - ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾.

أقسم ربك بالقرآن الكريم الذي هو الكتاب المبين على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة هي ليلة القدر، والمراد من إنزال القرآن ابتداء نزوله ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

٤ - ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾.

أي يفصل ويبين كل أمر حكمه الله تعالى في تلك الليلة إلى مثلها من السنة الأخرى المقبلة من خلق أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم.

٥ - ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه، ومن جملته القرآن فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إنا كنا مرسلين﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات فإن الحاجة ماسة إليه ولهذا قال:

٦ - ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

٧ - ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾.

﴿رحمة من ربك﴾ وضع الظاهر موضع الضمير، إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة، ثم حقق ربوبيته بقوله ﴿إنه هو السميع العليم﴾ إن كنتم تريدون اليقين وتطلبون الوصول إلى الحقائق فاعلموا ذلك ﴿إن كنتم

موقنين﴾ أي إن كنتم تقرون بأن للسماوات والأرض رباً خالقاً عن علم ويقين فلا تشكوا فيه، وإن كنتم موقنين بشيء فأيقنوا بما أخبرتكم، وقيل إن نافية.

القـــراءة

﴿رب السماوات﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿رب السماوات﴾ بالخفض على الصفة على قوله ﴿رحمة من ربك﴾ وقرأ الباقون بالرفع.

٨ ـ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

ثم رد أن يكونوا موقنين فقال:

٩ ـ ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴾.

أي ما هم موقنين بحقيقة ما يقال لهم وما يخبرون به من هذه الحقائق.

آية الدخان

ثم قال عز وجل متوعداً لهم ومهدداً:

١٠ ـ ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾.

١١ ـ ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾.

١٢ ـ ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾.

١٣ ـ ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴾.

ذهب بعض المفسرين إلى أن آية الدخان قد مضت في زمن رسول الله ﷺ في قريش، وأنه لما أصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان.

وهذا التفسير لا يتفق مع سياق الآية ولا مع القاعدة المعروفة في سنة الله في أمة محمد من تأخير العذاب إلى أجل مسمى، وهو آخر الزمان الذي لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

أقول والذي عليه أكثر الصحابة والتابعين، وهو المروي عن ترجمان القرآن ابن عباس أن ظهور الدخان من أمارات الساعة كما جاء ذلك في صحيح مسلم، من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ أو تحشر الناس ـ تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا».

هذا وظاهر القرآن فيه دلالة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، قال الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ أي بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر في الرأي الأول الذي نسب لزمن النبي ﷺ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وليس بدخان حقيقي، وقوله تعالى ﴿يغشى﴾ أي يتغشاهم ويعميهم، وقوله ﴿هذا عذاب أليم﴾ وبعد قول بعضهم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ عند معاينتهم العذاب سائلين الله رفعه وكشفه عنهم، فيرد عليهم بأنه قد فات أوان الرجوع والتذكر الآن، وقد أرسل الله لهم الرسول والكتاب وبلغتهم دعوة الله من بعده ومع هذا تولوا عنه ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾ ﴿ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾[1]، كل ذلك يجعلنا نؤمن بأن آية الدخان من أمارات يوم القيامة، سائلين الله النجاة منها.

١٤ ـ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾.

أي أعرضوا عن الرسول ﴿وقالوا معلم مجنون﴾ أي إنما يعلمه بشر، وقالوا إنه مجنون، فكيف يتذكر هؤلاء وأنى لهم الذكرى، ثم يذكرهم القرآن بما جرى لهم في بدر من العذاب بالقتل والأسر والجرح والخزي، لكنّهم مع ذلك لم يتعظوا ولم يتذكروا فيقول:

١٥ ـ ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾.

وهذه الآية متعلقة في معناها بالآية (٧٦) في سورة المؤمنون قوله تعالى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ وهو عذاب قتالهم يوم بدر، لأن الآية التي قبلها كانت في الضر الذي أصابهم من المجاعة والقحط وأكلوا فيه العظام.

ثم عاد إلى الكلام على يوم القيامة فقال:

١٦ ـ ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

طرف من قصة موسى

ثم سلى نبيه ﷺ بقصة موسى فقال:

١٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾.

١٨ ـ ﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

١٩ ـ ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾.

٢١ ـ ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾.

(١) سورة الدخان، الآية: ١٤.

يخبر الله تعالى بأنه قد اختبر قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر، بإرسال موسى عليه السلام لهم بالآيات والحجج القوية ﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾ أي أرسلوا معي المؤمنين من بني إسرائيل وأطلقوا سراحهم من العذاب الذي هم فيه ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي إن لم تصدقوني وتقروا برسالتي فاتركوني ولا تتعرضوا لي بأذى.

القـــراءة

﴿إني﴾ قرأ قالون عن نافع ﴿إنيَ﴾ بفتح الياء.

وحين لم يزدهم ذلك إلاّ كفراً وعناداً، دعا موسى ربه دعوة نفذت فيهم فقال:

٢٢ ـ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾.

﴿فأسر﴾ أي فأجبنا دعاءه وقلنا له أسر ليلاً ﴿رهواً﴾ ساكناً ذا فرجة واسعة، وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً وبشره بأن قوم فرعون جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

٢٥ ـ ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾.

٢٩ ـ ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾.

كم للتكثير، أي تركوا بعدهم لغيرهم كثيراً من البساتين والقصور والأنهار والنعمة كانوا فيها أشرين بطرين مستخفين، مستهزئين لا يقومون بالشكر لصاحب تلك النعمة ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يستحق أصحابه أن يبكى عليهم، ولم يصعد إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكي عليهم، وفيه تمثيل وتخيل وتهكم بهم أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ويعتقدون أنهم لو ماتوا لقال الناس فيهم ذلك، فأخبر أنهم ما كانوا في هذا الحد بل كانوا دون ذلك ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا إلى الآخرة بل عجّل لهم في الدنيا.

٣٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾.

٣١ ـ ﴿ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

أي خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء وتخديم النساء.

ثم أثنى على بني إسرائيل بقوله:

٣٢ ـ ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٣٣ ـ ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ﴾.

اختارهم الله على علم منه على عالم زمانهم باستحقاقهم لذلك لكثرة الأنبياء فيهم، ولصبرهم مع موسى على أذى فرعون وقومه، وجهادهم في سبيل الله، فلما غيّروا غير الله عليهم ﴿وءاتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ أي اختبار وامتحان ظاهر واضح، فصبروا على ما أصابهم من البلاء في مصر، حتى استحقوا إنعام الله عليهم وإنجاءه لهم وإرسال الأنبياء والرسل فيهم.

إنكار البعث والرد عليهم

ثم عاد إلى ما انجر الكلام فيه، وهو قوله بل هم في شك يلعبون فقال:

٣٤ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾.

٣٥ ـ ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

فهؤلاء المشركون يزعمون أن نهاية المطاف هي موتتهم الأولى التي يموتونها في الدنيا ﴿وما نحن بمنشرين﴾ أي مبعوثين بعد الموت، ويضيفون إلى ذلك فيقولون:

٣٦ ـ ﴿ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

هذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، ثم قال متهدداً ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حلّ بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع فقال:

٣٧ ـ ﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

استفهام إنكار وتوبيخ لمشركي قريش، وقوم تبع هم سبأ حيث أهلكهم الله عز وجل وخرب بلادهم وشردهم في البلاد، وتبع لقب لملوك اليمن، والمراد أحد ملوك التبابعة، وكانت العرب تعرفه أشد معرفة من غيره، ويروى أنه كان رجلاً صالحاً وكان قومه موغلين في الإجرام، ذمّ الله قومه ولم يذمه، وإنما خصّهم بالذكر لقربهم من العرب زماناً ومكاناً ﴿والذين من قبلهم﴾ فهم قوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم الهالكة، ثم ينتقل القرآن إلى إيراد بعض الدلائل على صحة البعث:

٣٨ ـ ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

٣٩ ـ ﴿ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وفي ضوء ما تقدّم تأتي الآية التالية مؤكدة وقوع يوم القيامة لمحاسبة الخلق:

٤٠ ـ ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

٤١ ـ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

ويوم الفصل هو يوم القيامة، وسمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين أهل الحق وأهل الباطل، ﴿لا يغني مولى عن مولى﴾ أي يوم لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صاحب عن صاحبه شيئاً من عقوبة الله أو ينفعه. ثم أراد أن يختم السورة بوعيد الفجار ووعد الأبرار فقال:

٤٣ ـ ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾.

شجرة الزقوم هي التي خلقها الله سبحانه في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجأوا إليها ﴿طعام الأثيم﴾ مبالغة الإثم ولهذا يمكن أن يقال إنه مخصوص بالكافر ﴿كالمهل﴾ وهو الزيت المغلي أو المذاب من النحاس والحديد وغيرها من المعادن، الذي يغلي في البطون وغليانه كغلي ﴿الحميم﴾ وهو الماء الحار الشديد الحرارة، فذلك طعام وشراب أهل النار.

القـــراءة

﴿يغلي في البطون﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر ﴿تغلي في البطون﴾ بالتاء.

ثم يقال للملائكة الزبانية الموكلة بالتعذيب:

٤٧ ـ ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾.

﴿فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾ أي خذوا هذا الأثيم الكافر فادفعوه بعنف وغلظة إلى وسط جهنم ﴿عذاب الحميم﴾ ثم صبوا فوق رأسه الماء الساخن الذي تناهى حره، ثم يقال له استهزاءً به وتقريعاً ﴿ذق إنك أنت العزيز

الكريم﴾ أي ذق أيها المتعزز المتكرم في زعمك ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ أي الذي كنتم فيه في الدنيا تشكون، ولما كان الخطاب لكل أثيم جاء بالجمع.

القـــراءة

﴿فاعتلوه﴾ قرأ قالون عن نافع ﴿فاعتلوه﴾ بضم التاء، ﴿ذق إنك﴾ قرأ الكسائي ﴿ذق أنك﴾ بالفتح.

هؤلاء هم المتقون

ثم شرع في وعد الأبرار فقال:

٥١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾.

٥٢ ـ ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

٥٣ ـ ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾.

٥٦ ـ ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

٥٧ ـ ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

إن المتقين في الجنة في موضع إقامة يتنعمون في بساتين وعيون جارية، ويلبسون السندس وهو ما رق من الحرير، والاستبرق وهو السميك منه، ويجلسون قبالة بعضهم يتسامرون مستأنسين، وهكذا بمثل هذا النعيم أكرمهم الله وزوجهم بحور العين، وهي المرأة النقية البياض التي يحار الطرف في حسنها، وعين: جمع عيناء وهي الواسعة العينين ﴿يدعون فيها بكل فاكهة﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار كل ما يشتهون من الفاكهة، ولا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا.

القـــراءة

﴿إن المتقين في مقام﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿إن المتقين في مُقام أمين﴾ بضم الميم.

ويختتم الله السورة ببيان أن القرآن أنزل للعظة والاعتبار مع تطمين النبي ﷺ بالنصر على أعدائه فيقول:

٥٨ ـ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

٥٩ ـ ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾.

أي إنما سهلنا قراءة هذا القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد بلغتك ولغة قومك ليفهموه ويتعظوا بعظاته، ويتفكروا في آياته، فانتظر يا محمد النصر على هؤلاء المشركين المعاندين، إنهم منتظرون قهر الله لهم وغلبة الحق عليهم.

سورة الجاثية

سميت هذه السورة الجاثية لأن الله ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة، وما يكونون عليه من الفزع، فيجثون على الركب من شدة ما يصيبهم من الفزع والهول، وتسمى سورة الشريعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وكما ختم سورة الدخان بالكلام على القرآن استهل هذه السورة بالتأكيد على أن القرآن هو كتاب الله منزل من عنده، لا من تأليف البشر فقال:

١ ـ ﴿ حمٓ﴾.

٢ ـ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة، وذكر هذه الحروف إشارة إلى أن القرآن المعجز بأسلوبه وهديه مصوغ من مثل هذين الحرفين حم وغيرهما التي بها يتكلمون، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن عندما تحدّاهم ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾ أي أن القرآن هو كتاب منزل من الله لهداية الناس.

ولما كان بعض الناس يرتابون في وجود الله الذي أنزل القرآن، لذلك جاءت الآيات التالية تقدم البراهين المقنعة على وجود الله:

٣ ـ ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤ ـ ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٥ ـ ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالسماوات تحتوي على بلايين النجوم وغيرها من الأجرام السماوية، والأرض تحتوي على سهول وجبال ووديان وبحار وأنهار، ومعادن ومخلوقات حية كثيرة إنها ﴿لآية للمؤمنين﴾ فهي علامات على وجود الخالق ﴿وفي خلقكم﴾ وما تحتويه أجسامكم من عقل وحواس وأجهزة مختلفة من دم وهواء وماء، كالجهاز الهضمي والتنفسي والعظمي والعصبي، والتناسلي، وغير ذلك مما تستطيعون به العيش والتوالد.

قال الإمام النيسابوري في تفسير الآيات «ومما يختص بالمقام أنه خص المؤمنين بالذكر ثم قال لقوم

يوقنون ثم يعقلون، فما سبب هذا الترتيب» قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: أراد إن كنتم مؤمنين وإن كنتم طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين، ولا من الموقنين، فلا أقلّ من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل[١].

القـــراءة

﴿من دابة آيات﴾ ﴿وتصريف الرياح آيات﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿وما يبث من دابة آياتٍ﴾ ﴿وتصريف الرياح آياتٍ﴾ بالخفض فيهما.

ثم تأمل هذه النتيجة التي انتهى إليها القرآن بعد ذكر هذه المقدمة حيث قال:

٦ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

المشار إليها الآيات المتقدمة، والمعنى: إن من لم يؤمن بكلام الله فلن يؤمن بحديث سواه، لأن القرآن آخر كتب الله ومحمد ﷺ آخر رسله، فإن لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده يؤمنون، ولا كتاب بعده ولا نبي.

القـــراءة

﴿وآياته يؤمنون﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿وآياته تؤمنون﴾ بالتاء.

ثم أوعد الناس المبالغين في الإثم ممن اختاروا الضلال بدلاً من الهدى فقال:

٧ ـ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

٨ ـ ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

الويل والهلاك للذي أنكر الآيات الدالة على وجود الله فهو ﴿أفاك أثيم﴾ أي مبالغ في الكذب والإثم، وعلامة إثمه أنه يسمع آيات الله ناطقة بالحق فلا يستجيب لما فيها من الهدى، وزيادة في ذلك فإنه يتخذ مما سمعه مادة للسخرية، ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ أي عذاب مخز مذل لهم في نار جهنم.

١٠ ـ ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

كل ما توارى عنك فهو وراء تقدم أو تأخر، وفي ذلك بيان لصورة العذاب الذي يحيط بهم يوم القيامة، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً من الأموال والأولاد.

١١ ـ ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾.

أي هذا القرآن كامل في باب الهداية والإرشاد.

(١) تفسير غرائب القرآن على هامش تفسير الطبري ج ١١ (الجزء الخامس والعشرون) ص ٩١ ـ ٩٢.

فضل من الله علينا

ثم ذكر دليلاً آخر على الوحدانية وهو تسخير البحر لبني آدم فقال:

١٢ ـ ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

سخر ذلك وأخضع مياهه فجعلها صالحة للملاحة، والسباحة ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي بسبب التجارة أو بالغوص وصيد اللؤلؤ والسمك.

ثم عمم بعد التخصيص فقال:

١٣ ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿جميعاً منه﴾ سخر جميع ما تنتفعون به أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال ﴿منه﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك كما قال ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[1].

١٤ ـ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

قل يا محمد للمؤمنين الذين أصابهم أذى من الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث ولا يتوقعون وقوعه، قل لهم يصفحوا عن الأذى ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا بعد القدرة عليهم، فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة.

القـــراءة

﴿ليجزي﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿لنجزي﴾ بالنون، فكأنه قال لا تكافئوهم أنتم لنكافئهم نحن.

ثم فصّل الجزاء وعمم الحكم فقال:

١٥ ـ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.

أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

تحذير الكفار من أن يكونوا كبني إسرائيل وأمرهم باتباع شريعة القرآن ثم بين للمتأخرين من الكفار أسوة بالمتقدمين منهم حين خصهم الله في الماضي بالرسالة الإلهية ولكنهم اختلفوا في مضمونها فقال:

١٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٣.

﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿والحكم﴾ الفهم والفقه ﴿والنبوة﴾ من بعثه الله فيهم من الأنبياء ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب بما فيها المن والسلوى ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي: عالمي زمانهم، فقد سأل سليمان أن يؤتيه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ﴿وءآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي شرائع واضحات في الحلال والحرام، ﴿فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ أي ما وقع الخلاف بينهم في أمور الدين إلّا من بعد أن جاءهم العلم بحقيقة الدين وأحكامه، وهذا الخلاف كان بسبب البغي بينهم، والبغي يطلق على الظلم والتكبر والحسد.

وبعد أن انتهت النبوة في بني إسرائيل بسبب ظلمهم يبين الله أنه جعلها في رسوله محمد ﷺ، حيث خصه سبحانه بشريعة تبين الحق الذي اختلف فيه الناس، وتردهم إلى جادة الصواب فقال:

١٨ ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

الله يقول: ثم جعلناك يا محمد على طريقة ومنهاج من أمر الدين، وهي ملة الإسلام فاتبعها، ثم أشار بعد النهي عن اتباع أهوائهم بقوله ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾.

ويتابع القرآن مخاطبة النبي ﷺ فيقول:

١٩ ـ ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿إنهم لن يغنوا عنك﴾ أي: لن يدفعوا عنك عذاب الله إن اتبعتهم.

٢٠ ـ ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

أي هذا الإعلان على لسانك للناس باتباع شرائع الله وأن الله ولي متبعيها ﴿بصائر للناس﴾ أي براهين ودلائل لهم فيما يحتاجون إليه من أحكام الدين.

ثم بين الفرق بين الظالمين والمتقين من وجه آخر فقال:

٢١ ـ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

الاستفهام ها هنا استفهام إنكار، واجترحوا بمعنى اكتسبوا، والمعنى إنكار أن يستوي الفريقان حياة وموتاً، ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء حكم الكافرين في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين، ولقد ميز الله بين الفريقين، فجعل المؤمن في الجنة وجعل الكافر في النار.

القـــراءة

﴿سواءً محياهم﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿سواءٌ محياهم﴾ بالرفع.

وحين أفتى بأن المؤمن لا يساويه الكافر في درجات السعادات، استدل على صحة هذه الدعوى فقال:

٢٢ ـ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الغاية من خلق السماوات والأرض كان هو الإنسان الكامل فكيف يترك الله جزاءه وجزاء من ضده.

بعض سيئاتهم وجزاؤهم عليها

ثم قرر أسباب ضلال المضلين قائلاً:

٢٣ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي يتبع ما تدعو إليه نفسه الأمارة بالسوء دون مراعاة لمحبة الله ورضاه، ﴿وأضله الله على علم﴾ أي أنه على علم بالحق، ويعلم الهدى من الضلال، ولكن يترك الخير ويتبع الشر لشهوة نفسه، وأصر على عناده وطغيانه ولم تنفع معه المواعظ والزواجر ﴿وختم على سمعه وقلبه﴾ أي طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتى لا ينفعه الهدى ﴿وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد﴾ إضلال الله له ﴿أفلا تذكرون﴾، فتعرفوا قدرته على ما يشاء، وإن من فعل الله به ما وصفنا، فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً!.

القــــراءة

﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿غَشاوة﴾ بفتح الغين.

ثم ذكر من أسباب الضلال سبباً آخر وهو إنكارهم البعث فقال:

٢٤ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أنكروا البعث معتقدين أن لا حياة إلا هذه وليس وراء ذلك حياة، ثم إنهم لم يكتفوا بإنكار البعث والمعاد حتى ضموا إليه إنكار المبدأ قائلين ﴿وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾ اعتقدوا أن تولد الأشخاص وكون الممتزجات وفسادها، ليس إلاّ بسبب مرور الأيام والليالي، وهذه الآية رد على الدهرية، وهم قوم من العرب كانوا يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار ودورة الزمان، وينسبون الحياة والموت إلى الدهر، وإذا أصابهم مكروه سبوا الدهر، ووجد من غيرهم من الطوائف من يوافقهم على ذلك، من الفلاسفة والملاحدة في هذا العصر، حيث ينسبون الحياة وتنوع أشكالها إلى التطور الذي استمر ملايين السنين، وفي الحديث الصحيح نهي عن سب الدهر، فأجاب الله عن شبهتهم بقوله ﴿وما لهم بذلك من علم﴾ أي ليس لهم على ما قالوه دليل، وإنما ذكروا ذلك ظناً وتخميناً واستبعاداً، فلا ينبغي للعاقل أن يلتفت إلى قولهم، لأن الحجة قامت على نقيض ذلك، وهي دليل المبدأ والمعاد المذكور مراراً وأطواراً.

وبعد أن عالج القرآن معتقدات الدهريين، نقل على لسانهم أموراً تعجيزية، طالبوا بها وناقشهم القرآن بشأنها فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

إذا استدل عليهم وبيّن لهم الحق وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ما كان حجتهم إلاّ أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً، وليس قولهم هذا من الحجة في شيء، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال يمتنع حصوله في الاستقبال، بدليل الحادث اليومي الممتنع حصوله في الأمس.

وحين بكتهم وسكتهم صرح بما هو الحق فقال:

٢٦ ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

الله يحييكم في الدنيا ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة بالبعث والنشور والحشر إلى موقف الحساب، ووجه الرد عليهم أنهم مقرّون بأن الله أحياهم أولاً ثم يميتهم ثانياً كما دلل على ذلك بالحجج والبراهين في غير هذا الموضع، فالقادر على الإحياء أول مرة قادر على الإعادة بعد الموت.

ثم أراد أن يختم السورة بوصف يوم القيامة، وما سيجري على الكفار فيه فقال:

٢٧ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

٢٨ ـ ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

الأمة أصحاب الملة الواحدة، والناس لشدة الأمر يوم القيامة يجثون على ركبهم يوم القيامة بين يدي الله، ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي إلى صحيفة أعمالها التي كتبها الحفظة الكرام البررة والتي تحصى فيها الأعمال، والمراد أن لكل فرد من كل أمة صحيفة.

٢٩ ـ ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ونطق الكتاب معناه شهادته عليهم بما عملوا، لأنا كنا نأمر الملائكة أن تنسخ الكتب وتكتبها بالحق بلا زيادة ولا نقصان وبعد أن بين أن أعمال كل إنسان مسجلة في كتاب، عقب ذلك ببيان مصير المؤمنين في الآخرة فقال:

٣٠ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ أي في جنته جزاء لهم، وسميت الجنة باسم الرحمة مجازاً لأن الجنة مكان للرحمة. ثم ذكر مصير الكفار في الآخرة وواقعهم المؤلم مع توبيخهم وتقريعهم فقال:

٣١ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ .

٣٢ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ .

أي وإذا قيل لهم في الدنيا إن وعد الله حق بالبعث، وإن يوم القيامة آت لا شك فيه ﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾ أي أنكرتموها ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ أي لسنا على يقين من البعث والساعة، وما نعلم ذلك إلا ظناً وحدساً.

القــــراءة

﴿والساعة﴾ قرأ حمزة ﴿والساعة﴾ بالنصب.

٣٣ ـ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي ظهر لهم سيئات أعمالهم على الصورة التي هي عليها ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي أحاط بهم النكال والعذاب الذي كانوا يستهزئون بوقوعه.

٣٤ ـ ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾.

أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي كما تجاهلتم وأنكرتم البعث والعمل ليوم القيامة.

ثم ذكر سبب العذاب الشديد لهم فقال:

٣٥ ـ ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.

ذلكم الذي فعلنا بكم ﴿بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا﴾ أي مهزوءاً بها ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يسترضون ولا يطلب منهم الرجوع إلى طاعة الله عزّ وجلّ، لأنه ليس بحين توبة ولا اعتذار.

القــــراءة

﴿لا يُخرجون﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿لا يَخْرجون﴾ بفتح الياء وضم الراء.

ثم لما ذكر الله تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال:

٣٦ ـ ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿وله الكبرياء﴾ أي الجلال والعظمة والسلطان دون منازع أو مطالب فهو الحكيم في كل أفعاله وأقواله.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سورة الأحقاف سميت لورود كلمة الأحقاف في السورة.

إثبات الوحدانية لله ونفي الشركاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما ختم الله سورة الجاثية بذكر التوحيد وذم أهل الشرك والوعيد، افتتح هذه السورة أيضاً بالتوحيد ثم بالتوبيخ لأهل الكفر فقال:

١ ـ ﴿ حمٓ ﴾.

٢ ـ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

وبعد أن وصف الله تعالى نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال ذكر ما أنزل فقال:

٣ ـ ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾.

﴿إلا بالحق﴾ أي لا على وجه العبث والباطل ﴿وأجل مسمى﴾ إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ أي لاهون عما يراد بهم.

وحين بين الدليل على وجود الإله ووقوع الحشر، فرع عليه الرد على عبدة الأوثان فقال:

٤ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ولا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء قبل القرآن، أو آية يقينية من علم، أو شيء تأثرونه عن نبي كان قبل محمد ﷺ، والمراد أن أصنامهم وما تعبدون من دون الله، لا يستحقون العبادة أصلاً، لأنهم ما خلقوا شيئاً في هذا العالم لا في الأرض ولا في السماء، ولم يدل وحي من الله على عبادتهم، لأن هذا القرآن ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، وما من كتاب قبله إلّا هو ناطق بمثل ذلك.

ثم زاد في تبكيتهم وتوبيخهم فقال:

٥ ـ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

أي لا أحد أضل من عبد يدعو من دون الله آلهة ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ يعني الأصنام تظل لا تستجيب لو طلب منها شيء إلى يوم الحشر الذي يعرف فيه المشرك هذه المعبودات حق معرفتها، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾ عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل، وإنما عنى بوصفها بالغفلة، تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له.

٦ ـ ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾.

أي إذا حشر الناس العابدون للأصنام والأشخاص يوم القيامة، كانت معبوداتهم لهم أعداء، تتبرأ منهم وتلعنهم كقوله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾[1] وقال الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾[2].

شبهاتهم في نبوة محمد ﷺ

ثم قرر غاية عنادهم فقال:

٧ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

ثم عجب من حالهم بقوله:

٨ ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أم هنا بمعنى بل الإضرابية، والهمزة للإنكار، والمعنى: بل يقولون افتراه واختلقه ونسبه إلى الله ﴿قل إن افتريته﴾ على سبيل الفرض والتقدير كما تدعون ﴿فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي لا تقدرون على أن تردوا عني عذابه، فكيف أفتري من أجلكم؟ ثم فوض أمرهم إلى الله قائلاً: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ أي بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه من الكذب والقول بأنه سحر.

ثم أراد أن يزيل شبهتهم بنوع آخر من البيان فقال:

٩ ـ ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي ما أنا بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ في الدنيا أي

(١) سورة مريم، الآيتان: ٨١ ـ ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

إني لا أعلم الغيب، ولكن فيما يتعلق بالدين ﴿إن أتبع إلاّ ما يوحى إلي وما أنا إلاّ نذير مبين﴾ أي أتبع الوحي والقرآن ولا أبتدع من عندي شيئاً.

ثم قرر أنه لا أحد أظلم منهم فقال:

١٠ - ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به مع استكباركم عنه، ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ يدل على هذا الجواب المحذوف قوله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وبغض النظر عن اسم الشاهد الذي آمن من علماء بني إسرائيل لعدم صحة الأخبار في ذلك، فيكون المقصود أنه ثبت بالمعجزات القاهرة، أن هذا الكتاب هو من عند الله، وثبت بشهادة الثقات أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم النبي ﷺ.

ثم ذكر شبهة أخرى لهم وهي أنهم قالوا:

١١ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ هذا قول الكفار، وسواء القائل من المشركين أو من أهل الكتاب، وقالوا ذلك لما أسلم بعض المستضعفين الفقراء، أي لو كان دين محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء، يعنون أنهم أعز وأفضل وأعلم، ثم قال تعالى:

١٢ - ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾.

القـــراءة

﴿لينذر﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿لتنذر﴾ بالتاء، وعن ابن كثير كالقراءتين.

أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة، حالة كونه إماماً يقتدى به في دعوة الناس إلى التوحيد والحكم، وحالة كونه أنزل رحمة للناس، وهذا القرآن مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، حالة كونه لساناً عربياً مبيناً.

وحين قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبه المنكرين مع أجوبتها، أراد أن يذكر طريقة المحققين فقال:

١٣ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

١٤ - ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

الوصية بالوالدين ومدة الحمل

ولما كان أعظم أنواع الاستقامة هو الشفقة على خلق الله ولا سيما على الوالدين قال:

١٥ ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وحم وغثيان، وثقل وكرب، وعندما ولدته، ولدته بمشقة أيضاً من الطلق وشدته.

مدة الحمل

﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ هذه إشارة إلى أقل مدة الحمل والرضاع بحيث يكون للرضاع سنتان وللحمل ستة أشهر، وإلاّ فإن مدة الحمل المعتادة تسعة أشهر، ولكن هناك حالات شاذة لظروف غير عادية تحصل لبعض النساء، فتقل مدة حملها للولد عن تسعة أشهر، وبعضها تطول ولما كان الأمر متعلقاً بالأنساب وخوف اختلاطها، فقد وضع الفقهاء ضوابط لذلك استنبطوها من القرآن الكريم، فأقل مدة الحمل هي ستة أشهر استنبطوها من قوله تعالى ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ إذا ضم مع قوله في سورة لقمان: ﴿وفصاله في عامين﴾[1] وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾[2] فإذا كان فصاله ورضاعه في عامين، أي أربعة وعشرون شهراً، فيكون أقل مدة حمله ستة أشهر تكملة الثلاثين، فلو أن امرأة تزوجت وحملت ثم ولدت لمدة أقل من ستة أشهر من تاريخ العقد لا ينسب الولد للزوج. ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي قوي وشب وارتجل، وهو زمان الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء، وهو كما قال المفسرون ثلاث وثلاثون سنة تقريباً، وأن في الأربعين يتم الشباب وتأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص، والقوة العقلية والنطقية في الاستكمال، ومن جملة الكمال أنه حينئذ يقول ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي﴾ أي ألهمني ووفقني، وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عزّ وجلّ، ويعزم عليها.

القــــراءة

﴿إحساناً﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وابن كثير ﴿حسناً﴾ بغير ألف، ﴿كُرهاً﴾ قرأ قالون عن نافع: ﴿كَرْهاً﴾ بفتح الكاف.

---

(١) الآية: ١٤.

(٢) الآية: ٢٣٣.

١٦ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ .

القـــراءة

﴿نتقبل﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿يتقبل﴾ و ﴿يتجاوز﴾ بالياء المضمومة فيهما.

أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل اليسير من العمل ﴿وعد الصدق﴾ منصوب لأنه مصدر مؤكد لما قبله، لأنه وعدهم المقبول.

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال:

١٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ .

﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج﴾ هذا عام في كل من قال هذا، وعق والديه وكذب بالحق، ﴿أن أخرج﴾ أي أبعث من القبر يوم القيامة إن هذا أمر مستبعد مستنكر ﴿وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما آمن ﴿فيقول ما هذا إلاّ أساطير الأولين﴾ أي ما هذا الذي تقولان من البعث إلاّ أحاديث الأولين وأباطيلهم التي سطروها في الكتب.

القـــراءة

﴿أف﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿أفِّ﴾ بالخفض من غير تنوين، وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء.

١٨ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ .

﴿أولئك﴾ إشارة إلى السابق، جنس يعم كل من كان كذلك الكافر المكذب بالبعث، ثم ذكر من لم يعمل بالوصية ولم يطع ربه ولا والديه فقال: ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾.

ثم ميز حال المؤمن من حال الكافر فقال:

١٩ ـ ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ .

أي منازل ومراتب بحسب ما اكتسبوه من إيمان وكفر، فيتفاضل أهل الجنة في الكرامة، وأهل النار في العذاب.

القـــراءة

﴿وليوفيهم﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وبقية العشرة بالنون ﴿ولنوفيهم﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

واذكر لهم يوم يعرض الذين كفروا على النار يوم القيامة ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ والمراد بطيباتهم، ما كانوا فيه من اللذات مشتغلين بها عن الآخرة معرضين عن شكر المنعم بها.

القـــراءة

﴿أذهبتم﴾ قرأ ابن عامر ﴿أأذهبتم﴾ بهمزتين، وقرأ ابن كثير ﴿آذهبتم﴾ بهمزة مطولة.

قصة نبي الله هود مع قومه عاد

إنّه سبحانه بعد حكاية شبه المكذبين والأجوبة عليها، وبعد تمام ما انجر الكلام إليه، أمر نبيه ﷺ أن يذكر قومه بقصة هود أخي عاد، لأنّه واحد منهم فقال:

٢١ ـ ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

واذكر يا محمد لأهل مكة هودا ﴿أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ الأحقاف جمع حقف، والحقف كثيب الرمل العظيم المستطيل المعوج، والأحقاف في جنوب الجزيرة العربية ما بين عُمان وحضـرموت في بلاد الشحر باليمن، والله أعلم أنها بمشارف الربع الخالي.

٢٢ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾.

﴿لتأفكنا عن آلهتنا﴾ أي لتصرفنا عن عبادتها، وحين استعجلوه بالعذاب قال لهم: ﴿إنما العلم عند الله﴾ هو يعلم متى يأتيكم العذاب لأنه هو الذي قدره لا أنا، ولم يخبرني متى سيأتي، ولا معنى لاستعجالكم، ولهذا نسبهم إلى الجهالة، وأي جهل أعظم من نسبة نبي الله إلى الكذب.

٢٤ ـ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي فلما رأوا السحاب ﴿عارضاً﴾ في نواحي السماء مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض أي سحاب

ممطرنا، فقال لهم هود ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ أي أن هذا ليس بسحاب وإنما هو ريح العذاب.

٢٥ - ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

فأهلك العذاب بالريح كل شيء مرت به من الناس والدواب والأموال.

القـــراءة

﴿لا يرى﴾ قرأ عاصم وحمزة ﴿فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم﴾ مضمومة الياء والنون على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون ﴿لا ترى إلاّ مساكنهم﴾ على خطاب النبي ﷺ.

ثم زاد في تخويف كفار مكة وذكر فضل عاد في القوة الجسمانية، وفي الأسباب الخارجية فقال:

٢٦ - ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ ما موصولة، وإن نافية: والمعنى: مكّناهم في المال وطول العمر وقوة الأبدان، والجنات والعيون والمصانع والبيوت وغيرها، مكناهم بمقدار لم نجعل لكم مثله، فقد كانوا أشد منكم يا أهل مكة، ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾ ولكنهم لم يستخدموها فيما خلقت له، ولم يغن عنهم ﴿سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ من عذاب الله ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء.

ثم زاد كفار مكة أكثر في التخويف فقال:

٢٧ - ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

يا أهل مكة لقد أهلكنا ما حولكم من القرى كأهل الحجر وقرى قوم لوط وغيرها، وكانت أخبارهم متواترة عندكم ﴿وصرفنا الآيات لعلّهم يرجعون﴾ أي بينا الحجج ونوعناها وأوعدناهم وأمهلناهم لكي يرجعوا عن كفرهم فلم يرجعوا فأخذوا بالعذاب.

ثم وبخهم بأن أصنامهم لم يقدروا على نصرتهم وشفاعتهم فقال:

٢٨ - ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ فهلا نصرتهم آلهتهم التي تقربوا إليها بزعمهم لتشفع لهم ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أي لم ينفعوهم عند نزول العذاب، فغابوا عن نصرتهم ولم يحضروا عند الحاجة ﴿وذلك إفكهم﴾ أي عدم نصرة آلهتهم وضلالهم محصول افترائهم وثمرة كذبهم وعاقبة شركهم.

الجن

وحين بيّن أن في الإنس من آمن وفيهم من كفر، أراد أن يبين أن نوع الجن أيضاً كذلك فقال:

٢٩ ـ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾ أي أملنا إليك، والنفر ما دون العشرة، وعلى ذلك يكون استماعهم للقرآن على غير علم منه حتى أوحى الله إليه، وكان ذلك في صلاته وذلك ما روي عن ابن عباس.

٣٠ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

عدم ذكر الإنجيل هنا وفي قوله تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ فيه إشارة يفهم منها أن التوراة والإنجيل لرسالة واحدة يكمل أحدهما الآخر ولذلك تسمى التوراة: العهد القديم، والإنجيل العهد الجديد، ولا يعنينا على أي دين كان الجن الذين استمعوا للرسول ﷺ ولا كم كان عددهم ولا في أي مكان.

٣١ ـ ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وءآمنوا به﴾ هذا كلام الجن لقومهم ويعنون داعي الله محمداً ﷺ والقرآن، قال ابن كثير: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن، حيث دعاهم إلى الله وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة ﴿الرحمن﴾.

٣٢ ـ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

من دلائل البعث

ثم احتج على إحياء الموتى بقوله:

٣٣ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: ألم يتفكروا ويعلموا أن الذي خلق هذه الأجرام العظام ﴿ولم يعي بخلقهن﴾ أي ولم يكترثه خلقهن، بل قال لها كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ والباء مؤكدة في ﴿بقادر﴾ وذلك لاشتمال الآية على النفي، كأنه قيل أليس الله بقادر، والمقصود تأكيد ما مر في أول السورة من دلائل البعث والنبوة.

القــــراءة

﴿بقادر﴾ قرأ يعقوب الحضرمي من القراء العشرة ﴿يَقْدر﴾ بياء مفتوحة وسكون القاف.

ثم قال جلّ جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به:

٣٤ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار ويعذبون بها، يقال لهم توبيخاً وتهكماً: أليس هذا العذاب الذي ترونه وتلمسونه حقاً لا شك فيه؟ قالوا بلى وربنا إنه لحق عدل، فإذا كان الأمر كذلك، فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكفرون.

ختام السورة

لما تقررت المبادىء الهامة في الدين الإسلامي، وهي التوحيد وإثبات النبوة والبعث يوم القيامة، ورد القرآن الشبهات، وضرب الأمثال بما يقوي العزائم، ويوهن حجج المعاندين، وبين مآلهم يوم القيامة أردف ذلك بأمر النبي ﷺ بالصبر والثبات واحتمال الأذى فقال:

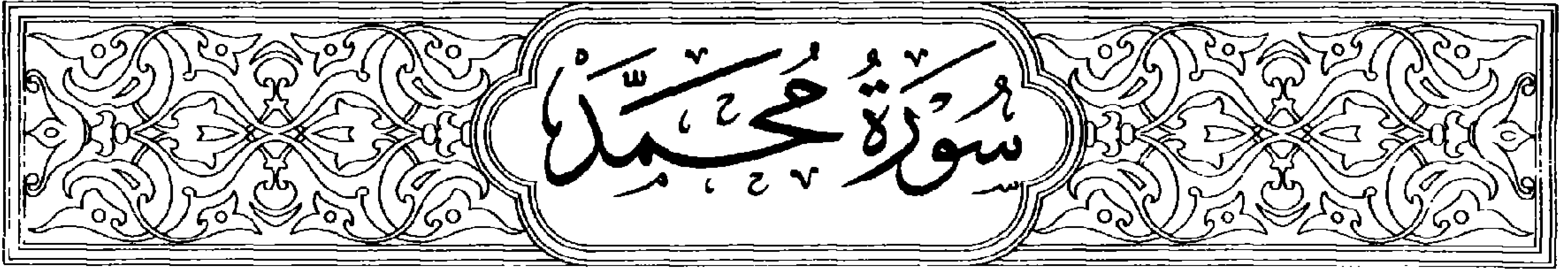
٣٥ ـ ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ كل الرسل أرباب عزم وجد في تبليغ ما أمروا بأدائه، واشتهر لدى المفسرين من الأقوال بأنهم خمسة المذكورين في سورتي الأحزاب والشورى، الأولى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾[1] والثانية ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[2]، ﴿ولا تستعجل لهم﴾ يعني العذاب، وكأنهم يوم يشاهدون العذاب في الآخرة لم يلبثوا في الدنيا إلّا قدر ساعة من ساعات الأيام، لما يشاهدونه من الهول العظيم ﴿بلاغ﴾ وبعد أن تمّ الكلام قال بلاغ، أي هذا الذي وعظتم به بلاغ يقطع حجة الكافرين.

---

(١) الآية: ٧.

(٢) الآية: ١٣.



سورة محمد سميت لورود ذكر محمد ﷺ في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحوال الكفار والمؤمنين

أول هذه السورة مناسب لآخر سورة الأحقاف كأنه قيل كيف يهلك الفاسق إن كان له عمل صالح، فأجاب في أول هذه السورة فقال:

١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾.

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ الذين كفروا بوحدانية الله، وصدوا الناس عن الإيمان به، وأضل أعمالهم أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، فمهما تصدق الكافر أو عمل خيراً لا يحتسب له ما دامت نيته لم تتجه لله، وهو كقوله: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾[1] ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ يعني القرآن وهو تخصيص بعد تعميم، ولم يقتصر على هذا التخصيص الموجب للتفضيل، ولكنه أكده بجملة اعتراضية هي قوله ﴿وهو الحق من ربهم﴾ ولأن الحق هو الثابت ففيه دليل على أن دين محمد ﷺ لا يرد عليه النسخ أبداً، ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ وتكفير السيئات من الكريم سترها بما هو خير منها، فهو في معنى قوله: ﴿فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾[2] ﴿وأصلح بالهم﴾ والبال لا يثنى ولا يجمع، ولذلك قال بالهم، ومعناه جعل نفوسهم مطمئنة بسبب إيمانهم، وفسر بالحال وجاء في تشميت العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم».

والحاصل: أن قوله وآمنوا بما نزل على محمد بإزاء قوله وصدوا عن سبيل الله، فأولئك امتنعوا عن اتباع سبيل محمد ﷺ، وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباعه، فلا جرم إن حصل لهؤلاء ضد ما حصل لأولئك، فأضلّ الله حسنات أولئك وستر على سيئات هؤلاء، وقد أشار إلى هذا الحاصل بقوله:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾

﴿ذلك﴾ الإضلال والتكفير بسبب اتباع أولئك الباطل الشيطان وحزبه، وأولئك الحق محمد والقرآن ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي مثل ذلك الضرب يضرب الله للناس كلهم أمثال أنفسهم، وأمثال المذكورين من الفريقين، على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا.

لما بين حال الكافر وإضلال أعماله، وحال المؤمن وتكفير سيئاته، وبين السبب فيهما كان ذلك نهاية الإيضاح فقال:

٤ ـ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٥ ـ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

٦ ـ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ أي إذا واجهتموهم في دار الحرب أو القتال، والمقصود بذلك أمر بالجهاد، وهم من لم يكن له عهد من المشركين ومن لم يكن من أهل الكتاب ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ أكثرتم القتل فيهم، وأفنيتم قوتهم الضاربة، حتى عادوا بلا قوة كالرجل المثخن بالجراح ﴿فشدوا الوثاق﴾ فأسروا ما قدرتم عليه مشدودين إليكم بما تتوثقون من عدم إفلاتهم.

﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ فإما أن تمنوا عليهم بعد الأسر مناً، أو يفدوا فداء، والمن الإطلاق بغير عوض، والفداء المال يفدي به الأسير نفسه من الأسر، وقال الإمام الشافعي: لإمام المسلمين أن يختار أحد أربعة أمور هي: القتل، والاسترقاق والمن: وهو الإطلاق من غير عوض بأسارى المسلمين، أو بمال، ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ أي لا تكون حرب مع الكفار بأن يضع المحاربون أسلحتهم بالهزيمة، والإمام ملزم قبل الإثخان بالقتل فقط، حتى يكون الانتصار ولا تكون الهزيمة، وبعد الإثخان هو مخير بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخير بين المن والفداء، ويجوز القتل للمصلحة العامة لمن في وجوده خطر على الأمة، لقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾[1] ثم بين أنه منزه في الانتقام من الكفار عن الاستعانة بأحد فقال ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ بغير قتال أو بتسليط الملائكة أو شيء من أضعف خلقه عليهم ﴿ولكن﴾ أمركم بقتالهم ﴿ليبلوا بعضكم ببعض﴾ فيمتحن المؤمنين بالكافرين هل يجاهدون في سبيله حق الجهاد أم لا؟ ويبتلي الكافرين بالمؤمنين هل يذعنون للحق أم لا؟ إلزاماً للحجة وقطعاً للمعاذير، ومعنى الابتلاء من الله سبحانه أي يعاملهم معاملة المختبر، أو ليظهر الأمر لغيره من الملائكة أو الثقلين، ثم وعد الشهداء والمجاهدين بقوله ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾ ﴿سيهديهم﴾ إلى الثواب ويثبتهم على الهداية ﴿ويصلح بالهم﴾ أمر معاشهم في المعاد، وكرر لأن الأول سبب النعيم، والثاني نفس النعيم ﴿ويدخلهم الجنة عرّفها لهم﴾ جعل كل واحد بحيث يعرف مآله في الجنة، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

القــــراءة

﴿قتلوا﴾ قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿قُتِلوا﴾ وقرأ الباقون : ﴿قاتلوا﴾ بالألف.

ثم حث على نصرة دين الله بقوله:

٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ .

أي إن تنصروا دين الله ينصركم على عدوكم ويثبت أقدامكم عند القتال.

٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ .

٩ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ .

والذين كفروا حالهم بالضد، يقال تعساً له في الدعاء عليه بالعثار والتردّي ﴿وأضل أعمالهم﴾ أي أحبطها وأبطلها، ثم بين سبب بقائهم على الكفر والضلالة فقال ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن والتكاليف ﴿فأحبط أعمالهم﴾ بذلك السبب، والمراد ما كانوا عملوا من أعمال الخير في نظر الناس، لأن عمل الكافر لا يقبل إلّا بالنية الخالصة لله.

المؤمنون والكافرون في الدنيا

ثم هددهم بحال الأقدمين فقال:

١٠ ـ ﴿ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ .

أي أفلم يسيروا سياحاً في الأرض فينظروا نظرة اعتبار كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم المكذبة التي كذبت رسلها، كعاد وثمود وأصحاب لوط، فإن آثارهم باقية تنبىء عن أخبارهم، ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ هدّم الله عليهم ديارهم أو أهلكهم واستأصلهم، ولهؤلاء الكافرين عاقبة مثل عاقبة من قبلهم، من الأمم الكافرة بالجزاء المناسب، وقد قتلوا وأسروا وجرحوا يوم بدر وبعدها من الحوادث المعارك.

١١ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ .

﴿ذلك﴾ النصر ﴿بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ أي وليهم وناصرهم ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ بمعنى النصرة والعناية فلا ناصر يدفع عنهم عقوبة الله.

ثم برهن على الحكم المذكور وهو أن ولايته مختصة بالمؤمنين فقال:

١٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ .

يتمتعون بمتاع الدنيا، وينتفعون كما تنتفع الأنعام بالأكل، أكلاً مجرداً عن التفكر والنظر إلى عواقب الأمور، ليس لهم همّ إلّا بطونهم وفروجهم، لاهون بما هم فيه.

ثم زاد في تهديدهم فقال:

١٣ ـ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾.

وكم من أهل قرية هم أشدُّ قوة من أهل قريتك الذين أخرجوك أهلكناهم بعذاب بئيس، ولم يستطيعوا الخلاص منه بأنفسهم، ولم يكن لهم ناصر ينصرهم.

ثم بين الفرق بين أهل الحق وحزب الشيطان فقال:

١٤ ـ ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾.

والمعنى: أيستوي الفريقان فمن كان ثابتاً على حجة ظاهرة، وبرهان واضح من ربه، كمن يزين له الشيطان عمله السيىء من الشرك وسائر المعاصي، واتبع هواه الداعي إلى الشر وترك الخير.

وحين أثبت الفرق بين الفريقين أراد أن يبين الفرق بين جزائهما فقال:

١٥ ـ ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾.

﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها العجيبة الشأن ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآسن المتغير ﴿كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً﴾ أي من كان في هذا النعيم، كمن هو خالد في النار، ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات.

ثم ذكر نوعاً آخر من قبيح خصال الكافرين وربما عنى المنافقين فقال:

١٦ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

ومن هؤلاء المنافقين من يستمع إليك يا محمد ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ أي من عند مجلسك وبعد الاستماع لخطبك ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة أي سألوهم ﴿ماذا قال آنفا﴾ أي ماذا قال النبي الساعة؟ أي لم يقل شيئاً نفهمه، لأنّ سؤالهم سؤال استهزاء وإعلام أنهم لم يلتفتوا إلى قوله، ولو كان سؤال بحث عما لم يفهموه لم يكن كذلك ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ أي بسبب اتباعهم لأهوائهم وأنفسهم وقيادة الشيطان لهم المستمرة، التي لا يرجى منها عودة للحق أو اختيار الخير والهدى وطبع الله على قلوبهم.

ثم مدح أهل الحق بقوله:

١٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾.

الذين اهتدوا بالإيمان أي اختاروه على الكفر ﴿زادهم هدى﴾ زادهم الله بأن وفقهم وثبتهم وشرح صدورهم ونور يقينهم لإصرارهم على الخير والإيمان ﴿وءاتاهم تقواهم﴾ أعطاهم ثواب تقواهم في الآخرة.

ثم خوف أهل الكفر والنفاق باقتراب يوم القيامة فقال:

١٨ ـ ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

أشراط الساعة علاماتها، وساعة كل إنسان موته، وأشراط الساعة بالنسبة لكل إنسان مرضه، وأشراط الساعة بالنسبة للكفار في زمن النبي أخذهم بالجهاد وإعلانه، وأشراط الساعة ليوم القيامة مقرونة في آخر الزمان، ومنها الدخان والدجال، وبعث عيسى ابن مريم ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي من أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة؟ حينئذ يكون قد فات الوقت للتذكر، إذا علمت ذلك فاثبت على ما أنت عليه، ودم على العلم بوحدانية الله والإيمان بالبعث واعلم ما يتلى عليك من قوله.

القـــراءة

﴿فقد جاء أشراطها﴾ قرأ قالون عن نافع: ﴿فقد جاء اشراطها﴾ بدون همزة.

١٩ ـ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾.

﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ الفاءات في هذه الآية وما تقدمها لعطف جملة على جملة بينهما اتصال، وأما التقلب فمعناه منتشركم في النهار، والمثوى في الليل، والمقصود بيان كمال علمه بحال الخلائق، فعليهم ألا يهملوا دقائق الطاعة والخشية ويواظبوا على طلب المغفرة.

المؤمنون الصادقون والمنافقون الكاذبون

ثم ذكر طرفاً آخر من نصائح أهل النفاق ومن ينخرط في سلكهم من ضعفة الإسلام فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

٢١ ـ ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

يقول الله تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس، ﴿لولا أنزلت سورة﴾ مشتملة على حكم القتال ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾ أي سورة بينة واضحة لا تحتاج آياتها إلى تفصيل وغير متشابهة، وفرض فيها الجهاد ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ شك في الله وآياته وهم المنافقون ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ من فزعهم ينظرون إليك نظر من شخص بصره عند الموت، لجبنهم عن القتال وميلهم إلى الكفار، ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فأولى

لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾ وفي الآية تهديد لهم.

ثم التفت وخاطب المنافقين وكفار قريش بقوله:

٢٢ ـ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾.

فهل يتوقع منكم إن توليتم عن الحق، وأعرضتم عن القرآن الذي يأمركم بالوحدة والتعاون والتحاب والتعاطف أن تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وتقطعوا الأرحام، وهذا التوقع والاستفهام إنما يكون مع غير الله من كل إنسان يقف على أمور المنافقين والمشركين، ويعرف أسرارهم على حقيقتها، والتوقع من الله إنما هو إخبار عن شيء حاصل قطعاً.

القــــراءة

﴿فهل عسيتم﴾ قرأ قالون عن نافع ﴿فهل عسِيتم﴾ بكسر السين.

العذاب النفسي في الدنيا

ثم صرح بما فعل الله بهم واستقر عليه حالهم فقال:

٢٣ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾.

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي أبعدهم من رحمته وطردهم عنها لإصرارهم على الكفر والنفاق واختيار الشر، ثم بين نتيجة اللعن قائلاً: ﴿فأصمهم﴾ أي عن قبول الحق بعد استماعه وهذا عذاب نفسي في الدنيا ﴿وأعمى أبصارهم﴾ عن النور فلا يرونه بقلوبهم لأن العمى عمى القلب لا البصر.

لما أخبر عنهم بما أخبر حكى أنهم بين أمرين، إما أن لا يتدبروا القرآن لأن الله أبعدهم عن الخير، وإما أن يدبروا لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة، حيث بين الله تعالى ذلك فقال:

٢٤ ـ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾.

إنما ذكرت القلوب لأنه أريد البعض وهو قلوب المنافقين، و ﴿أم﴾ بمعنى ﴿بل﴾ وذكر الأقفال استعارة، والمراد أن القلب يكون كالبيت المقفل لا يصل إليه الهدى، قال مجاهد: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد ذلك كله.

ثم أخبر عن حال المنافقين أو اليهود الذين غيروا حالهم من بعد ما تبين لهم حقيقة الإسلام فقال:

٢٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

أي رجعوا كفاراً بعد الإسلام ووضح لهم الحق، بسبب اتباعهم الشيطان الذي زين لهم ﴿وأملى لهم﴾ غرهم وخدعهم.

القــــراءة

﴿أملى لهم﴾ قرأ أبو عمرو، وزيد عن يعقوب ﴿وأملي لهم﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله.

٢٦ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾.

﴿ذلك﴾ الإملاء أو الإضلال أو الارتداد بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله أي اليهود للمنافقين ﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾ الذي يهمكم، كالتظافر على عداوة محمد، والقعود عن الجهاد معه وغيره ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ جمع سر أي يعلم ما بين المنافقين واليهود من تحالف وتعاون ومؤامرات.

القــــراءة

﴿إسرارهم﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، ﴿والله يعلم إسرارهم﴾ بكسر الألف وقرأ الباقون ﴿أسرارهم﴾ بالفتح.

٢٧ ـ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾.

فكيف يصنعون وما هي حالهم إذا توفتهم الملائكة عند الموت، يضربون وجوههم وأدبارهم فهم قد تجنبوا ذلك الضرب في الدنيا، فضربوا عليها في الآخرة.

٢٨ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

ذلك كله بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله من الكفر والمعاصي، وكرهوا رضوانه وطاعته ﴿فأحبط أعمالهم﴾ وأبطل كيدهم.

ثم زاد في تعيير المنافقين فقال:

٢٩ ـ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾.

أي أحسب الذين في قلوبهم شك من النفاق أن لن يخرج ما في صدورهم من العداوة ويكشف مؤامراتهم، وهل يعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهم ذوو البصائر، وسورة براءة كانت تسمى «الفاضحة» التي تفضح المنافقين وتكشف خبايا نفوسهم، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

٣٠ ـ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

أي ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها ﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي

بعلامتهم الخاصة بهم، التي يتميزون بها، ثم بين مثالاً على تلك العلامة فقال ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، بعد هذا ألا يتكلّم منافق عن النبي ﷺ إلاّ عرفه بقوله، واستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه، وضعف إيمانه ونفاقه ولا غرابة ﴿والله يعلم أعمالكم﴾، فيخبر بها رسوله بالوحي.

٣١ ـ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

أي ولنعاملنّكم معاملة المختبر بأن نأمركم بالجهاد، حتى يظهر المجاهد والصابر من المنافق والمضطرب ﴿ونبلوا أخباركم﴾ نظرها ونكشفها امتحاناً ليظهر للناس من أطاع ما أمره الله به، ومن عصى ولم يمتثل.

القــــراءة

﴿ولنبلونكم﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿وليبلونكم﴾ بالياء.

ثم أنزل الله في اليهود قوله تعالى:

٣٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

يخبر الله عمن كفر وصدّ عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وعاداه ﴿من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ ارتدوا عن الإسلام والإيمان من بعد ما علموا أنه نبي من عند الله بما شاهدوا من المعجزات والحجج القاطعة.

ثم أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله بالتوحيد والتصديق فقال:

٣٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي لا تحبطوا أعمالكم بأنفسكم كما فعل الكفار بالارتداد عن الإسلام أو بالشك أو الرياء والنفاق، ولذلك قال بعدها.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾.

إذا علمتم وجوب الجهاد وتأكيده، وأن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد، وأن الله أوعد الكافرين الخذلان والهلاك وعدم المغفرة، إذا علمتم ذلك:

٣٥ ـ ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

أي فلا تضعفوا، ولا تجبنوا ﴿وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ أي لا تدعوا إلى إلقاء السلاح والصلح ابتداء وأنتم في حال قوتكم وعلوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ، حين صدّه

الكفار عن مكة ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم إلى ذلك ﴿ولن يتركم﴾ لن ينقصكم من ثواب أعمالكم.

القـــــراءة

﴿السَّلم﴾ قرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم بكسر السين ﴿السِّلم﴾

ثم زادهم حثاً على الجهاد بتحقير الدنيا في أعينهم فقال:

٣٦ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾.

﴿ولا يسألكم أموالكم﴾ أي لا يسألكم أموالكم جميعها، بل يطلب منكم إخراج جزء منها في الصدقات والزكوات وسائر وجوه الطاعات، ولا يسألكم أموالكم لنفسه ولكن لتكون زاداً لكم في المعاد، ثم قال ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا﴾ أي بجهدكم يبلغ الغاية فيها، من أحفى شاربه، استأصله كأنه جعله حافياً مما في ملكه أي عارياً ﴿ويخرج أضغانكم﴾ أي تضغنون على الرسل وتظهرون كراهة هذا الدين، لذلك فإنه فرض عليكم يسيراً بعض أموالكم لا كلّها.

ثم بين أنه كيف يأمركم بإخراج كل المال وقد دعاكم إلى إنفاق البعض فقال:

٣٨ ـ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾.

ها للتنبيه، وكرر مع هؤلاء للتوكيد، أي أنتم يا مخاطبون، ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا وما وصفنا؟، ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ وهو الزكاة أو الغزو فمنكم ناس يبخلون، ثم قبح أمر البخل بقوله﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾أي وباله على نفسه أو عن داعي ربه، ثم مدح نفسه بالغنى المطلق وبين بقوله﴿وأنتم الفقراء﴾ لا يأمر بالإنفاق لحاجته ولكن لفقركم إلى الثواب، ثم هدّدهم بقوله ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ يخلق قوماً سواكم راغبين فيما ترغبون عنه، من الإيمان والتقوى كقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾(١).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٩ وسورة فاطر، الآية: ١٦.



سورة الفتح سميت لورود كلمة الفتح في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صلح الحديبية

ختم الله سورة محمد بقوله ﴿الله الغني وأنتم الفقراء﴾ ومن غناه أنه فتح لنبيه ﷺ ما قاساه في دينه ودنياه فقال:

١ ـ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾.

هذه السورة نزلت عقب انصراف النبي ﷺ، إلى المدينة المنورة بعد أن عقد مع قريش عقد صلح الحديبية، وكان ذلك سنة ست من الهجرة، وكان قد سار إلى مكة لأداء مناسك العمرة، فصدتهم قريش، وانتشر الخبر بأن قريشاً قتلت عثمان بن عفان، فبايع النبي ﷺ أصحابه على القتال، وتسمى بيعة الشجرة، بايعهم على ألا يفروا، وكان هذا الصلح هو الفتح، وبعد رجوعه إلى المدينة فتح الله عليه خيبر، ولم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام.

والمعنى: حكمنا لك بالنصر يا محمد على أعدائك نصراً واضحاً ظاهراً لا مجال للشك فيه أو الإنكار، وسمي فتحاً لأنّه كان سبباً في فتح مكة، كما أنّه كان فتحاً للقلوب لتقبل الإسلام، وأثاب الله نبيه على هذا الفتح بالغفران بقوله:

٢ ـ ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

٣ ـ ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾.

﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ قد يرد سؤال هنا ما المناسبة بين الفتح والمغفرة حتى جعلت غاية له؟، الجواب: الغاية هي مجموع المغفرة وما ينعطف عليها، كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة وغيره من الفتوح ليجمع لك بين عز الدارين، أي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، واللام لام (كي) والمعنى لكي يجتمع لك، وليس الذنب الذي غفره الله لنبيه كذنوب الناس، لأن الأنبياء معصومون من الكبائر، والمعنى: ما تقدم من ذنبك قبل النبوة، وقال ابن عباس في الجاهلية ﴿وما تأخر﴾ عنها بالعصمة ﴿ويتم نعمته

عليك﴾ بإعلاء دينك وفتح البلاد على يدك لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾(١) ومن إتمام النعمة تكاليف الحج، وقد تم يومئذ ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي يثبتك ويهديك عليه فإنّ الفتح لا يكون إلّا لمن هو على صراط الله، ولعلّ المراد بهذا الخطاب أمته.

ثم بيّن سبب النصر بقوله:

٤ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ السكون والوقار والطمأنينة والثقة بوعد الله لئلا تنزعج قلوبهم لما يرد عليهم، فسلموا لقضاء الله، وكانوا قد اشتد عليهم صد المشركين لهم عن البيت، حتى قال عمر علام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني»(٢) فلما سلموا وأطاعوا عوضهم الثقة والطمأنينة بوعده كما في سورتي البقرة والتوبة ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ أي يقيناً مع يقينهم، وإيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله، وعن ابن عباس أن أول ما أتاهم بعد النبي ﷺ التوحيد، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة ثم الزكاة، ثم الجهاد، ثم الحج ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾ يريد أن جميع أهل السماوات والأرض ملك له، لو أراد نصرة نبيه بغيركم لفعل، ولكنه اختاركم لذلك لدينه فاشكروه.

ثم بين الله ما أعد للمؤمنين من نعيم في الآخرة فقال:

٥ ـ ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾.

سبب نزولها أنه لما نزل قوله ﴿إنا فتحنا لك﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ هنيئاً لك يا رسول الله بما أعطاك، فما لنا؟ فنزلت هذه الآية، قاله أنس بن مالك(٣) كما في الصحيحين، قال ابن جرير: كررت اللام في ﴿ليدخل﴾ على اللام في ﴿ليغفر﴾ فالمعنى: إنا فتحنا لك ليغفر لك الله ليدخل المؤمنين، ولذلك لم يدخل بينهما واو العطف، والمعنى: ليدخل وليعذب، قال النيسابوري(٤) قال بعض العلماء ضم المؤمنات هاهنا إلى المؤمنين بخلاف قوله ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وقوله ﴿وبشر المؤمنين﴾ ونحو ذلك، والسر فيه أن كل موضع يوهم اختصاص الرجال به مع كون النساء مشاركات لهم، ذكرهن صريحاً، نفياً لهذا التوهم، وكل موضع لا يوهم ذلك اكتفى فيه بذكر الرجال لأنهم الأصل في أكثر الأحكام والتكاليف ومن المعلوم أن البشارة والنذارة عامة للناس قاطبة، فلم يحتج فيها إلى ذكر النساء بخلاف هذه الآية، فإن إدخال الجنة يوهم أنه لأجل الجهاد مع العدو، والفتح على أيديهم، والمرأة لا جهاد عليها، فكان يظن أنهن لا يدخلن الجنات، فنفى الله تعالى هذا

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) رواه أحمد والبخاري.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٤٥٦.

(٤) تفسير غرائب القرآن على هامش تفسير الطبري ج ١١ ص ٥٢.

الوهم، وكذا الكلام في تعذيب المنافقات والمشركات.

لما تقدم الوعد للمؤمنين عقبه سبحانه بالوعيد للكافرين فقال:

٦ ـ ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

يخبر الله بأنه سيعذب المنافقين والمشركين ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ وهو ظنهم أن الله لن ينصر رسوله، وأن كلمة الكفر تعلو على الإسلام والمؤمنين، ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي ما يتربصونه ويظنونه بالمؤمنين دائر عليهم، حائق بهم كما تحيط الدائرة بالشيء، والعذاب في الدنيا إما أن يكون نفسياً بالهم والغم، أو بالختم أو الغطاء والإركاس ونحوه كما يقول الله عز وجل: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾[٣]، ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾[٤]، وإما أن يكون عذاباً بالقتل والأسر وذلك بجهاد المسلمين لهم، وغضب الله ولعنه لهم، صفتان فيهما من التهديد والوعيد لهؤلاء المنافقين والمشركين ما يردعهم عما هم عليه من الشرك والنفاق.

القـــراءة

﴿السوء﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين، والباقون بفتحها.

ثم كرر القرآن قوله تعالى:

٧ ـ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

وبعد أن فصل بأنه يغضب عليهم أولاً ثم يوبقهم في حيز اللعن والبعد عن الرحمة ثم يسلط عليهم ملائكة العذاب الذين هم جنوده، ولا ريب أن كل ذلك على قانون الحكمة، إلا أنه قرن العلم في الأول إلى الحكمة بقوله ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ تنبيهاً على أن إنزال السكينة وازدياد إيمان المؤمنين، وترتيب الفتح على ذلك كانت كلها ثابتة في علم الله جارية على وفق الحكمة، وقرن العز بالحكمة ثانياً في هذه الآية بقوله ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ لأن العذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم يناسب ذكر العزة والغلبة والقهر.

المتعاهدون مع الله ورسوله

ثم مدح رسوله ﷺ وذكر فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة فقال:

٨ ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

أي تشهد على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم، فتبشر المطيعين بالجنة، وتنذر العاصين بالنار.

ثم بيّن الغاية من إرسال الرسول للناس فقال:

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٣٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٨.

٩ ـ ﴿ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

﴿وتعزروه وتوقروه﴾ كلاهما بمعنى التعظيم ومن تعظيم الله عبادته والتسبيح له في الصباح والمساء.

القـــراءة

﴿لتؤمنوا بالله﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ﴿ليؤمنوا﴾ ﴿وتعزروه وتوقروه وتسبحوه﴾ كذلك بالياء وقرأ الباقون على معنى قل لهم.

ثم انتقل القرآن إلى الثناء على المؤمنين الذين عاهدوا محمداً ﷺ على النصرة فقال:

١٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

يبايعونك: أي يعاهدونك، والمبايعة المقصودة هنا هي بيعة الرضوان، وقد أشرنا إليها من قبل، وسماها مبايعة تشبيهاً بعقد البيع، نظيره ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾[1]، ﴿إنما يبايعون الله﴾ لأن طاعة الرسول هي طاعة الله في الحقيقة ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ والمراد كما قال ابن جرير الطبري قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم، والمعنى: أن الله يحفظهم على بيعتهم، ثم زجرهم من نقض العهد وحثهم على الوفاء بقوله: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ أي لا يعود ضرر نكثه إلاّ عليه، قال جابر بن عبد الله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت، وعلى ألا نفر، فما نكث أحد منا البيعة، إلاّ الجد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت إبط ناقته ولم يثر مع القوم، أي لم يبايع.

القـــراءة

﴿فسيؤتيه﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبان عن عاصم، بالنون ﴿فسنؤتيه﴾.

إعجاز القرآن

ثم بين ما يعلم منه إعجاز القرآن لأنه أخبر عن الغيب وقد وقع مطابقاً فقال:

١١ ـ ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾

لما أراد رسول الله ﷺ العمرة استنفر من حول المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه، خوفاً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو بصد، فتثاقل عنه كثير منهم، فهم الذين عنى الله بقوله ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ وكان ممن طلبهم للخروج معه قبائل غفار ومزينة وجهينة، وأسلم وأشجع، وهذيل فتخلف من

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

هؤلاء أكثرهم حذراً من القتل مع أن النبي ﷺ أحرم بالعمرة وساق الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، ومع هذا تخلف الأعراب وتثاقلوا عنه، واعتلوا بالشغل وقالوا ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ قالوا هذا بألسنتهم، والله يعلم إنهم لكاذبون ففضحهم وأنزل في شأنهم قرآناً يخبر بخبرهم قبل أن يلقوه ويقولوا ما قالوا ﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئاً﴾.

وإنما قال ها هنا بزيادة لفظة ﴿لكم﴾ لأنه في قوم بأعيانهم، بخلاف المائدة فإنه عام، ثم رد قولهم اللساني فقال: ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾.

القـــراءة

﴿ضرا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الضاد ﴿ضُراً﴾ والمعنى سوء الحال.

ثم رد اعتذارهم الواهي بقوله:

١٢ - ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾.

﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ والمعنى: أي توهمتم ألا يرجع المؤمنون إلى المدينة لاستئصال العدو إياهم ﴿وزين ذلك في قلوبكم﴾ وذلك من تزيين الشيطان، فلأجل ذلك تخلفتم، ولما ذكرتم من المعاذير الباطلة ﴿وظننتم ظن السوء﴾ ظنوا أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ أي هالكين عند الله.

والسبب في تخلف هؤلاء الأعراب هو عدم تغلغل الإيمان في قلوبهم، ولهذا ينذر الله هؤلاء بقوله:

١٣ - ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾.

١٤ - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

الذي ينذر الكفار بعذاب جهنم هو الذي يملك السماوات والأرض وهو وحده الذي يملك المغفرة لمن يشاء، كما يملك العذاب لمن يشاء من عباده، ولكن غفرانه ورحمته أعم وأشمل ولهذا ختم الآية بها.

ثم تأتي الآيات التالية وفيها وعد من الله للمسلمين تبشرهم بالنصر والغنيمة، وهنا يبدي الأعراب الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية رغبتهم في المسير مع النبي للحصول على الغنائم بعد النصر، فيحدد الله للمؤمنين الموقف الذي ينبغي أن يقفوه من هؤلاء الأعراب فيقول:

١٥ - ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

فهذه الآية تنبىء بنبأ غيبي وهو أن هؤلاء المخلفين من الأعراب، سيقولون للمسلمين عندما يرونهم يسيرون نحو خيبر، ﴿ذرونا نتبعكم﴾ أي دعونا نلحق بكم ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ وكلام الله المراد هنا، وعد الله للمسلمين الذين شهدوا الحديبية بغنائم خيبر خاصة لهم لا يشاركهم فيها أحد، وذلك من إعجاز القرآن ﴿قل لن تتبعونا﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معنا للجهاد في خيبر ﴿كذلك قال الله من قبل﴾ أي ذلك ما أخبر الله به من قبل رجوعنا من الحديبية بأن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية فقط.

لقد تصور هؤلاء الأعراب ضعفاء الإيمان بأن الإسلام هو مجرد غنائم يربحونها، ولكنهم نسوا تبعات الإسلام من التضحية والدفاع والجهاد لإعلاء كلمة الله، فإذا تم النصر تكون الغنائم بعض نعم الله عليهم، وليست هي المقصودة من الجهاد، ثم لهم بعد ذلك الثواب الكبير في الآخرة، درس كبير لقّنهم الله إياه جزاء تقاعسهم عن نصرة نبيهم، ولكن الله لم يدعهم في مجال الحرمان أبداً، بل ترك لهم الباب مفتوحاً ليلجوا منه إلى المغفرة، ورضوان الله ورسوله، وأنه إذا دعا داعي الجهاد ثانية فليلبوا النداء عن طواعية ورغبة وإيمان، وهذا ما سوف يجيء في الآية بقوله تعالى:

١٦ ـ ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿المخلفين من الأعراب﴾ هم مخلفو الحديبية ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ هم المشركون في عهد النبي وبعده قبائل هوازن وغطفان، وبنو حنيفة قوم مسيلمة، وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ويدخل في ذلك كل أهل الأوثان، وهم أهل فارس، على ما رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأما أهل الكتاب لا تشملهم الآية بقبول الجزية منهم، ولعدم إنكارهم وجود الله ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا﴾ قال الزجاج: المعنى: إن تبتم وتركتم نفاقكم وجاهدتم يؤتكم الله أجراً حسناً، وإن توليتم فأقمتم على نفاقكم وأعرضتم عن الإيمان والجهاد كما توليتم على عهد رسول الله ﷺ ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾.

أهل الأعذار في ترك الجهاد

١٧ ـ ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

هذا تمثيل لذي الأعذار من ذوي العاهات، وغير القادرين على حمل السلاح ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ أي إثم في التخلّف، لأنه كالطائر الذي قص جناحه، وقدم الأعمى لأن عذره مستمر، والأعرج قد يمكنه الركوب والرمي وغير ذلك، ولكنه قد يتعسر عليه الحرب، التي تحتاج إلى الكر والفر والتمرينات القاسية، والمرض عذر دائم ما دام الإنسان مريضاً، فإن شفي فقد زال عذره ولذلك أخره، والقول في كل ذلك من الموانع الحسية والحكمية للأطباء.

بيعة الرضوان

ثم يعود بنا القرآن إلى الثناء على هؤلاء المؤمنين الذين عاهدوا رسول الله في الحديبية على الجهاد بنصرة دين الله وعلى الثبات معه حتى الموت فيقول:

١٨ ـ ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

١٩ ـ ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

يشير الله سبحانه في هذه الآية إلى بيعة الرضوان حيث بايع المؤمنون نبيهم محمداً في ظل شجرة السمرة ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ أي من الصدق والوفاء، والمعنى عَلِمَ أنهم مخلصون ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ يعني الطمأنينة والرضى حتى بايعوا على أن يقاتلوا ولا يفروا ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ هو فتح مكة وخيبر ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ بما أفاء الله عليهم بعد ذلك من الفتوح الكثيرة التي فتحها المسلمون.

ثم يتابع القرآن تأكيده فيذكر وعد الله للمؤمنين بفتوحات وغنائم وافرة تقرّ بها أعينهم فيقول:

٢٠ ـ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ .

٢١ ـ ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه﴾ هي التي أصابوها مع النبي ﷺ، ومنها خيبر وفتح مكة، ولذلك قال: تأخذونها بالتاء ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ كلمة الناس كلمة تعني الكفار بالآية، فيدخل فيه أهل خيبر وحلفاؤهم، ممن حاولوا الاعتداء عليكم ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ أي ليكون الإخبار بالغيب والنصر والتأييد والتثبيت، والمغانم آية على صدق الرسول ونبوته، وآية يقوى بها إيمان الضعفاء والمخلفين فيزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أي يزيدكم بتلك الآية هدى على طريق الحق وهو الإسلام.

﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ قال المفسرون ما فتح الله للمسلمين بعد ذلك، ومعنى لم تقدروا عليها أي في الوقت الحاضر، ولكن الله سبحانه قد أحاط بها علماً بأنها ستفتح لكم، وصدق الله ورسوله وكان ذلك، ولما كانت هذه النعمة توحي بدلالتها على تفرد الله عز وجل بالقدرة، ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

ثم بين أن نصر الله إياهم في صلح الحديبية أو في فتح خيبر لم يكن اتفاقياً بل كان إلهياً سماوياً فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

هذا خطاب لأهل الحديبية، ﴿والذين كفروا﴾ أي مشركو قريش، والمعنى: لو قاتلوكم يوم الحديبية لولوا الأدبار لما في قلوبهم من الرعب يومئذ ﴿ثم لا يجدون ولياً﴾ لأن الله قد خذلهم.

٢٣ ـ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

سنة الله منصوبة على المصدر، والمعنى: هذا حكم الله في خليقته بأن سن الغلبة لأنبيائه وللمؤمنين ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييراً بل إن ذلك ثابت في كل زمان ومكان.

ثم يقدم القرآن بعد ذلك للمؤمنين على تأييد الله لهم فيقول:

٢٤ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

قال أنس: إن ثمانين رجلاً من أهل مكة، هبطوا على النبي ﷺ من جبل التنعيم، متسلحين يريدون غِرَّة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً واستحياهم، أي أذلهم، فأنزل الله تعالى[1] ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة﴾ وهي الحديبية لأنها من أرض الحرم، و(الغـرة) بكسر الغين، أي يريدون أن يصادفوا منه، ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم، ليتمكنوا من غدرهم والفتك بهم، وقوله (سلـماً): معناه الانقياد والاستسلام، وأسلموا أنفسهم عجزاً، وهو من قوله ﴿وألقوا إليكم السلم﴾ أي الانقياد، ومعنى الآية: إن الله سبحانه وتعالى ذكر منته إذ حجز بين الفريقين فلم يقتتلا حتى تم الصلح بينهم ﴿ببطن مكة﴾ بيّنا أن المقصود بها الحديبية وهي جزء من الحرم، وسميت بطن مكة لقربها من مكة، ومكة وبكة واحد، وهي مؤنثة ومعرفة، ويصلح اشتقاقها كاشتقاق (بكـة) والميم تبدل من الباء، يقال: ضرب لازم، وضرب لازب.

القــراءة

﴿تعملون﴾ قرأ أبو عمرو بالياء ﴿يعملون﴾ وقرأ الباقون بالتاء.

ثم يذكر القرآن السبب الذي من أجله منع المسلمون من دخول مكة، مع أن العادة عند العرب لا تمنع أحداً من دخولها للعبادة.

٢٥ ـ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

الكفار من أهل مكة منعوا المسلمين بقيادة النبي ﷺ من دخول المسجد الحرام لأداء العمرة والعبادة كما

(١) رواه مسلم.

منعوا المسلمين أن يسوقوا معهم الهدي إلى مكة، والهدي هو ما يهدى إلى البيت للفقراء ﴿معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي ظل هذا الهدي من البقر والغنم والإبل محبوساً في الحديبية، ممنوعاً أن يساق إلى المكان الذي يحل فيه الذبح في الحرم الشريف ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ وهم المستضعفون بمكة، أي لولا كراهة أن تصيبوا بالأذى رجالاً مؤمنين، ونساءً مؤمنات موجودين بين كفار مكة، وكاتمين إيمانهم، لأذن الله لكم بدخول مكة وقتال أهلها، ولكن الله لم يأذن لكم خوفاً ﴿أن تطؤوهم﴾ أي توقعوا بهم وتهلكوهم ﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ أي فيصيبكم من جراء قتلهم إثم وعيب ومشقة، بقتل من هم على دينكم وأنتم لا تعلمون ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي ليدخل في الإسلام من أهل مكة وغيرها من يشاء قبل أن تدخلوها فاتحين ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز المسلمون عن الكفار ففارقوهم وخرجوا من ديارهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لأهلكهم الله ببعض ما يؤلمهم من عذابه العاجل، فمن أجل هؤلاء المؤمنين المستترين بسط الله رحمته على أهل مكة ورحم بهم غيرهم من الكفار الذين اختاروا بعد ذلك هداية الله ودخلوا في الإسلام، وبذلك يتم الله نعمة الحياة ونعمة الإسلام.

ثم يصف القرآن تكبر الكفار وجهلهم في أثناء توقيع الصلح مع رسول الله فيقول:

٢٦ ـ ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ يجوز أن ينتصب بإضمار أذكر، والحمية الأنفة والاستكبار التي كان عليها أهل الجاهلية، ومن ذلك عدم إقرارهم بمحمد ﷺ، ما جرى في قصة االحديبية حين اتفقوا على الصلح، ورجوع النبي مع أصحابه إلى المدينة، وكذلك أبوا أن يكتب في كتاب الصلح ذكر الرحمن الرحيم، وذكر رسول الله ﷺ ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ أي أنزل الطمأنينة والوقار حيث لم يدخلهم من العصبية ما دخل أهل الكفر، وثبتهم على التقوى على الرضى والتسليم و ﴿كلمة التقوى﴾ هي لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وألزمهم تعظيم الحرم، وترك القتال فيه ولم يستفزهم صنيع الكفرة لينتهكوا حرمة الحرم ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار، وكانوا المستأهلين لها دونهم.

تحقيق رؤيا الرسول

٢٧ ـ ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

قال المفسرون: سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان رأى في المنام قبل خروجه إلى الحديبية قائلاً يقول له: «لتدخلن المسجد الحرام ـ إلى قوله ـ لا تخافون»، ورأى كأنه هو وأصحابه يدخلون مكة، وقد حلقوا

وقصروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، فلما خرجوا إلى الحديبية، حسبوا أنهم يدخلون مكة في عامهم ذلك، فلما رجعوا ولم يدخلوا قال المنافقون: أين رؤياه التي رآى؟ فنزلت هذه الآية فدخلوا في العام المقبل لعمرة القضاء، وقد أورد هذا الحديث عدد من المفسرين وإن لم يكن في الصحاح، لكن معناه ثابت في الآية، وهو الرؤيا ﴿لقد صدق الله رسولـه الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء وقوله تعالى ﴿إن شاء الله﴾ فيه تعليم وتأديب وإرشاد إلى استعمال الاستثناء في كل موضع، قال ثعلبة: إن الله استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، وقيل ليستثني من لم يشأ الله لهم الدخول كالذين ماتوا قبل ذلك، ﴿آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين﴾ أي آمنين من العدو، محلقاً بعضكم شعره، ومقصراً بعضكم شعره، وحلق الرأس استئصال الشعر كله، وهو أفضل والتقصير أخذ بعضه، والحلق أو التقصير لا يكونان إلّا بعد الفراغ من الحج أو العمرة، فذكرهما مقترنين بدخول مكة تأكيد وإخبار بالغيب لحالة الأمن التي سيكون عليها المسلمون عند دخولهم مكة ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلـد، ثم رتب على الصدق وعلى سوء الظن للقوم فقال ﴿فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي من الحكمة في تأخير الفتح إلى العام القادم، حيث جعل من دون ذلك الفتح فتحاً قريباً هو فتح خيبر ثم أكّد صدق الرؤيا بل صدق الرسول في كل شيء بقوله:

٢٨ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وذلك أنه لو كذب رسوله كان مضلاً، ولم يكن إرساله سبباً لإظهار دينه، وقوة ملته.

محمد وصحبه الأبرار

ثم أكد هذه الشهادة وأرغم أنوف أهل قريش الذين لم يرضوا بهذا التعريف في كتاب العهد فقال:

٢٩ ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار﴾ شهد الله للنبي بالرسالة، والذين معه هم أصحابه، والأشدّاء جمع شديد ﴿رحماء بينهم﴾ والمعنى: أنهم يغلظون على الكفار بالحق والجهاد، ويتوادون بينهم أي أن صفة المؤمن مع المؤمن أن يكون ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، ﴿تراهم ركعاً سجداً﴾ وصف لكثرة صلاتهم ﴿يبتغون فضلاً من الله﴾ أي يطلبون ثواب الله لهم ورضاه عنهم وكل همهم الجنة ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ السيما هي الأثر والعلامة، وهذا الأثر معنوي وذلك هو السمت الحسن، قال ابن عباس، وقال مجاهد: إنه ليس بالذي ترون ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وليس بندب التراب في

الوجه، ولكنه الخشوع والوقار والتواضع ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾ أي صفتهم في كتاب الله التوراة قبل أن يحرف ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى ابن مريم ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ أي ما خرج منه وتفرع من نبات، وهذا مما يقوي الزرع ﴿فآزره﴾ أي قوّاه وأعانه وشده، أي أن الزرع قوي الشطأ لأنه تغذى منه واحتمى به ﴿فاستغلظ﴾ أي صار ذلك الشطأ غليظاً بعد أن كان دقيقاً ﴿فاستوى على سوقه﴾ أي فاستقام على أعواده ﴿يعجب الزراع﴾ أي يعجب هذا الزرع زارعه لقوته وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي ﷺ وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون، ويقوون كالزرع فإن فراخه تكون في الابتداء ضعيفة، ثم تقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه، فكذلك المسلم إذا دخل في الإسلام يكون إيمانه ضعيفاً، فتتقوى بصحبته وملازمته لأهل العلم والإيمان، حتى يستوي ويكون مثلهم ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ أي كثرهم وقواهم ليكونوا غيظاً للكافرين ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم الجنة التي هي أكبر نعمة وأعظم منة.

القـــراءة

﴿شطأه﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهمزة ﴿شَطَأَه﴾.



سورة الحجرات: سميت لورود كلمة الحجرات في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

موقف المسلمين من أحكام الله

لما بين محل النبي ﷺ وعلو منصبه بقوله: هو الذي أرسل رسوله إلى آخر السورة، افتتح الآن بقوله:

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾.

ففيه تأكيد لما ذكر هناك من وجوب اتباعه والإذعان له، والأظهر أن هذا إرشاد عام، وقال ابن كثير: هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن «بم تحكم؟» قال بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «فإن لم تجد؟» قال بسنة رسول الله ﷺ، قال «فإن لم تجد؟» قال رضي الله عنه أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ، ثم قال فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله[١]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وفي ذلك رد على الذين يقدمون العقل على النص، والذين يقدمون المصلحة على النص، ﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ أي تجنبوا مخالفة أمره فهو سبحانه يسمع أقوالكم، ويعلم تصرفاتكم فلا تعصوه في أوامره.

من أدب الحديث مع رسول الله

ثم أعاد النداء عليهم مزيداً للتنبيه وفيه نوع تفصيل بعد إجمال وتخصيص بعد تعميم فقال:

٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

سبب نزولها أن بعض الصحابة كان جهوري الصوت، وربما كان إذا تكلم تأذى رسول الله ﷺ بصوته، على ما جاء في صحيح البخاري من حديث ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً جهير الصوت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ وهذا نهي عن رفع الصوت من الصحابة بحضرة النبي، وفيه وضع حد للمنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوت رسول الله ﷺ، استخفافاً واستهانة، ولكي لا يقتدي بهم ضعفة المسلمين فنهى المؤمنين عن ذلك، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية حتى يستفهمه، ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ أي في المخاطبة، ولا تدعوه باسمه: يا محمد، كما يدعو بعضكم بعضاً، ولكن قولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ قال ابن قتيبة: لئلا تحبط، قال أبو سليمان الدمشقي: وقد قيل معنى الإحباط هاهنا: نقص المنزلة، لا إسقاط العمل من أصله كما يسقط بالكفر.

٣ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

قال ابن عباس: لما نزل قوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ تألّى أبو بكر أن لا يكلّم رسول الله ﷺ إلاّ كأخي السرار، فأنزل الله في أبي بكر ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله﴾ الآية، والغض: النقص، والمعنى: الذين يخفتون أصواتهم في حضرة النبي محترمون له وموقرون هؤلاء ﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي أخلص قلوبهم للتقوى، وقيل وسعها وشرحها للتقوى.

ثم انتقد القرآن بعد ذلك تصرفات بعض العرب تجاه نبيهم فقال:

٤ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

٥ - ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

نزلت في جفاة بعض القبائل الذين جاؤوا للنبي ﷺ فلم يجدوه فنادوا عليه من وراء الجدار، وألحوا في ذلك، وأراد الله أن يؤدّبهم ويعلّمهم، والمراد بالحجرات الغرف التي كان يسكن فيها النبي مع نسائه، وكانت هذه الغرف ملاصقة لجدار المسجد، ثم أوضح لهم القرآن أن الأجمل في حقهم الانتظار، حتى يخرج رسول الله إليهم، فهو ما كان يحتجب عن أحد أبداً، وما كان يدخل حجرات زوجاته إلاّ لتناول الطعام أو الراحة.

التثبت في تلقي الأخبار

ثم ينتقل القرآن إلى توجيه المؤمنين للتثبت من الأقوال والأخبار قبل تصديقها والتصرّف على أساسها فيقول الله تعالى:

٦ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾.

هذه الآية تقرر مبدأً هاماً للسلوك الإنساني، له خطره وأهميته في المجتمع، فالآية تقول: إن جاءكم شخص ما بخبر من الأخبار فتثبتوا من صدقه، وصدق الأخبار التي جاء بها، احترازاً أن تصيبوا أي قوم بأذى بسبب الجهل بواقع الأمور، فتصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين، وكم فرقت الأخبار الكاذبة بين الأصدقاء وكم سفكت من الدماء، وخربت الديار. وبعد وصية الله للمؤمنين بالتثبت من الأخبار قبل الأخذ بها، يبين سبحانه فضله على المؤمنين فيقول:

٧ ـ ﴿ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾.

٨ ـ ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

أي خوفهم الله فقال ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ أي: إن كذبتموه أخبره الله فافتضحتم، ثم قال ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ أي لو يطيعكم في كثير من الأمور التي تخبرونه فيها بالباطل، لوقعتم في الإثم والمشقة والهلاك وهو الضرر والفساد ﴿ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم﴾ أي جعل الإيمان أحب الأشياء إليكم، فلا يجدر أن يقع منكم إلا ما يوافقه من الأمور الصالحة، حببه وزينه بهداية البيان، فاختاروا الخير على الشر حسب قاعدة الإيمان، وهي القاعدة الكبرى التي يقيس المؤمن جميع تصرفاته عليها، ويزن كل فعل وقول وتصرف بميزانها، وبالمقابل ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ بما أوضحه لكم من هداية البيان، فتبينوا الخير من الشر، وتجنّبوا كل ما هو من أعمال الكفرة والفسقة، ثم عاد إلى الخبر عنهم فقال ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي الذين أصابوا الهدى والسداد وابتعدوا عن الغي والضلال ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي هذا الإيمان الذي يقتضي الرشد، والذي هداكم إليه بأنواع هداياته، هو فضل من الله ونعمة منه عليكم، وإلاّ لجعلكم كسائر الجماد والنبات والحيوان.

كيف نقضي على النزاع الداخلي

ثم يبين الله كيفية القضاء على المنازعات بين جماعات المؤمنين، وما ينشأ عن ذلك من قتال فيقول:

٩ ـ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾.

بغض النظر عن أسباب النزول سواء أكان ذلك بسبب نزاع بين الأوس والخزرج، أو بين أصحاب النبي وجماعة عبد الله بن أبي، فالعبرة بما تدعو له الآية، من أن يقوم المؤمنون بالإصلاح بين جماعات المؤمنين، إذا نشب بينهم قتال أو نزاع يستدعي الخروج عن أحكام الإسلام ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى﴾ طلبت ما ليس لها، ولم ترجع إلى الصلح، ولم تستجب إلى حكم الله، أو بغت الجماعتان المتنازعتان معاً، برفض

الصلح والتحاكم إلى الشريعة والحق والعدل في المسائل المتنازع عليها أي فعلى المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية، لأن البغي فساد في الأرض واعتداء على المجتمع.

﴿حتى تفيء إلى أمرالله﴾ حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿فإن فاءت﴾ أي رجعت الفئة الباغية عن التعدي ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ إنما قال اقتتلوا على الجمع، ولم يقل فأصلحوا بينهم لأنه عند القتال يكون لكل منهم فعل برأسه، أما عند العود إلى الصلح فإنّه تتفق كلمة كل طائفة، وإلاّ لم يتحقق الصلح، فكان كل من الطائفتين كنفس واحدة فكانت التثنية أقعد، والمعنى: ليكن الصلح بين الطائفتين المتنازعتين قائماً على العدل ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ والقسط هو العدل أي واعدلوا إن الله يحبّ العادلين، فالدعوة إلى العدل جاءت بصيغة الأمر للمؤمنين.

وحين بين إصلاح الخلل الواقع بين الطائفتين، أراد أن يبين الخلل الواقع بين اثنين بالشتائم والسباب ونحو ذلك فقال:

١٠ - ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

أي حالهم لا يعدو الأخوة الدينية كأخوة النسب من الحب والمودة والتعاطف ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ بإيصال المظلوم إلى حقه، وبدفع إثم الظلم عن الظالم، وقال النبي ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه الخ...»[1] ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ في سائر الأحوال راجين أن يرحمكم ربكم.

القــــراءة

﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ قرأ ابن عامر في رواية التغلبي ﴿فأصلحوا بين إخوتكم﴾ بالتاء على الجمع.

إرشادات إلهية في المعاشرة والاجتماع

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك إلى الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون فيقول:

١١ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

فالقرآن ينهى المؤمنين أن يسخر قوم من قوم، والسخرية هي الهزء بالغير واحتقاره، وإنما لم يقل القرآن لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة، زيادة للتوبيخ، وتنبيهاً على أن السخرية قلما تصدر عن واحد، ولكن يشاركه في ذلك جمع من الحاضرين، لأن ميل الطباع إلى التلهي والدعابة والازدراء بالضعفاء أكثريّ،

---

(١) رواه الشيخان.

وإنما لم يقل رجل من امرأة وبالعكس لأن سخرية الجنس من الجنس أكثر فاقتصر على ذلك، والباقي فيه بالأولى ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ كلام مستأنف ينبيء عن سبب النهي ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم ألقاب يدعون بها، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه، فقيل له: يا رسول الله: إنهم يكرهون هذا، فنزل قوله تعالى ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾(1) والمعنى لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم، والتنابز التفاعل، وهذا القذف بالمكروه من الألقاب القبيحة، ثم أكّد النهي عن التنابز بقوله: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي بئس الذكر أن يذكر الرجل بالفسق أو بالكفر بعد إيمانه وكان بعضهم يقول يا يهودي يا فاسق في حالة الغضب والزعل فنهوا عنه ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ أي ومن لم يترك هذه الخصال الذميمة فهو ظالم والله لا يحبّ الظالمين فهو آثم.

النهي عن الظن بالسوء

ويتابع القرآن ذكر الآداب التي يجب أن يتخلّق بها المسلم فيقول:

١٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ فيه تأديب آخر، ومعنى اجتنبوا كونوا فيه من جانب، وإنما قال كثيراً ولم يقل الظن مطلقاً، لأن منه ما هو واجب كحسن الظن بالله وبالمؤمنين.

قال القاضي أبو يعلى: هذه الآية تدل على أنه لم ينه عن جميع الظن، والظن على أربعة أضرب، محظور، ومأمور به، ومباح، ومندوب إليه، فأما المحظور فهو سوء الظن بالله تعالى، والواجب هو حسن الظن بالله، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة محظور، وأما الظنّ المأمور به: فهو ما لم ينصب عليه دليل يوصل إلى العلم به كقبول شهادة الشهود العدول، وتحرّي القبلة، وتقويم المستهلكات، وأرش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف منصوص عليه، فهذا وما كان من نظائره قد تعبدنا فيه بأحكام غالب الظنون، فأما الظن المباح: فكالشاك في الصلاة، إذا كان إماماً، أمره النبي ﷺ بالتحرّي والعمل على ما يغلب في ظنه، وإن فعله كان مباحاً، وإن عدل عنه إلى البناء على اليقين كان جائزاً، والظن الذي يعرض في قلب الإنسان في أخيه فيما يوجب الريبة فلا ينبغي له أن يحققه، وأما الظن المندوب إليه: فهو إحسان الظن بالأخ المسلم يندب إليه، ويثاب عليه ﴿إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا﴾ قال المفسرون هو ما تكلم به مما ظنه من السوء بأخيه المسلم، فإن لم يتكلم به فلا بأس، وفيما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إيّاكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»(2)، ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ أي لا يتناول

---

(1) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(2) رواه البخاري.

بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوؤه، ثم ضرب الله للغيبة مثلاً، فقال ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ أي إن ذكرك بسوء من لم يحضر، بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك، قال القاضي أبو يعلى: وهذا تأكيد لتحريم الغيبة، لأن أكل لحم المسلم محظور، ولأن النفوس تعافه من طريق الطبع فينبغي أن تكون الغيبة بمنزلته في الكراهة، ثم يختم الله هذه الآيات بقوله ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ فمن يتقي الله، ويقلع عن هذه الصفات الذميمة فإن الله يقبل التوبة من عباده، لأنه رحيم بهم.

القـــراءة

﴿ميتاً﴾ قرأ نافع: ﴿ميّتاً﴾ بالتشديد.

ثم بعد ذلك ينتقل القرآن إلى مخاطبة الناس جميعاً في آية لا تزال هي النبراس في التمايز بين الشعوب، كما أنها تعتبر الحجر الأساسي للسلام العالمي، والدعامة القوية لحقوق الإنسان في الإسلام.

١٣ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

﴿من ذكر وأنثى﴾ خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء، المراد أنكم تتساوون في النسب، ﴿وجعلكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ الشعب هو الأمة الكبيرة، تجمع قبائل، والقبائل هي التي ينحدر منها المجتمع فيعرف كل إنسان نسبه، وإلى أيّ أمة ينتسب، والتعارف يدعو إلى التآلف والتواد والسلام بين القبائل والشعوب والأمم، والتعارف يؤدي إلى التعاون، في رفع راية الحق والعدل لمصلحة الإنسان وكرامة الشعوب، ثم يأتي الشطر الأخير من الآية ليقضي على رواسب العصبية التقليدية في النفوس من ادعاء كل شعب بأنه أحق بالزعامة والكرامة، وكذلك في محيط الأسر التي تتفاخر بالأنساب والأحساب، والأمجاد والغنى حيث يقول الله عز وجل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والتقوى هي اجتناب ما نهى الله عنه من الشر، وفي هذا المعنى قال النبي ﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى»[1].

الإيمان والإسلام

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على بعض الأعراب الذين ادعوا الإيمان ومنوا على رسول الله بإيمانهم فيقول:

١٤ ـ ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا﴾ ليس المراد بعموم الأعراب وهم أهل البادية، وفي هذه الآية يقول

---

(١) رواه الإمام أحمد.

تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكّن في قلوبهم بعد، لأن الإيمان قول وعمل، ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي استسلمنا عن خوف أو رياء، فأخرج الله هؤلاء من الإيمان بقوله ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي لم تصدقوا، قال مقاتل: ﴿ولما﴾ بمعنى ﴿ولم﴾ يدخل التصديق في قلوبكم، قال ابن كثير: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة، أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو منهج أهل السنة والجماعة، قال: ويدخل عليه حديث جبريل عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان،[1] فترقى من الأعم إلى الأخص ثم الأخص منه، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كما قال عز وجل: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[2].

القــــراءة

﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ قرأ أبو عمرو ﴿لا يألتكم من أعمالكم﴾ بهمزة ساكنة بعد الياء.

ثم بين الله حقيقة الإيمان التي غفل عنها هؤلاء الأعراب بنعت الصادقين في إيمانهم فيقول:

١٥ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

فالإيمان الحقيقي هو تصديق القلب بوجود الله ونبوة محمد ﷺ، تصديقا جازماً لا يغامره شك ولا ريب، وتكون ثمرته الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

لما نزلت الآيتان، أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون، فنزل قوله تعالى:

١٦ ـ ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

والمعنى: أتخبرون الله بعقيدتكم وتقولون آمنا، والإيمان شعور في القلب يصدقه العمل، ولا يعلم ما في القلب إلا الله الذي يعلم كل ما في السماوات وكل ما في الأرض، والله محيط علمه بكل شيء.

ثم يستنكر القرآن منتهم على رسول الله بإسلامهم فيقول:

١٧ ـ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

لقد من الأعراب على النبي ﷺ بإسلامهم، فقالوا ما قالوا، مما لم ينقل بسند صحيح، فيرد الله عليهم

---

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) سورة الطور، الآية: ٢١.

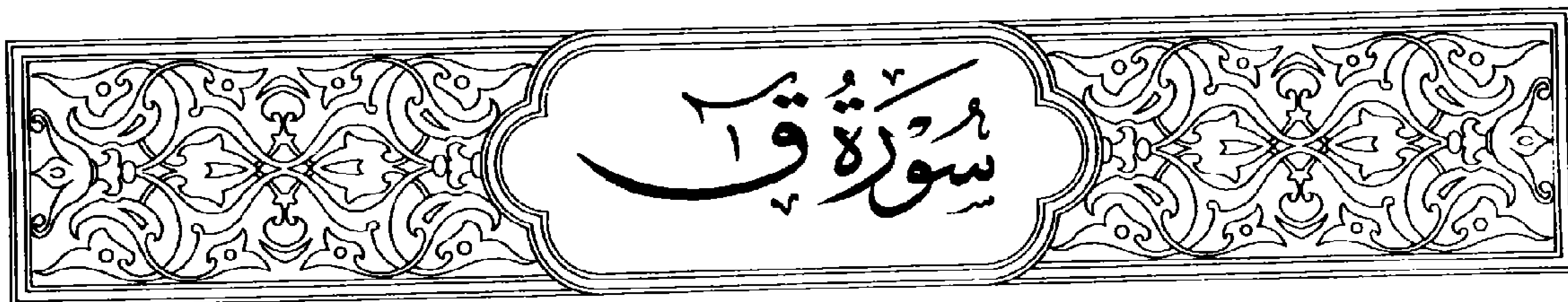
﴿قل لا تمنّوا علي إسلامكم﴾ فإنّ نفع ذلك إنما يعود عليكم فيه ﴿بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ أي في دعواكم ذلك.

١٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض هو بلا ريب يعلم تصرفات وأعمال الإنسان، ويعلم ما تكنه القلوب، وما تخفيه النفوس من صدق وشك ونفاق ورياء، فيجازي بالخير خيراً، وبالشر شرا.

القــــراءة

﴿بما تعلمون﴾ قرأ ابن كثير: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ بالياء.



سورة (ق) سميت لورود كلمة (ق) في أول السورة كزميلاتها.

تحزيب القرآن

قال ابن كثير هذه السورة هي أول الحزب المفصل، وفيما أورده من حديث أوس بن حنيفة أنه قال: «سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحْده»[1] ثم قال بيانه:

ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء.

وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة.

وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل.

وتسع: الإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان.

وإحدى عشرة: الشعراء والنمل والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس.

وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال (محمد)، والفتح، والحجرات، ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم: قال فتعين أنّ أوله سورة (ق).

السبع الطوال: قال ابن جرير الطبري السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، في قول سعيد بن جبير قال وإنما سميت السبع الطوال لطولها على سائر القرآن.

المئون: قال ابن قتيبة: هي ما ولي الطوال، وإنما سميت بالمئين لأن كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها.

والمثاني: ما ولي المئين من السور التي دون المائة.

والمفصل: فهو ما يلي المثاني من قصار السور، وإنما سميت مفصلاً لقصرها، وكثرة الفصل فيها بـ بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد هذا نرجع إلى السورة فنقول:

---

(١) رواه ابن ماجه والإمام أحمد.

وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث النشور، والمعاد، والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما ختم الله سورة الحجرات بذكر الإيمان وشرائطه، افتتح هذه السورة بذكر ما يجب الإيمان به فقال:

١ ـ ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾.

افتتاح السورة بالقسم بحرف ممدود يؤذن بأن الموضوع الذي سيطرح هو موضوع خطير يستدعي الانتباه والاهتمام، والمجيد، أي ذو المجد والشرف على سائر الكتب.

إنكارهم للبعث والردّ عليه

ثم يردّ الله على المشركين الذين أنكروا نبوة محمد وأنكروا البعث فيقول:

٢ ـ ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

لقد تعجّب المشركون أن يأتيهم رسول من عند الله يخوّفهم عذاب ربهم إن استمروا على الكفر، وموطن العجب عندهم أن النبي محمداً ﷺ هو بشر مثلهم، وكان الأجدر في زعمهم أن يكون معه ملك من الملائكة يصاحبه في دعوته. وكما عجبوا من إرسال الرسول، فقد عجبوا أكثر من موضوع البعث الذي أخبرهم به، وأنهم سيبعثون أحياء يوم القيامة للحساب وكان اعتراضهم على ذلك بقولهم:

٣ ـ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾.

أي كيف سنرجع أحياء بعد موتنا، وبعد هذا الإنكار والرفض من جانبهم للبعث يجابه الله إنكارهم بقوله:

٤ ـ ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾.

هذا هو جواب القسم، فيكون المعنى: ق والقرآن المجيد لقد علمنا، فحذفت اللام لأن ما قبلها عوض عنها كقوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها. . . . قد أفلح من زكاها﴾[1] أي لقد أفلح.

ولم يقتصر إنكار المشركين على البعث بل كان إنكارهم يشمل أساس الدعوة الإسلامية قال تعالى:

٥ ـ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾.

﴿بل كذبوا بالحق﴾ وهو القرآن بما يشتمل عليه من إثبات البعث، ﴿فهم في أمر مريج﴾: المختلط،

---

(١) سورة الشمس، آية: ٩.

المضطرب، يقولون عن النبي مرة إنه ساحر، ومرة يقولون عنه إنه شاعر، ومرة كاهن إلخ... فكان أمرهم ملتبساً مختلطاً عليهم.

وأمام هذا الواقع وهذا الإنكار للبعث ينتقل القرآن إلى لفت الأنظار إلى قدرة الله على البعث فيقول:

٦ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾.

يلفت الله الأنظار إلى السماء كيف بنيت بضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض وربطها مع ما فيها من كواكب ونجوم، حيث وضع كل منها في بعد لا يتعدّاه، وكل شيء ممسوك في مداره، كل ذلك من غير عمد ﴿وزيناها﴾ إشارة إلى ما فيها من النجوم والكواكب العديدة التي لا يمكن إحصاؤها، والتي تشع بأنوارها المتلألئة كما تشع الزينة التي يصنعها الإنسان يوم الأفراح، مع الفارق في التمثيل ﴿وما لها من فروج﴾ أي من صدوع وشقوق.

الأرض ممدودة لكنّها كروية

٧ ـ ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾.

﴿والأرض مددناها﴾ أي وجعلها صالحة للسير والانتفاع بها فهي تبدو لمن عليها أنها مفروشة لهم مع أن الأرض كما أثبت العلم بأنها كروية الشكل بيضاوية المنظر كالبيضة، وقد دلت آيات أخرى على ذلك، وهذا من قدرة الله وعظمته الذي مهّد لنا هذه الأرض نسير عليها ولو جعلها منبسطة فقط دون أن يجعلها كروية لسقط في الفضاء من يسير إلى نهاية أحد أطرافها، ولما عادت أي طائرة تجاوز طرف الأرض ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ وهي الجبال الثوابت، لا تتشقق وتنهار لأي عارض طبيعي، هذه الجبال جعلها الله مستودعات للمياه بما تختزنه فيها من مياه الأمطار والثلوج، تسقي صنوف النبات التي تنقسم إلى ذكر وأنثى، ورواسي أي تمسك الأرض لكي لا تضطرب ولا تميد، جعلها كأنها أعمدة فقرية للأرض متلازمة متماسكة، فجبال الدنيا القديمة: آسيا وأفريقيا وأوربا متصلة بجبال الدنيا الجديدة الأمريكيتين، وأستراليا، وهذا الاتصال ناشىء عن أن المحاور الجبلية تسير أصولها في أعماق المحيطات، ويتصل بعضها ببعض، فهي إطارات طوقت الأرض من كل جانب، ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ أي من كل صنف حسن من النبات يبهج الناظرين بحسن ألوانه المختلفة، وأشكاله العجيبة وروائحه العطرة، وثماره ذات الطعوم الطيبة.

ثم يعقب القرآن على ذلك:

٨ ـ ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

أي هذه الأمور المذكورة تبصر وتذكر الإنسان بقدرة الله وعظمته فتفتح القلوب نحو خالقها، وتصل الأرواح ببارئها، حقاً إن فيها تذكرة لكل عبد منيب والمنيب هو الذي يرجع إلى الله بالتوبة متفكراً في بديع صنعه.

٩ ـ ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾.

نزلنا من السحاب ماء كثير البركة لانتفاع الناس به في غالب أمورهم، ومنها الجنات وهي البساتين، ﴿وحب الحصيد﴾ وهي الحبوب التي تحصد ويقتات بها كالقمح والشعير والذرة وغيرها.

١٠ ـ ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾.

﴿وكذلك ينبت الله بالماء النخل، والباسقات بمعنى العاليات يقال بسق الشيء يبسق بسوقا: إذا طال، والنضيد المنضود بعضه على بعض في اتساق وانتظام، وذلك قبل أن يتفتح، فإذا انشق جف طلعه وتفرق فليس بنضيد، والطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل.

١١ ـ ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾.

أي ما تقدم من البساتين والحب والنخل جعله الله رزقاً للعباد ليقتاتوا به، بعد أن سخر الله الماء المبارك الذي قال عنه ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً﴾ وهي الأرض المجدبة لا ثمار ولا زرع فيها ﴿كذلك الخروج﴾ أي أن الخروج من القبور عند البعث، كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة، فكما أن هذا مقدور لله، فذلك أيضاً مقدور له، والخروج هو الخروج من القبور يوم البعث، فجملة ﴿كذلك الخروج﴾ هي جواب للكافرين عن تساؤلهم وتعجبهم من رجوعهم أحياء بعد أن يصيروا تراباً.

العبرة من سير الأولين

وبعد أن عرض القرآن الدلائل على حصول البعث، انتقل إلى ذكر بعض الأقوام الذين هلكوا بسبب تكذيبهم لأنبيائهم فقال:

١٢ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾.

فالله سبحانه يتوعّد المشركين وينذرهم بعقابه، مذكّراً إياهم بما حلّ ببعض الأمم السابقة الذين كفروا بالله وكذبوا برسله إليهم، فقوم نوح أغرقهم الله جميعاً بالطوفان، لما عصوا رسولهم، باستثناء قلة قليلة آمنت برسالة نوح، فركبوا معه في السفينة ونجوا من الغرق، ﴿وأصحاب الرس﴾ الرس: البئر، والرس موضع نسب إليه هؤلاء الأقوام الذين هلكوا، والمكان معروف الآن في وسط الجزيرة العربية بالسعودية، وهي بلدة عامرة بالسكان، وسبق شرح الموضوع في سورة الفرقان، وثمود قوم من العرب البائدة، وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه ﴿صالح﴾ وكانت مساكنهم في هضاب صخرية، في وادي القرى من الحجاز، وكان هؤلاء يعبدون الأصنام.

١٣ ـ ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴾.

﴿وعاد﴾ هم قوم من العرب البائدة، قد بعث الله فيهم نبيه هوداً، وكانت مساكنهم بالأحقاف التي تقع بين اليمن وعمان، وقد ذكر القرآن ما حلّ بهم حيث أهلكوا بريح صرصر عاتية، كما سيأتي في سورة ﴿الحاقة﴾، ﴿وفرعون﴾ لقب لملوك مصر القديمة، ويقصد به فرعون الذي كان على عهد موسى، وهو منفتاح بن رعمسيس الثاني، وهو الذي غرق مع جيشه، وعثر على جثته في قبر أمنحتب الثاني بالأقصر، والمراد قومه، وإنما قال فرعون لتسلطه عليهم وتصدره التكذيب، ﴿وإخوان لوط﴾ هم قوم كانوا يسكنون قرية ﴿سدوم﴾ في

الأردن، وقد هاجر إليهم نبي الله لوط من العراق، ودعاهم إلى عبادة الله وترك الفواحش فما استجابوا، وعبر القرآن عن هؤلاء القوم بإخوانه لأنه صاهرهم.

١٤ ـ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾.

﴿أصحاب الأيكة﴾ الأيكة الشجرة الملتفة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب كانت مساكنهم كثيرة الأشجار، وقد تقدم الكلام عليهم في سورة الشعراء الآية (١٧٦)، ﴿وقوم تبع﴾ لقب يطلق على ملوك حمير باليمن، وقوم تبع قبيلة عربية، حلت بها نكبة من النكبات الطبيعية في عهد لا يبعد كثيراً عن الإسلام، وقد سبق الكلام على الموضوع في سورة الدخان الآية (٣٧) ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ أي كل هؤلاء الأقوام كذّبوا رسل الله إليهم فحقّ عليهم وعيد الله بالعذاب والهلاك، والقرآن إذ يسوق هذه الأمثلة عن مصارع المكذّبين في الأزمنة السابقة، إنما يهدف إلى إثارة عقول الكافرين ليأخذوا العبرة بما حلّ فيمن قبلهم.

بعد هذا التهديد والوعيد للكفار يعود القرآن إلى قضية البعث، وإعادة الإنسان حياً بعد الموت للحساب فيقول:

١٥ ـ ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

﴿أفعيينا﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ، وإقامة الحجة عليهم، والعي العجز، والمعنى: أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئاً، فكيف نعجز عن بعثهم، وهذا جواب لقولهم: ذلك رجع بعيد ؟بل هم في لبس من خلق جديد﴾ أي في شك وحيرة، واختلاط، من خلق مستأنف وهو بعث الأموات وكأنه خلق جديد بالنسبة لهم، وقد بين القرآن بأن إعادة خلق الإنسان هو أهون من بدء خلقه ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾[1].

تقوى الله والخوف من عذابه يوم القيامة

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مدى إحاطة علم الله بالإنسان وما يفعله من خير وشر ليحاسب عليه عند البعث يوم القيامة فيقول:

١٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾.

فالله سبحانه خلق الإنسان وخلق فيه جميع حواسه وإدراكاته وغرائزه ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ أي ما يختلج في سره وقلبه وضميره ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ القرب قرب العلم، والوريد هو عرق الدم الداخل إلى القلب، أي نحن أقرب إلى معرفة ما في قلبه من وريده الذي يصل إلى قلبه فكيف يخفى علينا شيء مما يكنّه من خير أو شر.

ثم يضيف القرآن أكثر من ذلك فيذكر بأن الله أوكل بالإنسان ملكين، يحصيان عليه كل حركة من فعل أو قول، ليشعر أن الرقابة محكمة عليه فيقول:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

١٧ ـ ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ .

١٨ ـ ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

﴿إذ يتلقّى المتلقيان﴾ هما ملكان من الملائكة يأخذان ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال فيسجلانها ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أي أنهما قاعدان عن يمين الإنسان وشماله، ومكان قعودهما غير معلوم، وهذا الإنسان ﴿ما يلفظ من قول﴾ ما يتكلم بكلام يقصد به الخير أو الشر، أو يعمل عملاً ﴿إلاّ لديه رقيب﴾ أي ملك حافظ يرقب قوله وعمله ﴿عتيد﴾ حاضر ومهيأ لكتابة ما أمر به من أعمال الإنسان مع الإنسان أينما كان.

ثم يذكر القرآن الإنسان بالموت وسكراته فيقول:

١٩ ـ ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

﴿وجاءت سكرة الموت﴾ وهي غمرته وشدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله وتدل على أنه ميت ﴿بالحق﴾ أي عند سكرات الموت يتضح له الحق فيؤمن بخالقه، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الأخبار بالبعث والحساب، وتقرير الثواب والعقاب، ولكن هذا الحق الذي يراه المحتضر لا ينفعه لأنه كذب به من قبل ولم يؤمن به فلا ينفعه الإيمان المتأخر ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي ذلك الحق من أمر الآخرة هو الذي كنت تنفر منه وتفزع وتهرب، وفي مجمل الآيات وإن كان الله سبحانه يخاطب عموم الإنسان، إلاّ أنّه في هذه الآية، نرى الكلام موجهاً لمنكري البعث خاصة.

٢٠ ـ ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ .

نفخ في الصور، النفخة الآخرة للبعث، وسبق أن شرحنا معنى الصور في سورة الأنعام ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ وهو يوم القيامة حيث ينجز الله وعيده على المجرمين بالعذاب.

ثم أخبر سبحانه عن حال الناس بعد البعث فقال:

٢١ ـ ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

أي جاءت كل نفس من نفوس البشر، ومعها سائق من الملائكة يسوقها إلى أمر الله وإلى الحساب، ومعها شاهد يشهد لها أو عليها، وقد يكون الشاهد عمل الإنسان أو جوارحه تشهد عليه.

٢٢ ـ ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ يقال للكافر الغافل إذا عاين الأمور وتبدت له حقائق الآخرة ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ أي أزلنا غفلتك بما تشاهده اليوم من حقيقة البعث والجزاء، والغطاء هنا هو الحجاب، الذي كان يغطي عقول الكافرين والمعاندين عن إدراك أمور الآخرة، وهو طاعة الشيطان واختيار الشر على الخير، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي بصرك اليوم أصبح نافذاً حاداً قوياً تدرك ما أنكرته من أمور الآخرة في الدنيا، وسمي الحديد حديداً لقوته وحدته ونفاذه.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير الكافر في الآخرة، وما يلاقيه هناك من عذاب فيقول:

٢٣ ـ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾.

﴿وقال قرينه﴾ أي قال الملك الموكل به هذا ما عندي من كتاب عملك، ﴿عتيد﴾: المهيأ المعد الحاضر من عملك الخبيث ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد﴾ الخطاب للملكين السائق والشهيد ﴿مناع للخير معتد مريب﴾ لا يبذل خيراً، ويشمل ذلك كل خير في سبيل الله، ومنه دخول الناس في الإسلام، وفوق ذلك فهو يعتدي على الناس بالظلم بلسانه ويده وقلمه ﴿والذي جعل مع الله إلهاً ءاخر﴾ شاك في وجود الله مع وجود آياته ودلائل ربوبيته ووحدانيته، واتخذ مع الله إلَهاً آخر يشرك به، والشرك ظلم عظيم يستحق العذاب الشديد.

صور من الحوار يوم الحساب

٢٧ ـ ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

إن الإنسان الكافر ادعى على قرينه من الشياطين أنه أضلّه، فقال ﴿ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ أي ما جعلته طاغياً ولكنّه كان بعيداً عن الحق فدعوته فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، فيقول الله عز وجل:

٢٨ ـ ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾.

ليس هذا وقت الخصومة فالموقف موقف حساب وجزاء ﴿وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ وقد سبق إرسال الرسول والنذر.

٢٩ ـ ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

﴿ما يبدل القول لدي﴾ فقد قضيت ما قضيت فيما وعدته من ثواب وعقاب وغيره ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ أي لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذّب أحداً إلاّ بذنبه بعد قيام الحجة عليه، فلا أظلم أحداً فأزيد إساءة المسيء، أو أنقص من إحسان المحسن.

٣٠ ـ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾.

روى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال «يلقى في النار وتقول هل من مزيد؟» وأما فائدة سؤاله إياها، وقد علم هل امتلأت أم لا، فإنه توبيخ لمن دخلها، وزيادة في مكروهه، ودليل على تصديق قوله

تعالى: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[1] ﴿هل من مزيد﴾ تقول ذلك تغيظاً على من عصى الله تعالى، وجعل الله في النار قدرة أن تميز وتخاطب، كما جعل في النملة أن قالت ﴿ادخلوا مساكنكم﴾[2] وفي المخلوقات أن تسبح بحمده فسبحان الله الخالق القادر المتفرّد لا شريك له في ملكه.

القــــراءة

﴿تقول﴾ قرأ نافع وأبو بكر والمفضل عن عاصم: بالياء ﴿يقول﴾.

لما أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين والعصاة أعقبه بذكر ما أعدّه للمتقين فقال:

٣١ ـ ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾.

أي قربت للمتقين الذين اتقوا الكفر والشرك في الدنيا ﴿غير بعيد﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد، لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب، ﴿هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ﴾ أي هذا الذي ترونه ما توعدون، والأواب هو التائب الرجاع، والحفيظ: الذي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عميرة: الأواب الحفيظ: هو الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عزّ وجلّ.

القــــراءة

﴿هذا ما توعدون﴾ قرأ ابن كثير ﴿هذا ما يوعدون﴾ بالياء.

٣٣ ـ ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾.

أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلاّ الله عزّ وجلّ كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه»

٣٤ ـ ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾.

يقال لهم ادخلوا الجنة بسلام، وذلك أنّهم سلموا من عذاب الله، وسلم الله وملائكته عليهم، ولا موت ولا زوال في الجنة فهو خلود ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ وذلك أنهم يسألون الله حتى تنتهي مسائلهم فيعطون ما يشاؤون، ثم يزيدهم ما لم يسألوا فذلك قوله ﴿ولدينا مزيد﴾ بما لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٨.

تهديد لمنكري البعث وختام للسورة

ثم خوف الله كفار مكة بما بعد هذا فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾.

يقول الله عز وجل: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿من قرن هم أشدّ منهم بطشاً﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال: ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ أي ساروا في البلاد فهل كان لهم من الموت من محيص، أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص، يقول اللغويون: كان مضمرة هنا، أي فهل كان لهم كقوله تعالى: ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[1].

٣٧ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

﴿إن في ذلك لذكرى﴾ يعني الذي ذكره من إهلاك القرى الماضية لذكرى أي تذكرة وعظة ﴿لمن كان له قلب﴾ أي لب يعي به أو عقل، ولما كان القلب موضعاً للعقل كني به عنه ﴿أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ أي استمع الكلام فوعاه وتعقله وتفهمه بلبه، والعرب تقول ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب.

خلق السماوات والأرض

٣٨ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

قال اليهود خلق الله السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، آخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فلذلك لا نعمل فيه شيئاً، وقالت النصارى استراح يوم الأحد ولذلك لا نعمل فيه، وفي هذه الآية رد عليهم وتكذيب لهم بقوله ﴿وما مسنا من لغوب﴾ واللغوب: التعب والإعياء، كما قال تعالى رداً عليهم في آية أخرى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾[2]، والأيام التي في الآية، ليست هي أيام عادية كأيامنا كما يتصور الكفار، فيشبهون أيام الخالق بأيام المخلوق، وإنما هي حقب زمنية طويلة، كما يقول الله عز وجل: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[3].

أوقات الصلاة

٣٩ ـ ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٣.

٤٠ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

يخاطب الله تعالى نبيه، وهو خطاب لكل مؤمن ﴿اصبر على ما يقولون﴾ يعني المكذبين واهجرهم هجراً جميلاً، ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ أي صل بالثناء على ربك بالتنزيه له مما يقول المبطلون قبل طلوع الشمس، وهي صلاة الفجر وقبل الغروب، صلاة الظهر والعصر، وفي ذلك إشارة إلى أن الصلاة الوسطى هي الظهر والعصر عن ابن عباس وفي الحديث المتفق عليه فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا وقرأ الآية ﴿ومن الليل فسبحه﴾ أي صلاة المغرب والعشاء، عن مقاتل ﴿وأدبار السجود﴾ هو التسبيح بعد الصلاة، ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين، جاء فقراء المهاجرين للنبي فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ، وما ذاك، قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، قال ﷺ «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلاّ من فعل مثل ما فعلتم»؟ «تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» وعن عدد من الصحابة أنه الركعتان بعد صلاة المغرب.

القــــراءة

﴿أدبار السجود﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة وخلف بكسر الهمزة على المصدر: ﴿إدبار السجود﴾

٤١ ـ ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ .

هذه هي النفخة الأخيرة يوم القيامة، والمنادي هو إسرافيل، ينادي الناس إلى يوم الحساب.

القــــراءة

﴿ينادي المنادي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، بياء في الوصل، ووقف نافع وأبو عمرو بغير ياء.

٤٢ ـ ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾ .

وهذه هي نفخة ﴿بالحق﴾ أي بالبعث الذي لا شكَّ فيه ﴿ويوم الخروج﴾ من القبور.

٤٣ ـ ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

٤٤ ـ ﴿ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ .

نميت في الدنيا، ونحيي للبعث في الآخرة، وإلينا النهاية والمصير بعد البعث، وهو قوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم﴾ وذلك أن الله عزّ وجلّ يأمر إسرافيل فينفخ في الصور فترجع كل روح إلى جسدها، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب.

﴿سراعاً ذلك حشر علينا يسير﴾ أي فيخرجون منها سراعاً، ومعنى يسير أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة كما قال عز وجل: ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾[١].

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.

القـــراءة

﴿يوم تشقق الأرض﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿تشّقق﴾ بتشديد الشين.

ثم عزّى نبيه فقال:

٤٥ ـ ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

أي علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ لم تبعث لتجبرهم على الإيمان، إنما بعثت مذكراً، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.



سورة الذاريات سميت لورود كلمة الذاريات في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إثبات البعث

لما ختم الله تعالى سورة ق بالوعيد افتتح هذه السورة بتحقيق الوعيد فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾.

٢ ـ ﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴾.

٣ ـ ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾.

٤ ـ ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾.

﴿والذاريات ذروا﴾ (١)، أقسم بالرياح التي تذرو الرمال والتراب واللقاح وتفرقها، يقال ذرت فهي ذارية، وأذرت فهي مذرية، وهي مجرورة على القسم.

﴿فالحاملات وقراً﴾ يعني السحاب التي تحمل وقرها من الماء، والوقر هو الثقل من الحمل.

﴿فالجاريات يسراً﴾ يعني السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً، واليسر هو السهل في كل شيء.

﴿فالمقسمات أمراً﴾ يعني الملائكة تقسم الأمور على أمر الله.

قال ابن السائب: والمقسمات أربعة، جبريل وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل، وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل، وهو قابض الأرواح، وإنما أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته، وقد كان القسم عند العرب شائعاً في أساليب كلامهم.

ثم ذكر المقسم عليه فقال:

٥ ـ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾.

٦ ـ ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

---

(١) وقد مر في الكهف في قوله تعالى: ﴿تذروه الرياح﴾ وسيأتي في قوله تعالى: ﴿والنازعات﴾.

هذا هو جواب القسم أي إن ما وعدكم به ربكم من بعث الأجسام حية يوم القيامة بعد موتها، لهو وعد صادق لا ريب فيه، وما وعدكم به من الثواب والعقاب والجنة والنار لحق، وإن الجزاء والحساب على الأعمال لأمر حاصل يوم القيامة لا محالة.

وحين أقسم على صدق موعوده أقسم على جهلهم وعنادهم فقال:

٧ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾.

٨ ـ ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾.

٩ ـ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾.

أقسم الله بالسماء ذات البنيان المحكم المتقدم ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، ثم ذكر جواب القسم الثاني فقال: ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ أي إنّكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول مختلف مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع، مختلف في أمر محمد ودعوته، بعضكم يقول شاعر، وبعضكم يقول ساحر، وبعضكم يقول مجنون.

﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف عن الإيمان بالله وبرسالة نبيه من صرف، ممن كذب بذلك واختار لنفسه الشر والكفر، بدل الخير والإيمان.

ثم دعا عليهم بقوله:

١٠ ـ ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾.

١١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾.

١٣ ـ ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾.

١٤ ـ ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

﴿قتل الخراصون﴾ أي لعن الكذابون المرتابون الذين قالوا إن النبي ﷺ ساحر وكذاب وشاعر، خرصوا ما لا علم لهم به، وقال ابن الأنباري: والقتل إذا أخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾[1].

﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾ أي في جهل وضلالة تغرهم، ساهون لاهون غافلون عن أمر الآخرة ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ أي يقولون: يا محمد متى يوم الجزاء؟ تكذيباً منهم واستهزاءاً، ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ منصوب على معنى: يقع الجزاء يوم هم على النار، ويفتنون أي

(١) سورة عبس، الآية: ١٧.

يحرقون، ويعذّبون، ومن ذلك يقال للحجارة السوداء التي كأنها أحرقت بالنار: الفتين، ويقال لهم ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي ذوقوا عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ يعني: الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاء.

من هم المتقون وما جزاؤهم

وحين حكى حال الفاجر الشقي أراد أن يبين حال المؤمن التقي فقال:

١٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

١٦ ـ ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

يقول الله تعالى مخبراً عن المتقين إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف أولئك الأشقياء لما هم فيه من العذاب، والنكال والحريق والأغلال ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض حتى نالوا ما نالوا من الكرامة بسبب ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ أي أنهم قبل دخولهم الجنة كانوا محسنين لأعمالهم، مراقبين الله فيها، آتين بها على الوجه الذي يريده الله، ثم أخذ القرآن يصور إحسانهم بما صدر عنهم من عبادة ربهم، ومن مساعدتهم للمعوزين فقال ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ والهجوع النوم بالليل دون النهار، و﴿ما﴾ مصدرية تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، وهو اختيار ابن جرير الطبري، وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلاّ أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ جمع سحر وهو آخر الليل، وقبيل الصبح، فهؤلاء المحسنون كانوا في أواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم لذنوب اقترفوها.

حق المجتمع في مال الفرد

لما وصفهم بالصلاة ثنى تعالى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال:

١٩ ـ ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾.

السائل هو الذي يسأل الناس المال لفقره وحاجته، وله حق، والمحروم هو الذي حرم المال، أو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يعلم فقره وحاجته، من التعفف، وكل من أصيب بكارثة طبيعية أو هو عاطل عن العمل يدخل في هذا الباب، والمعول على اجتهاد المعطي في معرفة حال المستحقين، روى الشيخان في صحيحيهما «ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه»

وأرى أن يعطى هؤلاء من أموال الزكاة وأن لهم حقاً فيها، وفيها إشارة إلى وجوب ذلك على الدولة ممثلة

بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، والضمان الاجتماعي وغيرها من جهات الاختصاص، فإن لم يجد هؤلاء سد حاجتهم فيما ذكرنا، فإن هذه الآية توجب لهم نصيباً في أموال الأغنياء من غير الزكاة تطبيقاً لقاعدة التكافل الاجتماعي.

بعض الدلائل على وجود الله

ثم يبين القرآن بعد ذلك الدلائل على وجود الله من خلال التأمل في الأرض فيقول:

٢٠ ـ ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾.

أي أن في الأرض دلائل وعلامات كثيرة تدل على وجود الله ووحدانيته، وذلك بما تحتويه الأرض من نبات وحيوان وجبال وبحار وتربة وغير ذلك ﴿للموقنين﴾ واليقين هو العلم، وطرح الشك، فالمؤمنين أيقنوا بوجود الله الذي يعرفونه بآياته وبديع صنعه.

وإذ يوجّه الله سبحانه الأنظار إلى خلق الأرض وما فيها من دلائل على تفرده ووحدانيته وقدرته، يوجّه الأنظار كذلك إلى خلق الإنسان، وما يحتويه جسمه من عجائب تدل على عظمة القدرة الإلهية فيقول:

٢١ ـ ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

وفي أنفسكم أيها الناس آيات وعبر تدلّل على وحدانية خالقكم، وأنه لا إله غيره، فأطوار خلق الإنسان من يوم كان نطفة إلى أن ولد وشبّ وكبر، نظام طعامه وشرابه، ودمه وتربيته والحنان عليه، واختلاف الطبائع والأفكار والصور والألوان، وتركيب السمع والبصر والعقل، وما في الجهاز العصبي والجهاز الهضمي والتنفسي من أدوات وأوعية وأوردة، وشعيرات يسير كل ذلك بانتظام ودقة متناهية ويكفي الإنسان أن ينظر لنفسه ويعرف حاله في صحته ومرضه ولهذا قال:

أفلا تبصرون

﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا تنظرون في ذلك فتتفكروا فيه فتعلموا حقيقة وحدانية الله وتستدلوا على البعث؟ ألا يدل ذلك كله على حاجة الإنسان ومحدوديته في هذه الحياة وأن رزقه ليس بيده بل هو بيد غيره.

وبعد عرض الدلائل على وجود الله، ووجود الإنسان نفسه وما فيه من آيات، يبين القرآن حاجة الإنسان للرزق واستمرار الحياة فيقول:

٢٢ ـ ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.

﴿وفي السماء رزقكم﴾ أي في السماء سبب رزقكم وهو المطر فإنه سبب الزراعة ﴿وما توعدون﴾ أي عند من في السماء رزقكم، وعنده ما توعدون، أي ما يعدكم به من خير وشر أو ثواب وعقاب، فهو رب

الأرزاق، ورب الثواب والعقاب ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدكم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون، وهو أقرب شيء لكم في أنفسكم.

القـــراءة

﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم، برفع اللام ﴿مثلُ﴾ وقرأ الباقون بنصب اللام.

قال الزجاج: فمن رفع ﴿مثل﴾ فهي من صفة الحق، والمعنى: إنه لحق مثل نطقكم، ومن نصب، فعلى التأكيد، على معنى: إنه لحق حقاً مثل نطقكم.

نبي الله إبراهيم واستضافته للملائكة

ثم سلّى نبيه ﷺ بقصة إبراهيم عليه السلام فقال:

٢٤ ـ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾.

هل بمعنى قد، والمعنى: قد أتاك فاستمع نقصّ عليك، والاستفهام هنا يراد به التعجب، والتشويق إلى تلك القصة التي يرويها القرآن الكريم، وقد كان ضيوف إبراهيم عليه السلام جماعة من الملائكة، أتوا على صورة شبان حسان ملاح، وقد وصفهم الله سبحانه بالمكرمين، أي عند الله لكونهم ملائكة، ومكرمون عند إبراهيم الذي خدمهم هو وامرأته بنفسيهما وقدم لهم العجل، وكل ضيف يجب أن يكرم، وقال العلماء: إنّ الضيافة وإكرام الضيف واجب، والقصة قد تقدمت في سورة هود والحجر.

٢٥ ـ ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾.

﴿قوم منكرون﴾ أي سلام عليكم أيها القوم الغرباء.

القـــراءة

﴿فقالوا سلاماً قال سلام﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿قالوا سلاماً قال سلم﴾ بغير ألف.

٢٦ ـ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾.

﴿فراغ إلى أهله﴾ فذهب إلى أهله خفية عن ضيوفه، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي أتى لضيوفه بعجل مشوي سمين، وجاء في سورة هود ﴿وجاء بعجل حنيذ﴾ (١) أي مشوي ﴿فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ ولما أدنى الطعام منهم تلطف في العبارة، ووضعه بين أيديهم ولم يسألهم هل تحبون أن تأكلوا، فربما لم يطلبوا استحياء وهذا من آداب الضيافة.

---

(١) الآية: ٦٩.

وحين لم تمتد أيدي الملائكة الضيوف إلى الطعام، لأن الملائكة لا يأكلون، يبين الله حال إبراهيم آنذاك فيقول:

٢٨ ـ ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾.

لما قال لهم «ألا تأكلون» بصيغة التذكير، وتبين له أن أمرهم محير، أحسّ إبراهيم في نفسه الخوف، وظنّ أن امتناعهم عن الطعام هو لشر يبيتونه له، وذلك أن أكل الضيف من طعام مضيفه فيه أمان، واطمئنان للمضيف، ودليل على انبساطه، وقد لاحظ الضيوف آثار الخوف على إبراهيم، فكشفوا له حقيقة أمرهم وقالوا له ﴿لا تخف وبشروه بغلام عليم﴾ أي قالوا لإبراهيم نحن ملائكة لا بشر، فلا تخف منا، فقد أرسلنا ربك إليك بما يسرك ويبشرك بولد، وهو الذي سماه فيما بعد إسحاق، ووصفه الله سبحانه بصفة العلم ليزداد سرور أبيه، وإنما قال عليم ولم يقل عالم لما فيه من صيغة المبالغة.

سمعت سارة زوجة إبراهيم هذه البشرى ففوجئت بهذا النبأ، والله يخبر عن حالها فيقول:

٢٩ ـ ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾.

٣٠ ـ ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾.

أي أقبلت امرأته نحو الضيوف في صرة، أي صيحة وضجة، أو صرخة ورنة وهي قولها ﴿يا ويلتا﴾ وكانت صيحتها من الدهشة ﴿فصكت وجهها﴾ أي ضربت بيدها على جبينها أو لطمت تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنت في حال الصبا لا أحبل، فرد عليها الملائكة ﴿كذلك قال ربك﴾ أي إنك ستلدين غلاماً، والمعنى: إنما يخبرك عن الله عز وجل، وهو حكيم عليم يقدر أن يجعل العقيم ولوداً، فعلم إبراهيم حينئذ أنهم ملائكة، فاطمأن إبراهيم لضيوفه، وسر للبشرى، وأدرك أن لهم أمراً آخر أهم من البشارة فاستفسر منهم قائلاً:

أول الجزء السابع والعشرون

٣١ ـ ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾.

٣٣ ـ ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾.

﴿قال فما خطبكم﴾ أي ما شأنكم وفيم جئتم ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ هم قوم لوط ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ أي لنرجمهم بحجارة من طين متحجر صلب، ﴿مسومة﴾ وهذه الحجارة معلمة، أي لها علامة فارقة ﴿عند ربك للمسرفين﴾ أي معدة في علم الله لعذاب العصاة، وفي سورة العنكبوت ﴿قال إن

فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾[١].

ثم ينتقل الكلام عن قوم لوط بعد إخبار الملائكة إبراهيم بأنهم مرسلون إليهم فيقول:

٣٥ ـ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

لما أراد الله إهلاك قوم لوط أخرج من كان في المدينة والقرى التابعة لها من المؤمنين لئلا يهلكوا ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ قد يرجع الضمير إلى جميع قرى قوم لوط، أو إلى أكبر القرى ومن يتبعها، والمراد بالبيت المسلم هو لوط وابنتاه، وصفهم الله بالإيمان والإسلام، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم، وكلمة المسلمين تطلق في القرآن الكريم على أتباع الأنبياء السابقين على العموم، وأتباع محمد ﷺ على الخصوص ﴿وتركنا فيها آية﴾ أي علامة للخائفين من عذاب الله تدلّهم على أنّ الله أهلكهم، والبحر الميت في الأردن هو الموضع الذي كان فيه قوم لوط، وهو لم يكن موجوداً قبل إهلاك قوم لوط، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل عالي المدن سافلها، وصارت الأرض أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر، وربما وجدت بعض الآثار الدالة على مدن قوم لوط.

نهاية الطغاة والمكذبين

ثم ينتقل القرآن بعد ذلك فيذكر ما حل بفرعون وقومه فيقول:

٣٨ ـ ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾.

السلطان المبين: الدليل والحجة القاطعة، وهي معجزة موسى الأولى العصا التي تنقلب حية ﴿فتولى بركنه﴾ أي أعرض عن الإيمان مع قومه الذين كان يتقوى بهم ويعتمد عليهم، وهم أصحابه وجنوده ﴿وقال ساحر أو مجنون﴾ وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه، لا شكاً في صدق نبوة موسى، فإن ما رآه فرعون من المعجزات لا يكون لساحر أو من مجنون، ثم يبين القرآن نتيجة كفره مع جنوده فيقول: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ أي ألقيناهم في البحر ليهلكوا غرقاً ﴿وهو مليم﴾ وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند.

٤١ ـ ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾.

---

(١) الآية: ٣٢.

أي وفي إهلاكهم آية أيضاً ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ وهي التي لا خير فيها، لا تسوق سحاباً ممطراً، ولا تلقح شجراً، فهي كالمرأة العقيم التي لا تنجب، وعقيم بمعنى: أنها مدمرة، مهلكة، قاطعة للحرث والنسل، وهي الدبور، وهذه الريح ما تترك من شيء مرت عليه إلا جعلته ﴿كالرميم﴾ أي الشيء الهالك المتفتت البالي.

وفي قصة قوم ثمود أيضاً عظة وعبرة، إذ قيل لهم تهديداً بعد نحرهم الناقة، معجزة نبي الله صالح التي نهاهم الله أن يمسوها بسوء فقال:

٤٣ ـ ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾.

﴿تمتعوا حتى حين﴾ الحين وقت فناء آجالهم، وقد كانت مدة تمتعهم ثلاثة أيام بعد الإنذار ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ أي تكبروا عن امتثال أوامر الله ﴿فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ يعني العذاب وهو الموت من صيحة جبريل، وهو الصوت الذي يكون عند الصاعقة، وهم يشاهدونها لأنّها جاءتهم في وضح النهار ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ فما استطاعوا نهوضاً من تلك الصرعة، ولم يكن لهم قدرة على أن ينتصروا مما هم فيه.

القــــراءة

﴿الصاعقة﴾ قرأ الكسائي ﴿الصعقة﴾ سكون العين من غير ألف.

٤٦ ـ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾.

أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله فيشمل الكفر والمعصية.

القــــراءة

﴿قوم﴾ قرأ أبو عمرو، وحمزة والكسائي بخفض الميم ﴿قوم﴾ على العطف.

من آيات الله الكونية

وبعد أن بيّن القرآن سنة الله بإهلاك الأمم الظالمة الفاسدة، وجّه الأنظار إلى التأمل في خلق السماء والأرض مما يشهد بوجود الله وعظمة الخالق فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾.

﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ أي أوجدناها محكمة متقنة متماسكة، مرفوعة فوق كل جرم، وذلك البنيان

المحكم المتماسك، بأيد أي بقوة إلهية ﴿وإنا لموسعون﴾ قال ابن قتيبة: أي لقادرون، وقال الماوردي: لذو سعة لا يضيق عما يريد، هذه إشارة إلى المخاطبين في كل عصر وفي كل مكان، بأن هذه السماء التي ترونها أمامكم والتي بنيت بقوة إلهية تتسع وتتسع كلما أولجتم فيها بمركبة، أو نظرتم إليها بمنظار بعيد المدى، فمهما وصلتم إليه من بعد للسماء فإننا موسعون أكثر فأكثر، وهنا تظهر الحكمة من سياق الآية بأنّها دلالة على قدرة الله وضعف الإنسان ومحدوديته.

أما التفسير العلمي ﴿لموسعون﴾ بنظرية تمدد الكون التي ينادي بها علماء الفلك حديثاً، فلا ينطبق على الآية، وهذه النظرية ما زالت في طور التخمين.

الأرض منبسطة رغم كرويتها

٤٨ ـ ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾.

هذا عطف على ما قبله منصوب بفعل مضمر محذوف يدل عليه قوله ﴿فرشناها﴾ قال مقاتل: فرشناها أي بسطناها، ولا ينافي ذلك كرويتها، لأن كل بقعة منها ممهدة يسكنها جماعة فوق سطحها، ﴿فنعم الماهدون﴾ أي فنعم الخالق المبدع الذي هيأ الأرض وسوّاها صالحة للسكن.

٤٩ ـ ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي من كل شيء خلقنا صنفين مزدوجين كالذكر والأنثى، والليل والنهار، والسالب والموجب، تحدث القرآن في عدة آيات عن الزوجين، وهو في هذه الآية يثبت الزوجية لكل شيء، وهذا ما اكتشفه العلماء في العصر الحديث، فكما في الإنسان، هو كذلك في النبات والجماد والحيوان، وحتى الذرة اكتشف العلماء بأن فيها نواة ذرة الهيدروجين هو (البروتون) يقابله وحدة البناء الثانية التي تسمى (النيوترون).

وبعد أن عرض القرآن مظهراً من قدرة الله وعظمته في خلق السماء والأرض، أمر بالمسارعة إلى طاعة الله واللجوء إليه وحده فقال:

٥٠ ـ ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

٥١ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ففرّوا إلى الله﴾ أي فرّوا بالتوبة من ذنوبكم، والفرار يكون من الخطر الداهم، والمعنى: اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان، ﴿إنّي لكم منه نذير مبين﴾ محذر من الشر قبل وقوعه ومنبه من الخطر قبل وصوله.

٥٢ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾.

٥٣ ـ ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

يقول الله سبحانه مسلياً لنبيه ﷺ، وفيه عبرة لقومه، وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم، أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كانوا من قبلك يقولون للأنبياء: ﴿أتواصوا به﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة، والاستفهام للتوبيخ والتعجب من حالهم ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي يحملهم الطغيان فيما أعطوا من الدنيا على التكذيب والغرور، وقال ابن كثير: ولكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم: ﴿فتولّ عنهم فما أنت بملوم﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين بالله وكفّ عن جدالهم حتى يأتي أمر الله فيهم، فليس عليك ملامة عند الله بعد إنذارك إيّاهم والمطلوب من الداعية هو ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي عظ بالقرآن من آمن من قومك، فإن الذكرى تنتفع بها القلوب المؤمنة.

ثم ذكر أنه خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح هو عليهم فقال:

٥٦ ـ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.

٥٧ ـ ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾.

٥٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ أي إلاّ لآمرهم أن يعبدوني، فيشكروني على نعمتي ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ فالله سبحانه المنعم المتفضّل ليس بمحتاج إلى أحد في رزق ـ وذلك إشارة إلى تصدق البعض على البعض ـ بل هو الذي يرزق الجميع، وكل الذي طلب من الجن والإنس هو شكر الله وعبادته، فالله هو ذو القدرة الباهرة على الرزق وحده ﴿المتين﴾ الشديد القوة الذي لا تنقطع قوته ولا يلحقه في أفعاله مشقة.

ثم يختم الله سبحانه هذه السورة بالوعيد للكفار فيقول:

٥٩ ـ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾.

﴿فإنّ للذين ظلموا ذنوباً﴾ أي إن للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ذنوباً أي نصيباً من العذاب ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ أي نصيباً من العذاب مثل الذين ظلموا من الأمم السابقة، فلا يستعجلون العذاب قبل أوانه.

٦٠ ـ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.

أي هلاك للذين كفروا ﴿من يومهم الذي يوعدون﴾ إما بالجهاد أو ما يطبقه الإمام من الحدود، أو هو يوم القيامة الذي أخر الله سبحانه فيه عقاب كل من أراد له ذلك.



سورة الطور سميت لورود كلمة الطور في أول السورة.

يوم القيامة والكفار

لما ختم سورة الذاريات بوقوع اليوم الموعود، استهل الله سبحانه هذه السورة بالقسم بخمسة أمور، فيها دلالة على عظيم قدرته، وبديع صنعه، لتأكيد وقوع العذاب بالكافرين يوم البعث والجزاء فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ﴾.

٣ ـ ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴾.

٥ ـ ﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾.

٦ ـ ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾.

﴿والطور﴾ الواو للقسم، والطور هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام، وآتاه التوراة، ويسمى طور سيناء، ومكانه في مصر بين خليج السويس، وخليج العقبة، والله سبحانه يقسم بالطور تعظيماً له، وبياناً لأهميته، وإشعاراً بأنّ الإسلام ليس ديناً جديداً بل هو دين متصل بالأديان السماوية السابقة.

﴿وكتاب مسطور﴾ أي وأقسم بكتاب مكتوب، أي الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ولهذا قال: ﴿في رق منشور﴾ الرق: الورق، والمنشور: المبسوط الذي يكتب فيه، وقد كان الرق وهو الجلد قديماً يستعمل للكتابة قبل أن يتيسر الورق للكتابة، والمنشور المراد منه أنه في متناول كل من يريد قراءته.

﴿والبيت المعمور﴾ الكعبة المشرفة، وهذا البيت يعمره الله بالوافدين إليه من الحجاج ليلاً ونهاراً في كافة أيام السنة.

وقد يكون هناك بيت معمور في السماء حيال الكعبة تتعبّد به الملائكة، لكنّه ليس المراد في هذه الآية، فالقسم في الآيات السابقة واللاحقة في السورة يشعر بأن المراد به أشياء محسوسة للمخاطبين، كالطور والقرآن والتوراة والبيت المعمور ﴿والسقف المرفوع﴾ هو السماء التي نشاهدها باعتبارها سقفاً للأرض المفروشة، التي

نحن عليها، والقسم بها، فيه لفت للنظر إلى عظمة الله مبدعها، وقدرته المسيطرة على هذا الكون.

﴿والبحر المسجور﴾ هو البحر المملوء بالمياه الغزيرة، والبحر هو مصدر الرزق، فالماء العذب يتبخر من البحر الذي ينزل من السحاب فيروي الأرض، ثم ينبت النبات على الأرض، فالقسم بالبحر فيه لفت للأنظار إلى قدرة الله وعظمته، وتذكير بفضله ونعمته.

أقسم الله تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن تعذيب المشركين حق فقال:

٧ ـ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

٨ ـ ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

هذا هو المقسم عليه، أي إن عذاب ربك كائن لا محالة في الآخرة، ولا مهرب منه، لا دافع يدفعه عنه إذا وقع ولا مردّ له.

ثم بين متى يقع العذاب فقال:

٩ ـ ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾.

١١ ـ ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾.

١٣ ـ ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾.

١٤ ـ ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

١٥ ـ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾.

١٦ ـ ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿يوم تمور السماء موراً﴾ تدور وتتحرك تحركاً ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ تنتقل من أماكنها فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ أي الويل والهلاك في ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي الذين كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي يوم القيامة يدفع المكذبون إلى نار جهنم بعنف وشدة، فإذا أدنوا منها قالت لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذّبون﴾ في الدنيا ثم يقال لهم زيادة في التوبيخ ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ فلما ألقوا فيها قال لهم خزنتها ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ أي ادخلوا النار وقاسوا حرها، وصبركم أو عدم صبركم سيان في عدم النفع لكم ﴿إنّما تجزون ما كنتم تعملون﴾ إنّكم ستعاقبون بسبب ما عملتم في دنياكم من السيئات.

المتقون وجزاؤهم يوم القيامة

وبعد أن بين حال الكافرين ومصيرهم السيء يوم القيامة، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين ونعيمهم في الآخرة فقال:

١٧ - ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾.

١٨ - ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

١٩ - ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

٢٠ - ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾.

﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي مسرورين بما آتاهم الله من الفاكهة والنعيم وأصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حد ذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال قلب بشر، ثم يقال لهم ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾ أي كلوا واشربوا بدون تنغيص ولا كدر، إن ذلك النعيم ثواب ما كنتم تعملون في الدنيا ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ أي جالسين جلسة مريحة على سرر وهو جمع سرير، وهو الذي يجلس عليه أو يضطجع عليه، صفت السرائر بنظام، ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ أي جعل الله لهم أزواجاً من حور عين، والحور: جمع حوراء، وتطلق على المرأة البيضاء المشربة بصفرة.

ثم يذكر القرآن الكريم ما خص الله به المؤمنين في الآخرة من نعيم، وهو جمعهم مع ذريتهم فيقول:

٢١ - ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾.

يخبر الله تعالى عن فضله وكرمه ولطفه بخلقه، إن المؤمنين الذين يستحقون درجات عالية في الجنة بسبب أعمالهم الصالحة، إذا تبعتهم ذرياتهم وأولادهم بالإيمان، ولكنهم كانوا دونهم في العمل الصالح، ولم يبلغوا درجات الآباء في الثواب، ألحقهم الله بآبائهم لتقر عين الآباء بهم ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي وما أنقص الله الآباء شيئاً من مراتب أعمالهم، ولا يحمل الآباء شيئاً من أخطاء ذريتهم، ولما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك الإخبار عن مقام العدل فقال: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ أي إنه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، فكل مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً.

القــــراءة

﴿ذريتهم﴾ قرأ نافع ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ جمعاً، والأولى واحدة ﴿وأتبعتهم ذريتهم﴾ وقرأ ابن عامر جمعاً في

الموضعين ﴿وأتبعناهم ذرياتهم﴾، و﴿بهم ذرياتهم﴾ بألف.

﴿ألتناهم﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام.

ويتابع القرآن ما خصَّ الله به المؤمنين من نعيم أيضاً فيقول:

٢٢ ـ ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾.

وأعطى الله المؤمنين زيادة على ما سلف فاكهة ولحماً من الأصناف التي تشتهيها نفوسهم وهم ﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي يتعاطون كؤوس الشراب ويتداولونها فيما بينهم، والمراد بالكأس: الإناء المملوء بالخمر، وهذه الخمرة ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي لا تذهب بعقولهم فيلغوا ويرفثوا فيأثموا، كما يكون ذلك في خمر الدنيا.

القــــراءة

﴿لا لغو﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ نصباً.

ثم بين من يطوف على المؤمنين بالكؤوس والفواكه واللحوم فقال:

٢٤ ـ ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

أي خدم في مقتبل العمر صباح الوجوه. وهم في حسنهم كاللؤلؤ المخبوء في أصدافه، من حيث البياض والصفاء، ومكنون لم تمسه الأيدي.

٢٥ ـ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ يتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم، إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ منّ الله علينا بالمغفرة، وعذاب السموم هو عذاب النار، والسموم من أسماء جهنّم ﴿إنّا كنا من قبل ندعوه﴾ أي نوحّده ونخلص له، و﴿البر الرحيم﴾ العطوف على عباده المحسن إليهم العظيم الرحمة بهم.

القــــراءة

﴿إنه هو البر﴾ قرأ نافع والكسائي ﴿أنه﴾ بفتح الهمزة.

نقاش الكفار ومعتقداتهم

وبعد أن بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين في الآخرة، أمر نبيه بالثبات على دعوته فقال:

٢٩ ـ ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ بعد أن أمره بالثبات على الدعوة وتبليغ الرسالة، وتذكير الناس بما أنزل عليه، نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور، والكاهن: هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب، ويخبر عما في غد من غير وحي، وعند النصارى أصبحت الكهانة مرتبة من مراتب الرهبان في الكنائس.

وبعد أن سقطت تهمة الكهانة والجنون، تصوره البعض شاعراً بما أتى به من القرآن وهذا دلت عليه الآية التالية:

٣٠ ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

٣١ ـ ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

والمعنى: بل يقولون عن النبي ﷺ إنه شاعر، ننتظر به نزول الموت، فنستريح منه ومن شأنه، والمنون: الموت، ثم خاطب نبيه فقال له: ﴿قل تربصوا فإنّي معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا موتي فإني معكم منتظر هلاككم، وهذا فيه تهكم بهم مع التهديد والوعيد، وقد نفذ الله هذا الوعيد بهم يوم بدر، وما بعدها من الفتوحات، حيث تبين أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولكنّه رسول من عند الله يبشر وينذر.

٣٢ ـ ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

لقد كان عظماء قريش يلقبون بذي الأحلام «أي العقول» إشارة إلى رجاحة عقولهم، وحكمتهم في تصريف الأمور، فالقرآن بالآية يتهكم بهم ويزري بأحلامهم، إذ لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل، لأن موقفهم من النبي ﷺ ينافي الحكمة والعقل، فلو كان عندهم حكمة وعقل لما اتهموا النبي ﷺ التهم الباطلة ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي ولكن هم قوم طاغون، ضلال معاندون، فهذا الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

٣٣ ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٤ ـ ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾.

فهم يقولون إنه تقوّله أي اختلق القرآن، بل هم لمكابرتهم لا يؤمنون ﴿بل لا يؤمنون﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم ﴿تقوله﴾ وافتراه، فليأتوا بمثل ما جاء محمد ﷺ من هذا القرآن، الذي تضمّن كثيراً من المعجزات في أسلوبه وأخباره، ومعانيه وألفاظه، فإنّهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله ولا بعشر سور من مثله، وقد تحدّاهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات أو سورة، على ما هو مفصل في سورة هود.

وبعد أن أثبت القرآن صدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن الذي جاء به هو وحي إلهي، انتقل إلى الرد على الذين ينكرون الخالق كما هو شأن الدهريين والملحدين فقال:

٣٥ ـ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾.

أي أوجدوا من غير خالق وموجد، أم هم أوجدوا أنفسهم، أي لا هذا ولا ذاك بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾ وإذا كان هذا الفرضان يرفضهما منطق العقل والواقع، ولا يمكن أن يدعي بذلك أحد، فإنه لا يبقى إلاّ الحقيقة التي يقولها القرآن.

كما وبخهم على الشك بقوله:

٣٧ ـ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾.

٣٨ ـ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾.

أي أهم يتصرفون في الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن للرزق حتى يعطوا من شاؤوا، ويمنعوا من أرادوا؟، ﴿أم هم المصيطرون﴾ أي الأرباب المحاسبون للخلائق، ليس الأمر كذلك بل الله عزّ وجلّ هو المالك المتصرّف الفعال لما يريد، ﴿أم لهم سلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ أم لهم سلّم مرقاة يرتقون فيها إلى السماء يستمعون الوحي، فيدعون أنهم سمعوا هنالك أن الذي هم عليه هو الحق ؟ وإذا كان كذلك فليأت مستمعهم بحجة تبين أنه على حق.

ثم سفّه الله عقولهم حيث اعتبروا الأصنام إناثاً وأنهن بنات الله، وفي ذلك من التهديد والوعيد الأكيد.

القـــراءة

﴿المصيطرون﴾ قرأ ابن كثير ﴿المسيطرون﴾ بالسين.

٤٠ ـ ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾.

أي هل سألتهم أجراً على ما جئت به، فأثقلهم ذلك الذي تطلبه منهم، فمنعهم عن الإسلام؟ والمغرم بمعنى الغرم.

٤١ ـ ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

هذا هو جواب لقولهم، ﴿نتربص به ريب المنون﴾[1] والمعنى أعندهم الغيب، أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلاّ الله.

(١) نفس السورة، الآية: ٣٠.

٤٢ ـ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾.

يقول الله تعالى أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس، وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم﴿ فالذين كفروا هم المكيدون﴾.

ثم صرح بالمقصود الكلي فوبّخهم على إشراكهم فقال:

٤٣ ـ ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزّه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال ﴿سبحان الله عما يشركون﴾.

ثم ذكر عنادهم فقال:

٤٤ ـ ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾.

والمعنى: لو سقط بعض السماء عليهم لما انتهوا عن كفرهم وعنادهم، ولقالوا: هذه قطع من السحاب قد ركم بعضه على بعض، ومركوم أي متراكم بعضه فوق بعض، وفي ذلك رد على الكفار الذين طلبوا من النبي ﷺ أن يسقط السماء عليهم كسفاً.

وبعد أن بين موقف الكافرين المبني على المكابرة والعناد، يدعـو الله النبي ليهمل أمرهم، ويعرض عنهم حتى يأتيهم عقاب الله مع الوعد له بالتأييد فقال:

٤٥ ـ ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

أي فدعهم يا محمد غير مكترث بكيدهم حتى يلاقوا اليوم الذي فيه ﴿يصعقون﴾ وذلك يوم القيامة أو هو موت كل واحد، وفي ذلك من التهديد الواضح لهم ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ومكرهم ولا يدفع عنهم العذاب، ولا أحد يستطيع نصرهم يوم القيامة.

القـــراءة

﴿يصعقون﴾ برفع الياء قراءة عاصم وابن عامر، والباقون بفتحها.

العذاب في الدنيا

٤٧ ـ ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي إن لهؤلاء الكفار عذاباً قبل يوم القيامة، تتركه الآية بلا تحديد، قد يكون عذاب الخزي في الدنيا بجهاد كما حصل للكافرين يوم غزوة بدر، وقد يكون ما يرتكبونه من معاصي فيطبق عليهم الإمام الحدود، وقد يكون لبعضهم عذاب نفسي كالمنافقين، أما المصائب والبلاوى فلا تعد من العذاب والعقاب، لأنها لا تقتصر

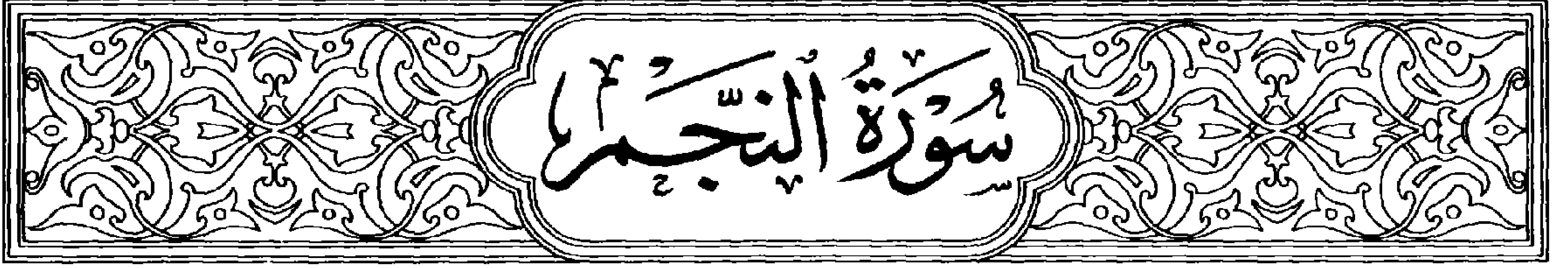
على الكفار وحدهم ولا على المجرمين والعصاة وحدهم بل تعم الصالح والطالح، والصغير والكبير، وحتى الأنبياء والأولياء لم يسلموا من المصائب والبلاوى فلا يصح أن تكون عقاباً، ولا جدال أن فيها حسنات والحسنات يذهبن السيئات.

٤٨ ـ ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾.

أي اصبر على أذاهم ولا تبال لهم فإنك بمرأى منا، وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس ﴿فإنك بأعيننا﴾ هذا ما يجب أن يستشعره كل داعية إلى الله عندما يحيق به الأذى والمكروه من قومه، فيعلم أنه بمرأى من الله ورعايته وتأييده.

أمام هذا الوعد الإلهي بالحفظ، يأتي ختام السورة داعياً إلى ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ليظل القلب موصولاً بالله، هادياً للدرب، مطمئناً للقلب ﴿وسبّح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي نزّه ربك عن كل ما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إنعامه عليك، حين تقوم من مجلسك أو من منامك، أو حين تقوم للصلاة ﴿ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم﴾ أي وسبحه في ثنايا الليل وعند غروب النجوم، وهو آخر الليل، ووقت صلاة الفجر.



سورة النجم سميت لورود كلمة النجم في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تحقيق أمر الوحي

افتتح الله سبحانه هذه السورة بذكر النبي ﷺ، كما اختتم بذكره سورة الطور حتى اتصلت بها اتصال النظير بالنظير فقال:

١ - ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾.

٢ - ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾.

٣ - ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾.

٤ - ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلّا بالخالق ﴿والنجم إذا هوى﴾ هذا قسم، والواو واو القسم، والنجم المراد في الآية هو جنس النجوم الموجودة في السماء، ومعنى هوى غرب أو سقط، فغروب النجوم نراه ويحصل في دنيانا، وأما السقوط فإنه يحصل يوم القيامة، وقد بيّن القرآن مصير النجوم يوم القيامة في سورة التكوير، والحكمة من القسم بالنجم ما يرمز هذا القسم من الدعوة إلى التأمل بالنجوم، توصّلاً إلى استشعار عظمة الخالق، ولما كان من المشركين من يعبدها، قرن بها وصفاً يدل على أنها لا تستحق العبادة، لأنها غاربة يومياً وساقطة يوم القيامة، وجواب القسم ﴿ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضالّ عن طريق الهدى، ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض، وما يتكلّم بالباطل، وعن بمعنى الباء، وهذا ردّ على الذين يقولون إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه ﴿إن هو إلّا وحي يوحى﴾ أي إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان.

رؤية النبي لجبريل

ثم بين طريق الوحي بقوله:

٥ - ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾.

٦ ـ ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

٨ ـ ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾.

٩ ـ ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

١٠ ـ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾.

﴿علّمه شديد القوى﴾ هو جبريل عليه السلام علم النبي ﷺ ﴿ذو مرة فاستوى﴾ أي ذو قوة، وأصل المرة: القتل، وكان الله يرسله لإهلاك أهل المدن، كما فعل بقوم لوط وثمود، واستوى: جبريل عليه السلام، ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي استوى جبريل بأن علا وارتفع وتجلّى بصورته الأصلية، وهو بالجهة العليا من السماء جهة الأفق الذي يأتي منه الصبح ﴿ثم دنا فتدلى﴾ دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض فنزل إلى رسول الله ﷺ، ثم زاد تأكيداً بقوله: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ المراد بالقوس التي يرمى بها، ونقل عن ابن مسعود دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين، وليس المراد المسافة بالمقياس وإنما إفادة شدة القرب منه ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي فأوحى جبريل إلى النبي ﷺ ما أوحى إليه من الوحي الإلهي.

١١ ـ ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾.

١٢ ـ ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾.

أي ما أنكر قلب محمد ﷺ ما رآه بصره من صورة جبريل عليه السلام، بل صدق قلبه ما رآه ببصره، ﴿أفتمارونه على ما يرى﴾ أتجادلونه وتنكرون عليه ما رآه من صورة جبريل.

القـــراءة

﴿ما كذب الفؤاد﴾ قرأ هشام عن ابن عامر ﴿ما كذّب الفؤاد﴾ بالتشديد.

﴿أفتمارونه﴾ قرأ حمزة والكسائي والمفضل عن عاصم وخلف ويعقوب ﴿أفتمرونه﴾ بغير ألف.

١٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾.

١٤ ـ ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾.

لقد رأى محمد جبريل مرة أخرى على صورته الحقيقية ﴿عند سدرة المنتهى﴾ السدرة شجرة النبق، وإنما سميت بالمنتهى لأن إليها تنتهي الملائكة، أو التي انتهى إليها جبريل حين رآه النبي في المرة الثانية.

١٥ ـ ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾.

١٦ ـ ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾.

١٧ ـ ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾.

١٨ ـ ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾.

﴿جنة المأوى﴾ قال ابن عباس هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة، وقيل المعنى عندها: أدركه المبيت يعني رسول الله ﷺ ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ أي يغطيها، وهل المغطي لها هم الملائكة أو نور من الله سبحانه؟ كله جائز ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ أي ما مال بصر محمد يميناً ولا شمالاً عما أمر برؤيته، وما جاوزه إلى ما لم يؤمر به ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال ابن كثير كقوله: ﴿لنريه من آياتنا﴾[1] أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة إلى أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس، وعائشة وهي أقرب الناس لرسول الله ﷺ تنفي ذلك وتقول: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله لأن الله تعالى يقول ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾[2] وكانت تقول إنما رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين، والآيات الكريمة في سياقها ودلالتها لا تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لربه، وليس هناك حديث صحيح صريح بذلك.

تلك هي آلهتهم التي لا تغني عنهم شيئاً

١٩ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾.

الكفار لم ينكروا وجود الله، وأنه خالق كل شيء، وإنما كانوا يشركون بالله، ويعزون إلى أصنامهم أنها تتصرف مع الله في أمور العباد، فإذا تقرب الإنسان من هذه الأصنام شفعت له عند الله، وكانوا يقولون ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾[3]، فاللات اسم صنم كان لثقيف اتخذوه من دون الله وهو مشتق من «الله» وكانت صخرة مربعة بيضاء بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم، وأصله كان رجلاً يلت السويق للحجيج في الجاهلية ويبيعه عند الصنم، فسمي الصنم اللات.

والعزى: من الأصنام التي وضعت بوادي نخلة، بين مكة والطائف وكانت شجرة عليها بناء وأستار، وكانت قريش تتعبد للعزى، وتزورها وتهدي إليها، وتتقرب إليها بالذبائح، وكانت من أعظم الأصنام، وهو مشتق من «العزيز».

ومناة: وهي من أقدم الأصنام على ساحل البحر بين المدينة ومكة، وكانت معظمة عند الأوس والخزرج وعند غيرهم، وكان المتعبدون لها يقصدونها فيذبحون حولها ويهدون إليها، وكان سدنتها يجنون من سدانتهم لها أرباحاً كثيرة، «الثالثة» فإنه نعت لمناة هي ثالثة الصنمين في الذكر(والأخرى) نعت لها، وقد كانت بجزيرة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها الله سبحانه في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنّها أشهر من غيرها، وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتهدي لها، كما يهدى للكعبة، ويطاف بها كطوافهم بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنّها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده، فكانت لقريش ولبني كنانة، وكل هذه الأصنام هدمت وقضى عليها النبي ﷺ بعد فتح مكة، وطهّر الكعبة المشرفة من أوساخ الأصنام تطهيراً كاملاً.

القـــراءة

﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ قرأ ابن كثير ﴿ومناءة الثالثة﴾ مهموزة ممدودة.

وكان الكفار يعتبرون هذه الأصنام إناثاً، وأنها بنات الله، ولقد استنكر الله دعواهم فقال:

٢١ ـ ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾.

قال لهم ذلك حيث كانوا يحبون الذكور ويكرهون ولادة البنات لهم ثم قال سبحانه ﴿تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ قال الزجاج: الضيزى في كلام العرب: الناقصة الجائرة، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم، والله سبحانه منزه عن الولد سواءً كان ذكراً أم أنثى؟

القـــراءة

﴿ضيزى﴾ قرأ ابن كثير بهمز ﴿ضيئزى﴾ رغم أنه كسر الضاد.

ثم أنكر عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء، والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها فقال:

٢٣ ـ ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾.

أي ما الأصنام التي تعبدونها إلا أسماء محضة ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها، لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل، ولا تضرّ ولا تنفع، فليست إلاّ مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، قلّد فيها الأبناء الآباء ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ولا وحي يثبت أنها آلهة ﴿إن يتبعون إلاّ الظن﴾ أي لا يتبعون إلاّ الظن والوهم، في عبادتهم، والظن تصور لا يستند إلى دليل راجح، وهو يؤدي بصاحبه إلى وهم باطل لا يفيد ما يفيده الحق، وما يفيده العلم اليقيني الذي عليه مدار الإيمان الصحيح ﴿وما تهوى الأنفس﴾ أي تميل وتشتهيه أنفسهم من غير التفات إلى الحق ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ هذا في مقابل الظن، فإذا جاء الحق والهدى لا حاجة إلى الظن بل أن يسقط في مقابلته.

٢٤ ـ ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾.

أي ليس كل من تمنّى خيراً حصل له، وما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من أحبّ شيئاً يحصل له.

٢٦ ـ ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾.

قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل النهي عن ذلك في جميع كتبه، ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلّا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ والمعنى: أنهم لا يشفعون إلّا لمن رضي الله عنهم، وكقوله تعالى في سورة البقرة آية الكرسي ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلّا بإذنه﴾ وقوله ﴿لا تنفع الشفاعة إلّا لمن أذن له﴾[1].

ثم صرح بالتوبيخ على قولهم الملائكة بنات الله فقال:

٢٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾.

﴿يسمون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وذلك حين زعم الكفار بأن الملائكة بنات الله ﴿وما لهم به من علم﴾ فإنهم لم يعرفوهم ولا شاهدوهم، ولا بلغ ذلك إليهم عن طريق من الطرق التي يخبر عنها المخبرون، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالة وجرأة، ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء وكفر شنيع، وظنهم لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[2].

٢٩ ـ ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٣٠ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

أي دع يا محمد من أعرض عن ذكر الله وهو القرآن ولم يؤمن بربه، أو من أعرض عن الهدى ولم يأخذ بما فيه من الحق، واترك مجادلته فقد بلّغت ما أمرت به، وفي إعراضه ﴿لم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ أي لم يرغب إلا في الحياة الدنيا وملذاتها وشهواتها، وليس له غاية أخرى وراءها، وهو خطاب إلى كل مسلم بوجه عام، ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٢) متفق عليه.

ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته وسعة ملكه فقال:

٣١ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

هذه الآية تعليل لما قبلها، فالله عالم بمن ضلّ وبمن اهتدى، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيراً فخير وإنّ شراً فشر.

من هم المحسنون

ثم فسر المحسنين وبين صفاتهم فقال:

٣٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾.

كبائر الإثم

﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم﴾ الكبائر هي ما وجب فيه عقوبة، أو ما ورد فيه توعد بالعذاب بالنار يوم القيامة، أو الغضب من الله أو ما وجب فيه لعنة، أو ورد فيه وعيد شديد وصف فاعله بالفسق.

وقد عدد النبي ﷺ بعض هذه الكبائر بقوله:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً، قلنا بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[١].

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[٢].

الفواحش

الفواحش جمع فاحشة هي ما يتعلق منها بالقوة الشهوية، ومنها ما يدخل في باب الكبائر أو الصغائر حسب جسامة الذنب وصغره، وقد وردت بعض إطلاقات القرآن للفاحشة على الزنا واللواط، ولا شك أن الفواحش على أنواع مختلفة ومتعددة، ومنها ما يكون في السر ومنها ما يكون في العلن، كالتعري والرقص الخليع، وغيره على ما بيّناه في سورة الشورى الآية (٣٣).

اللمم

﴿إلا اللمم﴾ فهو صغار الذنوب، كالنظرة والقبلة، وما كان دون الزنا، قاله ابن مسعود، وأبو هريرة

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

والشعبي ومسروق، ويؤيد ذلك حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تشتهي وتتمنى، ويصدق ذلك ويكذبه الفرج، فإن تقدم بفرجه كان الزنا، وإلا فهو اللمم»(١).

﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها كقوله تعالى في سورة الزمر ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾(٢)، وهذا النص يفتح على العاصين أبواب المغفرة إذا ما رجعوا إلى الله وتابوا من ذنوبهم، ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض﴾ أي خلقكم منها في ضمن خلق أبيكم آدم فإنّه خلقه من طين، فكان بطباعكم عالماً ﴿وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ أي يعلم بكم كونكم أجنّة في أرحام أمهاتكم وهذا دليل على إحاطة علم الله بالأشياء، فإن رحم الأم في غاية الظلمة ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ أي لا تمدحوها ولا تبرئوها من الآثام، ولا تثنوا عليها بأنكم تنزهتم عن الصغائر، وتمنوا بأعمالكم، بل الله يزكي من يشاء، لأنه وحده العالم بأحوال العباد.

القـــراءة

﴿كبائر الإثم﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿يجتنبون كبير الإثم﴾ بغير ألف.

حقائق إسلامية

لما بين حال المشركين المعاندين شرع في قصة هؤلاء المعاندين فقال:

٣٣ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾.

﴿أفرأيت﴾ الهمزة للاستفهام، أي هل تأملت وعلمت ﴿الذي تولى﴾ الإنسان الذي جاءه الذكر والهدى والبيان، فأعرض عن الإيمان واتباع الحق ﴿وأعطى قليلاً وأكدى﴾ أعطى قليلاً من المال في سبيل الله وأطاع قليلاً ثم قطع العطاء وأمسك وتوقف عن الطاعة والإيمان، أو أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع، ومعنى: ﴿أكدى﴾ قطع وهو من كدية الركبة، وهي الصلابة فيها، كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أكدينا، ويتركون العمل، فقيل لكل من طلب شيئاً فلم يبلغ آخره، أو أعطى ولم يتم: أكدى ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ أي أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده، أو أن السبب الذي جعله يتوقف سواء أكان إنساناً أو شيطاناً أو غيره سوف يدفع عنه العذاب يوم القيامة، فهل يرى ذلك الآن عياناً؟ لا ليس الأمر كذلك.

---

(١) رواه مسلم والبخاري.
(٢) الآية: ٥٣.

صحف إبراهيم وموسى

٣٦ - ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾.

٣٧ - ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾.

أي هذا الإنسان الكافر الذي تعرف على الإيمان والإسلام ثم نكص عنه وتوقف عن الحق والهدى إذا لم يكن لديه علم بالغيب وقد انتفى عنه، ألم يكن لديه علم سابق وخبر بما اشتملت عليه الكتب المنزلة من الله قبل محمد، وأقر بها هي صحف موسى وهي التوراة، ومن قبلها صحف إبراهيم ذلك النبي ﴿الذي وفّى﴾ بتبليغ الرسالة حتى وصلت جزيرة العرب.

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال:

٣٨ - ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

٣٩ - ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾.

﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو أي شيء من الذنوب، فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد، وهذه قاعدة مهمة رددها القرآن في خمس مواضع سبق شرحها[1] ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ أي ليس للإنسان إلاّ جزاء سعيه، إن عمل خيراً جوزي عليه خيراً، وإن عمل شراً جوزي شراً، وهذا هو العدل.

ومما يتصل بسعي الإنسان بعد مماته الدعاء والصدقة، فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث، من ولد يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به» وكذلك إذا مات الأب ولم يستطع الحج في حياته، فللولد أن يحج عنه للحديث الصحيح[2].

فهذه الأمور التي ذكرناها هي في الحقيقة من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه»[3] والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقال الله تعالى ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾[4] والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»[5] ولا شك أن ما ينفقه الولد على حج أبيه الميت هو امتداد لسعي والده عليه إن لم يكن من ماله الذي ورثه عنه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤. وسورة الإسراء، الآية: ١٥. وسورة فاطر، الآية: ١٨. وسورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) الذي رواه البخاري ومسلم: (أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره قال: «فحجي عنه».

(٣) رواه النسائي وابن ماجه والدارمي.

(٤) سورة يسّ، الآية: ١٢.

(٥) رواه الترمذي.

٤٠ ـ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾.

٤١ ـ ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾.

أي أن عمله يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ أي ثم يجزي الله الإنسان على عمله الجزاء التام ﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾ أي المرجع والمصير إلى الله الذي سيجازي الناس على أعمالهم.

وبعد عرض هذه الحقائق التي تبين مسؤولية الإنسان في عمله، ينتقل القرآن إلى بيان عظمة القدرة الإلهية وضآلة الإنسان حيالها فيقول:

٤٣ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾.

أي خلق في عباده غريزة الضحك وغريزة البكاء وخلق سببهما وهما خاصتان مختلفتان، خلق الفرح الذي يتسبب عنه الضحك، وخلق الحزن الذي يتسبب عنه البكاء، فمهما بلغ الإنسان من مراتب العز والملك والعظمة والغنى، فإنه سيقف يوماً هذا الموقف الذي تنهمر فيه دموعه لمؤثرات خارجة عن إرادته. كموت أحد أفراد أسرته، وهذا يدل على عظمة الله الخالق وضعف الإنسان المخلوق، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أمات في الدنيا وأحيا للبعث ولا يقدر على ذلك غيره.

٤٥ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾.

بيّن الله سبحانه أنه خلق الزوجين من بني الإنسان والحيوان ﴿من نطفة إذا تمنى﴾ والنطفة هي المني الذي يخرج من الذكر، وأن مصدر الذكورة والأنوثة للمولود هو الرجل أي مني الرجل الذي يمنيه ﴿إذا تمنى﴾ وذلك أن مني الرجل يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية التي تحمل صبيغات أنثوية، وذكرية معاً، وأحد هذه الحيوانات المنوية هو الذي يخصب بويضة الأنثى فإذا كان الذي يخصب بويضة الأنثى يحمل صبيغات أنثوية كان الجنين أنثى، وإذا كان الحيوان المنوي يحمل صبيغات ذكرية كان الجنين ذكراً.

٤٧ ـ ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾.

أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيماً عندهم مدخراً يستعملونه وينتفعون به، وهذا من تمام دوام النعمة ﴿وأنه

هو رب الشعرى﴾ الشعرى هي ألمع ما يرى من نجوم السماء، أي الأكثر لمعاناً، وقد اختصها الله بالذكر، لأن بعض العرب كانوا يعبدونها، وكان قدماء المصريين يعبدونها أيضاً، فأعلم الله الناس أن الشعرى ليست ربا، وأن لها رباً هو الله.

ثم يبين الله سبحانه ما فعل بالأمم السابقة جزاء كفرهم فيقول:

٥٠ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾.

٥١ ـ ﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾.

٥٢ ـ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾.

فالله أهلك قوم عاد وثمود، وعاد وثمود من قبائل العرب البائدة، ووصفوا بذلك لأنهم بادوا أي هلكوا، وصفت عاد بالأولى لأنهم كانوا قبل ثمود ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي أهلك الله أمة نوح من قبل عاد وثمود ﴿إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ أي أنهم أكثر ظلماً وأشد طغياناً من السابقين.

القـــراءة

﴿عاداً الأولى﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿عاداً لولى﴾ موصولة مدغمة.

٥٣ ـ ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾.

﴿والمؤتفكة أهوى﴾ قرى قوم لوط، والائتفاك: الانقلاب، سميت بذلك لأنها انقلبت بهم، وأهوى: أي جعلها الله سبحانه تهوي على أهلها فتدمر وتهلك أهلها ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي أحاط بها من العذاب ما أحاط.

٥٥ ـ ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾.

﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ الآلاء: النعم، وتتمارى تتشكك، أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته في إهلاك الأمم الظالمة تتشكك أيها الإنسان وفي دينه ترتاب.

وأخيراً يختم الله هذه السورة منذراً الكافرين داعياً إياهم إلى الخضوع له فيقول:

٥٦ ـ ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾.

٥٧ ـ ﴿ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴾.

٥٨ ـ ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾.

أي هذا يعني محمداً ﷺ ﴿من النذر الأولى﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا، وحين فرغ من بيان التوحيد والرسالة ختم السورة بذكر اقتراب الحشر فقال: ﴿أزفت الآزفة﴾ هي يوم القيامة، والمراد بأنها قربت

بالنسبة لما مضى من الزمن، وقيامة كل إنسان موته، ثم بعثه ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي ليس لها غير الله من يكشف عن وقت وقوعها، فعلمها مما اختص به الله عزّ وجلّ وحده، ولا يقدر على كشفها إذا غشيته غير الله.

٥٩ ـ ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾.

٦٠ ـ ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾.

٦١ ـ ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾.

٦٢ ـ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾.

أي أفمن هذا القرآن تعجبون ﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ تضحكون استهزاءً ولا تبكون مما فيه من الوعيد؟ ﴿وأنتم سامدون﴾ أي شامخون برؤوسكم تكبراً، أو لاهون بأنواع اللهو ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ أي فاخضعوا لله وأفردوه بالعبادة.



سورة القمر سميت لورود كلمة القمر في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الكافرون وموقفهم من دعوة الحق

ختم الله سورة النجم بالكلام عن اقتراب يوم القيامة والاستعداد له بالجد والخشية من الله، وإفراده بالعبادة والسجود له، وابتدأ سورة القمر باقتراب الساعة والتحدث عن آيات الله وتكذيبهم للأنبياء والنذر فقال:

١ ـ ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾.

﴿اقتربت الساعة﴾ اقتربت دنت، والساعة أي الوقت، والمعنى: دنا الوقت الذي أمر الله أن تظهر فيه آياته، ومنها انشقاق القمر، ﴿وانشق القمر﴾ أي وقد انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا» وانشق لفظ ماضٍ، أي أن الانشقاق كان قبل نزول الآية.

لما انشق القمر قال المشركون سحرنا محمد فقال الله تعالى:

٢ ـ ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾.

﴿وإن يروا آية﴾ يعني انشقاق القمر ﴿يعرضوا﴾ عن التصديق والإيمان بالآية ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ ومستمر بمعنى ذاهب أي باطل لا دوام له ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾ أي وكذّبوا بالحق إذ جاءهم واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم ﴿وكل أمر مستقر﴾ إنّ كل أمر من أمور هذا العالم منته إلى غاية، فالخير يستقر بأهله والشر يستقر بأهله.

ثم أشار بقوله إلى الأشياء التي فيها لطف بالعباد:

٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾.

٥ ـ ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾.

أي جاء لهؤلاء القوم في القرآن أخبار الأمم السالفة الذين حلّ بهم العذاب والهلاك ﴿ما فيه مزدجر﴾ أي يزجرهم ويردعهم عن الكفر ﴿حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ والحكمة البالغة المراد بها القرآن الكريم الذي احتوى على الحكم والعظات البالغة في الهداية، وقوله ﴿فما تغن النذر﴾ أي: لن تغني النذر شيئاً عن المعاندين بعد أن جاءهم القرآن، وفيه الحكمة التامة التي بلغت الغاية، فإن عنادهم يصرفهم عن قبول الحق، وكقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾(١).

ثم يبين القرآن بعد ذلك مصير هؤلاء يوم القيامة فيقول:

٦ ـ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾.

﴿فتولّ عنهم﴾ أي أعرض عنهم، والمراد ترك جدالهم، ولا تتعب نفسك بدعوتهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، ﴿يوم يدع الداع﴾ اليوم هو يوم القيامة، والداعي هو إسرافيل ملك من الملائكة، ودعاؤه يكون بالنفخ، النفخة الثانية، فيخرج الأموات من قبورهم أحياء للحساب، والداعي يدعوهم ﴿إلى شيء نكر﴾ أي أمر فظيع تنكره النفوس لما ترى فيه من الأهوال والبلاء والكرب.

القــــراءة

﴿يدع الداع﴾ أثبت الياء في الحالين ابن كثير ويعقوب ووافقهما نافع وأبو عمرو في الوصل، وحذفها الأكثرون في الحالين ﴿نكر﴾ قرأ ابن كثير ﴿نكر﴾ بسكون الكاف.

٧ ـ ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾.

٨ ـ ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾.

﴿خشعاً أبصارهم﴾ أي سكون الأبصار على هيئة لا تلتفت يمنة ويسرة كقوله: ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾(٢)، الأجداث هي القبور، أي يخرجون من القبور وكأنّهم لكثرتهم واختلاطهم الجراد المنتشر المختلط بعضه ببعض، ﴿مهطعين إلى الداع﴾ أي مسرعين إلى الداعي وهو إسرافيل ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ أي يوم شديد صعب لما يشاهدونه من الأهوال، وسوء المصير.

القــــراءة

﴿خشعاً﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿خاشعاً﴾ بالألف.

أحوال بعض الأمم السابقة

ثم إنّه سبحانه أعاد بعض الأنباء وبدأ بقوم نوح فقال:

---

(١) الآية: ١٠١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.

٩ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

١٠ ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾.

١١ ـ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾.

١٢ ـ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

١٣ ـ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾.

١٤ ـ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.

١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

١٦ ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

﴿ازدجر﴾ زجروه عن مقالته ودعوته، فدعا عليهم نوح ربه بـ ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ أي فانتقم لي ممن كذبني، والماء المنهمر هو الكثير السريع ﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ أي إن ماء الأرض وماء السماء التقيا ليحصل من جراء ذلك الطوفان الذي قدره الله وقضاه لهلاك قوم نوح، ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ أي وحملنا نوحاً على سفينة مصنوعة من ألواح وهي الأخشاب، ودسر هي المسامير تشد بها الألواح ﴿تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفر﴾ أي تجري برعايتنا وحفظنا، وهكذا كان الطوفان عقاباً، وجزاءً للذين كفروا ﴿ولقد تركناها آية﴾ أي جعلنا حادثة إغراق قوم نوح، ونجاة المؤمنين عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم، وقد يراد بالآية السفينة نفسها، حيث ذكر بعض المفسرين أن السفينة أدركها بعض الناس في عهد النبي محمد ﷺ، وقد تناقلت الأنباء في العصر الحاضر عن العثور على بعض أجزاء منها في تركيا، ولكن العبرة في القصة والآية في المعجزة ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ النذر جمع نذير، وهو بمعنى الإنذار، ومثله النكير بمعنى الإنكار وهذا تخويف للمشركين، أي فانظروا أيها الناس كيف كان عذابي وعقابي لهم على كفرهم، وإنذاري لمن سلك سبيلهم ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وأصل مدكر: مدتكر فأبدلت التاء دالاً، والمعنى هل من متذكر، أي ولقد سهلنا القرآن للحفظ والقراءة والتفهم، وهيأناه للتذكر والاتعاظ، فهل من متعظ بمواعظه، ومتفهم لمعانيه، وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عزّ وجلّ.

القـــــراءة

﴿ففتحنا﴾ قرأ ابن عامر ﴿ففتّحنا﴾ بالتشديد.

عاد

١٨ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

١٩ ـ ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴾.

٢١ ـ ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾.

كذبت عاد نبيهم هوداً ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي فاسمعوا كيف كان عذابي لهم وإنذاري إيّاهم ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي سلّط الله عليهم ريحاً شديدة البرودة شديدة الصوت ﴿في يوم نحس مستمر﴾ أي في يوم شؤم عليهم مستمر حتى أهلكهم جميعاً، وهذه الريح كانت ﴿تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي تقلع الناس من أماكنهم، وترميهم صرعى على الأرض، كأنهم أصول نخل قد انقلعت من مغارسها في الأرض، شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنخل الساقطة التي لا رؤوس لها، وإنّما شبّههم بالنخل لطولهم، ومعنى منقعر: منقلع.

ثمود

٢٣ ـ ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾.

﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ كذبت بإنذارات نبيهم صالح ﴿فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه﴾ أي واحداً لا أتباع له ولا عصبة تشد أزره ﴿إنا إذاً لفي ضلال وسعر﴾ أي قالوا إنا إن فعلنا ذلك واتبعنا بشراً مثلنا لفي ضلال وسعر وهو الجنون، من تسعرت النار إذا التهبت، يقال كلب مسعور أي مجنون، والمعنى: لفي خطأ وجنون ﴿أءُلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر﴾ الذكر الوحي، والأشر: المتكبر والبطر، وسيعلمون غداً وقت نزول العذاب بهم في الدنيا وهذا تهديد لهم ووعيد.

القـــراءة

﴿سيعلمون غداً﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ﴿ستعلمون غداً﴾ بالتاء على الخطاب.

وحين اقترح قوم هود من نبيهم أن يرسل الله لهم ناقة معجزة، أجاب الله نبيه إلى ما طلبوا فقال:

٢٧ ـ ﴿ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾.

أي اختباراً لهم أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء، طبق ما سألوا لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به، ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح: ﴿فارتقبهم

واصطبر﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم فإن العاقبة لك، والنصر لك في الدنيا والآخرة.

٢٨ ـ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾.

٢٩ ـ ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾.

أي يوم لهم يشربون فيه ويوم للناقة تشرب فيه ﴿وكل شرب محتضر﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا يحلبون اللبن ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ أي دعوا صاحبهم، وهو أشقاهم، قال المفسرون اسمه «قدار بن سالف» يحضّونه على عقرها فتعاطى: أي تناول الناقة بأسباب العقر فعقرها أي ذبحها.

٣٠ ـ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾.

﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ أي فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي.

٣١ ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، خمدوا وهمدوا كما يهمد أي ييبس الزرع والنبات، والمحتظر: المرعى بالصحراء حين ييبس، ويحترق وتسفيه الريح، والمعنى: أنهم صاروا كالعشب اليابس سواء في الحظيرة أو الصحراء إذا داسته الغنم بعد سقوطه.

قوم لوط

ثم يخبر الله عن قوم لوط كيف كذّبوا رسولهم، وارتكبوا المنكر من إتيان الذكور وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين فيقول:

٣٣ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾.

أي كذبت قوم لوط بإنذارات نبيهم الذي حذرهم بحلول العذاب بهم، إن استمروا على فعل الفواحش والمنكرات ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ أي كان عاقبهم بإرسال ريح تحمل الحصى، وكان ذلك بعد أن خسف القرية بهم حتى هلكوا باستثناء آل لوط وهم ابنتاه فقط ﴿إلا آل لوط نجّيناهم بسحر﴾ والسحر هو آخر الليل قبل طلوع الفجر، حيث أبلغهم جبريل بالخروج من القرية دون أن يلتفت منهم أحد لمشاهدة ما حلّ بقومهم ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ أي إنعاماً منّا على آل لوط، ومثل ذلك الجزاء والإنعام نجزي من شكر

نعمتنا ولم يكفرها من بني الإنسان ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾ أي ولقد خوّفهم لوط عقوبة الله الشديدة فارتابوا وكذّبوا بالإنذار والوعيد ولم يصدقوه.

٣٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾.

وذلك ليلة استضاف لوط الملائكة، وهم على هيئة شبان حسان أراد هؤلاء القوم من لوط تمكينهم من ضيوفه لفعل الفاحشة كما هو دأبهم، ولما عجز لوط عن مدافعتهم وإقناعهم، واشتد الحال عليه وأبوا إلاّ الدخول، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم.

٣٨ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

أي أتاهم صباحاً عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم حتى الهلاك.

قوم فرعون

وبعد ذكر ما حلّ بقوم لوط، انتقل القرآن لبيان ما حلّ بقوم فرعون فقال:

٤١ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

لقد جاء فرعون وقومه إنذار من الله لهم بالعذاب والهلاك فكذبوا ما جاء على يد نبيهم موسى من المعجزات التي تشهد بصدق نبوته ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ المراد بها التسع التي تقدم ذكرها في سورتي الإسراء والنمل[١].

﴿فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ أي فكذبوا بالآيات فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر.

وبعد هذا الحديث عن الأمم السابقة، وما حلّ بها بسبب كفرها، توجّه القرآن إلى الكفار من قوم محمد ﷺ بالسؤال سؤال إنكار وتقريع فقال:

٤٣ ـ ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾.

أي أأنتم يا كفار قريش أقوى من أولائكم الأقوام الذين هلكوا، وأحسن حالاً منهم، أم لكم براءة من

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠١ والنمل، الآية: ١٢.

العذاب وصك مسجل من الأمان ﴿في الزبر﴾ أي في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء، أم يقول هؤلاء الكفار ﴿نحن جميع منتصر﴾ أي نحن جمع كثير متفقون فلنا الانتصار على محمد ومن معه.

وهنا يرد الله على ادعاءاتهم فيقول:

٤٥ ـ ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

أي سيهزم جمع المشركين ويولّون الأدبار فارين منهزمين، وقد هزمهم الله يوم بدر وولوا الأدبار، وقتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر، وهذا إخبار بالغيب حيث ردّد الرسول ﷺ هذه الآية فيما روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج رسول الله وهو يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فكان ذلك بشارة للنبي وتطميناً لهم من الله بالنصر على الأعداء.

وبعد أن حكم القرآن بهزيمة المشركين عقب على ذلك بقوله: ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ أي أن القيامة موعد المشركين، وعذاب يوم القيامة أعظم في الضر وأفظع، وأشدّ مرارة من عذاب الدنيا، وهذه الآية وإن كانت نزلت قبل سابقتها، فقد تأخرت في التلاوة لإفادة العموم، والله أعلم بما ينزل.

ويتابع القرآن فيذكر نوع العذاب الذي يقاسيه المجرمون من الأمم السابقة واللاحقة في الآخرة فيقول:

٤٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ هذا تأكيد لما افترضه الكفار لأنفسهم من الخطأ عن الحق وهو الضلال، والسعر الجنون، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ أي وكما كانوا في ضلال وسعر وشك وترد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي ذوقوا من النار وشدة عذابها.

القدر

وأخيراً يختم القرآن هذه السورة مبيّناً قدرة الله العظيمة وعلمه المحيط بالكون فيقول:

٤٩ ـ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾.

نصب ﴿كل شيء﴾ بفعل مضى، والمعنى: إنا خلقنا كل شيء، خلقناه بقدر، ويقول ابن جرير الطبري في تفسير الآية: إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه، وقال الإمام ابن القيم الجوزية: إن الله تبارك وتعالى قدّر أقداراً وخلق الخلق بقدر، وقسم الأجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية

بقدر، وقال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله»[١].

وإذا كان القضاء هو إيجاد الله سبحانه الأشياء سواء أكانت بالنسبة لنا خيراً أم شراً، فالقدر: معناه تحديد خواص الأشياء فيها بعد إيجادها سواء أكانت خيراً أم شراً بالنسبة لنا لأن الله سبحانه يقول: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وفي سورة الأحزاب ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾[٢]، وفي سورة الرعد ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[٣]، وفي سورة الفرقان ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[٤]، فخلق النار قضاء وتحديد خاصية الإحراق فيها قدر، وخلق السكين قضاء وتحديد خاصية القطع فيها قدر، وخلق الماء في السماء قضاء، وتنزيله بمقدار الحاجة قدر.

والذي يجب أن يعلم بأن قضاء الله وقدره لا شر فيه بوجه من الوجوه بالنسبة لله عز وجل، فإنه علم الله وقدرته وكتابته ومشيئته، والشر ليس إلى الرب تعالى لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، وإنما هو خير وشر وحلو ومر بالنسبة للمحل والإنسان، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[٥].

ويثبت العلم الحديث أن نسبة الأوكسجين في الهواء ٢١٪ ولو زادت بضع درجات عن مقدارها فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، والأوكسجين الذي يستنشقه الإنسان والحيوان يتحول إلى ثاني أكسيد الكربون ليبعث الحياة في النبات، ولو توقفت هذه المعادلة أو اختلت لمات الإنسان والحيوان ويبس الزرع، وذوى النبات، فكل شيء في هذه الدنيا خلقه الله بقدر، وجعله يعيش بمقدار ليحصل التوازن ويعم الكون.

٥٠ ـ ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾.

هذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، والمعنى: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا تحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمره حاصلاً موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين، ومعنى الأمر والخلق قد مر بالتفصيل في سور متعددة.

ثم هدّدهم مرة أخرى بقوله:

٥١ ـ ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾.

أي ولقد أهلك الله أشباهكم وأمثالكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل فهل من متعظ أو متذكر بذلك.

ثم ذكر نوعاً آخر من التهديد مع بيان القدرة والعلم فقال:

(١) شفاء العليل لابن القيم الجوزية ص ٢٨.
(٢) الآية: ٣٨.
(٣) الآية: ٨.
(٤) الآية: ٢.
(٥) الآية: ٢١٦.

٥٢ ـ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾.

٥٣ ـ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾.

أي إن كل شيء يفعله الإنسان مسجل عليه في اللوح المحفوظ، والحفظة يستنسخون منه ما يفعله الإنسان فهو مكتوب عليهم في الكتب وهي الزبر التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾ أي وكل صغير وكبير من أعمالهم مستطر أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

ثم ختم السورة بوعد المتقين:

٥٤ ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

المتقون عكس الأشقياء الذين هم في الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، قال الزجاج ﴿في جنات ونهر﴾ الاسم الواحد يدل على الجمع ﴿في مقعد صدق﴾ أي مجلس حسن ومكانة رفيعة عالية ﴿عند مليك مقتدر﴾ أي قادر على ما يشاء ولا يعجزه شيء، فهم عنده في الكرامة وشرف المنزلة.



سورة الرحمن سميت لورود كلمة الرحمن في أول السورة وتسمى عروس القرآن.

أمهات النعم

بسم الله الرحمن الرحيم

كما كانت هذه السورة لتعدد نعم الله التي أنعم بها على عباده قدم النعمة التي هي أجلّها قدراً، وأكثرها نفعاً، وأتمها فائدة وهي نعمة تعليم القرآن فقال:

١ ـ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

٢ ـ ﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٣ ـ ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾.

٤ ـ ﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

﴿الرحمن﴾ اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته، مشتقة من الرحمة، وهي من الإنسان رقة قلبه وعطفه، ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه ﴿علم القرآن﴾ يسر تعلمه والنطق به، وعلمه لنبيه محمد ﷺ بواسطة الملك جبريل وعلم محمد أمته ﴿خلق الإنسان﴾ وفي تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان في السياق فائدة بأنه كلام الله قديم قد علمه الملائكة قبل خلق الإنسان، أو المراد أن الله سبحانه علم القرآن ويسره لجيل بعد جيل من بني الإنسان، ويكون المراد من لفظه الإنسان المفرد.

هداية البيان

﴿علمه البيان﴾ وهذه الهداية من أعظم الهدايات والنعم على الإنسان، لأنها تميز الإنسان عن سائر الحيوان، والمعنى: أن الله سبحانه قد أبان للإنسان قبل أن يعذبه دينه وهديه على لسان رسله ورسل رسله وكتبه المنزلة، وسائر آياته في كونه فقال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[1] وقد هدى الله الإنسان إلى النجدين، طريق الخير وطريق الشر، وأعطاه العقل المدبر والفكر المميز، فيعرف الخير من الشر والضار من النافع، والحلال من الحرام، والتكليف على قدر المعرفة، والعلم والبيان، فبقدر ما يصل الإنسان من البيان

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

والعلم والمعرفة، وبقدر ما يعرف الله ويتيقن يحاسب الإنسان ويجازى، قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾[١].

ويتابع القرآن فيذكر بعض ما خلقه الله مما يشهد بوجوده وعظمته فيقول:

٥ ـ ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

٦ ـ ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

حسبان مصدر بمعنى الحساب، والمعنى: يجريان متعاقبين بحساب مقدر في بروجهما ومنازلهما لمصالح العباد ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار﴾[٢] ولو اختل هذا النظام بضع دقائق لهلك من في الأرض من ساعته ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ المراد بسجودهما انقيادهما لله تعالى، انقياد الساجدين المكلفين، وكيفية السجود لله غير معروفة، ولم يرد فيها حديث صحيح.

٧ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

٨ ـ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾.

٩ ـ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.

﴿والسماء رفعها﴾ فالسماء ما يقابل الأرض من علو، فلا ممسك لها سواه ﴿ووضع الميزان﴾ أي العدل، وقد شرعه الله في كل شيء خلقه، ويريد الله من عباده أن يطبقوا الميزان الدقيق العادل في معاملاتهم وذلك معنى قوله:

﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ أي لا تتجاوزوا العدل في سائر أموركم ومعاملاتكم في بيعكم وشرائكم، ولا تظلموا في الأوزان ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ أي اجعلوا أوزانكم قائمة على العدل والإنصاف ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ أي لا تنقصوا الوزن في مبايعاتكم.

شجرة النخل وفوائدها

١٠ ـ ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

١١ ـ ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

فالله سبحانه خلق الأرض وأوجدها للأنام وهم الخلائق ﴿فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾ فاكهة مختلفة الأنواع والألوان والطعوم والروائح، وأفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً، والأكمام: الأوعية التي يكون

(١) الآية: ١٠٣.

(٢) سورة ياسين، الآية: ٤٠.

فيها الثمر وهي الطلع، وإفراد النخل بالذكر بعد أن عمم أصناف الفاكهة لما له من فائدة كبيرة لجسم الإنسان، فقد ثبت أنه يحتوي على نسبة كبيرة من السكريات ٧٥٪ مما يستفيد منه الجسم في انتاج طاقة عالية وسعر حراري كبير، ويحوي التمر أيضاً نسبة عالية من الكالسيوم والحديد والفسفور التي يحتاج إليها الجسم ومقداراً من حامض النيموتينك، الفيتامين الواقي من بعض الأمراض وفيتامين (أ) و (ب) ويحتوي على نسبة من البروتينات والدهنيات، وكل هذه المكونات تجعل من تمر النخل غذاءً كاملاً، وقد تكلمنا على النخلة وفوائدها في تفسير سورة إبراهيم عند قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾(١).

ثم ذكر أقوات الإنسان والبهائم قائلاً: ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ يريد جميع الحبوب كالبر والشعير، والعصف: هو تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الرياح، والريحان: كل نبات له رائحة وخضرة كالورد والياسمين وما شاكلهما إلا أنه في العصر الحديث تخصص عند الزراع اسم الريحان بنوع خاص مما يشم، وهو معروف لدى العامة.

القـــراءة

﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ قرأ ابن عامر ﴿الحب ذا العصف والريحان﴾ بالنصب بالألف، وقرأ حمزة والكسائي ﴿والريحانِ﴾ بالخفض.

لما ذكر الله تعالى في هذه السورة ما يدل على وحدانيته وبأنه علم القرآن وخلق الإنسان، ومن المعروف أن الجان خلق قبل الإنسان، وأنه علم الإنسان البيان وهي المعرفة والاطلاع والتمييز، وحمله أمانة التكليف، وخلق الشمس والقمر والسماء والأرض، خاطب الجن والإنس فقال:

١٣ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

أي فبأي نعم ربكما تكذبان من هذه الأشياء المذكورة، لأنها كلها منعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته، وفي رزقه إياكم ما به قوامكم، قال ابن قتيبة: الآلاء: واحدها: ألا.

١٤ ـ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾.

١٥ ـ ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

١٦ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿خلق الإنسان من صلصال﴾ يعني آدم، والصلصال هو الطين اليابس غير المحروق له صوت عند الضرب عليه، فإذا أحرق فهو الفخار ﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه، والجن كالبشر مكلفون بالعبادة منهم الكفار والأشرار، ومنهم المؤمنون والصالحون.

---

(١) الآية: ٢٤.

اختلاف مطالع الشمس

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله في المظاهر الطبيعية وتسييره لها فيقول:

١٧ ـ ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ .

١٨ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ في هذه الآية ثنى المشرقين والمغربين، وفي آيات أخرى وردتا بالإفراد كقوله في سورة المزمل: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلّا هو فاتخذه وكيلاً﴾ وفي سورة المعارج جاء على المجموع ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ وهذا يدل على اختلاف مطالع الشمس وتنقل الأرض في كل يوم، وفي كل شهر، ودورانها حول نفسها، فإذا كان في الجزيرة العربية شروق، يكون في الجهة الخلفية لهذا الجزء من الكرة الأرضية غروب، وإذا كان في اليابان نهار يكون في أوروبا ليل، فلكل بلد مشرق ومغرب، ولكل بلد مشرق في الصيف ومشرق في الشتاء ومغرب في الصيف ومغرب في الشتاء، فكأن لها مشرقين ومغربين، ولأن المطالع مختلفة لأهل الأرض وبلدان العالم فكان لمجموعها مشارق ومغارب، وهذا أمر يشاهده كل من يسافر إلى الأقطار البعيدة وخاصة أهل الطائرات.

ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن قيل ما الفائدة في تكرار هذه الآية: الجواب: أن ذلك التكرار لتقرير النعم وتأكيد التذكير بها، قال ابن قتيبة: من مذاهب العرب التكرار للتوكيد، والإفهام، كما أن من مذاهبهم الإختصار للتخفيف والإيجاز، إن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد، فلما عدد الله في هذه السورة نعماءه، وأذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين، ليفهمهم النعم ويقررهم بها.

١٩ ـ ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ .

٢٠ ـ ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ .

٢١ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

٢٢ ـ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ .

﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ أرسل الماء المالح المتمثل بالبحار، يلتقي بالماء العذب المتمثل بالأنهار والبحيرات، فهما يتجاوران ولا يختلطان، تصب الأنهار في البحار، ولكن بين الماء المالح والعذب ﴿برزخ﴾ أي حاجز من قدرة الله عز وجل ﴿لا يبغيان﴾ لا يختلطان، فيبغي أحدهما على الآخر ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ المرجان صغار اللؤلؤ، أو هي العروق الحمر التي تطلع من البحر ويصنع منها أدوات الزينة، وأقرب مثال لتطبيق الآية هو الخليج العربي حيث يكثر استخراج اللؤلؤ هناك، وحيث يلتقي ماء الخليج المالح بشط العرب العذب عند مدينة الفاو بالعراق، وهناك شيء آخر كذلك وهو وجود عيون مياه عذبة يندفع منها في

أعماق الخليج، اندفاعاً قوياً إلى أعلى وسط الماء المالح بحيث تساعده هذه القوة في الاندفاع على تكوين البرزخ، وقد حكى لنا أجدادنا من الغواصين بأنهم كانوا يرتوون من هذه العيون حينما ينفد ما عندهم من ماء، وقد شاهدت بحيرة في مدينة بنغازي بالجماهيرية الليبية فيها ماء عذب على أعماق ستين متراً، يروي الشجر المحيط بالبحيرة، ويعلو هذا الماء طبقة من الماء المالح المتصل بالبحر الأبيض المتوسط.

القــــراءة

﴿يخرج منهما اللؤلؤ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿يُخرج منهما﴾ بضم الياء.

٢٤ ـ ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

الجوار: هي السفن، المنشآت: المصنوعات، والأعلام جمع علم وهو الجبل، فالله سبحانه يشبه السفن بالجبال من حيث الضخامة، وهذا يلاحظ جلياً في عصرنا الحاضر بمشاهدة السفن العظيمة عابرات المحيطات، التي تحتوي على العديد من الطوابق والغرف وجميع وسائل الراحة ومثلها ناقلات النفط والبضائع، وحاملات الطائرات، وهذا من إعجاز القرآن وإخباره بما يحصل في المستقبل.

القــــراءة

﴿المنشآت﴾ قرأ حمزة: ﴿المنشئات﴾ فجعلهن اللواتي ابتدأن، يقال ابتدأت السحابة تمطر.

وبعد أن بين القرآن نعم الله على الإنسان، بين بعد ذلك أن مآل كل ما على الأرض إلى الفناء فقال:

٢٦ ـ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

كل من على الأرض هالك ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[١] فهو سبحانه ذو الجلال أي صاحب العظمة والكبرياء وهو أيضاً ذو الإكرام، أي يكرم ويجل عن كل شيء لا يليق به ﴿كل من عليها فان﴾ وهذه الآية يتعزّى بها كل من فقد عزيزاً له، فكل شيء في هذه الدنيا مصيره الزوال والفناء، واللاحق مدرك السابق، فلا حاجة للحزن والبكاء والندم.

من نعم الله يوم القيامة

ثم يبين القرآن بعد ذلك بأن كل مخلوق مفتقر إلى الله في بقائه واستمرار وجوده.

٢٩ ـ ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾.

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

٣٠ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

أي أنّ الكل يحتاجون إليه فيسألونه وهو غني عنهم، وكلمة ﴿من﴾ تدل على الأحياء في السماوات والأرض من ساكني العالم العلوي والسفلي من خلق الله الذين نعلمهم والذين لا نعلمهم ﴿كل يوم هو في شأن﴾ يحيي ويميت، ويرزق ويفقر ويغني، ويعز ويذل، ويمرض ويشفي، ويعطي ويمنع، ويغفر ويعاقب إلى غير ذلك مما لا يحصى، وفي ذلك رد على اليهود الذين يقولون إن الله لا يقضي في يوم السبت شيئاً.

وبعد أن بين القرآن افتقار الخلق إلى خالقهم، انتقل إلى تحذير الإنس والجن من بغية عصيان ربهم فقال:

٣١ ـ ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ أي سنقصد لحسابكم ـ وفيه وعيد كما يقول القائل سأتفرغ لك ـ وليس هو فراغ من شغل، لأن الله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء، والثقلان الجن والإنس، سميا بذلك لأنهما ثقل الأرض، أو لأنهما مثقلان بحمل الأمانة وهي التكاليف الشرعية.

القـــراءة

﴿سنفرغ لكم﴾ قرأ حمزة والكسائي والأعمش ﴿سيفرغ﴾ بياء مفتوحة.

ثم يتوجه القرآن بالخطاب إلى الإنس والجن مبيناً عجزهما، ومحدودية قدرتهما في ملكوت الله فيقول:

٣٣ ـ ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

نقل عن ابن عباس في تفسير الآية قوله: (إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا)[1] والعلم لا يكون إلا بالنفاذ من قطر إلى قطر، ولا يكون ذلك إلّا بالحجة والسلطان، الذي يمكن الإنسان أو الجان وهي الوسائل الموصلة، الوسائل المادية التي توصل إليها بالعلم، فالعلم يوصل للعلم، والسلطان في الآية هو العلم الموصل للعلم، كما ذكر الله تعالى في القرآن في الكثير من الآيات ﴿إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾[2].

إن فكرة غزو الفضاء بالصواريخ والوصول إلى القمر وغيره من الكواكب في أقطار السماوات، لهي أقرب

---

(١) راجع زاد المسير في علم التفسير ج ٨ ص ١١٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٨.

تفسير تطبيقي للآية ﴿فانفذوا﴾ وفي ذلك إشعار بأن باستطاعة الإنسان اختراق بعض نواحي السماء، واختراق جوانب الأرض، كما تم ذلك في السماء، وتم اختراق ذلك في الأرض بواسطة الطائرات التي دارت حول الأرض، ولم تترك قطراً من أقطار الأرض إلاّ نفذت إليه، فقد تحقق ذلك للإنسان، وعلى ذلك يكون تفسير الآية:

يا معشر الجن والإنس إن استطاع فريق منكم الحصول على العلم الذي يمكنه من القوة المادية التي توصله للنفوذ من أقطار السماوات والأرض فليفعل ذلك، وأنه مهما حصل عليه من علم وقوة من ذلك النفوذ في أقطار السماوات والأرض، سوف يظل محدود الإدراك ضعيف القدرة في ملكوت الله، وإنكم لن تعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم، وكذلك من يظن أنه بخروجه من أحد أقطار السماوات والأرض سوف ينجو من الموت هارباً من الله عزّ وجلّ، فإن ظنه ليس في محله ولا يفكر فيه أبداً، وذلك أن الإنس والجن لهم دائرة محدودة لا يسمح لهم بتجاوزها، وإذا ما حاول أحد فعل ذلك فإنه كما يقول الله عز وجل في الآية التالية:

٣٥ ـ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ .

٣٦ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

هذه الآية تبين الصعوبات التي تواجه غزو الفضاء والتوغل فيه، فالمسألة ليست بالأمر الهين، فهناك نار ومعادن ودخان، كما أن هناك شهباً ونيازك ومذنبات وأشياء أخرى تحول بينه وبين محاولاته وطموحاته، ولا تجعل الإنسان أو الجان يتجاوز أكثر مما هو محدد له، والشواظ هو اللهب الذي لا دخان فيه.

القـــــراءة

﴿شواظ﴾ قرأ ابن كثير بكسر الشين ﴿شِواظ﴾ وقرأ الباقون بالضم ﴿ونحاس﴾ بكسر السين ﴿ونحاسٍ﴾.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر بعض مشاهد القيامة وما أعد للمجرمين فيقول:

٣٧ ـ ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ .

٣٨ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿يوم القيامة يتغير نظام الكون الذي نعرفه، تبدل الأرض غير الأرض، وتفتح أبواب السماء وتنشق، ويتغير اللون الأزرق الذي نراه فوقنا إلى لون آخر ﴿وردة كالدهان﴾ أي تذوب كما تذوب الفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء، وصفراء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة.

السؤل يوم القيامة

٣٩ ـ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ .

٤٠ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

٤١ ـ ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾(١) وغيرها، وتعني الاستخبار والاستعلام، وهي خاصة بسؤال المجرمين عن الذنوب، ولما كان الله عز وجل أعلم بأفعالهم منهم كما قال تعالى في الأعراب: ﴿فلنقصّن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾(٢)، وقوله في سورة المجادلة: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ فهذا سؤال منفي خاص.

والمعنى: لا يسأل عن ذنبه يوم القيامة إنس ولا جان سؤال استخبار واستعلام، لأن الله أعلم بذنبه منه لكنه يسأل سؤال توبيخ وتقريع ليقر ويعترف على نفسه يوم القيامة، وتشهد، عليه حواسه وأعضاؤه، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ويفعلون، وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة الحجر: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾(٣)، وفي سورة الأنبياء: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾(٤)، فهذا سؤال مثبت عام، وذاك سؤال منفي خاص، ولا تعارض بين الآيات ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ بالحساب يتميز المجرمون من الكفار والمشركين والعصاة بسيماهم بعلاماتهم المميزة يوم القيامة، بسواد وجوههم، وزرقة أعينهم من الخزي والكآبة والحزن ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ الناصية مقدم الشعر للرأس، فتجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، وتلقيهم الملائكة في النار، ثم يقال لهم:

٤٣ ـ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً ﴿يطوفون بينها وبين حميم ءان﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الماء الحار، والآن الذي قد انتهت شدة حره.

جنات الآخرة

وبعد أن أوضح القرآن عذاب الكفار انتقل إلى وصف نعيم المؤمنين في الآخرة فقال:

٤٦ ـ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

(١) الآية: ٧٨.
(٢) الآية: ٧.
(٣) الآية: ٩٢ ـ ٩٣.
(٤) الآية: ٢٣.

٤٨ ـ ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾.

٥١ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

٥٢ ـ ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾.

٥٣ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ هذه الآية وغيرها تدل على أن في الجنة الكبرى جنات متعددة، جنة وجنتان، وجنات كما قال الله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وكما ورد في الصحيح أن بعضها من ذهب وبعضها من فضة إلخ . .[1]، ثم وصف هاتين الجنتين اللتين أعدهما الله لمن خاف مقام ربه بأنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ أي أغصان حسنة تحمل من كل ثمرة ناضجة فائقة ﴿فيهما عينان تجريان﴾ وحيث أن الإنسان يسر بجريان الماء أمام عينه وخاصة إذا كان من نبع جار، فقد جعل الله في كل جنة عيناً جارية تسقي الأشجار المثمرة ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ الزوجان: هما الصنفان والنوعان، وهذا يدل على تنوّع الثمار مما يعلمون ومما لا يعلمون مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم وصف حال المؤمنين في الجنة فقال: ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ المراد بالاتكاء هاهنا الاضطجاع، والفرش جمع فراش، وتشمل الأسرة والبسط ﴿بطائنها من إستبرق﴾ جمع بطانة، والبطانة تكون داخلية من القماش، والإستبرق هو الديباج، وقال ابن قتيبة: إنما أراد الله أن يعرفنا ـ من حيث نفهم ـ فضل هذه الفرش، وإن ما ولي الأرض منها من استبرق، وإذا كانت البطانة كذلك، فالظهارة أعلى وأشرف ﴿وجنى الجنتين دان﴾ الجنى ما يجتنى من الثمار، والمعنى: إن ثمرها قريب إليهم متى شاؤوا تناولوه على أي صفة كانوا كما قال تعالى: ﴿قطوفها دانية﴾[2].

نساء الآخرة

ولما ذكر الفرش وعظمتها، ولما كانت النفس تهوى المؤانسة في الفراش مع الجنس الآخر ذكر ذلك فقال:

٥٦ ـ ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾.

---

(١) رواه النسائي.

(٢) الحاقة الآية: ٢٣.

٥٧ ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٥٨ ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

٥٩ ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي على تلك الفرش نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم عفافاً وطهراً، ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي هن عذارى لم يمسهن مس الزوج لزوجته أحد قبل أزواجهن لا من البشر ولا من الجن ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ الياقوت حجر كريم صلب جاف شفاف ذو ألوان مختلفة، وإن كان يغلب على بعضه اللون الأحمر، والمرجان: صغار اللؤلؤ، أي هذه النساء شبهت بالياقوت والمرجان في حسنهن.

القـــراءة

﴿لم يطمثهن﴾ قرأ الكسائي ﴿لم يطمثهن﴾ بضم الميم.

ويبين الله سبب هذا النعيم كله فيقول:

٦٠ ـ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

٦١ ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلاّ أن يحسن إليه في الآخرة.

بساتين الجنة

وبعد أن أعطى الله لأهل الفضل السابقين لغيرهم في الإيمان والعمل الصالح ما أعطاهم من أعالي درجات الجنة شرع يذكر صورة أخرى من صور النعيم لمن هم أقل رتبة من النعيم السابق يستحقه أناس أقل درجة في الفضل والإيمان والعمل الصالح فيقول:

٦٢ ـ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

٦٣ ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٤ ـ ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

٦٥ ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٦ ـ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

٦٧ ـ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٨ ـ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

٦٩ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

أي ولكل فرد ممن خاف مقام ربه من دون الجنتين الأوليين في الفضل جنتان، أي بستانان في الجنة، والجنة دار النعيم في الآخرة، وهاتان الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي خضراوان من الري تميل خضرتهما إلى السواد ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ النضخ فوران الماء من العين، والمعنى: فياضتان لا تنقطعان، وقال هناك في المتقدمتين ﴿فيهما عينان تجريان﴾ والجري أقوى من النضخ ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وإنما أعاد ذكر النخل والرمان وقد دخلا في الفاكهة، فالنخل أفضل الأشجار وثمره أنفع الفاكهة،وأما الرمان فزيادة على ما له من نفع وفائدة في وقته، فإن ذكره قد ناسب آخر الآية بالألف والنون دون خلل في المعنى وذلك من بلاغة القرآن الكريم.

ثم يبدأ يذكر القرآن ما احتوت عليه الجنان من أنواع النعيم فيقول:

٧٠ ـ ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾.

٧١ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

٧٢ ـ ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾.

٧٣ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

٧٤ ـ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

٧٥ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

٧٦ ـ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾.

٧٧ ـ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿فيهن خيرات حسان﴾ أي في الجنات المذكورات، نساء حسان الوجوه هن الحور العين ثم وصفهن بقوله: ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ جمع حوراء وهي المرأة النقية البياض، الشديدة بياض العين، الشديدة سواد الحدقة، ومعنى مقصورات أي قصرن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم، وأما الخيام فهي مساكن الحور، وقد صنعت مما لا يتصوره العقل في الدنيا.

العبقري

﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ أي لم يمسهن أحد قبل هؤلاء، ﴿فهن أبكاراً، عرباً أتراباً﴾[1] ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ رفرف: جمع واحدته: رفرفة، والمعنى: جالسين متمكنين في مجالسهم على بسط خضر، أو متكئين على وسائد خضر، وعبقري حسان: عبقر في الأصل موضع تزعم العرب أنه من

(١) سورة الواقعة (٣٦، ٣٧).

أرض الجن ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعه وقوته، وكل نادر من فرش أو ثياب أو بسط موشاة، قال أبو عبيدة: يقال لكل شيء من البسط: عبقري، وقال الزجاج: أصل العبقري في اللغة أنه صفة لكل ما بولغ في وصفه، وأصله أن عبقر: بلد كان يوشى فيه البسط وغيرها فنسب كل شيء جيّد إليه، ويقول الناس اليوم لكل ذكي بارع فطن عبقري.

ثم ختم السورة بما ينبغي أن يبجل به ويعظم فقال:

٧٨ ـ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

قال ابن الأنباري: المعنى: تفاعل من البركة، أي البركة تنال وتكتسب بذكر اسمه، وتبارك تأتي بمعنى تقدس، وكثر خيره وفضله، فهو سبحانه ذو الجلال، أي ذو العظمة والكبرياء.

القــــراءة

﴿ذي الجلال﴾ قرأ ابن عامر بالواو ﴿ذو الجلال﴾ وكذلك هي في مصاحف أهل الشام.



سورة الواقعة سميت لورود كلمة الواقعة في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قيام القيامة

ختم الله سبحانه سورة الرحمن بصفة الجنة وافتتح هذه السورة أيضاً بصفة القيامة والجنة فقال:

١ ـ ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾.

٢ ـ ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾.

٣ ـ ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾.

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها ووجودها، وكل آت يتوقع، والمراد به هاهنا في الآية: النفخة في الصور لقيام الساعة ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أي ليس لوقوعها ـ إذا أراد الله كونها ـ صارف يصرفها ولا دافع يدفعها، والمعنى: ليس الإخبار عن وقوعها كذباً، ﴿خافضة رافعة﴾ أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ووجهاء، وترفع آخرين إلى أعلى النعيم المقيم وإن كانوا في الدنيا وضعاء بسطاء.

٤ ـ ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾.

٥ ـ ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾.

٦ ـ ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾.

٧ ـ ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾.

﴿رجت الأرض رجا﴾ أي حركت حركة شديدة وزلزلت، وقال الله تعالى في شأن الرجة،: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾[1]، ﴿وبست الجبال بساً﴾ أي فتتت فتاً حتى تصير ﴿كثيباً مهيلاً﴾[2]، أي رملاً منهالاً ثم ﴿فكانت هباءً منبثاً﴾ أي تراباً منتشراً وغباراً يطير قد ذرته الريح وبثته، والآية تدل على زوال الجبال من أماكنها يوم القيامة وذهابها وتسييرها، ونسفها أي قلعها، وصيرورتها كالعهن المنفوش.

---

(١) أول سورة الحج.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٤.

هؤلاء هم السابقون وذلك جزاؤهم

ثم ذكر أحوال الناس يومئذ قائلاً: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى أصناف ثلاثة، وهذا بيان لمراتب الناس وأحوالهم يوم ذاك، وفي ذلك يقول الله مفصلاً:

٨ ـ ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾.

١١ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

﴿فأصحاب الميمنة﴾ أي أصحاب اليمين وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ قال الفراء: عجب نبيه ﷺ منهم والمعنى: أي شيء هم؟ ثم ذكر الصنف الثاني فقال: ﴿وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة﴾ أي أصحاب الشمال، والعرب تسمي اليد اليسرى: الشومي، والجانب الأيسر: الأشأم، ومنه قيل اليمن والشؤم، فاليمن كأنه ما جاء عن اليمين، والشؤم ما جاء عن الشمال، ومنه سميت «اليمن» «والشام» لأنها عن يمين الكعبة وشمالها، قال المفسرون: أصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ويعطون كتبهم بأيمانهم، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، ويعطون كتبهم بشمالهم والمعنى: أي قوم هم! ماذا أعد لهم من العذاب ﴿والسابقون السابقون﴾ أي من كل أمة المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال الله عز وجل في سورة آل عمران ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾[1]، فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، ولهذا قال ﴿أولئك المقربون﴾ أي أولئك الذين ينالون حظوة ومكانة عند الله، ولا شك أن المقرب تختلف درجته في الجنة عن غيره.

١٣ ـ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾.

١٥ ـ ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾.

الثلة: الجماعة غير محصورة العدد ﴿من الأولين﴾ أي الأمم الماضية قبل رسالة الإسلام الذين سبقوا عهد النبي ﷺ ﴿وقليل من الآخرين﴾ والآخرين أمة محمد ﷺ، وهذه الآيات تدل على كثرة المقربين بالأنبياء السابقين، وقلتهم في أمة محمد نسبياً، وذلك واضح في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وقليل من عبادي

(١) الآية: ١٣٣.

الشكور﴾[١]، وقوله في سورة ص: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾[٢]، وفي سورة يوسف: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾[٣]، وهذا أمر مشاهد في زماننا فقد كثر الكفر والفسق والعصيان والطغيان، وصار الدعاة والمؤمنون غرباء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم وصف حال المقربين بقوله ﴿على سرر موضونة﴾ منسوجة بالذهب.

ثم يذكر القرآن حال هؤلاء المؤمنين في الجنة فيقول:

١٦ ـ ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

﴿متكئين عليها متقابلين﴾ يجلسون متقابلين وجهاً لوجه متساوين في الرتب، ليس أحد وراء أحد ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ يدور حولهم لخدمتهم غلمان، مخلدون على صفة واحدة لا يتغيرون ﴿بأكواب وأباريق﴾ الأكواب هي الأقداح المستديرة الأفواه، التي لا آذان لها ولا عرى، والأباريق: آنية لها عرى وخرطوم لصب الماء ﴿وكأس من معين﴾ أي كأس الإناء إذا كان مملوءاً خمرة جارية من العيون التي في الجنة.

١٩ ـ ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾.

٢١ ـ ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ فهذه الخمرة لا تسبب الصداع كخمر الدنيا، ولا ينزفون: أي لا يسكرون بشربها فتذهب بعقولهم ﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي يأكلون مما يختارونه ويحبونه ويلذ لهم، مما يقدم ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ من الطيور، ولحم الطير أفضل من غيره من اللحوم في الدنيا وألذ، فما بالك به في الآخرة ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ والحور العين جمع حوراء، وهي المرأة البيضاء شديدة بياض العين مع شدة سواد الحدقة، وعين جمع عيناء وهي: الحسناء الواسعة العينين، وهؤلاء كأنهن في جمالهن

(١) الآية: ١٣.
(٢) الآية: ٢٤.
(٣) الآية: ١٠٣.

اللؤلؤ المحفوظ في الأصداف في النقاء والصفاء، والمعنى: ولهم حور عين، لأنه ليس مما يطاف به، فالولدان يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس خمرة، وفاكهة ولحم طير، والمكنون الذي لم يغيره الزمان، واختلاف الأحوال بالاستعمال، فهن كاللؤلؤ حين يخرج من صدفه ﴿جزاء﴾ منصوب مفعول له.

هذا العطاء الإلهي هو مكافأة لهم على ما قدّموه في دنياهم من عمل صالح.

القـــراءة

﴿ولا ينزفون﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ولا ينزفون﴾ بفتح الزاء.

﴿وحور عين﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر، والمفضل عن عاصم، بالخفض فيهما، لاتباع آخر الكلام أوله، والعرب يتبعون آخر الكلام أوله، فيقولون أكلت خبزاً ولبناً، واللبن لا يؤكل، وكقولهم «علفتها تبناً وماءً بارداً» والماء لا يعلف وإنما يشرب، فجعله تابعاً للتبن، قال الفراء: وهذا هو وجه قراءة الخفض ﴿وحور عين﴾.

٢٥ ـ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾.

٢٦ ـ ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغيا، أي عبثاً خالياً من المعنى، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف، ولا تأثيماً، ولا كلاماً فيه إثم أو كذب ﴿إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً﴾ أي لا يسمعون إلاّ تحية بعضهم لبعض بالسلام.

هؤلاء هم أصحاب اليمين وهذا جزاؤهم

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما أعدّ الله من نعيم لأصحاب اليمين الذين منزلتهم دون المقربين فيقول:

٢٧ ـ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾.

٢٨ ـ ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾.

٢٩ ـ ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾.

٣٠ ـ ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

٣١ ـ ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.

٣٢ ـ ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾.

٣٣ ـ ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

٣٤ ـ ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾.

فأصحاب اليمين في الجنة بين أشجار وارفة ﴿سدر مخضود﴾ أي منزوع الشوك، ولهم في الجنة ﴿وطلح

منضود﴾ وهو الموز، ومنضود: أي متراكم الثمر ﴿وظل ممدود﴾ دائم لا تزيله الشمس، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» اقرؤوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾[1] ﴿وماء مسكوب﴾ ماء جار دائم ينصب من العيون ﴿وفاكهة كثيرة﴾ ﴿لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي لا تنقطع شتاءً ولا صيفاً بل أكلها دائم مستمر أبداً مهما طلبوا وجدوا ﴿وفرش مرفوعة﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وثيرة.

لما ذكَر الفرش ناسب أن يأتي بوصف النساء للمشاركة بالفرش فقال:

٣٥ ـ ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾.

٣٦ ـ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾.

٣٧ ـ ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾.

﴿إنا أنشأناهن﴾ جرى الضمير على غير مذكور، لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن، وأنشأناهن أي أعددناهن أي في النشأة الأخرى بعدما كنّ عجائز صرن أبكاراً ﴿عرباً أتراباً﴾ أي المحببات إلى أزواجهن والعرب جمع عروب، والأتراب هن اللواتي على ميلاد واحد وسن واحد.

القـــراءة

﴿عرباً﴾ قرأ حمزة وخلف وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء ﴿عرْباً﴾ وهي لغة تميم وبكر.

ثم بين لمن أعد ذلك فقال:

٣٨ ـ ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾.

وأصحاب اليمين هم أصحاب الجنة المذكورين ﴿ثلة من الأولين﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين وهو نعت أصحاب اليمين.

هؤلاء هم أصحاب الشمال وهذا هو جزاؤهم

وبعد أن ذكر القرآن أحوال أهل النعيم انتقل إلى ذكر أحوال أهل الشقاء في الآخرة فقال:

٤١ ـ ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾.

---

(١) متفق عليه.

٤٣ ـ ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾.

أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك بقوله ﴿في سموم﴾ وهو الهواء الحار ﴿وحميم﴾ وهو الماء الحار ﴿وظل من يحموم﴾ الدخان الأسود لا بارد المدخل طيب الهبوب ولا كريم المنظر حسن المظهر.

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال:

٤٥ ـ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾.

﴿مترفين﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين على لذات أنفسهم، ولأنهم ﴿يصرون على الحنث العظيم﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة، ويداومون على الذنب العظيم ومنه الشرك، ولأنهم كانوا يقولون ﴿أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ فهم كانوا يستبعدون أن يبعثوا أحياء بعد أن تصبح أجسادهم تراباً وعظامهم نخرة ﴿أو آباؤنا الأولون﴾ تأكيد للإنكار أي هل سيبعث آباؤنا وأجدادنا بعد أن تبلى أجسادهم.

القــــراءة

﴿أو آباؤنا﴾ قرأ ابن عامر وأهل المدينة[1] بإسكان الواو ﴿أوْ آباؤنا﴾.

ثم يأمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يرد على هؤلاء المنكرين للبعث فيقول:

٤٩ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

أي قل لهم إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم.

ويتابع القرآن وصف عذاب أهل الشمال في الآخرة فيقول:

٥١ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾.

٥٢ ـ ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾.

(١) هم نافع وأتباعه وأبو جعفر.

٥٣ ـ ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾.

٥٦ ـ ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾.

﴿من شجر من زقوم﴾ شجر لا نظير له في الدنيا، ثمره كأنه رؤوس الشياطين وهذا تمثيل في قبح منظره وبشاعته، ومع هذا فإنكم لآكلون من ثمر هذا الشجر الكريه الطعم، ومالئون منه بطونكم مكرهين، ثم إنكم لشاربون عقب أكله من الماء الحار وشربكم هو ﴿شرب الهيم﴾ والهيم الإبل العطاش ﴿هذا نزلهم﴾ أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾(١) أي ضيافة وكرامة.

القــــراءة

﴿شرب﴾ بضم قراءة نافع وعاصم وحمزة وأهل المدينة، وبالفتح قرأ الباقون﴿شرب﴾.

بعض الأدلة على إثبات قدرة الله الكاملة على البعث وغيره

ثم يرد الله على المكذبين مقرراً للمعاد فيقول:

٥٧ ـ ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾.

أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال ﴿فلولا تصدقون﴾ أي فهلا تصدقون.

ثم احتج على بعثهم بالقدرة على ابتدائهم فقال:

٥٨ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾.

٥٩ ـ ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾.

﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ هذا استفهام لحث الإنسان على معرفة ما في النطفة من المني الذي يقذفه، إن فيها ملايين الحيوانات المنوية ـ مائة مليون حيوان منوي في السنتمتر المكعب، وواحد منها يتحد مع بويضة الأنثى، فيكون ملايين الخلايا الجديدة ذات الخصائص المختلفة في تكوين الإنسان، حتى يصبح بشراً سوياً، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ هذا استفهام إنكاري توبيخي أي ليس الأمر كذلك بل الخالق هو الله عز وجل.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

ثم يتابع القرآن فيذكر مصير الإنسان بعد هذه الحياة فيقول:

٦٠ ـ ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾.

٦١ ـ ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٦٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿نحن قدرنا بينكم الموت﴾ أي قتنا الموت لكل فرد من أفرادكم، فمنكم من يموت كبيراً، ومنكم من يموت صغيراً، ولكن أهل الأرض فيه سواء ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي وما نحن بعاجزين ولا يسبقنا سابق إذا أردنا ﴿أن نبدل أمثالكم﴾ أي نغير خلقكم وذلك بإهلاككم ونأتي بخلق جديد يكون أطوع لنا منكم.

﴿وننشئكم في ما لا تعلمون﴾ نخلقكم في أيّ خلق شئنا، في أيّ من الصفات والأحوال ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ وهي ابتداء خلقكم من نطفة وعلقة، فهلا تعتبرون فتعلموا قدرة الله فتقروا بالبعث.

القـــراءة

﴿قدرنا﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال ﴿قدَرنا﴾.

الزرع

ثم بين القرآن مظهراً آخر من قدرة الله وهي في إنباته الزرع، الذي به قوام حياة الإنسان والحيوان فيقول:

٦٣ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾.

٦٤ ـ ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾.

٦٥ ـ ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾.

٦٦ ـ ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾.

٦٧ ـ ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾.

﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ أي هل نظرتم إلى الأرض اليابسة التي تحرثونها وتلقون البذر فيها، من الذي جعلها قابلة للري وتقبل الماء وتحمل الزرع وتفتح البذور في باطنها ﴿ءأنتم تزرعونه﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿أم نحن الزارعون﴾ فهل أنتم الذين جعلتم الأرض قابلة للإنبات أم الله عز وجل هو الذي أمرها بذلك، أي بل نحن الذين نقر قراره وننبته في الأرض ﴿لو نشاء جعلناه حطاماً﴾ يابساً متكسراً لا نفع فيه ﴿تفكهون﴾ تنعمون وتحزنون، قال الكسائي من الأضداد تقول العرب تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت، وقد نبّه هذا الكلام على أشياء منها، إحياء الموتى ومنها الامتنان بإخراج القوت، ومنها القدرة العظيمة الدالة على التوحيد،

وبعد ذلك تقولون ﴿إنا لمغرمون﴾ أي خاسرون والمغرم الذي ذهب ماله بدون عوض ﴿بل نحن محرومون﴾ أي حرمنا ما كنا نطلبه من الريع في الزرع.

الماء

ويتابع القرآن فيذكر مظهراً آخر من قدرة الله وفضله على الناس بالماء فيقول:

٦٨ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾.

٦٩ ـ ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾.

٧٠ ـ ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾.

المزن: هي السحاب، واحدتها مزنة، فالله سبحانه يذكرهم بالماء العذب الذي ينزله من السماء للشرب والاستعمال ليعتبروا فيقول لهم: ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ أي لو أردنا وذلك بإمكاننا أن نجعل ماء المطر مالحاً لا يستساغ في شرب ولا زرع ﴿فلولا تشكرون﴾ فهلا تشكرون الله على هذه النعمة الجليلة العظيمة.

النار والكهرباء

وأخيراً يذكر القرآن فضل الله على الإنسان بحصوله على النار من الشجر فيقول:

٧١ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾.

٧٢ ـ ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾.

٧٣ ـ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾.

٧٤ ـ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿تورون﴾ أي تقدحون، تقول أوريت النار إذا قدحتها، والمراد إشعال النار ﴿ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾ يقول المفسرون إنه كان للعرب في الماضي شجرتان، إحداهما تسمى المرخ والأخرى العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار، وقال آخرون المراد بالشجرة كل الشجر، فيعم جميع الحطب والفحم المصنوع من الشجر أو المستخرج من الأرض، ويروي المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنه أنه يقول: المراد بشجرتها: أنها الحديد على ما يرويه أبو صالح، ولعل العلاقة بين النار وبين الفحم والخشب والحديد تقربنا من الكهرباء ويكون في الآية إشارة إليها، ومن الكهرباء يصنع العجائب التي لا يمكن أن تتم دون تقدير الله لها، فمن الذي صنع الشجر والحديد والفحم، ومن الذي جعل في كل شيء خاصيته وأنفذ فيه تلك القوة الجبارة المعنوية، التي لا يعرف الإنسان كنهها، وجعلها ﴿متاعاً للمقوين﴾ وهم المسافرون والمتنقلون في الأرض في الطائرات والقطارات والسيارات والبغال والحمير والجمال وغيرها، وليس هنا مجال تعداد ما في النار والكهرباء من منافع وفوائد للإنسان، فهي جلية واضحة

لذلك يأتي الأمر بتسبيح الخالق العظيم فيقول الله لعبده: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي نزه ربك عما أضافه المشركون من صفات العجز أو النقص، وقل سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته ما أعظم شأنه.

إن هذا لهو حق اليقين

ثم يقسم الله بالنجوم السابحة في الفضاء ومواقعها تنويهاً بأهميتها فيقول:

٧٥ ـ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾.

٧٦ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾.

﴿لا﴾ دخلت توكيداً، والمعنى: فأقسم، ومثله لئلا يعلم أهل الكتاب، ومواقع النجوم هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أي لو علمتم حقيقة النجوم ومواقعها ـ وهذا يعني الكواكب ـ لرأيتم أن القسم بها هو قسم عظيم، والقرآن يخاطب الناس ويلفت الأنظار لما في العالم العلوي قبل أن يخترع التلسكوب، ولم يكن الناس يعلمون من حقائق الفلك وتوزيع النجوم وتحركاتها، وشموسها ومجراتها ما وصل إليهم في العصر الحديث بالوسائل العلمية الحديثة.

القــــراءة

﴿بمواقع﴾ قرأ حمزة والكسائي على الإفراد ﴿بموقع﴾.

ثم ذكر المقسم عليه فقال:

٧٧ ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾.

٧٨ ـ ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾.

الكريم اسم جامع لما يحمد، فيه البيان والهدى والحكمة، وهو معظم عند الله عز وجل، والمكنون: المصون المعتنى به، وهذه إشارة إلى حفظ القرآن وصونه في المكان اللائق به، من الحفظ عن الضياع والصون من الأقذار.

٧٩ ـ ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾.

٨٠ ـ ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

بعض المفسرين قالوا إنه اللوح المحفوظ، والمطهرون عندهم الملائكة، ومن قال إنه عنى بالقرآن المصحف، مستدلين فيما رواه مسلم في صحيحه «نهى رسول الله أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو» وقالوا إن المراد بالمطهرين من الأحداث والجنابة، بمعنى أنه لا يمس المصحف إلا متوضىء، واحتجوا بما نسب للرسول ﷺ «لا يمس القرآن إلاّ طاهر».

ولم أجد من المفسرين من قال إن في المسألة حديثاً صحيحاً يقطع الجدال، بل إنهم اختلفوا في الأمر، فمنهم من قال المطهرون من الشرك، ومنهم من قال المطهرون من الذنوب والخطايا، قال الإمام ابن كثير: وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى في سورة الشعراء ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون﴾(١) ثم قال: وهذا القول جيد.

أقول: وإن كان المراد بالقرآن هاهنا المصحف، إلا أن عدم وجود الدليل القوي القطعي على أن المراد بالمطهرين، المطهرون من الحدث مع اختلاف الصحابة والسلف في ذلك، بل إن الحديث الذي يستند إليه ﴿لا يمس القرآن إلا طاهر﴾ وإن تصحح بمجموع طرقه كما قيل لا يفهم منه الطهارة من الحدث الأصغر، بل المطهرون من الكفر والشرك، بدليل أن هذا الحديث كما رواه الإمام مالك في الموطأ قد ورد في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم، والمصحف لم يجمع في كتاب يقرأ في عهد النبي ﷺ ولم يوزع إلا في عهد عثمان بن عفان لكل إقليم نسخة. ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه.

ثم وبخ المتهاونين بشأن القرآن فقال:

٨١ ـ ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾.

٨٢ ـ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾.

المراد بالحديث القرآن ﴿أنتم مدهنون﴾ ممالئون ومداهنون، وذلك يقتضي الكذب ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ أي تجعلون الشكر على ما رزقكم الله أن تكذبوا بنعمه عليكم، وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم لرسوله وكتابه.

٨٣ ـ ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾.

٨٤ ـ ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾.

٨٥ ـ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾.

﴿فلولا إذا بلغت﴾ الروح ﴿الحلقوم﴾ وهو الحلق، وذلك حين الاحتضار ﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾ وأنتم يا أهل الميت ترونه يكابد من سكرات الموت وقت الاحتضار، وأنتم في تلك الحال لا يمكنكم فعل شيء ينفعه أو يخفف عنه ما هو فيه، ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ أي وربكم أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وقدرته وملائكته ﴿ولكن لا تبصرون﴾ بعقولكم قدرة الله، ولا تبصرون بأعينكم ملائكته.

٨٦ ـ ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾.

(١) الآية: ٢١٠ ـ ٢١٢.

٨٧ ـ ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .

﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه الروح ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أي فأرجعوا الروح وقد بلغت الحلقوم إلى صاحبها وترجعونها جواب ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾.

وحين بين أنه لا قدرة لهم على رجع الحياة والنفس إلى البدن وأنهم مجزيون في دار الإقامة، فصل حال المكلف بعد الموت قائلاً:

٨٨ ـ ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ .

٨٩ ـ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ .

٩٠ ـ ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ .

٩١ ـ ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ .

٩٢ ـ ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ .

٩٣ ـ ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ .

٩٤ ـ ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ .

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم، إما أن يكون من المقربين وهم السابقون ﴿فروح وريحان﴾ الروح: الرحمة والفرح والراحة، والريحان الرزق في الجنة، وجنة نعيم: جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالت عائشة أو بعض أزواجه ﷺ: إنا نكره الموت، قال: ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه.

وإما أن يكون ممن دون المقربين ﴿من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم سلام لك أي لابأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وإما أن يكون المحتضر من ﴿المكذبين الضالين﴾ المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿فنزل﴾ ضيافة له ﴿من حميم﴾ ماء قد تناهت حرارته فهو شرابه ﴿وتصلية جحيم﴾ أي دخول النار ليقاسي ألوان العذاب فيها.

ثم يقول الله في ختام السورة:

٩٥ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ .

٩٦ ـ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

إن هذا يعني ما ذكره في السورة ﴿لهو حق اليقين﴾ الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه ﴿فسبح باسم

ربك العظيم﴾ وهذه تذكرة لما مر في ثنايا السورة من الآيات الباهرة الدالة على عظمة الخالق المبدع، والمعنى: نزه الله العظيم عما يصفونه من الأباطيل، وما يبغون به من الأضاليل.

وجاء في الصحاح قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(١).

(١) آخر حديث البخاري.

سورة الحديد

سورة الحديد سميت لورود كلمة الحديد في آخر السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

التسبيح لله وحده

لما ختم الله سورة الواقعة بالأمر بتنزيه الله وتعظيمه بقوله: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾، ولما كان الخطاب موجهاً للإنسان العاقل، أراد أن يبين في هذه السورة أن جميع ما في السماوات والأرض من موجودات من حيوان ونبات قد نزّه الله تعالى بطريقته الخاصة فقال:

١ ـ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

٢ ـ ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿سبح لله ما في السماوات والأرض﴾ أي نزهه ومجده بلسان الحال وبالطريقة التي لا نعلمها، ويعلمها الله، فإن كل موجود يدل على الصانع، و ﴿ما﴾ تدل على غير العاقل ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القادر الغالب الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب ﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير﴾ يتصرف فيهما وحده.

٣ ـ ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

هذه الآية تدل على سعة علم الله واطلاعه على كل شيء من خلقه، فهو الأول وليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن ليس دونه شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يغيب عنه شيء لأنه ﴿بكل شيء عليم﴾.

وبعد أن قرر القرآن هذه الحقيقة عن عظمة الخالق، أخذ يفصل ما يتفرع عنها في عالم الوجود فقال:

٤ ـ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ شرحناه في الأعراف والسجدة ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ شرحناه في أول سورة سبأ،

﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ بعلمه وقدرته، وقال ابن عباس أي عالم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب عليكم.

ويتابع القرآن بيان قدرة الله التي تسير هذا الكون الرحيب فيقول:

٥ ـ ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

٦ ـ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

له سبحانه السلطان المطلق في السماوات والأرض وهو سبحانه جعل الليل والنهار يتعاقبان بحكمته وتقديره، لأنه هو الذي يسير الأرض التي تدور حول نفسها أمام الشمس، وهو الذي جعل الشمس ترسل أشعتها على الأرض.

الحث على الإيمان والإنفاق

وبعد أن بين القرآن مظاهر قدرة الله في الكون وإحاطة علمه بجميع البشر، توجه بالخطاب إلى الناس فقال:

٧ ـ ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، ثم تأتي الدعوة للإنفاق في سبيل الله لما في ذلك من صدق العقيدة ونصرة الدين فيقول ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ هذا تنبيه إلى الناس بأن الأموال التي في أيديكم ليست أموالكم حقيقة، بل هي أموال الله سبحانه خولكم الاستمتاع بها على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد إلى استعمال ما استخلفتم فيه من المال في طاعته ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة.

وبعد دعوة القرآن للناس إلى الإنفاق بعد الإيمان به وبرسوله، توجه باللوم والتوبيخ للكافرين الذين أعرضوا عن الإيمان فقال:

٨ ـ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

هذا استفهام إنكار، والمعنى: أي شيء لكم من الثواب في الآخرة إذا لم تؤمنوا بالله ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ أي أخذ الله عليكم العهد بأن تؤمنوا حين وضع فيكم العقل، وأقام لكم من الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه، وتوحيده والإيمان به ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل فلا عذر لكم أبداً في الكفر.

القـــراءة

﴿وقد أخذ﴾ قرأ أبو عمرو ﴿أُخذ﴾ بالرفع، وقرأ الباقون بالفتح.

٩ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾

﴿آيات بينات﴾ أي واضحات ظاهرات وهي القرآن ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وإن الله بكم أيها الناس ﴿لرؤوف رحيم﴾ أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه.

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ثم حثّهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه حثهم أيضاً على الإنفاق فقال:

١٠ ـ ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.

أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض، وبيده مقاليدهما وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى وهو القائل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[1]، ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ يبين الله بأنه لا يستوي في الفضل والأجر من أنفق وقاتل الأعداء مع رسول الله قبل الفتح: أي قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل بعد فتح مكة، فأولئك أعظم درجة، لأنهم فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة إلى النصرة بالأنفس والأموال، لقلة عدد المسلمين وفقرهم يومذاك، وكثرة أعدائهم وغناهم ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ أي وكلا الفريقين وعده الله الجنة.

القــــراءة

﴿وكلا﴾ قرأ ابن عامر ﴿وكل﴾ بالرفع.

ويحث القرآن المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله، لأنهم سيستردونه أضعافاً فيقول:

١١ ـ ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾.

أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله، فإنه كمن يقرضه ﴿قرضاً حسناً﴾ أي محتسباً من قلبه بلا منّ ولا أذى، طيبة به نفسه ﴿فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ المضاعفة هنا هي كون الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، على اختلاف الظروف والأوقات والأشخاص.

القــــراءة

﴿فيضاعفه﴾ قرأ ابن عامر وابن كثير، مشددة بغير ألف ﴿فيضعفه﴾ إلاّ أن ابن كثير قرأ بضم الفاء، وقرأ نافع وأبو عمرو، وحمزة والكسائي بألف ﴿فيضاعفه﴾ مع ضم الفاء، وعاصم بفتح الفاء، والرفع معطوف على يقرض، ويحمل قراءة النصب على المعنى، أي معطوف على: أي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

وبعد أن رغب القرآن بالإنفاق، ووعد فاعليه بالأجر الكريم، ذكر جانب ذلك الأجر الكريم في الآخرة فقال:

١٢ - ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ يخبر الله عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يضيء نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم في عرصات يوم القيامة على قدر أعمالهم، وهو نور الأعمال الصالحة، ونور الهداية إلى الجنة، ثم يبشرون بحدائق تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الخلود في الجنات هو الظفر والنجاح العظيم.

المنافقون يوم القيامة

وحين يرى المنافقون المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة يوم القيامة يقولون:

١٣ - ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾.

﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ يمشي المؤمنون يوم القيامة إلى الجنة بنورهم الذي يسعى بين أيديهم، لأن الموقف حينذاك فيه ظلمات بعضها فوق بعض، ولا يهتدي في طريقه إلا من كان له نور ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[1] فيحاول المنافقون والمنافقات الاقتباس من ذلك النور، ولكن هيهات لأنه لا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن في الآخرة، كما لا يستضيء الأعمى بنور المبصر في الدنيا ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ يقول لهم الملائكة ذلك استهزاء، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[2] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ باطنه أي من جهة المؤمنين رحمة وسلام وجنة، وظاهرة يعني ومن وراء السور، أي ما يلي المنافقين هو جهنم.

القـــراءة

﴿انظرونا﴾ قرأ حمزة ﴿أَنظِرونا﴾ بقطع الهمزة وفتحها، وكسر الظاء.

ويتابع القرآن تتمة الحوار بين المنافقين والمؤمنين فيقول:

١٤ - ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾.

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾ ينادي المنافقون المؤمنين يوم القيامة من وراء السور، ويقولون لهم ألم نكن معكم نعمل أعمالكم من صلاة وصيام وغيرها، فلم تمتازون علينا ﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ استعملتم كل ذلك في الفتنة والنفاق فكنتم معنا في الظاهر ﴿وتربصتم﴾ أي انتظرتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف شأننا ﴿وارتبتم وغرتكم الأماني﴾ أي شككتم في الدين وغرتكم الأماني وهي ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين﴿حتى جاء أمر الله﴾ بوقف ألاعيبكم إما بالموت أو العذاب، أو بكشف مؤامراتكم ﴿وغركم بالله الغرور﴾ أي غركم خدعكم الشيطان وزين لكم النفاق بما أوقع في صدوركم من الأماني الكاذبة فأطعتموه.

١٥ ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ أي ليس في يوم القيامة بدل ولا عوض عن عذابكم، وهذا خطاب للمنافقين ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾ أي مقامكم ومنزلكم، وهي أحق بكم، وهذا تهكم بهم.

القـــراءة

﴿لا يؤخذ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر ويعقوب: ﴿لا تؤخذ﴾ بالتاء.

وعظ وإرشاد

وبعد أن بين حال المنافقين في الآخرة، انتقل إلى تحذير المؤمنين فقال:

١٦ ـ ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾.

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ نزلت في المؤمنين في صدر الإسلام الأول، والمعنى: ألم يحن الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين، وتلين ضارعة عند ذكر الله، وتخشع كذلك لما ﴿نزل من الحق﴾ القرآن ثم نبههم بألا يكونوا مثل اليهود والنصارى الذين لما طالت بهم المدة بينهم وبين أنبيائهم مالوا إلى الدنيا، وأعرضوا عن مواعظ الله ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ وكثير منهم أصبحوا خارجين عن طاعة الله، وهذا هو المشاهد اليوم في كثير من الدول التي تعتنق النصرانية واليهودية فترى الخروج عن طاعة الله ظاهراً في تصرفاتهم، وقسوة قلوبهم.

القـــراءة

﴿ما نزل﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ما نزّل﴾ بفتح النون والزاء، مع تشديد الزاء.

ثم يعطي الله مثلاً لتأثير مواعظ القرآن في القلب فيقول:

١٧ ـ ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

أي فكما أن الله يحيي الأرض بالماء بعد جفاف زرعها ويبسه، فكذلك القلوب القاسية التي ماتت

الرحمة فيها تحيا وتلين بذكر الله، وتدبر آيات القرآن الكريم ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تتأملوا.

ثم يعود القرآن لتأكيد ثواب الإيمان وإنفاق المال في سبيل الله فيقول:

١٨ - ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾.

يخبر الله عما يثيب به المتصدقين والمتصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم﴾ القرض الحسن في الآية عبارة عن التصدق والإنفاق في سبيل الله بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه، ولا شكوراً، ويضاعف ذلك لهم بأن يقابل الحسنة بعشرة أمثالها، ويزداد إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ولهم أجر كريم﴾ أي ثواب حسن ومرجع صالح ومآب كريم.

القــــراءة

﴿المصدقين والمصدقات﴾ قرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما على معنى التصديق.

١٩ - ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ هم الذين آمنوا بالله ورسله، ومنزلتهم تلي منزلة الأنبياء، وقد يكونون معهم، وهذا يدل على أنهم ليسوا عاديين، ثم استأنف فقال: ﴿والشهداء عند ربهم﴾ الذين استشهدوا في سبيل الله، والمعنى: الشهداء يفوزون بعلو المنزلة عند الله ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أي لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من أعمال، ولما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم فقال ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

حقيقة الدنيا والآخرة

ولما كان التعلق الشديد بالدنيا يصرف الناس عن بذل المال في سبيل الله والعمل الصالح، ذكر حقيقة الدنيا بما يزهدهم فيها، ويخفف من تعلقهم بها فقال:

٢٠ - ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي إنما حال أمرها عند أهلها، أي أن وقت الدنيا كمن يلعب لعبة أو يلهو بشيء أو من يتزين بلباس ساعة أو يقتني حلية ثم ينتهي منها،

وهذا شأن أهلها وحاصل أمرها، وبهذه الأشياء يتفاخر الناس بالأموال والنساء والزينة، أي يفتخر بعضهم على بعض، وكأنهم مخلدون فيها، وما علموا أن مثلها ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾ أي كمثل المطر الذي أنبت الزرع فأعجب به صاحبه واغتر به ﴿ثم يهيج﴾ يجف بعد خضرته وييبس ﴿فتراه مصفراً﴾ ثم يذبل ﴿ثم يكون حطاماً﴾ أي يصير هشيماً متكسراً بعد اليبس، هذا أدق تفسير لحقيقة الدنيا واغترار أهلها بها، ساقه الله بألفاظ قليلة تظهر إعجاز القرآن حيث أظهرت مشهد الحياة الدنيا بهذه الصورة المألوفة لدى الناس.

ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا، وانقضائها وفراقها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، وحذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ والمعنى: أنه ليس في الآخرة الآتية القريبة، إلا إما هذا وإما هذا، إما عذاب شديد وإما مغفرة من الله ورضوان ﴿وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور﴾ أي هي متاع لمن ركن إليها فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة، قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

ولما كان الخير والشر قريبان جداً من الإنسان، حثه الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات، وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات فقال:

٢١ ـ ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ التسابق إلى مغفرة الله بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة، وأولها المسارعة بالتوبة، ولا يكون ذلك بالتفاخر بالأموال والأولاد والبطر والكبرياء والتعالي على أبناء الشعب وأكل الأموال بالباطل.

الأمر كله لله

ثم يخبر الله عن قدره السابق في خلقه الابتلاء، قبل أن يبرأ البرية فيقول:

٢٢ ـ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾.

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾ يخبر الله عما ينزله على البشر من الكوارث والمصائب والشر الذي يبتلي به أهل الأرض وهو من الدائرة التي تسيطر عليهم ولا قبل لهم بدفعه، فيعمّ الكبير والصغير والمحسن والمسيء، مثل الزلازل والمحن والحروب والكوارث التي تصيب الإنسانية ﴿ولا في أنفسكم﴾ أي الأمراض أو الخسائر وغيرها من الابتلاءات التي تصيب الإنسان خاصة كمن احترق منزله أو مات ولده، فكل ذلك من الابتلاءات في الدائرة التي تسيطر على الإنسان ولا يد له فيها ولا اختيار، فإن صبر وشكر غفر الله له وخفف من ذنوبه وأثابه وإن لم يصبر وتضجر وتهجم كانت له سوءاً على سوء وشراً على شر.

﴿إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ أي أن ما يحصل للناس من الشر في الدائرة التي تسيطر عليهم

مكتوب ومسجل في اللوح المحفوظ، قبل أن يقع عليهم ويخلق في الأرض ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها أسهل على الله.

ثم بين وجه الحكمة في ذلك الإثبات قائلاً:

٢٣ ـ ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم﴾ أي إذا علمتم أن الدنيا وما فيها إلى زوال، وأنها متاع، وعلمتم بأن ما ينزل بكم من مصائب وابتلاءات هي فتنة واختبار، وأن كل ذلك قد سجله الله في اللوح المحفوظ، ولا بد من وقوعه على الإنسان، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، من أموال وأولاد ومتاع وغيره ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ من الخير والنعم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم، وإنما هو من قدر الله ورزقه لكم، فنزول المطر وهبوب الرياح وإنبات الزروع، وإسالة الأنهار وولادة الأولاد، وصحة الأبدان كل ذلك من الخير الذي آتاكم الله، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور على غيره، قال عكرمة: ليس أحد إلاّ وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً.

القـــراءة

﴿بما آتاكم﴾ قرأ أبو عمرو ﴿بما أتاكم﴾ قصراً، وقرأ الباقون بالمد.

ثم يتابع القرآن الكريم فيبين صفة هؤلاء المختالين فيقول:

٢٤ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ المختال، الفخور بنفسه يطغيه ما عنده من الرزق، ويرى أن المال سبب لعزته، لذا يحرص عليه ويبخل به، ولا يكتفي بهذا بل يأمر غيره بالبخل ﴿ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد﴾ أي ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه ليس في حاجة إلى إنفاقه وماله لا يضرّه بذلك.

القـــراءة

﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ بفتح الباء والخاء.

﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿فإن الله الغني الحميد﴾ ليس فيها ﴿هو﴾.

أسس الحكم في الإسلام

ثم يبين القرآن الغرض من إرسال الرسل إلى الناس فيقول:

٢٥ ـ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب﴾ البينات المعجزات الظاهرة، والشرائع الواضحة، والمراد بالكتاب، جنس الكتاب أي الكتب السماوية التي أنزلت على الرسل ﴿والميزان﴾ العدل، والمعنى: أمرنا بالعدل ولذلك قال ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ أي ليقوموا بالعدل ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي خلقنا وأوجدنا الحديد، والبأس هو الشدة والقوة في الاستعمال والحرب كما أن ﴿فيه منافع للناس﴾ وفي العصر الحديث تتضح منافع الحديد على أعظم ما يكون من الوضوح، وذكر الحديد رمز وإشارة لجميع المعادن، ومواد الخام التي من جنسه والتي امتلأت بها المصانع اليوم باختلاف الصناعات وآلات الحرب ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله قوي عزيز﴾ وليعلم معطوف على قوله ليقوم الناس، والمعنى: ليتعامل الناس بالعدل وليعلم الله، أي يتميز ويظهر من ينصره بالقتال في سبيله باستعمال الحديد، كسلاح ذي بأس شديد بجميع أنواعه ووسائله، ويجاهد أعداءه، وقوله بالغيب: أي وقد آمن بالغيب، وصدق بما أخبر به النبي ﷺ مما في الآخرة من أمور غيبية.

الغرض من إرسال الرسل

وبعد أن بين الله أنه أرسل رسله بالبينات والشرائع، أتبع ذلك بذكر بعض الرسل فقال:

٢٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته وكذلك إبراهيم عليه السلام ﴿وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً، ولا أوحى إلى بشر من بعده إلاّ وهو من سلالته كما قال: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾[1] حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام.

٢٧ ـ ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

﴿ثم قفينا على آثارهم﴾ أي أتبعنا على آثار نوح، وإبراهيم، وذريتهما بعيسى، والتقفية: جعل الشيء في إثر الشيء على الاستمرار ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ ليس معطوفاً على ما قبله، وإنما انتصب بفعل مضمر تقديره وابتدعوا (رهبانية ابتدعوها) أي جاؤوا بها من قبل أنفسهم، وهي غلوهم في العبادة، وحمل المشاق على أنفسهم، في الامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح، والتعبّد في الأديرة والجبال، والقرآن في هذا يقرر أن الرهبانية بدعة ابتدعت وليست من فروض الدين، والمسيحيون الأُوَلُ لا يعرفون شيئاً من الرهبنة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٧.

والأديرة، فقد نشأت الرهبنة والأديرة في مصر وعنها نقلت إلى سائر البقاع ﴿ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ أي ما فرضنا عليهم الرهبنة ولا أمرناهم بها ولكنهم ابتدعوها طلباً لرضوان الله ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ وهذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم لم يراعوا فيها رضواناً لأن غاية المتعبد هي رضوان الله، لكن هؤلاء استعملها كثير منهم في الفساد، فساد العقائد والأخلاق، وتعظيم الأصنام والتماثيل والصور والترانيم والموسيقى والطقوس، التي أخرجتها من كونها عبادة يجب أي يسودها الهدوء ويغشاها الخشوع ﴿فآتينا الذين ءامنوا منهم أجرهم﴾ أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد فقد وفاهم الله أجرهم وذلك قبل رسالة محمد ﷺ، أما بعد رسالة محمد فالمطلوب الإيمان به واتباع شريعته.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى مخاطبة المؤمنين من كافة الملل الأخرى فيقول:

٢٨ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ قال المفسرون: لليهود والنصارى، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد يؤتكم كفلين: أي نصيبين وحظين من الثواب بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ﴿ويغفر لكم﴾ ففضلهم بالنور والمغفرة. ويختتم الله السورة بقوله:

٢٩ ـ ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ لا مؤكدة: والمعنى ليعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله، ولا يقدرون أن ينالوا من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد، ولا يقدرون على أن يدفعوا ويمنعوا ذلك الفضل الذي تفضل الله على المستحقين، ﴿وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ ومنه النبوة والعلم والتقوى.

سورة المجادلة

سورة المجادلة سميت لورود كلمة ﴿تجادلك﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم الله سورة الحديد بذكر فضله على من يشاء من عباده، افتتح هذه السورة بذكر بيان فضله في إجابة الدعوة، كما أجاب دعاء تلك المرأة فقال:

١ ـ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ أي تراجعك الكلام في شأن زوجها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لإمرأته في الجاهليه:

أنت عليَّ كظهر أمي، حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت أحد الأنصار، فانطلقت زوجته إلى رسول الله ﷺ، حيث قال الله ﴿وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ وقد جاء في الحديث الصحيح[1] عن عائشة: سمعت خولة بنت ثعلبة تقول يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية، والله يسمع تحاوركما: أي والله يسمع ما تتراجعان به من الكلام ﴿إن الله سميع بصير﴾ يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر، ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة.

الظهار وحكمه وكفارته

ثم إنه سبحانه وبخ المظاهرين أولاً بقوله:

٢ ـ ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾ أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي، يعني في النكاح ﴿ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم﴾ انتصبت الأمهات الأولى هاهنا بحذف الباء وهي الجار، وبقي أثرها وهو النصب وذلك قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ما هذا بشراً﴾[2] والمعنى: ما هذا ببشر، وعلى هذا كلام

(١) رواه البخاري وأخرجه النسائي وابن ماجه.
(٢) الآية: ٣١.

أهل الحجاز، وأهل نجد يرفعون، ومعنى الآية: إن قول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي فيشبهها بأمه لا يغير من الواقع شيئاً، فالأم الحقيقية هي التي ولدت ووضعت ﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا﴾ أي إن ما يفعله المظاهرون من هذا القول محاكاة لأهل الجاهلية لهو منكر، ينكره الشرع، والزور: الكذب وذلك من تشبيههم الزوجات بالأمهات، والأمهات محرمات على التأبيد بخلاف الزوجات ﴿وإن الله لعفو غفور﴾ أي بليغ العفو والمغفرة إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا المنكر من القول.

القـــراءة

﴿يظاهرون﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء، وفتحهما من غير ألف ﴿يظهرون﴾ وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي بفتح الياء وتشديد الظاء وبألف وتخفيف الهاء، وقرأ عاصم ﴿يظاهرون﴾ بضم الياء وتخفيف وكسر الهاء.

لما كان الظهار في الجاهلية طلاقاً أراد أن يبين حكمة في الإسلام فقال:

٣ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

٤ - ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ يريدون أن يعودوا إلى الجماع الذي قد حرموه على أنفسهم، أو يعزموا عليه فلا تحل لهم حتى يكفروا بهذه الكفارة الآتية بقوله ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾ كناية عن الجماع ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا﴾ أي فمن لم يجد الرقبة أي لم يجد رقبة في الزمان والمكان الذي هو فيه، فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما لغير عذر، وله أن يطأ ليلاً إذا شاء ﴿فمن لم يستطع﴾ يعني الصيام المتواصل ستين يوماً ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾ أي فعليه أن يطعم ستين مسكيناً لكل مسكين ما يكفيه غذاء يوم كامل، ويكفي أن يدفع له القيمة، ويقول له هذا إطعام يومك، ومثل هذا من ظاهر مراراً يلزمه كفارة واحدة، ولو مس المظاهر امرأته قبل الكفارة، عليه أن يتوب إلى الله بالندم والاستغفار، ثم يخرج الكفارة، ولا شيء عليه، أما بعد الشروع في الكفارة فلا شيء عليه، ﴿ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ أي حكمنا بذلك لتصدقوا بأن الله أمر به وشرعه وتقفوا عند حدود الشرع، ولا تعتدوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور، وتلك الأحكام المذكورة حدود الله فلا تجاوزوها، فإنّه قد بيّن لكم أن الظهار معصية، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة، وأن الكافرين الذين لا يقفون عند حدود الله لهم عذاب أليم.

مصير من يحادد الله ورسوله

ثم يخبر الله سبحانه عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه فقال:

٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ المحادة: المشاقة والمعاداة في شرعه ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي أهينوا وأخزوا، والمردود بالذل يقال له مكبوت، وذلك مثل ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر، ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلاّ كافر فاجر مكابر ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد والخضوع لدينه.

ثم بين سبحانه وقت ذلك العذاب فقال:

٦ ـ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا﴾ يوم القيامة يبعثهم الله من قبورهم إلى المحشر والحساب مجتمعين في حالة واحدة، لا يبقى منهم أحد فيخبرهم بما عملوا في الدنيا من الأعمال، لتكميل الحجة عليهم ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوه ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ مطلع وناظر.

النجوى

ثم أخبر الله تعالى عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال:

٧ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى﴾ أي أن علمه محيط بما فيهما، بحيث لا يخفى عليه شيء، ما يوجد من تناجي رجال ﴿ ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أين ما كانوا﴾ لأنه سبحانه مع كل عدد قل أو كثر يعلمه، يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في أي مكان من الأمكنة ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة﴾ أي ليعلموا أن نجواهم لم تكن عليه خافية، وليكون إعلامه لمن يتناجون بالسوء توبيخاً لهم وتبكيتاً وإلزاماً للحجة.

آداب المناجاة في الإسلام

٨ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

النجوى: السرار والخلوة، والقرآن يتحدث عن الذين يتناجون فيما بينهم من الكفار والمنافقين والمعادين للدعوة الإسلامية، وقد نهوا عن ذلك لما يسبب الضرر للمسلمين، ثم بين ما كان المنهي عنه في الآية فقال ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ وذلك كان في عهد النبي ﷺ، والحكم يعم كل حالة، والنجوى منهي عنها بحضرة الغير، خوف مظنة السوء، فكيف بها إذا كانت ضد الدعوة، وبالإثم: أي المحرم، والعدوان: التآمر على المؤمنين، ومعصية الرسول: مخالفته وحث الناس على عدم الإيمان به وطاعته، ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ هم اليهود كانوا يقولون للرسول ﷺ: السام عليك أبا القاسم، والسام هو الموت، فكان الرسول يرد عليهم فيقول: عليكم، فكان ذلك سبباً لنزول الآية[1]، ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض: لو كان نبياً عذبنا الله بقولنا له في الباطن، فقال الله تعالى ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ أي أن عذابهم على هذا الموضوع مؤخر إلى الدار الآخرة، وجهنّم كفايتهم يوم القيامة يصلونها.

القـــــراءة

﴿ويتناجون﴾ قرأ حمزة ويعقوب ﴿ويتنجون﴾ بالنون وضم الجيم من غير ألف على وزن ﴿يفتعلون﴾.

نهي المؤمنين عن التناجي

٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول﴾ هذا خطاب لضعاف الإيمان من المؤمنين والمنافقين، والمعنى: أنه نهاهم عن فعل الكفرة من أهل الكتاب ومن كان مثلهم من أهل الضلال ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ أي بالطاعة وصدق النية وترك المعصية ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ وإذا سيطر على المجتمع الإسلامي هذا المفهوم القرآني وهو تقوى الله لأصبحوا في ذروة التسامي والرقي الاجتماعي.

ولقد بين الله الباعث على النجوى فقال:

١٠ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول من تزيين الشيطان ووسوسته من أجل أن يوقعهم أي المؤمنين في الحزن بما يحصل لهم من التوهم ﴿وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾ أي وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا قد كتبه الله عليهم وبإذنه ومشيئته ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾

(١) الحديث في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومن أحسّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء إلاّ بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حتى في المباح حيث يكون في ذلك تأذ لمؤمن، قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلاّ بإذنه فإن ذلك يحزنه»[1].

آداب الجلوس في دور العلم

ثم يخبر الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس فقال:

١١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا﴾ أي ليفسح كل رجل منكم في مجلسه، ومعنى، ﴿تفسحوا﴾ توسعوا، وذلك أن الصحابة وقت الرسول كانوا يجلسون متضايقين حول رسول الله ﷺ، فلا يجد كبار الصحابة وأولو الفضل في السبق بالإسلام مكاناً، وربما دخل رجل غريب قادم من مكان بعيد، فأمرهم أن يوسعوا لغيرهم ليتساوى الناس في الحظ منه، ويظهر فضيلة المقربين إليه من أهل بدر والحفاظ وغيرهم ﴿يفسح الله لكم﴾ أي يوسع عليكم في الدنيا والآخرة، وكل من وسّع على عباد الله أبواب الخير وسّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ﴿وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا﴾ والنشوز هو الارتفاع، قيل انهضوا من مجالسكم للتوسعة أو الصلاة أو الجهاد أو عمل الخير.

القـــراءة

﴿في المجالس﴾ قرأ عاصم ﴿في المجالس﴾ بالألف وقرأ الباقون ﴿في المجلس﴾ على الإفراد.

﴿انشزوا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بكسر الشين فيهما.

ولما كان الباعث للمسلمين على القرب من رسول الله هو الرغبة في مزيد من العلم بين الله منزلته بقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ أي يرفعهم درجات في الآخرة، والكرامة في الدنيا فيرفع الله المؤمن على غير المؤمن، ويرفع العالم على غير العالم.

آداب مناجاة الرسول

ثم أمر الله تعالى عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام فقال:

١٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ المعنى: إذا أردتم مسارّة الرسول في أمر من أموركم فقدموا قبل مساررتكم له صدقة تصدقوا بها على الفقراء، أنزل الله هذه الآية فانتهى أهل الباطل عن النجوى المتكررة ليعرفوا بأن لهم حظوة عند الرسول ﷺ، فعرف المخلصون من الآية أن المقصود ليس الصدقة بذاتها، وإنما المقصود التخفيف على النبي ﷺ، ولكي لا يشغل وقته الذي يجب أن يكون موزعاً على ما تقتضيه المصلحة العامة، وكان النبي يؤذيه ذلك، ولكن يغلبه الحياء عن صد الناس عنه، ولأنه لا يأخذ الصدقات وإنما هي للفقراء.

وحين تم ذلك للنبي وخف الضغط عليه بدليل أنه لم يتقدم أحد بصدقة خوفاً من مضايقة النبي إلّا علي بن أبي طالب وحده، خفف الله ذلك عن المؤمنين فقال ﴿فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي يعفي من كان منهم لا يجد تلك الصدقة فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة، فدل ذلك على التخيير وليس الوجوب، وعلى التخفيف، والقول بالنسخ لا يتفق من تعبير الآية بالصدقة، فالصدقة ليست واجبة بل هي على التخيير كما لا يصح النسخ في القول بالتخفيف، والآية التالية توضح الأمر بجلاء حيث يقول الله عزّ وجل:

١٣ ـ ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ والمعنى: هل شق عليكم وخشيتم أن المراد منع مناجاتكم لرسول الله، ولذلك امتنعتم من تقديم الصدقات، حتى لم يتقدم أحد ﴿فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم﴾ هذا المعنى المتقدم هو الذي يفهم من الآية، وليس ما قيل أن الصحابة خشوا الفقر فامتنعوا من تقديم الصدقة، فذلك لا يتناسب مع مقام كبار الصحابة وفضلائهم، وورعهم وعلمهم وقربهم من رسول الله، والمعنى: تاب الله عليكم بظنكم واستنتاجكم منع المناجاة كلية، ورخص لكم وخفف عنكم فيها، ثم أمرهم بالتقيد بفروض الدين بقوله: ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾ أطيعوا الله ورسوله في جميع الأوامر الصادرة منهما، والله خبير بما تعملون فيجازيكم.

النهي عن موالاة الكفار

ثم أنكر الله تعالى على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين فقال:

١٤ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

ألم تر نزلت في المنافقين الذين يوالون اليهود وهم المغضوب عليهم ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ المنافقون ليسوا من المسلمين ولا من اليهود ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ يحلفون كذباً بأنهم لم يشتموا رسول الله وصحابته ولكن القرآن فضحهم ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون في حلفهم وما يستحون، وكشفهم من إعجاز نبوة الرسول ﷺ في القرآن وصدقه.

١٥ ـ ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

بسبب هذا التولي والحلف على الباطل.

وغاية حلف هؤلاء المنافقين يبينها القرآن فيقول:

١٦ ـ ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي سترة يتقون بها القتل والأيمان جمع يمين وهو القسم، والحلف بالله والمعنى: استتروا بالحلف، فكلما ظهر لهم شيء يوجب معاقبتهم حلفوا كاذبين ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ أي منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم.

ويبين الله مصير هؤلاء المنافقين بقوله:

١٧ ـ ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

أي لن تغني عنهم من عذابه شيئاً من الإغناء.

ثم يصورهم الله يوم القيامة حيث تفتضح حقيقتهم فيقول:

١٨ ـ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾.

﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾ يحلفون لله في الآخرة أنهم كانوا مؤمنين، كما حلفوا لأوليائهم في الدنيا، ويحسبون أنهم في الآخرة بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً، أو يدفع ضرراً، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ البالغون فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه.

ويكشف الله عن سبب سلوك المنافقين فيقول:

١٩ ـ ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ غلب عليهم وحاذاهم وأحاط بهم ﴿فأنساهم ذكر الله﴾ أي فتركوا أوامره والعمل بطاعته، وحزب الشيطان: أتباعه وأنصاره الذين اتخذوا الشر طريقاً لهم.

ثم ينتقل القرآن إلى كشف مصير هؤلاء المنافقين فيقول:

٢٠ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾.

٢١ ـ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين﴾ المحادة: المشاقة والمعاداة لشرع الله، وهؤلاء جعلهم من جملة من كتب الله عليهم الذلة والشقاء في الدنيا والآخرة، لأن العزة والنصرة للذين يسيرون على هدى الله وينصرون دينه، والنصر دائماً لدين الله كما قال الله سبحانه: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ قال المفسرون: من بعث من الرسل بالجهاد فعاقبة الأمر له، ومن لم يبعث بالجهاد فهو غالب بالحجة ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي مانع حزبه من أن يذل.

القـــــراءة

﴿أنا ورسلي﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الياء ﴿رسليَ﴾.

وأخيراً يختم الله السورة بالثناء على المؤمنين فيقول:

٢٢ - ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

أي لا ينبغي للمؤمنين بالله واليوم الآخر أن يحبوا ويصادقوا الذين يعادون الله ورسله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم نسباً، فإن ذلك يقدح في صحة الإيمان ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ أولئك الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله أثبت في قلوبهم الإيمان ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي فوافاهم بنصر منه، وثبتهم على عدوهم في الدنيا، وسمى تثبيته لهم ونصره روحاً لأن به يحيا أمرهم.

سورة الحشر

وتسمى سورة بني النضير، وسميت بالحشر لحشر بني النضير وإخراجهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم الله سورة المجادلة بذكر حزب الشيطان وحزب الله افتتح هذه السورة بقهره حزب الشيطان وما نالهم بالجلاء من الخزي والهوان، ونصرة حزبه من أهل الإيمان فقال:

١ - ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

نزه الله عما لا يليق به، ومجده كل ما في السماوات والأرض مما لا يعقل، وهو القوي الغالب لكل شيء، الحكيم في أفعاله.

٢ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

قصة بني النضير

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ أهل الكتاب هم اليهود بني النضير، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم، ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، فأجلاهم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وديارهم أي منازلهم، والحشر: جمعهم وطردهم، فكان جلاؤهم أول حشر لهم من المدينة، ﴿ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ ما ظننتم أيها المؤمنون في البداية أن يخرجوا من منازلهم لعزهم ومنعتهم، وحصونهم القوية، وظنوا هم كذلك أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ حيث أخبر نبيه بالوحي عن غدرهم فقاتلهم النبي حتى نزلوا على الجلاء عن المدينة ﴿وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ يخربون بيوتهم، فيهدمونها ويحلون ما يوافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر فذهب بعضهم إلى خيبر، وأذرعات، وبعضهم إلى الشام ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ الاعتبار: النظر في الأمور، ليعرف بها شيء آخر من جنسها، والأبصار: العقول، والمعنى: تدبروا ما نزل بهم.

القـــــراءة

﴿يخربون﴾ قرأ أبو عمرو ﴿يخرّبون﴾ بالتشديد.

٣ ـ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾.

أي لولا أن كتب الله عليهم الخروج من منازلهم على ذلك الوجه، وقضى به عليهم، لعذّبهم بالقتل والأسر في الدنيا كما فعل بآخرين، ودلت الآية على جواز مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير سبي ولا جزية، ولا دخول في ذمة، وذلك حسب مقتضيات الأحوال وما تفرضه المصلحة العامة، وهذا من السياسة الشرعية.

٤ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

ذلك الذي أصابهم بسبب أنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾ تهديد للكفار وغيرهم من أهل الكتاب.

٥ ـ ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

أخرج البخاري ومسلم أن سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع بعضها لإغاظتهم وقالوا يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح عقر الشجر، وقطع النخل؟ وهل وجدت فيما أنزل عليك الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ووجد المسلمون في أنفسهم شيئاً، فنزلت الآية وأخبر الله أن قطعه وتركه بإذن الله، واللينة هي النخلة، والذي قطعوه وأحرقوه لا يتجاوز ست نخلات.

ما هو الفيء وما حكمه؟

وبعد جلاء اليهود يقر الله حكم الفيء وهي الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بلا قتال فيقول:

٦ ـ ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ الفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بني النضير، وهذا معنى قوله ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ قال ابن قتيبة: وجف الفرس والبعير، وأوجفته ومثله الإيضاع وهو الإسراع في السير، قال الزجاج: ومعنى الآية: أنه لا شيء لكم في هذا، إنما هو لرسول الله ﷺ خاصة، يفعل فيه ما يشاء فقسمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منه شيئاً، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة.

ثم شرع في بيان مصارف الفيء فقال:

٧ ـ ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح بغير قتال، بل صلحاً، وهنا بيان لمصارف الفيء بعد بيان أنه لرسول الله ﷺ خاصة دون المقاتلين وأفراد الجيش، يقسم على الوجوه التالية:

﴿لله﴾ يصرف فيما يرضيه سبحانه من مصالح الدين العامة كالدعوة إلى الإسلام وغيره.

﴿وللرسول﴾ يأخذ كفايته من مال الفيء له ولعياله بصفته إمام المسلمين، وبعد وفاته تصرف على المصالح العامة.

﴿ولذي القربى﴾ وهم أقارب الرسول في عهده وهم المحتاجون الذين لا تجوز عليهم الصدقة، وكل من يعطى من خزانة الدولة ما يكفيه، لا يجوز صرف شيء له من الفيء.

﴿واليتامى﴾ جمع يتيم وهو من فقد أباه دون البلوغ، وكان غير قادر على الكسب.

﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو السائل الفقير، والذي لا مال له يكفيه.

﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر المنقطع الذي لا يجد ما لا يوصله إلى بلده، وفي ذلك تتجلى معاني العدالة والإنسانية، وإذا وضع الفيء في بيت مال المسلمين، ونال هؤلاء ما يستحقونه فإن الغرض قد يتحقق من الآية، والقرآن قد علل الحكمة من القسمة على هؤلاء فقال ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ الدولة: بالضم: اسم للشيء يتداوله القوم، وبالفتح الفعل والانتقال من حال إلى حال، والمعنى: ذكرنا هؤلاء في الآية لكي لا تقسم على الجميع فيأخذ الأغنياء والموسعون، النصيب الأكبر يتداول بينهم بالتجارة والمعاملات ولا يبقى ما يقسم على الفقراء ومن في حكمهم إلا القليل، والقرآن يهدف من وراء إيراد هذه الآية الإشارة إلى قاعدة مهمة في الإسلام وهي توظيف المال للخدمة، متداولاً بين أفراد الشعب عامة.

فكل النظم السياسية المعاصرة التي قامت في العالم، وعملت للحد من طغيان رأس المال، قد سبقها الإسلام إليها، وقرر أصولها بهذه القاعدة الجليلة، ولكنه فاقها باحترام الملكية الفردية، ومراعاة العدالة، والتوازن بتقرير الزكاة وتحريم الربا والاحتكار، وعدم إثارة الصراع الطبقي بين أفراد المجتمع.

وبعد ذلك يأمر الله المسلمين بطاعة رسوله محمد ﷺ فيقول: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، ومن ضمنها مسألة تقسيم الفيء، وقال الشوكاني: والحق أن هذه الآية عامة في كل شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر أو نهي أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً.

ثم يبدأ بعض ما أجمل سابقاً فبين من المساكين الذين لهم الحق فقال:

٨ ـ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾.

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ يعني بهم المهاجرين الذين أخرجوا من مكة

فخرجوا، ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي رزقاً يأتيهم، ورضى ربهم حين خرجوا إلى دار الهجرة وهي المدينة ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ بالجهاد ﴿أولئك هم الصادقون﴾ في إيمانهم.

إيثار الأنصار

ثم أثنى على الأنصار حين طابت نفوسهم عن الفيء فقال:

٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ هم الأنصار سكنوا المدينة قبل المهاجرين، وآمنوا بالله ورسوله ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم في أموالهم ومساكنهم ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي لا يجد هؤلاء الأنصار في قلوبهم حسداً لهؤلاء المهاجرين الذين خصّهم النبي ﷺ بأموال الفيء دونهم، ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ بين الله أن إيثار الأنصار والمهاجرين بأموالهم ومساكنهم لم يكن عن غنى، وأنهم أعطوا رغم حاجتهم لما أعطوه ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من كفاه الله حرص نفسه، وبخلها فأدى ما أوجبه الشرع عليه في مال زكاة أو حق فقد فاز ونجح، ولم يفز من بخل بذلك وشحت به نفسه، قال ابن جرير: الشح في كلام العرب هو منع الفضل من المال.

ثم ثلث سبحانه بوصف التابعين فقال:

١٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون﴾ يعني التابعين يقولون ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾ معنى الغل قد مر في سورة الأعراف الآية (٤٣) وسورة الحجر الآية (٤٧) وهو الحسد والعدواة.

هكذا المنافقون واليهود

ثم عجب من أحوال أهل النفاق فقال:

١١ ـ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ هذا لون آخر من ألوان العداء

من المنافقين للنبي وصحبه، وقد فضحهم الله وكشفهم حيث يقولون لإخوانهم في الدين لأنهم كفار مثلهم، وهم اليهود، ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم﴾ أي لئن صدر قرار بإخراجكم من دياركم، لنخرجن معكم في صحبتكم احتجاجاً ومؤازرة لكم، ﴿ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي ولا نسمع كلمة أحد يريد أن يمنعنا من ذلك ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ على من يقاتلكم ثم أكذبهم الله في ذلك بقوله ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ كذبوا وما صدقوا لكي لا ينكشفوا للمؤمنين، فالمنافقون دائماً هكذا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم حتى مع أقرب الناس إليهم.

ثم يخبر القرآن بنكثهم العهد على التفصيل فيقول:

١٢ ـ ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

كان الأمر كما ذكر القرآن، لأن اليهود أخرجوا بالفعل من المدينة فلم يخرج معهم المنافقون، وقوتلوا في مواضع أخرى في بني قريظة وخيبر، فلم ينصروهم، ومعنى ﴿ولئن نصروهم﴾ لئن قدر وجود نصرهم، لأن الله نفى نصرهم ﴿ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ أي لا يصير المنافقون منصورين بعد ذلك بل يذلهم الله ولا ينفعهم نفاقهم، وفي الآية إعجاز على صدق القرآن ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام بالإخبار بما في الغيب الذي تحقق.

ثم بين الحكمة في الغزو فقال:

١٣ ـ ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

أي المنافقون يرهبون المؤمنين أشد ما يرهبون الله، ولو خافوا اللّه لم يرهبوا أحداً من عباده، ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لا يتعمقون في البحث واستعمال العقل، فيعرفوا أن الخالق أحق بالرهبة من عباده.

ثم يبين القرآن حقيقة في اليهود فيقول:

١٤ ـ ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة﴾ أي لا يبرزون بمقاتليهم وجهاً لوجه بل من خلف أسوار الحصون كحرب العصابات ﴿أو من وراء جدر﴾ أي من خلف الحيطان والدور التي يستقوون بها كمتاريس، وذلك لشدة رهبتهم منكم، لأن الرسول ﷺ نصره الله بالرعب في مواطن كثيرة وهي من خصائصه ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ عداوتهم أو قوتهم وشجاعتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾[1]، ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي تظن هؤلاء اليهود والمنافقين قلوبهم مؤتلفة مجتمعة، ولكن

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

في الحقيقة هي متفرقة ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ هذا بيان لسبب تشتت القلوب، وتشعب الميول المؤدي للضعف والضياع والهزيمة.

القـــراءة

﴿أو من وراء جدر﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿من وراء جدار﴾ بالألف.

ثم شبّه حال اليهود بحال من قتلوا قبلهم ببدر في زمان قريب فقال:

١٥ ـ ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

والمعنى: مثل هؤلاء اليهود كمثل كفار المشركين الذين أصابهم ما أصابهم يوم بدر وغيرهم كبني قينقاع.

ثم ضرب مثلاً آخر لإغراء المنافقين لليهود على القتال ووعدهم إياهم بالنصر فقال:

١٦ ـ ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي مثلهم في تخاذلهم وعدم تناصرهم كمثل الشيطان للإنسان أغراه بالكفر، وزينه وحمله عليه ﴿فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان وقبولاً لتزيينه، قال الشيطان: إني بريء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة، ويقول ذلك على وجه التبري، وأما ما روي من قصة العابد «برصيص» الذي قيل إنّه زينت له امرأة فوقع عليها، ثم حملت فقتلها، وفي السجن جاءه الشيطان وقال له اسجد لي وأنا أخلصك فسجد له، فقال هذا الذي أردت، صارت عاقبة أمرك أن سجدت، فأنزل الله الآية، أقول: إن ذلك من الإسرائيليات التي لا صحة لها عن رسول الله ﷺ.

موجبات التقوى

١٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ إن الإنسان بعد ما أمر بتقواه وهي أن التقوى تشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر، أمرَ الله بأن يحاسب كل إنسان نفسه قبل أن يحاسب يوم القيامة، ولتنظر كل نفس ما قدمت من الأعمال ليوم القيامة ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ تأكيد ثان للتقوى والحرص عليها ثم اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية.

١٩ ـ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ هذا نهي من الله بالتمثل بالذين تركوا أمره، ولم يخافوه فجعلهم ناسين العمل الصالح، وذلك بسبب نسيانهم لله، ومن لم يؤمن بالله ولم يعتقد بربوبيته وخيره وشره وبعثه وجزائه، فليس للعمل الصالح مكان في نفسه، لأن العمل الصالح يجب أن يستند إلى قاعدة صحيحة وعقيدة سليمة، فصرف الله الكفار المعاندين الضالين عن الهدى لاختيارهم في الأصل الشر، ولو أنهم اختاروا الخير وذكروا الله لذكرهم وهداهم، قال الله في سورة البقرة: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[1]، ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ هؤلاء علاوة على كفرهم يفسقون في الدنيا ويرتكبون المعاصي، ويخرجون عن طاعة الله.

وحين نهى المؤمنين عن كونهم مثل الناسين الغافلين ذكرهم بأنه لا استواء بين الفريقين فقال:

٢٠ ـ ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

أي لا يستوي من ذكر الله وعبده ورعاه وأطاعه، والذي نسيه وكفر به وعصاه فالأول في الجنة والآخر في النار.

ثم يضرب الله مثلاً على عظم شأن القرآن فيقول:

٢١ ـ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً﴾ أي لو أن الله أنزل هذا القرآن على شيء عظيم كالجبل مثلاً، وألهمه عقلاً وفهماً وتدبراً لمعاني القرآن، مثل ما أعطى الله بني آدم لخضع وتشقق من خشية الله، فكيف لا تلين قلوب البشر عند سماع آيات الله ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ هذا وغيره من الأمثال نضربها في القرآن لتتفكروا فيما يجب عليكم التفكر فيه، لتتعظوا بالمواعظ وتنزجروا بالزواجر.

ثم أخبر بعظمته وربوبيته خاتماً السورة بذكر بعض أسمائه الحسنى فيقول:

٢٢ ـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾ أي عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر.

---

(١) الآية: ١٥٢.

﴿هو الرحمن الرحيم﴾

﴿الملك﴾ المالك لجميع الأشياء والمتصرف فيها.

﴿القدوس﴾ الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص.

﴿السلام﴾ الذي سلم من كل نقص وعيب.

﴿المؤمن﴾ الذي وهب لعباده الأمن من الظلم.

﴿المهيمن﴾ الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم.

﴿العزيز﴾ القاهر الغالب غير المغلوب.

﴿الجبار﴾ جبروت الله عظمته.

﴿المتكبر﴾ الذي تكبر عن كل نقص، وتعاظم عما لا يليق به، والكبر من صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم.

﴿الخالق﴾ المقدر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته.

﴿البارىء﴾ المنشىء المخترع للأشياء الموجد لها.

﴿المصوّر﴾ الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة كيف يشاء.

﴿له الأسماء الحسنى﴾ وهي تسع وتسعون اسماً سبق بيانها في الأعراف الآية (١٨٠).

سُورَةُ المُمْتَحِنَة

سورة الممتحنة سميت لامتحان المؤمنات المهاجرات وتسمى سورة المودة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما ذكر سبحانه في سورة الحشر الكفار والمنافقين، افتتح هذه السورة بذكر تحريم موالاتهم وإيجاب معاداتهم فقال:

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ
ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم
بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

هذه الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة حين كتب إلى مشركي قريش سراً يخبرهم بمسيرة النبي ﷺ، وذلك في غزوة فتح مكة سنة ثمان هجرية خوفاً على أهله في مكة أن ينالهم سوء، وكان ذلك اجتهاداً منه عن حسن نية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ والآية تدل على النهي العام عن موالاة الكفار بوجه من الوجوه، فيبلغونهم أسرار المسلمين بسبب ما بينهم وبين الكفار من مودة ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ أي حالة كونهم كفاراً بالحق وهو القرآن ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ أخرجوا الرسول ﷺ من مكة، وأخرجوا صحابته، بأن اضطروهم للهجرة بسبب المضايقة ﴿أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله ربكم الواحد الأحد، ثم يستثير الله حمية المؤمنين بقوله ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ هذا شرط جوابه محذوف، لدلالة ما قبله عليه، والمعنى إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴿تسرون إليهم بالمودة﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي كيف يستسرون بمودتكم لهم مني وأنا أعلم بما تضمرون وما تظهرون؟ ﴿ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾ أي ومن يفعل شيئاً من ذلك بأن يصادق أعداء الله لأي غرض ويُفْشي أسرار المسلمين، فقد حاد عن الطريق السوي والهدى والحق.

ثم يكشف القرآن حقيقة الكفار وما تنطوي عليه نفوسهم نحو المؤمنين فيقول:

٢ ـ ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء﴾ أي إن يظفر بكم الكفار أو يصادفوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من

العداوة ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل ونحوه، ويبسطوا إليكم ألسنتهم بالسبّ والشتم، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ فترجعوا إلى دينهم، والمعنى: لا ينفعكم التقرب إليهم.

ثم بين خطأ رأيهم بوجه آخر وهو أن المودة إذا لم تكن في الله لم تنفع في القيامة لانفصال كل اتصال يومئذ فقال:

٣ ـ ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

أي أن أولادكم وأقاربكم لن ينفعوكم يوم القيامة، حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار، ويوم القيامة يفرق بينكم فيدخل أهل الطاعة الجنة والعاصون النار، ومن هذه الآيات يستنتج بأنه لا تباح التقية في حالة الخوف على المال والولد، كما تباح في حالة الخوف على النفس. كما بينا ذلك بالتفصيل في سورة آل عمران الآية: (٢٨).

القـــراءة

﴿يفصل﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبوعمرو ﴿يُفْصَلُ﴾ برفع الياء وتسكين الفاء، ونصب الصاد على ما لم يسم فاعله، قرأ عاصم ﴿يَفصِل﴾ بفتح الياء وكسر الصاد، وقرأ حمزة والكسائي ﴿يُفصّل﴾ بضم الياء وكسر الصاد والتشديد، وقرأ ابن عامر ﴿يفصل﴾ بفتح الصاد مع التشديد.

ثم ذكر وجوب البغض في الله وإن كان أخاه أو أباه أسوة في إبراهيم عليه السلام فقال:

٤ ـ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ أي خصلة حميدة تقتدون بها، فهلا تأسيتم بإبراهيم والذين معه ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ أي كفرنا بما آمنتم به من الأوثان، أو بدينكم أو بأفعالكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلّا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ تأسوا بإبراهيم إلّا في استغفاره لأبيه فلا تأسوا به في ذلك، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، عن وعد قطعه له أبوه بأن يؤمن، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يستغفرون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، ويقولون إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله قوله في سورة التوبة ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنّه عدو لله تبرأ منه إنّ إبراهيم لأواه حليم﴾[1]، ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ أي ما أدفع عنك عذاب الله إن أشركت به، وكان

(١) الآيتان: ١١٣ ـ ١١٤.

من دعاء إبراهيم وأصحابه ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾.

ومن جملة دعاء إبراهيم ومن معه:

٥ ـ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

قال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

ثم كرر الدعوة إلى القدوة بإبراهيم ومن معه زيادة في الحث على الاقتداء بهم فقال:

٦ ـ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ أي أن هذه الأسوة لا تكون إلّا لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا وفي الآخرة ﴿ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ أي يعرض عن الإيمان ويوال الكفار، فإن الله غني عنه وليس في حاجة إليه، ولا تضره معصيته ولا توليه.

بعد هذه الآية تبرأ كثير من المسلمين من قومهم وأقاربهم، وأظهروا لهم العداء، لكن ذلك ترك انطباعاً مؤلماً عند بعض المسلمين، وتمنوا لو وجدوا مخرجاً، فأطمع المؤمنين فيما تمنوا من عداوة أقاربهم بالمودة فقال:

٧ ـ ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿عسى﴾ كلمة تفيد الرجاء لحصـول ما بعدها، وكونها من الله عزّ وجلّ محصول ما بعدها محقق الوقوع، فهي بمثابة البشارة، وقد تحقق هذا الوعد الإلهي بفتح مكة، وأسلم الكثير من المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً فتصافت القلوب على الإيمان، والتقى كل قريب مع قريبه، وكل حبيب مع حبيبه، ﴿والله قدير﴾ على تبديل المودة مكان العداء ﴿وغفور رحيم﴾ بعد ما أسلموا وتابوا.

وبعد هذا يرسم الله للمسلمين علاقاتهم مع المخالفين في الدين فيقول:

٨ ـ ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾.

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم﴾ في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك»[1] والآية عامة أي معاملة جميع الكفار، وقال المفسرون هذه رخصة في صلة الذين لم ينصبوا الحرب للمسلمين، وجواز برهم، وإن كانت الموالاة منقطعة منهم ﴿أي تبروهم وتقسطوا إليهم﴾ أي تعاملوهم بالعدل فيما بينكم وبينهم، وهذا من عدالة الإسلام واحترام حقوق الإنسان.

---

(١) رواه البخاري ومسلم في كتاب الجزية والأدب.

ثم بين من يستحق العداوة والمقاومة من الكفار فقال:

٩ - ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ أي أما الذين يقاتلون المسلمين بسبب دينهم، ويخرجونهم من ديارهم ويعاونون أعداءهم على إخراجهم، فالإسلام ينهى عن مصادقتهم ونصرتهم ﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون.

المهاجرات من النساء ومبايعتهن

١٠ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ قال ابن عباس: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة ردّه إليهم، ومن أتى مكة من أصحابه فهو لهم لا يردونه، فلما هاجر إليه النساء المؤمنات من مكة نزلت هذه الآية ﴿فامتحنوهن﴾ أي اختبروهن لتعلموا مدى رغبتهن في الإسلام، ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ أي إن هذا الإمتحان لكم، والله أعلم بهن ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ وذلك يعلم بإقرارهن فحينئذ لا يحل ردهن إلى الكفار، لأن الله تعالى لم يبح مؤمنة لمشرك، وقال ابن كثير: إن صلح الحديبية الذي وقع بين الرسول وبين المشركين لم يتضمن النساء فكان فيه: على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا، وفي رواية: على أن لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا قال: وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، والزهري، ومقاتل بن حيان، والسدي، قال فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة.

أقول وما دام الأمر كذلك فلا حاجة للقول بالنسخ، والتعارض بين ما جاء في الكتاب والسنة.

﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ فالمؤمنة لا تحل للكافر، وإسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها بيد الحاكم على الفور، ولا تكفي هجرتها ﴿فآتوهم ما أنفقوا﴾ أي: وأعطوا أزواج هؤلاء اللاتي هاجرن وأسلمن مثل ما أنفقوا عليهن من المهور ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي لا إثم عليكم في الزواج من هؤلاء المؤمنات اللاتي تركن أزواجهن الكفار، بشرط المهر ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ هذا نهي عن إبقاء المشركة بعصمة الزوج المسلم ويجب مفارقتها والمعنى: أنها إذا كفرت فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن، وأصل العصمة الحبل، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه، واستثنى القرآن من

الكفار أهل الكتاب ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ إذا لحقت منكم امرأة بدار الكفر مرتدة فاطلبوا ما أنفقتم من المهر إذا لم يدفعوها إليكم، ومن حق الكفار أن يطلبوا مهر من لحقت منهم مؤمنة بدار الإسلام، والمعنى: عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم.

القـــراءة

﴿ولا تمسكوا﴾ قرأ أبو عمرو، ويعقوب ﴿ولا تُمسِّكوا﴾ بضم التاء وبالتشديد.

ثم يذكر حكم المرتدات عن الإسلام وحق أزواجهن باسترداد مهورهن فيقول:

١١ ـ ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم﴾ وإن ذهبت إحدى زوجاتكم ـ أيها المؤمنون ـ إلى الكفار مرتدة عن دينها، ولم يردوا إلى زوجها المسلم المهر الذي دفعه لها ﴿فعاقبتم﴾ أي غزوتم الكفار وحصلتم منهم على غنيمة فأعطوا حينئذ الذين ذهبت أزواجهم من أموال الغنيمة ـ أو الدولة ـ مثل ما أنفقوا على زوجاتهم المرتدات من المهور، تعويضاً لهم ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ أي وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون.

وبعد ذلك بين القرآن منزلة المرأة في الإسلام فيقول:

١٢ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ لما فتح الرسول ﷺ مكة جاءته النساء يبايعنه، وشرط في مبايعتهن الشروط المذكورة في الآية، فمن أقرت بهذه الشروط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً ولم تمس يده امرأة قط في المبايعة، والمبايعة عبارة عن المعاهدة، سميت بذلك تشبيهاً بالمعاوضة المالية، وأما ما ورد في بعض الأحاديث كما في البخاري وغيره، فمد يده من خارج البيت، ومددنا أيدينا من داخل البيت ثم قال «اللهم اشهد» فقبضت منا امرأة يدها فإنه يشعر بأنهن كن يبايعنه بأيديهن، فأجيب عنه أن مد الأيدي من وراء حجاب، وقبض اليد معناه التأخر عن المبايعة ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ أي لا يلحق بأزواجهن أولاداً غير أولادهم كذباً وبهتاناً كما كانت تفعل بعض النساء في الجاهلية، تقول الواحدة لزوجها هذا ولدي منك، وذكر القرآن الأيدي والأرجل لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والإحسان إلى الناس، وكل ما أمر به الدين، وما نهى عنه والتقيد بالمعروف مع أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلاّ به للتنبيه على أنه لا يجوز

طاعة مخلوق في معصية الخالق، وقد نهى الرسول ﷺ عن النياحة على الميت، وكان ذلك معروفاً في الجاهليه، منكراً في الإسلام، حيث قالت إحدى النسوة المبايعات يا رسول الله ما هذا المعروف الذي لا ينبغي أن نعصيك فيه؟ فقال ﷺ: «لا تنحن»[1].

ثم يختم الله هذه السورة بما بدأ به أولها من النهي عن مصادقة ونصرة الكفار فيقول:

١٣ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾.

﴿يا أيها الذين ءامنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ ينهى الله عن اتخاذ الكافرين ـ الذين غضب الله عليهم كاليهود ومن على شاكلتهم ـ أصدقاء، فهم ﴿يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ أي قد يئسوا أن يبعثوا كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث، والمعروف عن اليهود أن عقيدتهم أن من عاش حياته الدنيا سعيداً حراً هو الذي حصل على الجانب المادي من رضى آلهتهم، وأما الذي عاش تحت سلطان غيره، أو عاش في المنفى مشرداً، فهو من حقه أن يعود إلى الحياة مرة أخرى لينال نصيبه من المتعة، وهذا ما دعوا إليه بالعودة إلى فلسطين، وإقامة المملكة الداودية السياسية، وعندما حاولت فرقة الفريسيين القول بالمحاكمة يوم البعث لقيت معارضة شديدة، وسموا المنشقين المنعزلين وسموا أنفسهم بالأحبار أو الربانيين، وهؤلاء هم الفرقة التي كانت تدعي أن الجنة خاصة لليهود فقط دون غيرهم كما زعم النصارى فقالوا نفس القول حيث رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

---

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١ ـ ١١٢.

سورة الصف

سورة الصف سميت لورود كلمة الصف في أول السورة وتسمى سورة الحواريين وسورة عيسى عليه السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول يجب أن يصدقه العمل

لما ختم الله سبحانه السورة بقطع موالاة الكفار، افتتح هذه السورة بإيجاب ذلك ظاهراً وباطناً ثم بالأمر بالجهاد فقال:

١ ـ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

٢ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾.

٣ ـ ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾.

سبب نزولها ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام، قال قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملناه فأنزل الله ﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ إلى آخر السورة.[١] ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ فيه إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا ينفذه، والوفاء بالوعد من الإيمان والإسلام، وخلفه من علامات النفاق، ولهذا أكّد الله تعالى هذا الإنكار بقوله: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وحمل ابن جرير الطبري الآية على أنها نزلت في الذين تمنوا حب الأعمال حتى لو ذهبت فيه أموالهم وأنفسهم بما في ذلك الجهاد، فلما فرض نكل عنه بعضهم، وقال بعض المفسرين كان البعض يقول أكثر مما يفعل.

مقابلة الأعداء جبهة واحدة

٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾.

أعلم الله أنه يحب من يثبت في الجهاد، ويلزم مكانه كثبوت البنيان المرصوص، والثبوت يكون بالكلمة والقوة والنظام، وموالاة بعضهم بعضاً.

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وأقرّه الذهبي.

ذكر طرف من قصة موسى عليه السلام

ثم يذكر القرآن إلى ما يلقاه نبي الله موسى عليه السلام من قومه تثبيتاً لقلب النبي وتحذيراً للمؤمنين من سلوك مسلك اليهود مع نبيهم فيقول:

٥ - ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

﴿وإذ قال موسى لقومه لم تؤذونني﴾ لما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، قال الرسول ﷺ: «رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[١] وقد شرحنا ذلك في الأحزاب عند قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله ويجهاً﴾[٢]، ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، وأصروا على ذلك، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، جزاء بما ارتكبوا كما قال الله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[٣] وهذا من العذاب النفسي الذي أصاب الله به المنافقين من أمة محمد كما أصاب به اليهود من قبل، ولهذا قال ﴿والله لايهدي القوم الفاسقين﴾ لاختيارهم الفسق وإصرارهم عليه.

بشارة محمد في كتب النصارى

وبعد رسالة موسى أرسل الله عيسى ابن مريم رسولاً إلى بني إسرائيل فقال:

٦ - ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي إني رسول الله إليكم بالإنجيل، لم آتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على التبشير بي فكيف تنفرون عني وتخالفونني ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ أحمد اسم نبينا ﷺ، وتفسيره في الأصل الذي يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره، وهذه البشارة موجودة في كتب النصارى، فقد كان المسيح يعبر عن المبشر به بلفظ «فار قليط» فقد جاء في كتبهم «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فار قليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد»[٤]، وقد بدل الرهبان لفظ «فار قليط» في المطبوعات الأخيرة بلفظ (المعزى) ومعناها الذي له حمد كثير، ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ أي فلما جاء عيسى بالمعجزات قالوا: الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر، وهكذا قال المشركون للنبي ﷺ نفس الكلام كما قاله الأقوام السابقة لأنبيائهم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء.

(٢) الآية: ٦٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

(٤) الفصل الرابع عشر من إنجيل يوحنا: ١٦ - ١٧.

القـــراءة

﴿هذا سحر مبين﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿قالوا هذا ساحر مبين﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿سحر﴾.

٧ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ ومن أشد ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام والخضوع لله، فلا يجيب، بل إنه عكس القضية فجعل مكان إجابة النبي إلى الإسلام الذي فيه سعادة الدارين افتراء الكذب على الله وهو قولهم للمعجزات هي سحر لأن السحر كذب وتمويه.

ثم ذكر غرضهم فقال:

٨ ـ ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

أي يريدون الافتراء لأجل هذه الإرادة، واللام لتأكيد معنى الإضافة ﴿والله متم نوره﴾ والمعنى: إن حالهم في محاولتهم كبت الإسلام ومنع هدايته بأقوالهم الكاذبة كحال من يريد أن يطفىء النور العظيم بنفخ من فمه، ولكن الله يظهر دينه في الآفاق، رغم إرادة الكفار.

القـــراءة

﴿متم نوره﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ﴿متمٌ﴾ رفع منون ونصب راء ﴿نورَه﴾.

٩ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾.

الهدى هو دين الإسلام، وهو دين الحق، أنزله على نبيه محمد ﷺ ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي: ليعلو على الأديان كلها، وتكون له الغلبة على الباطل، ولقد علا الإسلام في زمان النبي وكانت له الغلبة الفعلية وبعد وفاته في بضع عشرة سنة، كانت الفتوحات العظيمة التي تمت على يد الصحابة، ولا شك أن تحقق هذا الوعد من أقوى الأدلة على صدق النبي محمد ﷺ.

التجارة الرابحة

ثم دل أهل الإيمان على التجارة الرابحة فقال:

١٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ، عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل، ليفعلوه فأنزل الله تعالى هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية.

القـــراءة

﴿تنجيكم﴾ قرأ ابن عامر ﴿تنجّيكم﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف.

ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور فقال:

١١ ـ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، ﴿ذلكم خير لكم﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم من أموالكم وأنفسكم.

١٢ ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ جواب قوله ﴿وتجاهدون﴾ فإنه قيل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم والمعنى: آمنوا بالله وجاهدوا، يغفر لكم، أي: إن فعلتم ذلك يغفر لكم.

١٣ ـ ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿أي ولكم مع هذه النعم الآجلة نعمة أخرى عاجلة تحبونها، وهو فتح مكة كما قال: ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾[1]. ثم يختم الله السورة بدعوة المسلمين إلى نصر دينه كما نصر الحواريون رسالة عيسى أيام كانت على التوحيد فيقول:

١٤ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

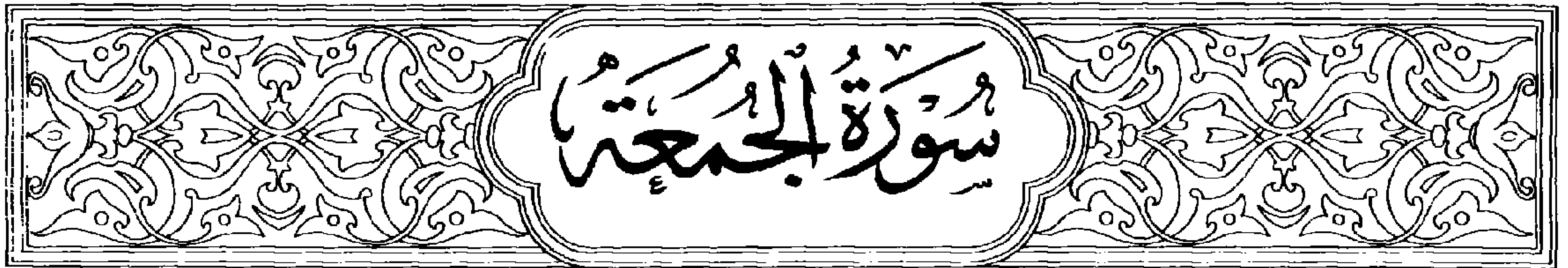
﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ أي دوموا على الدعوة كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله أي: انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لعيسى لما قال لهم ﴿من أنصاري إلى الله﴾ فقالوا ﴿نحن أنصار الله﴾ والحواريون هم أنصار المسيح، وخُلّص أصحابه وأول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ أي بعيسى عليه السلام.

القــــراءة

﴿أنصار الله﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿كونوا أنصاراً لله ﴾ منونة.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.



سورة الجمعة سميت لورود كلمة الجمعة في السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مسؤولية العرب في حمل الدعوة إلى الناس

لما ختم الله سبحانه سورة الصف بالترغيب في عبادته والدعاء إليها، وذكر تأييد المؤمنين بالنصر والظهور على الأعداء، افتتح هذه السورة ببيان قدرته على ذلك وعلى جميع الأشياء فقال:

١ ـ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٢ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الفائدة في ذكر التسبيح في أوائل السور لاستفتاح السور بتعظيم الله عز وجل، كما تستفتح بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وإذا جلّ المعنى في تعظيم الله، حسن الاستفتاح به.

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ يعني العرب وكان أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، ولأنهم لم يكونوا أهل كتاب نزل من قبل، ومعنى منهم: من أنفسهم ومن جنسهم، وذلك أقرب للموافقة ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ يعني القرآن، مع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلّم ذلك من أحد ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ يصلحهم ويطهرهم من الشرك والمعاصي، تطهيراً يشمل كل شيء في نظام حياتهم في أرواحهم ومعاملاتهم، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة، وهي سنة النبي ﷺ، وما حوته من الفقه والمواعظ والإرشادات، فأمية النبي آية على صدق رسالته، ودليل ناطق على أن القرآن وحي إلهي، حيث جعل من تلك الأمة الأمية الجاهلة أمة ذات ثقافة وحضارة وعلم ونهضة وتقدم ونظام في جميع شؤون حياتها، وذلك قوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ أي ضلال بين وهو الشرك.

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر حيث قال: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾[1] وهو ذكر لغيرهم، وهذا وأمثاله لا ينافي قوله

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[١] وقوله تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات، ولكن العرب ومن تعلم لغتهم أكثر من غيرهم مسؤولية لتحمل هذه الرسالة وتبليغها للناس لقوله تعالى في سورة البقرة ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[٣].

لما ذكر أنه أرسل رسوله من بين العرب وبعثه فيهم ليزكيهم ويطهرهم، أعقبه بذكر غير العرب لعموم الرسالة فقال:

٣ - ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

٤ - ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ أي وأرسل النبي محمداً ﷺ كذلك إلى آخرين غير العرب، ﴿ومنهم﴾ في الدين وفي الموعظة والدعوة، قال المفسرون هم من سوى العرب من الأمم والأجناس الأخرى، ومعنى لما يلحقوا بهم: أي لم يدركوا النبي ﷺ ولا صحابته، ولكن سيجيئون بعدهم وسيلحقون بهم باتباع الإسلام، وفي هذه الآية معجزة تضاف إلى إعجاز القرآن، وذلك بالإخبار عن أنباء غيبية ستقع، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام وهذا ما تحقق بعد سنين قلائل من موت النبي ﷺ ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ يعني الإسلام والهدى الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه عز.

ثم ينتقل القرآن إلى ذم اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة فيجعلهم مثلاً لمن بعدهم فيقول:

٥ - ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لليهود الذين تركوا العمل بالتوراة، أي كلفوا العمل بها، ولم يعملوا بموجبها ولا أطاعوا ما أمروا به فيها ﴿مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ جمع سفر والسفر الكتاب، فشبههم بالحمار إذ لم ينتفعوا بالتوراة، وهم يحملونها من مكان إلى مكان، وفيها دلالة على نبوة محمد، وهذا المثل يلحق من لم يعمل بالقرآن ولم يفهم معانيه ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ ذم مثلهم والمراد ذمهم، واليهود كذبوا بالقرآن وبالتوراة حين لم يؤمنوا بمحمد ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ والذين اختاروا الشر على الخير والكفر على الإيمان لا يجبرهم الله على الهداية بعد الضلال، ولا يهديهم للإسلام بعد أن تمكنوا من الكفر، وعاندوا وأصرّوا واستكبروا استكباراً، وصاروا لا يلدون إلّا فاجراً كفاراً، هؤلاء مبعدون من رحمة الله.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) الآية: ١٤٣.

وبعد هذا يرد الله على ادعاءات اليهود بأنهم أصفياء الله وأحباؤه من دون سائر الناس فيقول:

٦ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٧ ـ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الذين هادوا هم اليهود، كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أولى بالله من سائر الناس وإنما تكون النبوة فينا، فقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام قل لهم: ﴿إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ لأن الموت خير لأولياء الله من الدنيا، وفي الآية إشارة إلى أنانية اليهود فهم يريدون احتكار ولاية الله لهم كجنس مفضل مختار على حد زعمهم، وهو لا يمكن أن يصح، لأن الله هو رب العالمين، وليس رب اليهود فقط ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ وفي سورة البقرة ﴿ولن يتمنوه﴾[1] كلمة لا ولن كلتاهما للنفي، إلاّ أن لن أبلغ في نفي الاستقبال، وكانت دعواهم هناك في البقرة قاطعة بالغة، وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فخص الأبلغ بتلك السورة، ولا يتمنونه أبداً بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف لكتاب الله ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بأفعالهم وأحوالهم، ثم بين أن الموت الذي لا يجترؤون على تمنيه خيفة أن يؤاخذوا بما عملوا ﴿فإنه ملاقيكم﴾ أي هو آت إليكم من الجهة التي أنتم فارون إليها، وسيقابلكم وجهاً لوجه، ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

صلاة الجمعة

قال أهل النظم قد أبطل الله تعالى قول اليهود في ثلاث زعموا أنهم أولياء لله فكذبهم بقوله ﴿فتمنوا الموت﴾ وافتخروا بأنهم أهل الكتاب، والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً، وباهوا بالسبت، وأنه ليس للمسلمين مثله، فشرع لنا الجمعة فقال:

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) الآية: ٩٥.

﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ المراد به الأذان إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، لأنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ نداء سواه، أما الأذان الأول فقد زاده عثمان رضي الله عنه بمحضر الصحابة لما اتسعت المدينة، فكان المؤذن يؤذن على الزوراء: وهي موضع عند سور المدينة قرب المسجد، إيذاناً بقرب وقت الصلاة ليستعدوا لها.

ويوم الجمعة من أفضل الأيام، فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلّا أعطاه إياه، ويسن فيه الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، وكان يسمى يوم العروبة فسماه المسلمون يوم الجمعة، وكانت أول جمعة في الإسلام في المدينة صلاها الأنصار يجتمعون ويذكرون الله قبل أن تفرض وتنزل الآية، ﴿فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم﴾ أي فاعملوا على المضي إلى ذكر الله وهو الخطبة وصلاة الجمعة في المساجد الجامعة، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والوضوء والتوجه إليه، وذروا البيع أي اتركوا المعاملة به أي عند الأذان ووقت الصلاة، ويلحق به سائر المعاملات، فإذا أذن المؤذن يوم الجمعة لم يحل الشراء والبيع، والسعي إلى ذكر الله خير من فعل البيع لما في الامتثال من الأجر والجزاء، وهذا أدنى المطلوب للصلاة، وإلا فالأولى أن يستعد المرء قبل الأذان الثاني ويتهيأ ويسعى للمسجد، وكلما بكر كان أفضل، ويستحب لداخل المسجد أن يصلي تحية المسجد، وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن جابر رضي الله عنه قال: دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺيخطب فقال: «صليت» قال لا، قال: «فصل ركعتين» واختلف علماء الإسلام في فهم هذا الحديث فمنهم من فهم منه العموم بحيث تكون تحية المسجد حتى ولو كان الإمام على المنبر ومنهم من جعله خاصاً بالرجل المطالب بالصلاة ليراه الناس ويروا هيئته وفقره فيعطفوا عليه وهذا ما رآه مالك رضي الله عنه فحرم تحية المسجد والإمام يخطب لأن الإمام بفعله يحرّم الفعل وبكلامه يحرم الكلام والخطبة تشتمل على وعظ وارشادات واستدلال بالآيات القرآنية وربنا يقول ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾.

وتنعقد الجمعة في الحضر والقرى وكل مكان يقيم فيه الناس ولهم ثوابت دائمة وإقامة مستمرة لا تسمى سفراً، والعدد المطلوب اثنا عشر وهناك من يقول ثلاثة وهناك من يقول أربعون والإمام فما فوق من كل الآراء الثلاثة، وإذا وقع العيد يوم الجمعة أجزأ حضوره عن يوم الجمعة، ولا يجوز السفر يوم الجمعة وقت الزوال، ويجوز قبله أو بعده، ويكفي في الخطبة، الحمد، والصلاة على النبي وقراءة آية من القرآن، والموعظة، ولو اقتصر على كل ما يسمى ذكر الله مثل الحمد أو سبحان الله جاز، وهذا يشمل الخطبتين، وكذلك يكفي أن يخطب الإمام بسورة ﴿ق﴾ يقسمها على الخطبة فقد كان رسول الله يخطب بها أصحابه يوم الجمعة ﴿وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ إباحة لطلب الرزق بالتجارة بعد المنع ولا تنسوا في بيعكم وشرائكم أن تذكروه فتصح معاملتكم ويحسن تعاملكم.

١١ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق

معه إلا اثنا عشر رجلاً فنزلت الآية، أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، وكان من عادتهم إذا أقبلت القافلة تحمل المواد التجارية يضرب لها بالطبول، لتنبيه الناس إليها، وذلك أنهم أصابهم غلاء سعر وجوع، فلما سمعوا بها خرجوا إليها، وهذا معنى اللهو في الآية، وإلاّ فإن أصحاب النبي أبعد من أن يتركوه يخطب ثم يذهبوا إلى اللهو الماجن.



سورة المنافقون سميت لأنها تتحدث عن المنافقين بالتفصيل وتكشف دخائل نفوسهم وأسرارهم وتفضحهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المنافقون

لما ختم الله سورة الجمعة بما هو من علامات النفاق من ترك النبي ﷺ قائماً في الصلاة والاشتغال باللهو وطلب الارتفاق، افتتح هذه السورة بذكر المنافقين أيضاً فقال:

١ ـ ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿إذا جاءك المنافقون﴾ يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، وكانوا يبطنون العداوة والبغضاء للمسلمين ﴿قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ نقر ونعترف أنّك رسول الله ثم ابتدأ فقال ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ كاذبين لأنهم أضمروا غير ما أظهروا.

ثم بين أنهم يحتالون بكل قسم من أجل تصديق الناس لهم فيقول:

٢ ـ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي جعلوا حلفهم الذي حلفوا لكم به وقاية تقيهم منكم وسترة يستترون بها من القتل والأسر، والجنة هي الدرع التي يلبسها المقاتل، ولشعورهم بأنهم في حرب نفسية مع المسلمين وأنهم في حاجة إلى شيء يستترون به يكون من أدوات الحرب، فاختار القرآن تعبير الجنة، ليكون مطابقاً لما في نفوسهم، والأيمان جمع يمين وهو القسم ﴿فصدوا عن سبيل الله﴾ أي منعوا الناس عن الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة والقرآن والإسلام ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ من النفاق والصدّ.

ثم بين حقيقة نفاقهم فيقول:

٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا﴾ ذلك الكذب والقول بأنهم آمنوا نفاقاً ثم كفروا في الباطل ﴿فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي جعلها لا تفقه بسبب كفرهم فلا يدخلها الإيمان بعد ذلك، وذلك بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر والنفاق واختيارهم له، فلا حاجة بهم أن يكونوا مؤمنين في إرادة الله ومشيئته

فجعلهم كذلك وختم على قلوبهم فعاقبهم عقاباً نفسياً جزاء لما كسبوا.

ثم يصف الله بعض سمات المنافقين وتصرفاتهم كي لا ينخدع بها المؤمنون فيقول:

٤ ـ ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ يعني أن لهم أجساماً ومناظر، قال ابن عباس: كان عبد الله بن أبي جسيماً فصيحاً ذلق اللسان ـ أي فصيحاً بليغاً ـ فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله ومن المنافقين من تصغي إلى قولهم فتحسب أنّه حق ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ وصفهم الله بحسن الصورة، وإبانة المنطق، ثم أعلم أنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخشب، والمسندة: الممالة إلى الجدار، ثم عابهم بالجبن فقال ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ أي لا يسمعون صوتاً إلاّ ظنوا أنهم هم المعنيون بالنداء، لأنهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح، وأسرارهم قد انكشفت، وقد عرف حقيقة أمرهم لأنهم ﴿هم العدو﴾ الكامن داخل المجتمع الإسلامي، وهو أخطر من العدو الخارجي، فاحذرهم ولا تأمنهم على سرك، فهم عيون لأعدائك من الكفار ﴿قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾ لعنهم كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر.

القـــراءة

﴿خشب﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي بضم الخاء وتسكين الشين ﴿خشب﴾.

٥ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم﴾ أي حركوها استهزاءً بذلك ﴿ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾ يعرضون عن رسول الله ﷺ، ويستكبرون عن الإتيان إليه وسؤال الاستغفار منه، يرون أنفسهم أكبر من ذلك ويستحقرونها لو فعلوا.

القـــراءة

﴿لووا﴾ قرأ نافع والمفضل عن عاصم ويعقوب ﴿لووا﴾ بالتخفيف.

ثم ذكر سبحانه أن استغفار الرسول ﷺ لا ينفعهم فقال:

٦ ـ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ما داموا أنهم مطبوع على قلوبهم، وذلك بسبب إصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر، وما داموا كذلك لن يغفر الله لهم لأن الله ﴿لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الذين لا يتوبون.

ويكشف القرآن أسرار المنافقين ومخططاتهم فيقول:

٧ ـ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ يقول المنافقون للأنصار: لا تنفقوا على محمد وأصحابه، حتى تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم، وذلك لكي يعضهم الجوع بنابه، إنه تحريض على الحرب الاقتصادية والنفسية أثاروها ضد المسلمين وغالبيتهم من الفقراء المهاجرين، ولكن القرآن يسخر من خطتهم، ويملأ قلوب المؤمنين يقيناً بفشلها فيقول: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾ فهو سبحانه الرازق للناس، وخزائن الرزق بيده لا بيدهم، وهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ ذلك.

وبعد ذلك يرد الله على وعيد كبير المنافقين ويكشف أمره فيقول:

٨ ـ ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ أخرج الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال: «كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله بن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال فحلف عبد الله بن أبي إنه لم يكن شيء من ذلك، قال زيد فلامني قومي، وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال فأرسل إليّ النبي ﷺ فقال: إن الله أنزل عذرك وصدقك[1] قال: وأنزل الله هذه الآية ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا. . . ـ إلى قوله ـ ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وعنى بالأعز: نفسه ومن معه، وبالأذل: رسول الله ﷺ، وبالرجوع: رجوعهم من تلك الغزوة.

ولم يلبث هذا المنافق بعد هذه القصة إلّا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات، وتقدمت قصته في سورة التوبة.

بعض أسباب النفاق

٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ يحذر الله المؤمنين عن أخلاق المنافقين الذين ألهتهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، وهو فرائض الإسلام، من صلاة وطاعة وجهاد وغيرها ﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ أي ومن يتلهى بالدنيا وزينتها عن الدين فهو في الخسارة الفادحة.

(١) هذا الحديث رواه الجماعة وأقره الذهبي.

ثم أراد الله سبحانه أن يبين أنه لو علم أنكم تتوبون لجعل في أجلكم تأخيراً إلى وقت آخر ولكنه علم أنكم لا تتوبون فقال:

١٠ ـ ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

١١ ـ ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ يحثّ الله المسلمين على الإنفاق في سبيله ما دام الإنسان في صحة وعافية ينفق الزكاة المفروضة، والصدقة المطلوبة، قبل أن يدركه الموت فيقول وهو على فراش الموت وتظهر له علاماته ﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾ يعني بذلك الاستزادة في عمره ليتصدق ويزكي ﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾ أعمل من الصالحات ما يرضيك، وجزم أكن على موضع فأصدق، والمعنى: فأصدق وأكن.

القـــراءة

﴿أكن﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وأكون﴾ بالواو، ونصب النون عطفاً على ﴿فأصدق﴾.

﴿والله خبير بما تعملون﴾ قرأ أبو بكر[1] عن عاصم ﴿والله خبير بما يعملون﴾ بالياء.

---

(١) هو أبو بكر بن عياش الأسدي راوي عاصم تقدّمت ترجمته.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

تسمى سورة التغابن لورود كلمة التغابن في قوله تعالى ﴿ذلك يوم التغابن﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما ختم الله تعالى سورة المنافقين بذكر الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، افتتح هذه السورة ببيان حال المطيع والعاصي فقال:

١ ـ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي ينزّهه سبحانه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه عن كل نقص وعيب، وهذا التسبيح بنطق لا نفهمه ولا نفقهه، كما دل عليه قوله سبحانه في سورة الإسراء ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (١).

٢ ـ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

خلق الله الناس على الفطرة، وهي البراءة، ولكن قوماً اختاروا الكفر، وقوماً اختاروا الإيمان بالله، وهذا معنى فمنكم كافر ومنكم مؤمن، والكل قد اختار ما شاء بإذن الله لأن الله ترك لهم حرية الاختيار، وبإمكانه المنع من ذلك ﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية.

من مظاهر قدرته وعلمه

وينتقل القرآن بعد ذلك إلى بيان مظاهر قدرة الله عز وجل فيقول:

٣ ـ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾.

٤ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

إثبات البعث وتهديد الكفار

ثم هدد الكفار بحال الأمم الماضية فقال:

٥ ـ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

---

(١) الآية: ٤٤.

﴿ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود، يقول الله قد جاءكم خبرهم في القرآن وكيف دعتهم رسلهم إلى عبادة الله وحده، وكيف كان عاقبتهم إلى الهلاك، وكيف نجّى الله رسله والذين معهم، ألم تسمعوا بذلك ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ الوبال: الثقل والشدة، وهو ما أصيب به الأقوام السابقة من العذاب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ وذلك في الآخرة بالنار ليأخذ كل واحد مستحقه وجزاءه كاملاً من العذاب.

لما قرر سبحانه وبين لخلقه بأنهم آتيهم أخبار من مضى من الكفار وإهلاكهم، عقبه ببيان سبب هلاكهم فقال:

٦ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾.

﴿ذلك﴾ العذاب الذي أصابهم ﴿بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ فينكرون ويقولون ﴿أبشر يهدوننا﴾؟، متعجبين وكانوا يريدونهم ملائكة أو من جنس آخر غير جنسهم ﴿فكفروا وتولوا﴾ أعرضوا لهذا السبب.

ويتابع القرآن التأكيد على وقوع البعث فيقول:

٧ ـ ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾.

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ زعم من أفعال القلوب، والزعم ادعاء العلم مع ظهور أمارات خلافه، وكان ابن عمر يقول «زعموا» كناية عن الكذب، وكان مجاهد يكره أن يقول الرجل: زعم فلان، ثم يأمر الله نبيه أن يرد عليهم فيقول: ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾ أقسم لهم يا محمد بالله أنهم سيبعثون من قبورهم أحياء ذلك على الله يسير وسهل، وهناك أقسام مشابهة لهذه الآية في سورة يونس وسبأ.

٨ ـ ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.

﴿والنور الذي أنزلنا﴾ هو القرآن، وفيه بيان أمر البعث والحساب والجزاء.

وبعد هذا يبين القرآن مصير الناس في الآخرة فيقول:

٩ ـ ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ يوم منصوب بـ لتبعثن، ويوم الجمع هو يوم القيامة، وسمي بذلك لأن الله يجمع فيه الجن والإنس، وأهل السماوات، وأهل الأرض ﴿ذلك يوم التغابن﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، والتغابن مأخوذ من الغبن، وهو النقص في الثمن، يقال غبنت فلاناً إذا بعته أو شاريته بأقل من الحق، ولكن الغبن في الآخرة يختلف عنه في الدنيا فالله سبحانه ليس بظلام للعبيد، والتغابن في الآية المراد منه نقص حسنات العصاة والمذنبين الظلمة، وزيادة حسنات الصالحين المظلومين في الدنيا.

القـــــراءة

﴿يكفر. . . ويدخله﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿نكفر عنه سيئاته وندخله﴾ بالنون.

١٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

ذكر الله سبحانه حال السعداء وحال الأشقياء هاهنا لبيان ما تقدم من التغابن.

الصبر على الابتلاء من الإيمان

وبعد أن بين حقيقة الإيمان أعقبه واقع القضاء والقدر فقال:

١١ ـ ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله﴾ ما يصيب الإنسان من الابتلاءات والمصائب والمحن الفردية والجماعية التي ليس للإنسان فيها إرادة ولا قدرة فهي من الله عز وجل في الدائرة التي تسيطر عليه ولا يحاسب ولا يعاقب عليها، وعليه الصبر والإيمان بأن ذلك من قضاء الله وقدره، فمن صبر وشكر جزاه الله على صبره وإيمانه، ومن تضجر وتململ ويئس من رحمة الله لا ينال إلّا الأذى مما أصابه والمصائب امتحان من الله ليميز الخبيث من الطيب.

١٢ ـ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

١٣ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وعظ وإرشاد

ولما كان أكثر ميل الناس عن الطاعات والكمالات الحقيقيات، لأجل صرف الزمان في تهيئة أمور الأزواج، والأسباب المفضية إليهن، أو المعينة عليهن، ثم الأولاد الذين هم ثمرات الأفئدة وحياة القلوب وقرة العيون، بين سبحانه أن العاقل لا ينبغي أن يصرف كده في ذلك فقال:

١٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ من للتبعيض، أي ليسوا كلهم، وهذه الآية وإن كانت نزلت على سبب في الصحابة من أهل مكة الذين منعهم أولادهم وزوجاتهم من الهجرة للتفقه عند رسول الله في المدينة المنورة، إلّا أنها عامة في كل ما يحصل من الأزواج والأولاد لأهلهم من الفتنة، بمشاكلهم ومعاصيهم وجهلهم، فسلطان الزوجة ليس له حد على الزوج، فالمرأة بفتنتها للرجل وتأثيرها عليه، وكذلك حب الأولاد والتعلق بهم، وضياع وقت الرجل عن العمل الصالح، كل ذلك يصرف بعض المؤمنين عن واجباتهم نحو خالقهم وما أوجبه عليهم من أعمال صالحة نحو مجتمعهم.

ولذلك نبه على الحذر منهم، والمعنى: لا تطيعوهم في ذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾ ولما نبّه على الحذر من زلاتهم ووجوب التنبه إليهم، وعدم طاعتهم، بين أنه إذا بدر منهم شيء من ذلك، فلصلة الرحم بينكم أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا، وكرر كل ذلك، وهو بمعنى واحد لتأكيد تلك الصلة القوية، والعفو لا يكون عن المذنب إلاّ بعد الرجوع والاستقامة.

ثم يحذر من فتنة المال والولد فيقول:

١٥ ـ ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

أي بلاء وشغل واختبار، يقال فتن فلان بالمرأة، وشغف بها، أي أغرم بها.

وحين بين أن الأزواج والأولاد لا ينبغي أن يمنعوا المكلف من طاعة الله أنتج من ذلك الأمر بالتقوى بقدر الوسع والطاقة فقال:

١٦ ـ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ أي ما أطقتكم كما قال رسول الله ﷺ كما في الصحيحين «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[(١)] ثم أمرهم بالسمع والطاعة، ﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ وابذلوا مما رزقكم الله على أولادكم وأزواجكم وأقاربكم وعلى الفقراء والمساكين والمحتاجين في الدنيا، خيراً لأنفسكم: فإن خيره يعود عليكم وعلى مجتمعكم وأسرتكم في الدنيا، وثوابه في الآخرة لكم، نصب خير بمحذوف تقديره افعلوا أو ائتوا خيراً لكم ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي ومن وقاه الله من داء البخل فأنفق في سبيل الله وأبواب الخير فأولئك هم الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب.

وأخيراً يختم الله هذه السورة بالترغيب في فعل الخير عامة فيقول:

١٧ ـ ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

١٨ ـ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ جعل الله الإحسان للناس في الدنيا ومعاونتهم من مال الإنسان الذي أعطاه إياه رب العالمين بمثابة الإقراض لله، وإنما يقترض المحتاج، والله غني عن العالمين، وهذا الأسلوب فيه ترغيب للمحسنين، ﴿يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ فبعدما يزيد تلك الحسنة عدة مرات يغفر بها ذنوب المؤمن ويمن عليه بالحسنات ﴿والله شكور حليم﴾ وشكر الله هو زيادة الحسنات والرضى، ما أعظم هذا التعبير من الله العلي العظيم، الخالق يشكر المخلوق، والشكر لا يكون إلاّ من المتساويين بين الناس في الدنيا، وإذا أتى

(١) متفق عليه.

الشكر من الأعلى إلى الأدنى، كان إنعاماً ورضى، ولما كان الله سيد المنعمين ورب الشاكرين، كان شكره أكبر منهم وأجلّ، فعبر بصيغة المبالغة فعول فقال ﴿شكور حليم﴾ وحليم على من لم يشكره وعصاه، لم يعاجله بالعقوبة وأمهله حتى يتوب ويرجع فينال شكر الله عز وجل لأنه شكور غفور.

القــــراءة

﴿يضاعفه﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿يضعفه﴾.

سُورَةُ الطَّلاق

تسمى سورة الطلاق لأنها تتحدث عن الطلاق وأحكامه خاصة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أحكام تتعلق بالعدة والطلاق

لما نبه في آخر سورة التغابن على معاداة بعض الأزواج، والمعاداة كثيراً ما تفضي إلى الفراق بالطلاق، أرشد في هذه السورة إلى الطلاق السني فقال:

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾.

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ نادى النبي ﷺ تشريفاً له، ثم خاطبه مع أمته، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه فطلقوهن لعدتهن، والمراد زمان عدتهن وهو الطهر، وهذا للمدخول بها، لأن غير المدخول بها لا عدّة لها والطلاق الصحيح هو الطلاق السني أي حسب السنة أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، وذلك هو الطلاق للعدة، لأنها تعتد بذلك الطهر، وتقع العدة عقب الطلاق، فلا يطول عليها زمان العدة.

والطلاق البدعي: أن يقع في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، فهو واقع وصاحبه آثم، وأخرج البخاري ومسلم من حديث سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ، ثم قال «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها. فتلك العدة التي أمرها الله عز وجل، ﴿وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم﴾ أي احفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة وهي ثلاثة قروء، وفي إحصائها فوائد، منها: مراعاة زمان الرجعة، وأوان النفقة، والسكن، واتقوا الله فيما أمركم به ولا تضاروهن بالطلاق أو بإحصاء العدة وحسابها ﴿ولا تخرجوهن من بيوتهن﴾ أي التي كن فيها عند الطلاق ما دمن في العدة، وإضافة البيوت إليهن بيان كمال استحقاقهن للسكنى في مدة العدة، ونهى الزوجات عن الخروج فقال: ﴿ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلا إذا فعلن فاحشة الزنى، ﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ والمعنى: أن هذه الأحكام التي بينها لعباده هي حدوده التي حدّدها لهم، لا يحلّ لهم أن

يتجاوزوها إلى غيرها ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي لعلها إذا بقيت في بيتها أن يؤلف الله بين قلبيهما فيتراجعا، وفي الآية دليل على أن الطلاق واحدة بعد واحدة ولس ثلاثاً.

٢ ـ ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

٣ ـ ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾ أي إذا قاربن انقضاء أجل العدة راجعوهن بحسن معاشرة ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارة لهن، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، فيملكن نفوسهن ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ أشهدوا على الطلاق، أو المراجعة، قال عطاء[1]: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل، إلا أن يكون من عذر، ثم حث الشهود على الشهادة لوجه الله فقال: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أي اشهدوا بالحق، وأدوها على الصحة طلباً لمرضاة الله ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ الإشارة إلى ما مر من الإمساك أو الفراق بالمعروف، لا على وجه الضرار.

ثم حض على التقوى في كل باب ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق فقال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ أي ومن يتق الله ينجه من كل كرب في الدنيا والآخرة، بأن يشرح صدره ويعنه بالصبر والعزيمة، وهو عام في كل شيء فيجعل الله للتقي مخرجاً من كل ما يضيق عليه، ومن لا يتقي، يقع في كل شدة ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ يرزقه الله من حيث لا يأمل ولا يرجو، ويدخل في ذلك إذا اتقى الله في طلاقه وجرى في ذلك على السنة، رزقه الله أهلاً بدل أهله، ومن فرج عن مسلم كربة اتقى الله بها رزقه الله في تجارة أو بارك له في شيء أو ولد، ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حث على التقوى في هذه السورة ثلاث مرات بقوله ﴿ومن يتق الله﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ حث على التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى، الأولى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، الثانية: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ الثالثة: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ أي وقتاً ومقداراً، وهاتان الجملتان كل منهما بيان لوجوب التوكل عليه، لأنه إذا علم كونه قادراً على كل شيء وعلم أنه قد بين وعين لكل شيء حداً ومقداراً لم يبق إلّا التسليم والتفويض.

القـــراءة

﴿إن الله بالغ أمره﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وابن عمرو وحمزة والكسائي ﴿إن الله بالغٌ أمرَه﴾ بدون إضافة.

ثم شرع في بيان عدة النساء اللاتي لا يحضن فقال:

---

(١) هو عطاء بن أبي رباح أو محمد القرشي ولاء، المكي أحد الأعلام، حج سبعين حجة ومات سنة ١١٥ هـ.

٤ ـ ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ .

﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم﴾ وهن الكبار اللاتي قد انقطع حيضهن وأيسن منه ﴿إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن﴾ أي إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن لعدم الحيض لأن التي تحيض عدتها ثلاث حيضات، واللاتي ليس لهن حيض أي لم يأتي لها زمان الحيض، فعدة كل واحدة منهن ثلاثة أشهر، وهي تقارب الثلاثة قروء لأن النساء غالباً يحضن في كل شهر مرة، إلّا نادراً ما تطول ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ أي إن انتهاء عدتهن مرهـون بوضع الحمل، أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر لغير الحامل، وأما التي انقطع عنها الحيض لعارض، فإنها تمكث تسعة أشهر وذلك للتأكد من خلوها من الحمل ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ يسهل عليه أمره في الدنيا والآخرة.

٥ ـ ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ .

وحين كرر شرط التقوى كان لسائـل أن يسأل كيف يعمل بالتقوى في شأن المعتدات فقال:

٦ ـ ﴿ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴾ .

﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾ هذا بيان ما يجب للمطلقات من السكنى مدة العدة للرجعية، والوجد القدرة والمعنى: يقال افتقر فلان من بعد وجد، والمعنى: من سعتكم وطاقتكم ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ في المسكن أو النفقة، ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ أي أن الحامل لها النفقة والسكن حتى تنتهي عدتها بالوضع، ثم بين أمر الطفل قائلاً: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ أي إن أرضعن أولادكم بعد الولادة فأعطوهن نفقة حضانة ورضاع، ثم خاطب الآباء والأمهات جميعاً بقوله: ﴿وأتمروا بينكم بمعروف﴾ خطاب للأزواج والزوجات وأهليهم والمعنى: تشاوروا فيما بينكم بما هو معروف غير منكر، فلا تشطط المرأة على الزوج فيما تطلبه من أجرة الرضاع، ولا يقصر الزوج عن المقدار المستحق.

﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ أي وإن اختلفتم في أجر الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر الذي طلبته وأبت الأم أن ترضعه إلّا بالأجـر، لا بأس أن يستأجر له مرضعة أخرى ترضع الولد.

ثم تأتي الوصية الإلهية للأزواج بالإنفاق قدر الطاقة:

٧ ـ ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ .

﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ أمر أهل التوسعة أن يوسعوا على نسائهم المرضعات أولادهن على قدر سعتهـم، ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ ومن كان فقيراً ضيق الرزق فلينفق قدر استطاعته ﴿لا

يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ أي على قدر ما آتاه الله، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه، ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ بعد ضيق وشدة غنى وسعة.

وعد ووعيد

وينتقل القرآن إلى المعرضين عن الهدى، مبيناً ما أصاب غيرهم فيقول:

٨ ـ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾.

٩ ـ ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾.

١٠ ـ ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾.

١١ ـ ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾.

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ وكثير من أهل المدن السابقون عصوا فحاسبناهم في الدنيا وعذبناهم عذاباً مختلفاً نهايته الهلاك: فيا أولي العقول الراجحة من هذه الأمة أسلموا لله واتبعوا نبيه ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ يعني القرآن، ﴿رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات﴾ وبعثه رسولاً، ثم ذكر الغاية فقال ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ يخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

القــــراءة

﴿يدخله جنات﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿ندخله جنات﴾.

إخبار الله عن نفسه

ثم ختم السورة بالتوحيد الذي هو أجلّ المطالب فقال:

١٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾.

﴿ومن الأرض مثلهن﴾ يعني سبعاً من الأرضين غير أرضنا، لا يعلمها في الوقت الحاضر إلا الله، وجاء في الصحيحين «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين» وفي البخاري قول الرسول ﷺ: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن» ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ يتنزل قضاء الله وقدره ووحيه، وقال قتادة[1]: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه، خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه.

---

(١) هو قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي البصري الأعمى المفسّر، أحد الأئمة في حروف القرآن، وله اختيار، يضرب بحفظه المثل، توفي سنة ١١٧ هـ.

سورة التحريم

سورة التحريم سميت لورود كلمة ﴿لم تحرم﴾ في أول السورة وتسمى سورة النبي ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم

ما حدث من بعض زوجات النبي من خصومة

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

٢ ـ ﴿ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾.

٤ ـ ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾.

٥ ـ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾.

كانت حفصة بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر من زوجات النبي ﷺ ومن أمهات المؤمنين، وكانت حفصة وعائشة متحابتين، وحدث يوماً أن ذهبت حفصة إلى بيت أمها فأرسل النبي إلى جاريته مارية القبطية وظلت معه يتحدثان في بيت حفصة وكان ذلك اليوم لعائشة بنت أبي بكر، فرجعت حفصة على غفلة فوجدتها مع الرسول في بيتها فانتظرتها لتخرج وأصابتها غيرة من ذلك ولما أخرج الرسول مارية ودخلت حفصة إلى بيتها قالت: أي رسول الله لقد سؤتني في بيتي فقال رسول الله ﷺ والله لأرضينك، فإني مسرٌّ لك سراً فاحفظيه، قالت: ماهو؟ قال: أشهدك أن مارية علي حرام رضاً لك. وكان في نفوس زوجات الرسول غيرة شديدة من مارية وخصوصاً بعد أن ولدت إبراهيم، فلم تطق حفصة أن تكتم السر عن النبي ولم تلبث أن انطلقت إلى ضرتها عائشة بنت أبي بكر وأسرت إليها أن أبشري، إن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته، فلما أخبرت حفصة عائشة بسر النبي ﷺ أظهره الله عليه وأطلعه على أمره.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ كان يزور زينب بنت جحش إحدى زوجاته وبنت عمته فيشرب عندها

العسل الذي كان يأتيها عن طريق عائلتها وكان النبي ﷺ يحب مثل هذا العسل فاتفقت عائشة وحفصة وغيرهما من نسائه عليه الصلاة والسلام غيرة من ذلك، على أنه حينما يدخل على أيّتهن تقول له: إني أجد ريح مغافير والمغافير: ضمخ حلو كالعسل يؤكل وله رائحة كريهة وكان ﷺ يكره مثل هذه الرائحة، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له، فلما دخل على الثانية قالت له: أكلت مغافير، قال: لا، قالت فما هذه الريح؟ قال: سقتني زينب شربة من عسل، ثم دخل على الثالثة والرابعة.. وكُلُّهن ينكرن عليه رائحة كريهة فحرم العسل على نفسه.

لذلك نرى القرآن الكريم يعتب على النبي ﷺ أن حرم على نفسه شيئاً ليس بحرام وهو جاريته مارية أو العسل استرضاءً لزوجاته وفي هذا العتب حض له على أن يعود إلى الاستمتاع بما حرمه على نفسه، وقد عتب الله عليه لأن فعله عليه الصلاة والسلام تشريع فما يحرمه على نفسه يحرم على أمته فكأنه حرم غير محرم.

وخروجاً من هذا رخص الله له بالفدية وهي كفارة اليمين والله متولي أمرنا ويعلم صالحنا فيرشدنا إليه ويشرعه لنا ويحكم ما يأمرنا من قول أو فعل ولا يأمر ولا ينهى إلا بما توجبه الحكمة.

ولما أسر النبي ﷺ إلى حفصة بعض الأمر كتحريم العسل أو تحريم جاريته مارية عليه أو أي شيء آخر كان عليها أن تحتفظ بهذا السر ولكنها لم تكتمه وأذاعته إلى صديقتها عائشة فعرف الله النبي ما فعلت حفصة فأطلعها على بعض ما عرف وأعرض عن بعضه تكرماً، فاستعجبت حفصة وخشيت أن تكون عائشة أفشت سرها وسألته ممن عرفت هذا؟ فأخبرها أن الله أطلعه عليه وجازاها على ما فعلت بتطليقه إياها.

وحينئذ عرفت حفصة وعائشة ما وقعتا فيه من الحرج بعد أن مال قلباهما عن الحق وبعد أن انحرفتا عن الإخلاص لرسول الله فتابتا إلى الله وكان لتوبتهما ما يوجبها وهو صغو قلبيهما عن الحق وصدور ما يقتضي منهما التوبة، ومع ذلك فإن تعاونهما عليه لإغاظته وإثارته لا يؤذيه لأنه منصور من الله ومن جبريل ملك الوحي ومن أعوانه وأتباعه وأصحابه من المؤمنين المخلصين ومن وراء هؤلاء جميعاً تنصره الملائكة ومع ذلك فهو في غير حاجة إلى نصرة أحد، ما دام الله معه، ولكن الله ساق هذا دليلاً على رضا خلقه عنه من الإنس والملائكة فلن يضيره غضب امرأتين.

ولعله إن وقع منه تطليق فسيوفقه الله إلى زوجات خير منكن لا يتظاهرن عليه ولا يفشين له سراً ولا يقترفن إثماً لا فرق بين بكر وثيب.

القـــراءة

﴿عرف﴾ قرأ الكسائي بالتخفيف.

﴿وإن تظاهرا عليه﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وإن تظّاهرا عليه بالتشديد.

ثم عمم التحذير فقال:

٦ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ وقاية النفس بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ووقاية الأهل: بأن يؤمروا بالطاعة، وينهوا عن المعصية، وقال علي رضي الله عنه: «علموهم وأدبوهم» ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ أي نار عظيمة تتوقد بالناس وبالحجارة، كما يتوقد غيرها بالحطب والفحم الحجري وهو من أشد الوقود استعمالاً.

ثم بين ما يقال للكافرين عند دخولهم النار فقال:

٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم وعظ المؤمنين بما يقال للكافرين عند دخولهم النار فقال:

٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿توبة نصوحاً﴾ التوبة النصوح الصادقة، والعزم على ألا يعود ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ نورهم يضيء لهم يوم القيامة وهو عملهم حين يمشون يهديهم إلى معادهم وإذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله تعالى أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة.

القـــراءة

﴿نصوحاً﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿توبة نُصوحاً﴾ بضم النون.

ثم أمر نبيه بمجاهدة الكفار بالقوة والمنافقين بإقامة الحدود عليهم فقال:

٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

أي انشر الدعوة، ومن يقف في وجهها من الكفار فجاهده بالقوة، ومن يذنب من المنافقين فأقم عليه الحد، واشدد عليهم، واستعمل الخشونة في أمرهم بالشرائع، فقد حان وقت انطلاقة الدعوة.

أمثلة حية للنساء

ثم ضرب مثلاً لأهل الكفر امرأة نوح وامرأة لوط فقال:

١٠ ـ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾.

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾ أي جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفرة، وأنه لا يغني أحد عن أحد ﴿كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين، كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون، وكانت امرأة

لوط تدل على الأضياف، ويكفي لفعل كل ذميم منهما أنهما كافرتان، ومع أنهما زوجتان لرسولين كريمين عند الله لم يدفعا عنهما من عذاب الله شيئاً، وهذه الآية تقطع طمع من ركب المعصية ورجا أن ينفعه صلاح غيره.

وهذا المثل فيه توجيه لأزواج رسول الله ﷺ، ولكافة المؤمنين، فأزواج رسول الله إذا لم يطعن الله ورسوله لم ينفعهن اتصالهن برسول الله، وأنهن زوجاته.

ثم بين المثل الذي يجب الاقتداء به فهو امرأة فرعون ومريم ابنة عمران فقال:

١١ ـ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، وكانت قد آمنت بموسى ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله﴾ عمله شركه وكفره، وعبادة غير الله، وقيل إنه كان يعذبها، ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ هم الكفار من القبط.

والمثال الآخر هو ﴿مريم ابنة عمران﴾ أي وضربه الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران، جمع لها بين كرامتي الدنيا والآخرة، واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم عصاة ﴿التي أحصنت فرجها﴾ أي عفت وعاشت حياة طاهرة فأعلن الله براءتها مما ألصق بها اليهود من التهم الباطلة ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ وفي سورة الأنبياء ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾[1] أرسل الله جبريل فتمثل لها على صورة بشر سوي وأمره الله أن ينفخ فيها.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ صدقت بشرائع الله التي شرعها لعباده، فأخبرها الملك من البشارة بعيسى، وكونه رسولاً من المقربين، وصدقت كذلك بكتب الله المنزلة على الأنبياء، وكانت من المطيعين لله.

القـــراءة

﴿وكتبه﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿وكتابه﴾ على الإفراد.

---

(١) الآية: ٩١.



تسمى سورة الملك لورود كلمة الملك في قوله تعالى ﴿بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

من مظاهر القدرة والعلم

لما ختم الله سبحانه سورة التحريم بأن العلاقة الزوجية وأية علاقة دنيوية لا تنفع إلا بالطاعة، وأصل الطاعة المعرفة والتصديق بالكلمات الإلهية، افتتح هذه السورة بدلائل المعرفة وآيات الربوبية فقال:

١ ـ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

٢ ـ ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

أي كثر خير الله وعظم، والملك هو ملك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، بيده السلطان يعزّ ويذلّ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ جعلكم أناساً عقلاء ليكلفكم ثم يختبركم فيجازيكم على ذلك، وهو العزيز الغفور.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان قدرة الله في السماء فيقول:

٣ ـ ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾.

﴿سبع سماوات طباقاً﴾ حقيقة السبع السماوات مجهولة لدينا، ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن حين يذكر خلق السماوات والأرض لا يقصد غايات علمية، وإنما يدعو إلى التأمل في خلقها، والاعتبار بما فيها ليرشد الإنسان إلى الإيمان بخالقها، وهو الله رب العالمين، ثم أشار إلى أن السماوات محكمة متقنة بقوله: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي لا ترى في ما خلق الله من اختلاف وتباين أو اعوجاج أو خلل ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ أي كرر النظر في السماء فهل ترى فيها صدوعاً أو شقوقاً، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج﴾[1].

القــــراءة

﴿تفاوت﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿تفوّت﴾ بتشديد الواو من غير ألف.

(١) سورة قٓ، الآية: ٦.

﴿هل ترى﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿هل ترى﴾ بإدغام اللام في التاء.

٤ ـ ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾.

﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ أي مرات كثيرة مرة بعد مرة، والمعنى مهما أمعنت النظر لتلتمس أي خلل، سيرتد إليك نظرك ذليلاً صاغراً مبعداً عن العثور على أي خلل.

٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ هي النجوم تتلألأ كالمصابيح الكهربائية في السماء، بل هي مصابيح للمسافرين والتائهين في البحر والبر والجو، وقد مر تفسيره في سورة فصلت الآية (١٢).

﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ وهذه فائدة أخرى غير كونها زينة للسماء الدنيا، وكذلك هي علامات.

وحين بين أنه أعد لهؤلاء عذاب السعير في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عمم الوعيد بقوله:

٦ ـ ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

٧ ـ ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾.

٨ ـ ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾.

٩ ـ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾.

﴿سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ أي صوتاً كصوت الحمير عند أول نهيقها، وهي تفور تغلي بهم كغلي الماء فوق النار، ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ أي تكاد تتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة حرارتها ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها﴾ أي كلما ألقي في جهنم فريق أو جماعة من الناس، سألهم الملائكة الموكلون بها.

﴿ألم يأتكم نذير﴾ أي رسول من عند ربكم يحذركم من عذابه، وهذا سؤال توبيخ وتقريع، فيجيب الكفار ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء﴾ ولفرط تكذيبهم بالنذر والرسل قالوا لهم في الدنيا: ﴿إن أنتم إلاّ في ضلال كبير﴾ أي في ذهاب عن الحق بعيد.

ثم اعترفوا بجهلهم فقالوا:

١٠ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

١١ ـ ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ لو كنا نسمع سماع من يعي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار، بل كنا آمنا بما أنزل الله واتبعنا الرسول ﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾ سحقاً أي بعداً والسحيق البعيد.

القــــراءة

﴿فسحقاً﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي ﴿فسحُقاً لأصحاب السعير﴾ بضم الحاء.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير المؤمنين فيقول:

١٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾.

أي جزاء الذين يخافون الله ويجلونه، تصديقاً بما أنزل على لسان رسله جزاؤهم المغفرة ودخول الجنة.

بعض مظاهر نعمته وقدرته وعلمه مع تهديد الكفار

ثم خاطب الكفار والمنافقين فقال:

١٣ ـ ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

١٤ ـ ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾.

﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ هذا تهديد للكفار والمنافقين بأن الله مطلع على ما في صدورهم مما يكنونه من مؤامرات ثم استدل على كمال علمه بنوع آخر قائلاً: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ ألا يعلم ما في الصدور وهو خالقها.

١٥ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ مسطحة رغم استدارتها، سهلة رغم صعوبتها، مسخرة للانتفاع بها ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ اسلكوا منافذها سهولها وجبالها، والمعنى: جوبوا الأرض بحثاً عن الرزق، وكلمة الرزق تشمل كل شيء نافع يمكن للإنسان استخدامه في الحياة الاجتماعية والإنسانية، ففيها الماء والزرع والنفط والحديد ومختلف أنواع الغذاء والمواد الإنشائية الأخرى، والمناكب في الإنسان هي الجوانب.

وبعد أن بين الله للناس نعمته عليهم، عاد يحذرهم من عاقبة كفرهم فقال:

١٦ ـ ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾.

١٧ ـ ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾ أأمنتم عذاب الله أن يأتيكم فيخسف بكم الأرض بأن يقلعها بكم، كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها، ويكفي لذلك زلزال لبضع دقائق للأرض ﴿فإذا هي تمور﴾ تضطرب وتتحرك على خلاف ما كانت عليه من السكون والتذليل، ولو أن جملاً ذلولاً مرَّ واضطرب لسبب للإنسان اضطراباً في نفسه وماله وعياله ووقته، لا يستريح حتى يهدأ ذلك البعير ويذل له

فما بالك بالأرض التي يسكنها ويزرعها ويمشي عليها.

ثم ذكر تهديداً آخر بإرسال نوع آخر من العذاب الذي أصاب به الأمم السابقة فقال:

﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ ريح تحمل حجارة صغيرة ترمي بها الكفار كما أرسلها الله على قوم لوط، وأصحاب الفيل ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي فستعلمون كيف كانت عاقبة إنذاري لكم في الدنيا ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع.

القــــراءة

﴿أأمنتم﴾ قرأ ابن كثير ﴿وإليه النشور وأمنتم﴾ وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿النشور آمنتم﴾ بهمزة ممدودة، وقرأ أهل الشام[1]، وأهل الكوفة بهمزتين.

ثم برهن على الوحدانية وكمال القدرة فقال:

١٩ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾.

﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾ أي تصف أجنحتها في الهواء، وتقبض أجنحتها بعد البسط. ثم أبطل نصرة جنود الشيطان للكافرين بقوله:

٢٠ ـ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾.

٢١ ـ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾.

﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ هذا استفهام إنكاري، والمعنى لا جند لكم يمنعكم من عذاب الله، ولفظ الجند موحد، ولذا قال (هــذا الذي هــو) ﴿إن الكافرون إلاّ في غرور﴾ وذلك أن الشيطان يغرهم، فيقول إن العذاب لا ينزل بكم ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ كل ذلك من الوعظ والإرشاد والتهديد فإن الكفار تمادوا في تمردهم وكفرهم.

ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر فقال:

٢٢ ـ ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه﴾ الكافر في الدنيا يكب على المعاصي لا يرى الحق ﴿أهدى﴾ في الآخرة ﴿أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ سوياً: أي معتدلاً على طريق مستقيم وهو المؤمن، كما لا يستويان في الدنيا لا يستويان في الآخرة.

٢٣ ـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

---

(١) المراد بأهل الشام هو ابن عامر، وبأهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي.

٢٥ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم فيها: إثبات للبعث وتهديد وبيان لبعض النعم ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ يعنون يوم القيامة.

٢٧ ـ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾.

﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ لما رأو العذاب قريباً منهم اسودت وجوههم وعلتها الكآبة، وغشيتها الذلة، وقالت لهم الملائكة ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾ أي الذي كنتم في الدنيا تطلبونه وتستعجلون به استهزاء.

٢٨ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

أي إنا مع إيماننا لا نأمن عذاب الله، فنحن بين الخوف والرجاء، له أن يعذبنا ببعض ذنوبنا أو يغفرها فلا يعذبنا، لكن أنتم أيها الكفار من يجيركم مع كفركم من العذاب، لأنه لا رجاء لكم كرجاء المؤمنين.

القـــراءة

﴿معي﴾ قرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿معي﴾ بالإسكان.

٢٩ ـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ ذكر صفة الرحمن إشارة إلى رحمته الواسعة برسوله وبالمؤمنين معه، لن يهلكنا كما يتمنّى الكافرون، آمنا به وحده نعبده، وعليه توكلنا لا على غيره، والتوكل تفويض الأمور إليه عز وجل.

القـــراءة

﴿فستعلمون﴾ قرأ الكسائي ﴿فسيعلمون﴾ بالياء.

ويختم الله السورة بمخاطبة الكفار مبيناً فضله عليهم بما ينزل عليهم من ماء هو مصدر الحياة فيقول:

٣٠ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾.

أي أخبروني إن صار ماؤكم الذي منّ الله عليكم به في العيون والأنهار والآبار غائراً في الأرض بحيث لا يبقى له وجود فيها أصلاً، أو صار ذاهباً في الأرض إلى مكان بعيد، والمعين هو الماء الجاري أو الكثير المتدفق.



تسمى سورة القلم لورود كلمة القلم في أول السورة، كما تسمى سورة نون.

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد رسول الله أكرم الخلق على الله

ختم الله سبحانه سورة الملك بذكر تكذيب الكفار ووعيدهم وافتتح هذه السورة بمثل ذلك فقال:

١ _ ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

٢ _ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾.

٣ _ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾.

٤ _ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ (ن) حرف من حروف الهجاء كالفواتح الواقعة في أوائل السور المفتتحة بذلك للتنبيه، والقلم: أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان، وهو واقع على كل قلم يكتب به، وهو إشارة إلى الاهتمام بالعلم الذي يجيء عن طريق الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال وما يسطرون: أي يكتبون، ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ هذا جواب قولهم إنك لمجنون، والمعنى: ما أنت بنعمة النبوة والرسالة والعقل الكامل والسيرة العطرة تستحق أن يقال عنك مجنون، إذاً لا تجتمع صفة الجنون مع صفة العقل.

﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ ثواباً على ما تحمّلت من أثقال النبوة وقاسيت من قومك أنواع الشدائد، وغير ممنون معناها غير مقطوع، ولا منقوص.

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وبعد هذا الثناء على نبيه يرد سبحانه على كفار مكة الذين وصفوا نبيه بالجنون والضلال مهدداً لهم فيقول:

٥ _ ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾.

٦ _ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾.

٧ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

﴿فستبصر ويبصرون﴾ أي ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحق، وانكشف الغطاء، وذلك يوم القيامة. ﴿بأييكم المفتون﴾ فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك من المفتون الضال لقوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾(١).

﴿إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله﴾ أي يعلم من هو في الحقيقة الضال، أنت أم من اتهمك بالضلال، والمعنى: بل هم الضالون ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة.

ثم ينهى الله نبيه عن إطاعة المكذبين ويصف تمنياتهم فيقول:

٨ ـ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾.

١١ ـ ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾.

١٢ ـ ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾.

١٣ ـ ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾.

﴿فلا تطع المكذبين﴾ حذره الله ونهاه سبحانه عن ملاينة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه.

﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ ودوا لو تلين لهم بعض الشيء فيلينون لك في عبادتك إلهك، ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ الحلاف كثير الحلف بالباطل، والمهين الحقير الدنيء ﴿هماز مشّاء بنميم﴾ الهماز: هو المغتاب، الذي يذكر الناس بالشر، والمشاء بنميم: الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين ﴿مناع للخير﴾ أي يحول بين الناس وبين ما يريدونه من فعل الخير ﴿معتد أثيم﴾ ظلوم فاجر كثير الإثم ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ هو الشديد الخلق الفاحش، الغليظ الجافي.

ثم يضيف القرآن على هذه الصفات التسع صفة عاشرة وهي التكذيب بآيات الله فيقول:

١٤ ـ ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾.

١٥ ـ ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

١٦ ـ ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾.

﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ والمعنى: لا تطعه لمالـه وبنيه، والمراد به التوبيخ والتقريع، فهذا الجاحد لفرط

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

غروره بأمواله وأولاده يصف آيات الله بأنها ﴿أساطير الأولين﴾ أي الخرافات التي يتداولها الناس عن الأقدمين، ثم ذكر جزاءه فقال ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ الخرطوم الأنف، أي سوف نجعل على أنفه علامة يعرف بها أنه من أهل النار.

القــــراءة

﴿أن كان ذا مال﴾ قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿أأن كان﴾ بهمزتين مخففتين على الاستفهام، والمعنى: لأن كان، وقرأ ابن عامر ﴿آن كان﴾ بهمزة مطولة.

قصة أصحاب الجنة ومغزاها

وبعد ذكر المال والبنين وبَطَر أصحابهما ذكر قصة أصحاب البستان الذين بطروا واغتروا بأموالهم ومنعوا إحسانهم عن الفقراء فعاتبهم فقال:

١٧ ـ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾.

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ يعني الكفار في عهد الرسول ﷺ ابتلاهم بالجوع والقحط كما ابتلى الله من قبل أصحاب البستان، والابتلاء له أنواع شتى، قد يكون بالنعم وقد يكون بالنقم، فهو اختبار من الله للإنسان، أيصبر أم يشكر؟ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴿إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين﴾ أي حلفوا ليقطعن ثمار أشجار بستانهم في أول الصباح، وذلك قصدهم قبل أن يحضر الفقراء والمساكين فيجدوا شيئاً تساقط من الثمر ﴿ولا يستثنون﴾ ولا يقولون إن شاء الله نترك شيئاً للمساكين.

ثم يبين الله ما جرى لجنتهم فيقول:

١٩ ـ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾.

﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أي طاف على تلك الجنة من جهة الله سبحانه نار أحرقتها حتى صارت سوداء، والطائف لا يكون إلا بالليل ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أصبحت وقد ذهب ما فيها من الثمر كالشجر اليابس المسود من القدم، وشجر الصريم معروف عند أهل الجزيرة العربية، لا نفع فيه ولا ثمر.

وفي الصباح ينادي أصحاب البستان بعضهم بعضاً للذهاب مبكراً لقطف الثمار وهم لا يعلمون ما حلّ به فيقولون:

٢١ ـ ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴾ .

٢٥ ـ ﴿ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴾ .

٢٦ ـ ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ .

٢٧ ـ ﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴾ .

٢٨ ـ ﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ .

٢٩ ـ ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

﴿فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ نادوا بعضهم للذهاب مبكراً إلى قطف الثمار والزروع وهي الحرث، إذا أنتم عازمون على القطع، ثم انطلقوا يتكلم بعضهم مع بعض بصوت خافت لئلا يسمعهم المساكين فيقولون ﴿أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ أي انطلقوا عازمين جازمين على قدرتهم على جني الثمار ومنع حظ المساكين، والحرد معناه القصد، يقال حردت حردك، أي قصدت قصدك، حكاه الفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة ﴿فلما رأوها﴾ محترقة ﴿قالوا إنا لضالون﴾ أي: قد ضللنا طريق جنتنا، فليست هذه، ثم علموا أنها هي بعد التأمل قالوا ﴿بل نحن محرومون﴾ أي حرمنا الله ثمر جنتنا، بمنعنا المساكين، عند ذلك تكلم أحدهم ويعبر الله عن قوله، ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أوسطهم هو أعقلهم وأخيرهم، وخير الأمور أوسطها، أي ألم أقل لكم إن فعلكم هذا من منعكم المساكين وأداء حق الله فيهم ظلم، فهلا تسبحون الله الآن وتتوبون إليه بعد أن أيقنتم أنه بالمرصاد للظالمين المانعين حق الله في خلقه حينئذ ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ اعترفوا بذنبهم واستحقاقهم للعذاب.

٣٠ ـ ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ .

٣١ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ .

٣٢ ـ ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ .

﴿يتلاومون﴾ يقول هذا لهذا أنت أثرت علينا، ويقول الآخر أنت فعلت، ثم نادوا على أنفسهم بالويل فقالوا، ﴿يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ حين لم نصنع ما صنع آباؤنا، ثم رجعوا إلى الله تعالى فسألوه فقالوا ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ طالبون منه العفو.

ويعقب الله على هذه القصة بالعبرة المستقاة منها فيقول:

٣٣ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

﴿كذلك العذاب﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به قادرون أن نبلو غيرهم به.

مناقشة المكذبين وتهديدهم

وبعد أن انتهت قصة أهل البستان استأنف الله الكلام إلى بيان ما أعده الله للمتقين فيقول:

٣٤ ـ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

٣٥ ـ ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

٣٦ ـ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

٣٧ ـ ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ .

٣٨ ـ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ .

٣٩ ـ ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ .

٤٠ ـ ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ .

٤١ ـ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ .

﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ قال المشركون إنا لنعطى في الآخرة أفضل مما يعطى المسلمون فقال تعالى مكذباً لهم ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟، هذه ألف الاستفهام للتوبيخ والتقرير ﴿كيف تحكمون﴾ أي كيف تقضون بهذا الحكم الأعوج، فهل كان أمر الجزاء مفوّضاً إليكم ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ أي نزل عليكم كتاب من عند الله فقرأتم فيه هذا الادعاء، وفي هذا الكتاب ﴿ما تخيرون﴾، فيأتي موافقاً لهواكم ﴿أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة﴾ أي ألكم عهود على الله تعالى حلف لكم على ما تدعون بأيمان بالغة، أي مؤكدة، وكل شيء متناه في الجودة والصحة، فهو بالغ في أن يدخلكم الجنة، ثابتة لكم إلى يوم القيامة ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي سل يا محمد الكفار موبخاً لهم ومقرعاً: أيهم بذلك كفيل لهم بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها؟ ﴿أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾ بل ألهم شركاء لله بزعمهم قادرون على أن يجعلوهم مثل المسلمين في الآخرة؟.

وبعد هذا التحدي، تنتقل الآيات إلى مشهد من المصير الأخروي الذي سينتهون إليه:

٤٢ ـ ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ .

٤٣ ـ ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ .

﴿يوم يكشف عن ساق﴾ الكشف عن الساق في تعبير العرب يراد به اشتداد الهول وعظم الخطب، والمراد باليوم يوم القيامة ﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾ يسجد الخلق كلهم لله، ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود ﴿خاشعة أبصارهم﴾ الخشوع، الخضوع والذلة والانكسار ﴿ترهقهم ذلة﴾ تغشاهم ذلة شديدة وحسرة ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ كانوا يدعون إلى السجود في دار الدنيا وهم معافون عن العلل متمكنون من الفعل.

وبعد هذا المشهد الذليل الذي ينتظر الكفار يوم القيامة تتوجه الآيات بالتهديد لهم فيقول الله تعالى:

٤٤ ـ ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ كل أمره إلي، فلا تشغل به قلبك فأنا أكفيك أمره، والمراد بهذا الحديث القرآن.

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي سنأخذهم بالعذاب على غفلة، ونسوقهم إليه درجة درجة، حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج وامتحان لأنهم يظنونه إنعاماً، ولا يفكرون في عاقبته ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثماً، وكيد الله هو عقابه لهم، وإنما عبر عنه بالكيد من باب المشاركة للكفار على حد تسمية فعلهم كيداً ﴿إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً﴾[1]، ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي هل رفضهم قبول الحق سببه أنك تطلب منهم أجراً، ومكافأة على تبليغ الرسالة، وهذه الأجرة تثقل قدراتهم المالية فلذلك رفضوا ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي بل عندهم علم الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون، ويخاصمونك بما يكتبون.

قصة سيدنا يونس عليه السلام

٤٨ ـ ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ نبي الله يونس عليه السلام، أي لا تكن مثله في الغضب والضجر من قومك، وذلك أنه ذهب مغاضباً على قومه فكان أمره ركوبه السفينة في البحر، ووقوع القرعة عليه حيث ألقي في البحر فالتقمه الحوت، ونادى في الظلمات «أن لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[2]، ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي مغموم مكروب، مقفل عليه في بطن الحوت وهو السمكة الكبيرة ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾ ولولا نعمة الله عليه وتوفيقه بالتوبة والرحمة لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات، وهو مذموم

---

(١) سورة الطارق، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

أي ملام ﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾ أي استخلصه واصطفاه، وخلصه من الذم، فجعله من الصالحين أي الكاملين في الصلاح مثل الأنبياء الآخرين فأوحى إليه.

إصابة العين

وفي ختام السورة يخاطب الله نبيه فيقول:

٥١ ـ ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾.

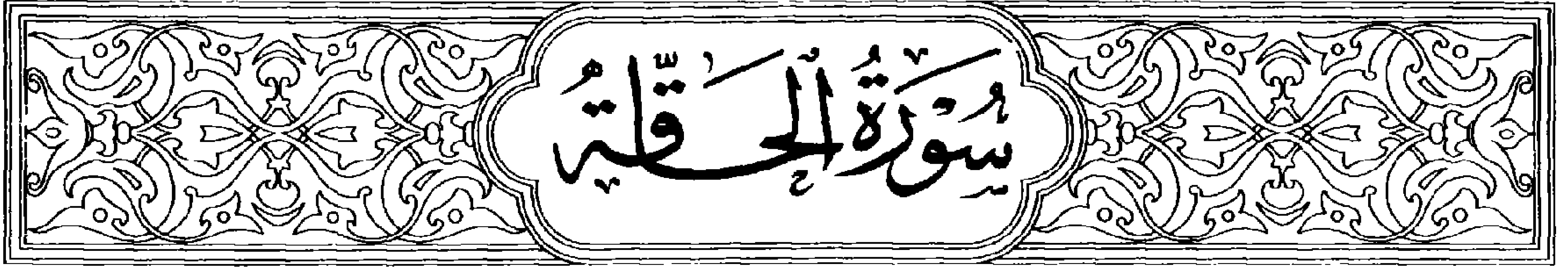
٥٢ ـ ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ أي إن الكفار عندما يسمعون القرآن من النبي ﷺ وهو يتحدّاهم، وهم يقفون عاجزين عن الرد على حججه وبراهينه وتحدياته لهم ينظرون إلى النبي نظرات كره وبغضاء، ومن شأن النظرات الشديدة أن تزيل الإنسان من مكانه وربما سقط أرضاً من الجزع، ولكن ذلك لا يكون مع النبي ﷺ ولذلك عبر بقوله ﴿يكاد﴾ وهي من أفعال المقاربة، وقال المفسرون: ليس المراد هنا الإصابة بالعين لأن ذلك لا يكون مع الكراهة والبغض، وإنما تكون مع الإعجاب والاستحسان.

وأما الإصابة بالعين فهي حق كما وردت بذلك أحاديث من طرق متعددة كثيرة فقد روى البخاري وأصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»، وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «العين حق».

القـــراءة

﴿ليزلقونك﴾ قرأ نافع بفتح الياء من زلقته.



سورة الحاقة سميت لورود كلمة الحاقة في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يوم القيامة ومن كذب به

لما ذكر الله تعالى في آخر سورة القلم حديث القيامة ووعيد الكفار، افتتح هذه السورة بذكر القيامة أيضاً وأحوال أهل النار فقال:

١ ـ ﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴾.

٢ ـ ﴿ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾.

٤ ـ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾.

٥ ـ ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾.

٦ ـ ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.

٧ ـ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

٨ ـ ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾.

﴿الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة﴾ الحاقة القيامة لأنّ الله فيها يحق الحق، ما الحاقة؟ هذا استفهام، معناه التفخيم لشأنها، كما نقول: زيد وما زيد؟ على التعظيم لشأنه، ثم زاد في التهويل بأمرها فقال: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أي لأنك لم تعاينها ولم تدر ما فيها من الأهوال، ثم أخبر عن المكذبين بها من الأقوام السابقة فقال ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ القارعة اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأن الله تعالى يقرع بها أعداءه فيفزعهم ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ ثمود قوم صالح، والطاغية الصيحة التي جاوزت الحد ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[1]، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ عاد قوم هود، والريح الصرصر هي الشديدة البرد، والعاتية القاسية التي جاوزت الحد لشدة هبوبها وطول زمنها وشدة

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٨.

بردوتها، ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾ أرسلها عليهم طيلة هذه المدة مستمرة لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحصباء، وتحسمهم أي تفنيهم وتذهبهم، ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾ مصروعين في الأرض موتى ﴿كأنّهم أعجاز نخل خاوية﴾ كأنهم جذوع نخل ساقطة بالية مجوفة ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ أي من نفس باقية.

ثم يذكر الله من الأقوام المكذبين بعد عاد وثمود فيقول:

٩ ـ ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾.

﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ من كان قبله من الأمم الكافرة ﴿والمؤتفكات بالخاطئة﴾ وهي قرى قوم لوط، والمعنى: وجاءت المؤتفكات بالفعلة الخاطئة وهي الشرك والمعاصي ﴿فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ ورابية أي عظيمة شديدة أليمة، قد مر تفسيرها في سورة التوبة الآية (٧٠).

القـــراءة

﴿ومن قبله﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر القاف وفتح الباء ﴿قبله﴾ والمعنى: من يليه ويحف به من جنوده.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما حلّ بقوم نوح فيقول:

١١ ـ ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾.

١٢ ـ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾.

﴿إنا لما طغى الماء﴾ تجاوز حده في الارتفاع والعلو، وذلك ما حصل من الطوفان في زمن نوح لما كذبه قومه وأصروا على الكفر ﴿حملناكم في الجارية﴾ الجارية هي سفينة نوح عليه السلام، وسميت جارية لأنها تجري في الماء، وبعد الطوفان مات كل من في الأرض، وكل من أتى من النسل جاء بعده، فالقرآن يشير بقوله: حملناكم إلى هذه الحقيقة بأنكم أيها الكفار المعاندون جئتم من نسل من حملنا مع نوح وهم المؤمنون فكيف بكم بعد هذا تعاندون وتكفرون؟ ﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ أي عبرة وموعظة تستدلون بها على عظيم قدرة الله وبديع صنعه.

يوم الحساب وما فيه من مواقف للأشرار والفجار

وحين فرغ من بيان القدرة والحكمة، ينتقل بنا القرآن إلى ما انجر منه الكلام وهو حديث الحاقة والنفخة الواحدة فقال:

١٣ ـ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾.

١٥ ـ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾.

١٦ ـ ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾.

١٨ ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾.

﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ نفخة القيامة ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكّة واحدة﴾ أي رفعت من أماكنها وكسرت ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ أي قامت القيامة ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ وانشقاقها كقوله تعالى: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾[1]، واهية أي مسترخية بعد أن كانت مستمسكة، ﴿والملك على أرجائها﴾ يعني الملائكة فهو اسم جنس، وأرجائها جوانبها ونواحيها ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ في هذا اليوم يعرض الناس على ربهم لمحاسبتهم على ما اقترفوه في دنياهم، فلا يخفى على الله شيء من أعمالهم.

القــــراءة

﴿لا تخفى﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿لا يخفى﴾ بالياء.

والناس يوم القيامة فريقان: أبرار وفجار، ويبدأ بذكر الأبرار فيقول:

١٩ ـ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾.

٢١ ـ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾.

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ أي أعطي كتابه الذي كتبته الحفظة عليه من أعماله، ﴿فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ يقول ذلك سروراً وابتهاجاً وهاؤم: أمر من الجماعة بمنزلة هاكم.

﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي علمت في الدنيا معتقداً بأني أحاسب في الآخرة ﴿فهو في عيشة

(١) سورة النبأ، الآية: ١٩.

راضية﴾ ﴿في جنة عالية﴾ يعيش عيشة مرضية، في جنة عالية المنازل ﴿قطوفها دانية﴾ أي قطوف ثمارها قريبة ممن يتناولها لا يصعب الحصول عليها ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ يقال لهم ذلك في الجنة بسبب ما قدموا من الأعمال الصالحة في الدنيا.

ثم يبين القرآن حياة الأشقياء في الآخرة فيقول:

٢٥ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴾.

٢٩ ـ ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾.

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ يندم غاية الندم حينئذ ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ ﴿ولم أدر ما حسابيه﴾ ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ أي ليت الموتة التي متّها كانت القاضية ولم أحيا بعدها: تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله، وما يصير إليه من العذاب ﴿ما أغنى غني ماليه﴾ أي لم يدفع عني ما جنيته من المال من عذاب الله شيئاً ﴿هلك عني سلطانيه﴾ أي هلكت وضلت عني حجتي وزال عني أعواني وقوتي وعزي وجاهي.

ثم بعد ذلك يصدر الله أمره إلى الملائكة بعذابه فيقول:

٣٠ ـ ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾.

٣١ ـ ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾.

٣٣ ـ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾.

﴿خذوه فغلوه﴾ ﴿ثم الجحيم صلوه﴾ أي اجمعوا يده إلى عنقه بالأغلال، ثم أدخلوه النار ﴿ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ في حلقة منتظمة ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يطعمه ولا

يأمر بإطعامه فهو يتجاهل عن إطعام المساكين ﴿فليس له اليوم هاهنا حميم﴾ ﴿ولا طعام إلاّ من غسلين﴾ فليس له هنا في هذا اليوم قريب يشفع له، أو مدافع يدافع عنه، كما ليس له أكل يطعمه إلاّ الصديد الذي يسيل من أبدان أهل النار، وذلك لأنه حرم المسكين المحتاج من الطعام في الدنيا فكان جزاؤه ذلك ﴿لا يأكله إلاّ الخاطئون﴾ أصحاب الخطايا وأرباب الذنوب.

حقيقة القرآن وما أنزل فيه

وبعد ذلك يقسم الله بأسرار هذا الوجود الكوني بأن القرآن وحي من عنده فيقول:

٣٨ ـ ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

٤٠ ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

٤١ ـ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾.

٤٢ ـ ﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

٤٣ ـ ﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فلا أقسم بما تبصرون﴾ ﴿وما لا تبصرون﴾ لا للتوكيد، والمعنى: أقسم بما ترون من الأشياء وما لا ترون، سواء أكان بعالم المادة أم عالم الروح، أما في عالم المادة فكل يوم يكتشف العلم من أسرار الله ما كان مغلقاً، اكتشف الإنسان في الأرض طبقاتها، وفي السماء نجومها، ونظر الإنسان بالآيات الحديثة كالتلسكوب والميكروسكوب التي تكبر الأشياء مرات ومرات، فرأى عجائب خلق الله، وهناك في عالم الأرواح مما لا نبصره الشيء الكثير ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني محمداً ﷺ على معنى أنه مبلغ عن الله، وفي الرسول ما يدل على ذلك لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ التعبير بقلة إيمانهم يدل على الشك والحيرة والتردد، الذي يميل إلى الجحد والكفر، ولذلك فهم مرة يقولون ساحر، ومرة يقولون شاعر، ومرة يقولون كاهن، وذلك راجع إلى أنهم ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي لا يعتبرون ولا ينظرون في الأمور ولا يدرسونها، تغلب عليهم العاطفة والأنفة.

القــــراءة

﴿تؤمنون وتذكرون﴾ قرأ ابن كثير ﴿يؤمنون ويتذكرون﴾ بالياء فيهما، وما مؤكدة.

ثم بين الله أن المفتري لا يفلح وإن فرض أنه نبي فقال:

٤٤ ـ ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾.

٤٥ ـ ﴿ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾.

٤٦ ـ ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ .

٤٧ ـ ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ .

﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل﴾ ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ أي لو قال شيئاً من عند نفسه ونسبه إلى الله، لأخذناه بالقوة والقدرة ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه، ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي ليس منكم أحد يحجزنا عنه أو ينقذه منا.

وأخيراً يختم الله هذه السورة بذكر أوصاف للقرآن فيقول:

٤٨ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

٤٩ ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ .

٥٠ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

٥١ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ .

٥٢ ـ ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ أي إن القرآن لتذكرة لأهل التقوى، ثم أوعد على التكذيب قائلاً: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ الله عالم بالمكذبين لنبيه وإن أخفوا عنه ذلك كالمنافقين فيجازيهم يوم القيامة، وعلمه سابق في اللوح المحفوظ، ثم بين أن تكذيب القرآن سبب حسرة الكافرين ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ أي يوم القيامة يكون عليهم حسرة فيندمون إذ لم يؤمنوا ﴿وإنه لحق اليقين﴾ لكونه من عند الله، ثم أمر بالتسبيح شكراً له على الإيحاء إليه ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ نزهه عما لا يليق به، والتسبيح معروف، قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

سورة المعارج

تسمى سورة المعارج لورود كلمة المعارج في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

تهديد المشركين بالعذاب الواقع عليهم

لما ختم الله سورة الحاقة بوعيد الكفار، افتتح هذه السورة بمثل ذلك فقال:

١ ـ ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾.

٢ ـ ﴿ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴾.

٣ ـ ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴾.

٤ ـ ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾.

٥ ـ ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴾.

٦ ـ ﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴾.

٧ ـ ﴿ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾.

﴿سأل سائل بعذاب واقع، للكافرين ليس له دافع﴾ قال المفسرون: نزلت في النضر بن الحارث حين قال: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)[1] والمعنى: دعا داع نفسه بعذاب واقع، وأن هذا العذاب الذي سأله هذا الكافر كائن لا محالة في الآخرة ﴿ذي المعارج﴾ أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، ولما كانت الملائكة تعرج إليه، وصف نفسه بذلك ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ أي تصعد إلى الله عزّ وجلّ في تلك المعارج التي جعلها الله لهم، والروح جبريل عليه السلام، والمراد باليوم مقدار صعود الملائكة من أسفل الأرض إلى العرش، لو صعده غيرهم قطعه في خمسين ألف سنة، ونسب ذلك لمجاهد ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبراً جميلاً لا جزع فيه ولا شكوى، وهذا معنى الصبر الجميل ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ إنهم يرون وقت نزول العذاب يوم القيامة بعيداً مستبعداً محالاً، ونحن نعلمه قريباً جداً وكل ما هو آت قريب.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

القـــراءة

﴿سأل سائل﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمزة ﴿سال﴾ غير مهموز[1].

﴿تعرج الملائكة﴾ قرأ الكسائي ﴿يعرج الملائكة﴾ بالياء.

٨ ـ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾.

١١ ـ ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴾.

١٣ ـ ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾.

١٥ ـ ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾.

١٦ ـ ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾.

١٧ ـ ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾.

﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ المهل ما أذيب من المعادن، ﴿كالعهن﴾ الصوف، فشبهها في لينها وضعفها كالصوف ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ لا يسأل قريب أو صديق، قريبه أو صديقه عن شأنه في ذلك اليوم، ثم كان لسائل أن يقول: لعلّه لا يبصره، فلهذا لا يسأل فقال: ﴿يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه﴾ قال ابن قتيبة معنى الآية: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته، ولكنهم يبصرونهم: أي يعرفونهم، لا يخفى شيء منهم على أحد ولا يكلم بعضهم بعضاً، وفي ذلك الموقف يتمنّى المشرك لو قبل منه الفداء ﴿يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه﴾ صاحبته: زوجته، وفصيلته هي عشيرته وطائفته التي تضمه، يود أن يفتدي بهؤلاء المذكورات، ثم ينجيه ذلك من الفداء، ثم أكد الاستبعاد بقوله ﴿كلا﴾ لا ينجيه ﴿إنها لظى﴾ اسم لجهنم أو اللهب الخالص سميت لشدة توقدها ﴿نزاعة للشوى﴾ نصب على الحال المؤكدة، تشوي الإنسان فتنزع منه الأطراف، اليدين والرجلين وجلدة الرأس ﴿تدعوا من أدبر وتولى﴾ تدعو الكافر الذي أدبر عن الإيمان، وتولّى عن الرسل والمبلغين والوعاظ والمرشدين ﴿وجمع فأوعى﴾ جمع المال في وعاء فلم يؤد منه زكاة، ولم يصل منه رحماً.

---

(١) الباء في القراءة الأولى بمعنى (عن) وفي الثانية بمعنى الباء لإيصال الفعل.

القـــراءة

﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ قرأ البرجمي[1] عن أبي بكر عن عاصم ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ بضم الياء.

﴿من عذاب يومئذ﴾ قرأ نافع والكسائي ﴿من عذاب يومَئذ﴾ بفتح الميم.

﴿نزاعة﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر ﴿نزاعةٌ﴾ بالرفع.

طبيعة الإنسان وعلاج القرآن لها

ثم بين أن الإنسان بالطبع مائل إلى الأخلاق الذميمة فقال:

١٩ ـ ﴿ ۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ .

٢٠ ـ ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ .

٢١ ـ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ .

٢٢ ـ ﴿ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ .

٢٣ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ .

٢٥ ـ ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ .

٢٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ .

٢٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ .

٢٨ ـ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ .

٢٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ .

٣٠ ـ ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ .

٣١ ـ ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ .

٣٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ .

٣٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ .

---

(١) هو أبو صالح عبد الحميد بن صالح التميمي الكوفي، مقرىء ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن أبي بكر شعبة بن عياش، روى القراءة عنه عرضاً إسماعيل الخياط وجعفر بن عنبسة، قال ابن جرير وغيره مات سنة ٢٣٠ هـ.

٣٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾.

﴿إنَّ الإنسان خلق هلوعاً﴾ أي جنس الإنسان قد خلقه الله فيه هذه الصفات، وهي تعني البخل والشح، والضجر والجزع، كما خلق في نفس الوقت فيه صفات الخير، وكلها تعني الغرائز والميول، للخير أو للشر، وهذا الإنسان إذا اختار الهلع فإنه ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ وهذا في الدائرة التي تسيطر عليه من البلاء والمصائب والفقر والمرض وغيره، تراه شديد الجزع لا يصبر ولا يحتسب الثواب من الله، وهو كذلك ﴿إذا مسه الخير منوعاً﴾ إذا حصلت له نعمة من الله في الدائرة التي يسيطر عليها بخل على غيره، ومنع حق الله تعالى فلا هو يزكي ولا يطعم المسكين ﴿إلّا المصلين﴾ استثنى الجمع من الإنسان لأنه اسم جنس، وهم المقيمون للصلاة ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، لأن إيمانهم وأداء صلاتهم ومداومتهم عليها تذهب عنهم تلك الصفات الذميمة، وفي سورة ﴿المؤمنون﴾ وصفهم الله بأنهم في صلاتهم خاشعون وعن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، وهؤلاء يعرفون حق الله وحق المسكين في أموالهم فيقول الله عنهم: ﴿الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾ السائل هو الفقير الذي يطلب المال، والمحروم هو المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ هو يوم القيامة لا يشكون فيه، ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ على من لم يؤمن بالله ويصدق بالبعث ويعمل الصالحات، فكل واحد يوم القيامة لا يدري ما الله فاعل به، ولكن المؤمن تطمئن نفسه عندما يرى تباشير القبول، والكافر ينقبض قلبه ويسود وجهه عندما يرى علامات العذاب، ومن صفات المؤمنين كذلك أنهم ﴿لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ أي يكفونها عن الحرام وهذا للأزواج، ولهذا قال: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ من الإماء، فإنهم غير ملومين في جعلهن أمهات لأولادهم وبهذا يفتح الإسلام باب الحرية لهن ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ المجاوزون لحدود الله ومحارمه، ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي لا يخونون في شيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، ولا ينقضون شيئاً من العقود والعهود، التي يعقدونها على أنفسهم أو مع غيرهم[1] ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ أي يقيمون الشهادة على وجهها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، ولا يكتمونها ولا يشهدون الزور فيها ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾.

القـــراءة

﴿لأماناتهم﴾ قرأ ابن كثير وحده ﴿لأمانتهم﴾ كما مر في سورة ﴿المؤمنون﴾.

﴿بشهاداتهم﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿بشهادتهم﴾ على الإفراد.

هؤلاء هم المكذبون وهذه نهايتهم

ثم ينتقل القرآن إلى وصف سلوك الكفار فيقول:

---

(١) ما تقدم من الآيات معظمه تم تفسيره في سورة المؤمنين.

٣٦ ـ ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ .

٣٧ ـ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ .

٣٨ ـ ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ .

٣٩ ـ ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ المهطع هو المقبل ببصره على الشيء لا يحيد عنه، وكانوا ينظرون إلى النبي ﷺ نظر عداوة ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ العزون: الخلق، الجماعات، واحدتها عزة ﴿أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ كان المشركون يطمعون في أن يدخلوا الجنة قبل المسلمين حسب اعتقادهم إن كان هناك بعث، وفي هذه الآية ما يفيد الرد عليهم، والمعنى: أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفرهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟ ﴿كلا﴾ بل مأواهم جهنم، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه، واستبعدوا وجوده مستدلاً عليه بالبداءة التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها فقال: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ من الحيوان المنوي الضعيف، حيث قال ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾(١).

ثم بين كمال قدرته على الإيجاد والإعدام مؤكداً بالأقسام وأنه لا يفوته شيء من الممكنات فقال:

٤٠ ـ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ .

٤١ ـ ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ .

٤٢ ـ ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ .

٤٣ ـ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ .

٤٤ ـ ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ .

﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنّا لقادرون﴾ ﴿على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾ أي أقسم بالذي خلق السماوات التي فيها الشمس التي تشرق على الأرض فتوجد المشارق والمغارب للمناطق والبلدان حسب اختلاف المطالع، من دوران الأرض حول الشمس، وتقرير الكلام، ليس الأمر كما تزعمون بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـ ﴿لا﴾ في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي القيامة، وقادرون يوم القيامة أن نعيدهم بأبدان خير من هذه، ولسنا بعاجزين ولا مسبوقين في القدرة من أحد ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ تهديد لهم فسيعلمون غداً ذلك ويذوقون وبال إعراضهم ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنّهم

(١) سورة المرسلات، الآية: ٢٠.

إلى نصب يوفضون﴾ ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾ في ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مسرعين يسابق بعضهم بعضاً، قال قتادة: كأنّهم إلى شيء منصوب يسرعون، والنصب: العلم المنصوب، والإيفاض: الإسراع، وتكون والحالة هذه أبصارهم خاضعة ذليلة، وتغشاهم الحقارة والمهانة، وذلك في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة.

القـــراءة

﴿نصب﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿نصب﴾ بفتح النون وسكون الصاد.

سورة نوح

تسمى سورة نوح لأنها عن قصة نوح عليه السلام مع قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما حذر الله جلّ وعلا الناس من أهوال يوم القيامة، ذكرهم قصة نوح عليه السلام وما جرى على قومه من الإغراق حين عصوا رسولهم فقال:

١ ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٢ ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

٣ ـ ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾.

٤ ـ ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ «من» هاهنا صلة، والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم، والأجل المسمى هو يوم القيامة، في الآية، والمعنى: يؤخر عنكم المؤاخذة في الدنيا إلى يوم القيامة فيحاسبكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولذلك قال: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ أي إن وقت العذاب وهو نتيجة المؤاخذة والحساب لا يؤخر إلى يوم القيامة بل يعجله الله لكم في الدنيا لو كنتم تعلمون الحق من الباطل، وقد تضمنت دعوة نوح لقومه ثلاثة مسائل مهمة، أولها: عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وثانيها: تقوى الله، وثالثها: طاعة رسول الله، وهي تمثل الأسس التي دعا إليها الرسل في مختلف العصور.

القـــراءة

﴿أن اعبدوا الله﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي، وعلي بن نصر عن أبي عمرو بضم النون، وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم، وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿أن اعبدوا﴾ بكسر النون.

﴿وأطيعون﴾ أثبت الياء في الحالين يعقوب.

ثم يصف القرآن جهاد نوح وما كان يلاقيه من قومه من إعراض ونفور فيقول:

٥ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾.

٦ ـ ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

٧ ـ ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ .

﴿فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً﴾ فراراً: تباعداً عن الإيمان ﴿وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلا يسمعوا كلامي ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ أي غطوا بها وجوههم لئلا يروني ﴿وأصروا واستكبروا﴾ أصروا على الكفر واستكبروا عن قبول الحق استكباراً شديداً.

ثم حكى نوح عليه السلام أنه كان لدعوته ثلاث مراتب بدأ بالمناصحة في السر ليلاً ونهاراً فعاملوه بما ذكر، ثم ثنّى بالمجاهرة، لأن النصح بين الملأ تقريع وتغليظ فقال:

٨ ـ ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ .

٩ ـ ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ .

١٠ ـ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ .

١١ ـ ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ .

١٢ ـ ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ .

١٣ ـ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ .

١٤ ـ ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ جهرة بين الناس ﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ أكلمهم علناً الواحد بعد الواحد، وأسر للواحد بعد الواحد، وأدعوه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وقيل معنى أسررت: أتيتهم في منازلهم، والمراد استعملت معهم مختلف الأساليب، ثم فسر الدعوة بقوله: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنّه كان غفاراً﴾ أي سلوه المغفرة مما اجترحتم من الذنوب السابقة ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي ينزل عليكم المطر، والمدرار الكثير الدر، وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول الرزق، ﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ والمعنى يكثر أموالكم وأولادكم، ثم إنّه ويخهم بقوله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي ما لكم لا تخافون عظمة الله، ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ خلقكم على أطوار مختلفة: نطفة ثم علقة ثم مضغة إلخ . . . إلى تمام الخلق كما هو مشروح في سورة ﴿المؤمنون﴾، والطور معناه الحال.

ثم يوجه نوح أنظار قومه مقرراً لهم إلى ما في الكون من آيات تدل على خالق حكيم فيقول:

١٥ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ .

١٦ ـ ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ .

١٧ ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ .

١٨ ـ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ .

١٩ ـ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ .

٢٠ ـ ﴿ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ .

السماوات السبع

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾ السماء والأرض كانتا كتلة واحدة، فانفصلت عنها الأرض كما انفصل غيرها من الأجرام والكواكب السماوية، وأن السماء أصبحت بعد ذلك سبع سماوات، والمعلوم لدينا والمحسوس هي السماء الدنيا وهي القربى لنا حيث زينها الله بمصابيح هي النجوم، والكواكب السيارة، وهذه السماوات السبع طباقاً يعني بعضها فوق بعض، وقد أوحى الله سبحانه في كل سماء أمرها وشؤونها وتدبيرها وكل ما يتعلق فيها من الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلّا هو، وجعل لكل سماء شمسها وقمرها وأرضها[1]، وحقيقة السبع السماوات مجهولة لدينا، والقرآن حين يذكر خلق السماوات والأرض لا يقصد غايات علمية، وإنما يدعو إلى التأمل في خلقها، كما بينا في سورة الملك ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ لا يمكن للقمر الواحد الذي نراه أن ينير تلك المجرات المتعددة التي أثبتها العلم الحديث إلّا إذا كان متعدداً، والشمس عدة شموس، فكل قمر يستمد نوره من شمسه ويعكس نوره على أرضه، لأن الأرض ليست واحدة بل أرضين ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ يعني ابتدأ خلقكم من أرضكم التي تعيشون عليها، وهو آدم ﴿ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ أي في الأرض تموتون فتتحلل أجزاؤكم حتى تعود تراباً وتندمج في الأرض ثم يوم القيامة يخرجكم منها للبعث إخراجاً دفعة واحدة، لا إنباتاً بالتدرج كالمرة الأولى، ثم ذكر دليلاً آخر إضافياً من حال الأرض فقال: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي فرشها وبسطها لتعيشوا عليها رغم أنها كروية الشكل لكنّها من عظمها لا يشعر الإنسان بكرويتها واستدارتها وذلك ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ السبل هي الطرق، والفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع الموصل للجبال، وكل ما ذكره في ما سبق مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض ونعمه عليهم.

بعد كل هذا الوعظ ظل قوم نوح على ضلالهم، فالتجأ آنذاك نوح إلى ربه يبثه شكواه، بلهجة مؤثرة تنبيء عن ألمه من الضلال المستحكم في قومه فقال الله على لسانه:

٢١ ـ ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ .

٢٢ ـ ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ .

٢٣ ـ ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ .

---

(١) قد مر في سورة البقرة، الآية: ٢٩ وأول سورة الملك.

٢٤ ـ ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

﴿اتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً﴾ إن الأتباع والفقراء اتبعوا رأي الرؤساء والكبراء ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي مكروا مكراً كبيراً عظيماً، وهو تحريشهم سفلتهم على إيذاء نوح ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ قال الرؤساء للأتباع يغرونهم بمعصية نوح لا تتركوا عبادة آلهتكم وهي الأصنام والصور التي كانت لهم، وسميت هذه الآلهة بتلك الأسماء المذكورة في الآية، وقال الزجاج هذه الأصنام كانت لقوم نوح ثم صارت إلى العرب، فكان (ود) لكلب، و (سواع) لهمدان، و (يغوث) لبني غطيف، و (يعوق) لمراد، و (نسراً) لذي القلاع من حمير ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي أضل كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس ﴿ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً﴾ أي إلاّ خسراناً.

القــــراءة

﴿وولده﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو عمرو، وأبو جعفر ويعقوب والأعمش ﴿ولْده﴾ بضم الواو وسكون اللام.

﴿وداً﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بضم الواو، والباقون بفتحها.

٢٥ ـ ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

٢٦ ـ ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

٢٧ ـ ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

٢٨ ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ ما صلة، والمعنى: من خطيئاتهم من أجلها وبسببها أغرقوا بالطوفان ﴿فأدخلوا ناراً لم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ جاء لفظ الماضي بمعنى الاستقبال، لأن الوعد حق في الآخرة، ولم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله ﴿دياراً﴾ أي أحداً، يقال: ما بالمنازل ديار، أي ما بها أحد وهو من الدار، وإنما دعا عليهم نوح، لأن الله تعالى أوحى إليه بقوله: ﴿لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن﴾[(١)]، ﴿وتباراً﴾ أي هلاكاً، ومنه قوله: ﴿وكلاً تبرنا تتبيراً﴾[(٢)].

القــــراءة

﴿مما خطيئاتهم﴾ قرأ أبو عمرو ﴿مما خطاياهم﴾.

﴿بيتي﴾ قرأ نافع ﴿بيتيَ﴾ بالسكون وكذلك الباقون ما عدا عاصم.

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٩.



تسمى سورة الجن لأنها تتحدث عن جماعة من الجن الذين وجههم الله إلى النبي ﷺ ليستمعوا القرآن.

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق إسلامية

لما تقدم في سورة نوح اتباع قومه أكابرهم، افتتح سبحانه في هذه السورة اتباع الجن نبينا ليعلم الفرق بين من ربحت صفقته وبين من خسرت بيعته فقال:

١ ـ ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾.

٢ ـ ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾.

﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ قل يا محمد لأمتك، بأن الله قد وجه إليّ جماعة من الجن لاستماع القرآن، والنفر ما دون العشرة ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾ أي بليغاً، قالوا ذلك لقومهم لما رجعوا إليهم عجباً في فصاحته وبلاغته، عجباً في مواعظه وبيان آياته ﴿يهدي إلى الرشد فآمنا به﴾ صوروا الكفر بالله كالشخص القاصر والطفل الجاهل، الذي يقوده القرآن ويدعوه إلى بلوغ مرتبة الحق والصواب من التوحيد والإيمان ﴿ولن نشرك بربنا أحداً﴾ أي بعدما بلغنا الرشد وآمنا بربنا لن نعدل به أحداً من خلقه، وقد مر هذا الموضوع في سورة الأحقاف[1].

٣ ـ ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾.

٤ ـ ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾.

﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ ارتفع عظمة ربنا وجلاله وقدرته وأمره ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ أي تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة، أي زوجة، أو ولداً، كما يقول الكفار الذين ينسبون إلى الله الصاحبة والولد ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً﴾ ينكر الجن قول مشركيهم وسفائهم الكذب على الله، والشطط الغلو في الكفر، والبعد عن القصد، ومجاوزة الحد في الأشياء.

القـــراءة

﴿وأنه تعالى ـ وأنه كان﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بكسر الهمزة ﴿إنه﴾ في الموضعين.

(١) الآيات: ٢٩ ـ ٣٤.

٥ ـ ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ .

﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن﴾ ظنناهم صادقين في قولهم لله أي حسبنا أن الإنس والجن لا يكذبون على الله بنسبة الشريك والولد والصاحبة إليه، ولذلك صدقناهم في ذلك حتى سمعنا القرآن، فعلمنا بطلان قولهم، وما كنا نظنه بهم من الصدق.

القـــراءة

﴿وأنا ظننا﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بكسر الهمزة ﴿إنا ظننا﴾.

﴿أن لن تقول﴾ قرأ يعقوب ﴿أن لن تقوّل﴾ بفتح القاف وتشديد الواو.

٦ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ .

٧ ـ ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ .

٨ ـ ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ .

٩ ـ ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ .

﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾ هذه مقالة الجن الذين استمعوا القرآن يخبرون بأنه كان في الناس رجال يستعيذون برجال من الجن، وذلك حين ينزلون في أسفارهم في مكان موحش أو في أي حالة هم في حاجة للاستعاذة من الوحشة والخوف، يقول قائلهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في جواره حتى يصبح، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله تعالى، وتركوا العوذ بالجن ﴿فزادوهم رهقاً﴾ الضمير يرجع إلى الجن، والمعنى أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوذهم بهم، أي تعباً ومشقة، وتسخير الجن يأتي من هذا الباب ﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ أي ظن الجن كما ظننتم أيها الإنس المشركون أن لا يبعث الله يوم القيامة أحداً ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ طلبنا أخبارها واستماع كلام أهلها من كان في الملأ الأعلى، وكانوا يسترقون السمع ليخبروا به الكهان إضلالاً للناس، والحرس الشديد هم الملائكة، والشهب جمع شهاب وهو النجم المضيء الذي ينقض على مسترق السمع ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾ أي مواضع في السماء خالية من الشهب والحرس، والآن ملئت كلها لاستراق السمع ﴿فمن يستمع الآن﴾ بعد نزول القرآن الذي بعث به الرسول ﷺ ﴿يجد له شهاباً رصداً﴾ أي شهاباً قد رصد ليرجم به، والرجم كان موجوداً قبل البعث، فلما بعث ﷺ كثر وازداد، كما ملئت السماء بالحراس، وليس في الآية دلالة على أن كل ما يحدث من الشهب إنما هو للرجم بل إنهم إذا حاولوا استراق السمع رجموا بالشهب، وإلاّ فالشهب الآن وفيما مضى قد تكون ظواهر طبيعية، ولأسباب كونية، لأغراض أخرى.

القـــراءة

﴿وأنه كان رجال ـ وأنهم ظنوا ـ وأنا لمسنا ـ وأنا كنا﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم، بكسر الهمزة.

١٠ ـ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

١١ ـ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ .

﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض﴾ أي ما ندري هذا الأمر الذي حدث في السماء لا ندري أشر أريد بمن في الأرض ﴿أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل، هذا الأمر من الرمي بالشهب والمنع من الاستراق حدث كبير بالنسبة لهم، فكانوا يتساءلون عن السبب حتى سمعوا القرآن وعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء فآمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي، ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها هال ذلك الإنس والجن، وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم، ولذلك قالوا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ثم أخبروا عن حالهم فقالوا: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك﴾ دون الصالحين هم الفسقة والعاصون والمتهاونون ﴿كنا طرائق قدداً﴾ فرقاً مختلفة، وآراء متفرقة، منا المؤمن ومنا الكافر.

١٢ ـ ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ .

١٣ ـ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ .

١٤ ـ ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾ .

١٥ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

١٦ ـ ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ .

١٧ ـ ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ .

﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ أي لن نفوته إذا أراد بنا أمراً، وأنه يدركنا حيث كنا، ﴿وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به﴾ وهو القرآن الذي أتى به محمد ﷺ ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ البخس النقصان، والرهق العدوان والطغيان ﴿تحرّوا رشداً، وأما القاسطون﴾ والقاسطون هم المرتدون الجائرون، يقال: قسط: إذا جار وأقسط: إذا عدل، والقاسطون هنا في مقابلة المسلمين يعني الكفار لأنهم أعدوا ﴿لجهنم حطباً﴾.

توجيهات إلهية للرسول عليه الصلاة والسلام

﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا، لنفتنهم فيه﴾ يعني طريقة الهدى والرشد، والمعنى: أن لو استقام القاسطون الكفار على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها واستمروا عليها لأسقيناهم ماءً غدقا، أي كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق، وعلى ذلك يكون المعنى: لنفتنهم فيه، لنختبرهم، ونبتليهم، من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية، وقوله ﴿عذاباً صعداً﴾ عذاباً شاقاً صعباً من الصعود.

القـــراءة

﴿يسلكه﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿نسلكه﴾ بالنون.

١٨ ـ ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾.

المساجد هي بيوت الله للصلاة، فلا تذكروا فيها غير الله ولا تشركوا معه غيره في العبادة، وكان المشركون يضعون الأصنام في المسجد الحرام، ويشركون مع الله آلهة أخرى، والسورة مكية فيها دلالة على ذلك، وما قيل من أسباب أخرى لنزول الآية لا سند لها، ثم رجع إلى ذكر الجن فقال:

١٩ ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾.

﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ يعني محمداً ﷺ يعبده، كادوا يكونون على رسول الله لبداً متراكمين من ازدحامهم عليه لسماع القرآن منه.

ثم أمره الله أن يقول للمشركين كلمة التوحيد.

٢٠ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

٢١ ـ ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾.

أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق ﴿إنما أدعوا ربي﴾ أعبده وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه ﴿قل لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾ أي لا أدفع عنكم ضراً، ولا أسوق إليكم خيراً في الدنيا أو الدين.

القـــراءة

﴿قل إنما أدعوا ربي﴾ قرأ عاصم وحمزة ﴿قل﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون ﴿قال﴾ على الخبر.

٢٢ ـ ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

٢٣ ـ ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾.

٢٤ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾.

﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد﴾ أي لا يدفع عني أحد عذابه إن أنزله بي ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ أي ملجأ ومأوى وحرزاً ﴿إلّا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ أي إلّا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالاته، فآخذ نفسي بما آمر به غيري، ﴿فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ والمعنى: حتى إذا رأى الكفار العذاب الذي يوعدون، عند ذلك يعلمون من هو أضعف ناصراً ومن هو أقل جنداً، أهم أم المؤمنون؟

٢٥ ـ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾.

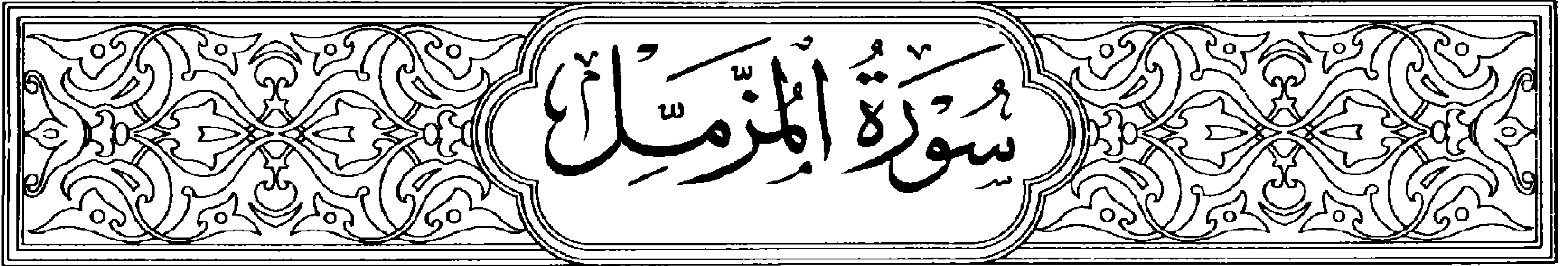
٢٦ ـ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس: أنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿أمداً﴾ أي مدة طويلة.

٢٧ ـ ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

٢٨ ـ ﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

﴿إلّا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ فالله سبحانه اختص بعلم الغيب وعلم الساعة التي تأتي يوم القيامة، وقد استثنى الله من الغيب من يصطفيه لرسالته ونبوته فيطلعه على ما يشاء من الغيب، حتى يستدل على نبوته بما يخبر من المغيبات، فيكون ذلك معجزة له وآية دالّة عليه، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم أي ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم محروسة من الزيادة والنقصان، كما أنه سبحانه أحصى ما خلق فلم يفته شيء منها، ولم تخف عليه خافية.



تسمى سورة المزمل لورود كلمة ﴿المزمل﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشادات إلهية لزعيم الدعوة الإسلامية

لما ختم الله سورة الجن بذكر الرسل، افتتح هذه السورة بذكر نبينا خاتم الرسل ﷺ فقال:

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.

٢ ـ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٣ ـ ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾.

٤ ـ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿يا أيها المزمل، قم الليل إلاّ قليلاً﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ كان يتزمل في ثيابه أول ما جاءه جبريل بالوحي خوفاً منه، فإنه لما سمع صوت الملك أخذته الرعدة، فأتى أهله وفال زملوني، دثروني، ثم بعد ذلك خوطب بالنبوة والرسالة وأنس بجبريل، والمزمل هو الملتف بثيابه، والأمر له بقيام الليل للصلاة، ثم بين مقدار المطلوب منه بقوله ﴿نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾ والمعنى: صلّ نصف الليل أو انقص من النصف، أو زد عليه حسب استطاعتك وقدرتك فجعل له سعة في مدة قيامه، إذ لم تكن محدودة، ثم علم أدب القراءة فقال: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ أي اقرأ القرآن قراءة إمعان وتدبّر، دون تنطع وتكلّف.

وحين أمره بقيام الليل وبتدبر القرآن فيه وعده بقوله:

٥ ـ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

القول الثقيل هو الوحي بالتكاليف، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول: قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه يتفصّد عرقاً.

ثم عاد إلى حكمة الأمر بقيام الليل فقال:

٦ ـ ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .

٧ ـ ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ .

٨ ـ ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ .

٩ ـ ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ .

﴿إن ناشئة الليل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلا﴾ يقال نشأ إذا قام من الليل، وهي ساعاته وأوقاته، والمراد أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، بل أجمع للخاطر في أوار القراءة وتفهمها من قيام النهار، ثم أكد قيام الليل بقوله: ﴿إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ أي تصرفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً، وذهاباً وإياباً، فصل بالليل، ثم بين أن أشرف الأعمال عند قيام الليل هو ذكر الله بقوله: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ والتبتل الانقطاع إلى الله انقطاعاً، بالاشتغال بعبادته والتماس ما عنده، ومنه قيل لمريم البتول، لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، ثم أشار إلى الباعث للتبتل فقال: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلّا هو فاتخذه وكيلاً﴾.

القـــراءة

﴿وطأ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو عمرو ﴿وطاء﴾ بكسر الواو مع المد، والمعنى: أن القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهم للقرآن والأحكام لتأويله.

﴿رب﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿ربِ﴾ بالكسر.

ثم أمره بالصبر عند الاختلاط فقال:

١٠ ـ ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ .

١١ ـ ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ .

١٢ ـ ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ .

١٣ ـ ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

﴿واصبر على ما يقولون﴾ من الأذى والتكذيب ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ لا تجد نفسك معهم فإن لهم موعداً يرون فيه نتيجة صبرك عليهم، والصبر مع الهجر الجميل على المعاند المكابر من أفضل أساليب الدعوة، حتى يحين وقت القصاص، ثم أمره بأن يخلي بينه وبين المكذبين أصحاب الترفه فقال: ﴿وذرني والمكذّبين أولي النعمة﴾ أي لا تهتم بهم فأنا أكفيك شرهم وأولي النعمة أرباب الغنى والسعة والترف واللذة في الدنيا ﴿ومهلهم قليلاً﴾ إلى نزول العقاب بهم بالموت أو بالجهاد ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ الأنكال هي القيود، واحدها نكل ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ وهو الذي لا يسوغ في الحلق، يغص الإنسان في أكله.

ثم وصف اليوم الذي تحدث فيه هذه الأحوال والأهوال فقال:

١٤ ـ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾.

يوم منصوب بقوله: إن لدينا أنكالاً والمعنى: ينكل الكافرين ويعذبهم ﴿يوم﴾ تتحرك الأرض والجبال، والرجفة أصلاً هي الزلزلة ﴿وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ الكثيب الرمل المجتمع، والمهيل الذي يمر تحت الأرجل أي رملاً سائلاً لشدة الرجفة.

وحين خوف المكذّبين بأهوال الآخرة، خوفهم بأهوال الدنيا مثل ما جرى على الأمم السالفة فقال:

١٥ ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾.

١٦ ـ ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾.

١٧ ـ ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾.

١٨ ـ ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾.

١٩ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾.

﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ هو موسى عليه السلام ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ الوبيل: الثقيل الغليظ جداً، ومنه قيل للمطر العظيم وابل، وهو الغرق، وفي ذلك من التخويف والتهديد ما هو ظاهر ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ والمعنى بأي شيء تتحصنون من عذاب يوم من هوله يشيب الصغير من غير كبر ﴿السماء منفطر به﴾: منشقة به لشدته وعظيم هوله ﴿كان وعده مفعولاً﴾ وذلك أنه وعد بالبعث، فهو كائن لا محالة ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي إنّ آيات القرآن المتقدمة موعظة، فمن شاء اتخذ إلى ربه بالطاعة طريقاً توصله إلى رضوان الله في الجنة، ذاك تخفيف من ربكم ورحمة.

ثم خفف الله جلّ وعلا عن المؤمنين وخيّرهم قائلاً:

٢٠ ـ ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾.

﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ أي وتقوم ذلك القدر المذكور طائفة من أصحابك، لا تقدرون على المواظبة على قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها فيعلم القدر الذي تقومون من الليل ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ أي علم أنكم مهما سايرتم النبي في صلاتكم معه لن تستطيعوا مجاراته ولا تطيقوا مقدار أوقاته، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: «وأيكم مثلي»، ﴿فتاب عليكم﴾ أي قبل منكم ما قدمتم من

صلاة وعبادة ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه﴾ أي فاقرؤوا في صلاة الليل أو غير الصلاة ما خف عليكم وتيسر لكم منه، غير أن ترقبوا وقتاً، وهذا شروع في بيان التخيير والتخفيف، ثم بين السبب فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وهم المسافرون للتجارة والرزق ﴿وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ وهم المجاهدون ﴿فاقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة﴾ يعني الصلاة المفروضة الخمس في أوقاتها، قال ابن كثير: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة، قال: وهذا يدل أن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلاّ بالمدينة، وباقي الآية واضح.

لا تعارض بين الآيات

لا تعارض بين الآية الأولى والآية الأخيرة في هذه السورة، فالآية الأولى تخاطب النبي ﷺ يا أيها الملتف في ثيابه، وكان ذلك في بدء الوحي فيأمره الله لصلاة قيام الليل دون أن يحدد له وقتاً محدوداً، النصف أو أقل منه وهو الثلث أو زد على ذلك إن قدرت، فجعل له سعة في مدة قيامه فكان ﷺ يقوم الليل على تلك الكيفية، فانضم إليه بعض من حوله من المؤمنين تطوعاً، إذ لم يثبت فرضية ذلك عليهم لا من القرآن ولا من السنة، رغم أن الأمر وجه للنبي ﷺ وحده بالتخصيص بقوله ﴿قم﴾ ولم يشر الله عز وجل في الآية الأولى إلى غير النبي مما يدل على أن الوجوب متوجه له شخصياً.

ولما كان مجاراة الصحابة للنبي ﷺ في ذلك وهم في صدر الإسلام فيه مشقة عليهم وعدم انتظام أمورهم، وربما أقعدتهم عن تجارتهم وجهادهم ورزقهم، ولا يستطيع الكل فعل ذلك وهناك أصحاب الأعذار من المرضى والجرحى وكبار السن والنساء وأصحاب المشاغل والعمال والفلاحين، ولكي لا يظن أحد أن ذلك فرض عليهم فيعجزوا عن أدائه لأنه سبحانه أعلم بحالهم، فرض عليهم الصلوات الخمس وأبقى لهم سنة التهجد بالليل لمن يشاء، وقيام الليل في رمضان، ومما يدل على أن ذلك كان سنة في حق الصحابة غير واجب عليهم عدة أمور منها:

قول الله عز وجل ﴿وطائفة من الذين معك﴾ أي أن الذين كانوا يصلون التهجد مع النبي كانت طائفة من المسلمين وليس كلهم، ولو كان واجباً لم يقل ﴿من﴾ ولا يعقل الوجوب على البعض دون الكل، ومنها:

ولو كان قيام الليل واجباً في حق الصحابة لصلت النساء مع الرجال، ولنقل ذلك واستفاض، ومنها: وعلى رأي من يقول بأن الآية الأخيرة نزلت في المدينة على ما روي من ابن يسار ومقاتل: يلزم من ذلك أن عدد المسلمين كان كبيراً وأن منهم عدداً في المدينة لم ينقل أن أحداً منهم صلى تلك الصلاة على الوجوب ولو كان في المسألة دليل على الوجوب في حق الصحابة ما اختلف المفسرون في ذلك.

ولم يثبت أن النبي ﷺ ترك قيام الليل بل إنه كان يتهجد فيه حتى تتورم قدماه، وكان يقول: ﴿أيكم مثلي﴾ واستمر في ذلك بعد فرض الصلوات الخمس، فدل على ثبوته في حقه، وبذلك لا مجال للقول بالتعارض بين الآيات، ولا الحاجة إلى القول بالنسخ حيث إن حكمها في قيام الليل باق في حق النبي ﷺ على

الوجوب إلى أن مات، سنة في حق أمته، لمن شاء منهم أن يتهجد، وهذا المعنى هو الذي يفهم من سياق الآيات حيث بدأت بالخطاب للنبي ﷺ وحده ﴿قم﴾ إلى قوله ﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ وفي موضع التخيير والترخيص والتخفيف اختلف الخطاب فتوجه إلى الجميع بقوله ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ قبل منكم ذلك وغفر ذنوبكم بصلاتكم غير المفروضة فاقرؤوا ما تيسر من القرآن.

القـــراءة

﴿ونصفه وثلثه﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ﴿ونصفه وثلثه﴾ بالكسر.

سورة المدثر

تسمى سورة المدثر كزميلاتها لورود كلمة المدثر في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أمر سبحانه نبيه ﷺ في آخر المزمل بالصلاة وغيرها، أمره في مفتتح هذه السورة بالإنذار فكأنه أمره أن يبدأ بنفسه ثم بالناس فقال:

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾.

٢ ـ ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾.

٥ ـ ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾.

٦ ـ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾.

جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي ـ أي صرت في باطنه ـ فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر أحداً ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو في الهواء (يعني جبريل عليه السلام) فأقبلت إلى خديجة فقلت دثروني دثروني، فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر﴾ وأصل المدثر، المتدثر، فأدغمت التاء، كما في المزمل، من التدثير بالثياب، ﴿قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر﴾ أي انهض فخوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا، حالة كونك معظماً الله عز وجل قائلاً الله أكبر من كل شيء، ثم أمره أن يكون على طهارة دائمة في ملابسه ﴿والرجز فاهجر﴾ أي اهجر كل ما يؤدّي إلى العذاب، لأن الرجز معناها في اللغة العذاب، وعلى كل تقدير لا يلزم تلبسه ﷺ بشيء من ذلك، كقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾[1] ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ لا تمنن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوة كالذي يستكثر ما

(١) أول سورة الأحزاب.

يتحمّله بسبب الغير ﴿ولربك فاصبر﴾ لأجل ربك وثوابه فقد حملت أمراً عظيماً سيحاربك الأعداء عليه فاصبر عليه.

القـــراءة

﴿والرجز فاهجر﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿والرجز فاهجر﴾ بالكسر.

٨ ـ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾.

٩ ـ ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾.

١٠ ـ ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾.

﴿فإذا نقر في الناقور، فذلك يومئذ يوم عسير﴾ المراد هنا النفخ في الصور يوم القيامة فذلك اليوم على الكافرين شديد غير هين.

ما يلاقيه زعماء الشرك

ثم إنّه تعالى هدّد الكافرين وسلى نبيه بقوله:

١١ ـ ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾.

١٣ ـ ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴾.

١٥ ـ ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾.

١٦ ـ ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾.

١٧ ـ ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾.

١٨ ـ ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾.

١٩ ـ ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾.

٢١ ـ ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ .

٢٥ ـ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ .

﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ هذا تهديد للكافر، والمعنى: دعني فإنّي أكفيك في الانتقام منه ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً﴾ أي كثيراً، لممدود عدده ومساحته ﴿وبنين شهوداً﴾ أي وجعلت له بنين حضوراً معه لا يغيبون عنه ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي بسطت له العيش وطول العمر ﴿ثم يطمع أن أزيد﴾ يطمع في ماله وولده ﴿كلا﴾ لا أفعل، أي لست أزيده وذلك بسبب ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ أي معانداً كافراً بما أنزلناه على رسولنا ﴿سأرهقه صعوداً﴾ سأحمله على مشقة العذاب، والإرهاق: أن يحمل الإنسان الشيء الثقيل الذي لا يطيقه إلاّ بمشقة ﴿إنّه فكر وقدر﴾ فكر في شأن النبي ﷺ ماذا يقول، وقدّر في نفسه أي: هيأ الكلام في نفسه ما يقول، فذمه الله تعالى فقال ﴿فقتل كيف قدر﴾ أي لعن وعذب، على أي حال قدر ما قدر من الكلام ﴿ثم نظر﴾ بأي شيء يدفع القرآن ويقدح فيه ﴿ثم عبس وبسر﴾ كلح وجهه وقطب، يقال بسر الرجل وجهه، أي قبضه، كف وجهه، ونظر بكراهية شديدة، كالمتهم المتفكر في الشيء ﴿ثم أدبر واستكبر﴾ أدبر عن الإيمان، واستكبر حين دعي إليه ﴿فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر﴾ أي قال: ليس هذا القرآن إلاّ سحراً ينقله محمد عن غيره ويرويه عنه ﴿إن هذا إلاّ قول البشر﴾ يعني قال إنّه كلام الإنس، وليس بكلام الله، قال ذلك الوليد بن المغيرة إرضاء لقومه بعد اعترافه أنّ له حلاوة وأن عليه طلاوة إلخ، فقال تعالى:

٢٦ ـ ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ .

٢٧ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ .

٢٨ ـ ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ .

٢٩ ـ ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ .

٣٠ ـ ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ .

﴿سأصليه سقر﴾ سأدخله النار ﴿وما أدراك ما سقر﴾ لعظم شأنها ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ أي لا تبقي لهم لحماً إلا أكلته، ولا تذر منهم فرداً إلا طالته ﴿لواحة للبشر﴾ مغيرة يقال: لاحته الشمس إذا غيرته ﴿عليها تسعة عشر﴾ وهم خزانها من الملائكة، مالك ومعه ثمانية عشر.

٣١ ـ ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ .

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة﴾ هذا رد على مشركي قريش الذين تقالّوا خزان النار ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ أي ما جعلنا عددهم المذكور إلاّ إضلالاً وفتنة أي محنة للكافرين حتى قالوا ما قالوا، ليضاعف عذابهم ويكثر غضب الله عليهم ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن بأن عدة خزنة جهنم تسعة عشر لما عندهم في كتبهم ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ في الدين ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون﴾ هم المنافقون، والمراد بالمرض حصول الشك والريب، والكافرون هم المشركون من غير أهل الكتاب، ومعظم المنافقين من أهل الكتاب ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ها هنا؟ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي من مثل هذا أو أشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين، معنى كذلك أي: كما أضلّ من أنكر عدد الخزنة، وهدى من صدق يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿وما يعلم جنود ربك إلاّ هو﴾ يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، وذلك أن لكل واحد من هؤلاء التسعة عشر من الأعوان ما لا يعلمه إلا الله، ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ وما هي أي النار التي وصفت إلاّ تذكرة وموعظة للعالم حتى يعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.

سقر ومن فيها

٣٢ ـ ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴾.

٣٣ ـ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾.

﴿كلا والقمر﴾ ﴿والليل إذ أدبـر، والصبح إذا أسفر﴾ أقسم على ذلك ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ هذا جواب القسم، والكبر جمع كبرى، وهذا كما يقال إنها لإحدى العظائم، وقال ابن السائب ومقاتل: أراد بالكبر: دركات جهنم السبعة، ﴿نذيراً للبشر﴾ نصب نذيراً على الحال: والمعنى إنّها الكبيرة في حال الإنذار، وذكر النذير لأن معناه معنى العذاب، ﴿لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر﴾ يتقدم بالإيمان والطاعة، أو يتأخّر بالكفر والمعصية، لأن الإنذار قد حصل لكل أحد.

القــــراءة

﴿إذ أدبر﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿إذا أدبر﴾ بفتح الذال.

ثم أكّد المعنى المقدم بقوله:

٣٨ ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

٤١ ـ ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾.

٤٣ ـ ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴾.

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ أي متعلقة بعملها يوم القيامة، وهذا إعلان من الله بأن النفس الإنسانية ليست مؤاخذة بخطيئة آدم ولا بخطايا آبائها وأجدادها كما يعتقد بعض أتباع الأديان الأخرى، كما أن كل نفس لا ينفعها وهي آثمة أعمال آبائها وأجدادها ولو كانوا على درجة عالية من الصلاح والتقوى ﴿إلّا أصحاب اليمين، في جنات يتساءلون﴾ ﴿عن المجرمين﴾ وحين ارتهنت كل نفس بعملها لتحاسب عليه، وسيق الذين كفروا إلى جهنم، وسيق الذين آمنوا إلى الجنة، صار المؤمنون يتساءلون، يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين، أو يسألون المجرمين عن السبب الذي أدخلكم النار فيجيب المجرمون ﴿قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين﴾ أي ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾ الخائضون هم أهل الباطل والتكذيب، فنقول نحن معهم على النبي ﷺ، هو كاذب ساحر شاعر إلخ... ﴿وكنا نكذب بيوم الدين﴾ أي بيوم الجزاء والحساب ﴿حتى أتانا اليقين﴾ وهو الموت.

وبعد الموت ثم البعث يوضّح القرآن بأن كل نفس مأخوذة بعملها فيقول:

٤٨ ـ ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾.

٥١ ـ ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾.

﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ من الأصنام أو الأولياء أو الصالحين أو ما يسمى بالقديسين، كله وهم لا ينفع ولا يضر ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة﴾ أي: أي شيء حصل لهم حال

كونهم معرضين عن القرآن الذي هو مشتمل على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى، وهم في مثل إعراضهم كمثل الحُمُر المذعورة التي فرت حين معاينتها الأسد أو الصيّاد.

القــــراءة

﴿مستنفرة﴾ قرأ نافع وابن عامر، وأبو جعفر بفتح الفاء.

المشيئة تتعلق بالأمر الكوني

ثم يصف القرآن نفسية هؤلاء، وما تتصف به من الحسد للنبي ﷺ فيقول:

٥٢ ـ ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾.

٥٣ ـ ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾.

٥٤ ـ ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾.

٥٦ ـ ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾.

﴿بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ القرآن ﴿كلا﴾ لا يؤتون الصحف ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ لا يخشون عذابها ﴿كلا﴾ أي حقاً ليس الأمر كما يريدون ويقولون ﴿إنّه تذكرة﴾ تذكير وموعظة ﴿فمن شاء ذكره﴾ الهاء عائدة على القرآن، ثم رد المشيئة إلى نفسه فقال: ﴿وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله﴾ كقوله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾[1]، أي إلاّ أن يريد لهم الهدى، فلا اختيار دون مشيئة الله، وقد بينا هذا المعنى في أكثر من موضع بأنه لا تعارض بين الأمر الديني الشرعي والمشيئة كأمر كوني قدري، فالأمر التشريعي قد يعصى ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[2]، والأمر الكوني تتعلق به المشيئة بما يحب وبما يكره، كما خلق إبليس وهو يكرهه، وخلق الشياطين والكفار وهو يكرههم، وخلق المؤمنين وهو يحبهم[3]، ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أي أهل أن يتقى، وأهل أن يغفر لمن تاب.

القــــراءة

﴿وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله﴾ قرأ نافع ﴿وما تذكرون﴾ بالتاء على الخطاب.

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧.

(٣) راجع التفصيل في سورة الأعراف، الآية: ٥٤ وكتاب المصنف (وتفسير مشكل القرآن القسم الثاني للعقيدة) فصل القضاء والقدر.

سُورَةُ القِيَامَةِ

سميت سورة القيامة لورود كلمة ﴿القيامة﴾ في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اكتشاف تمايز البصمات دليل إعجاز القرآن

لما ختم الله سبحانه سورة المدثر بذكر القيامة وأن الكافر لا يؤمن بها، افتتح هذه السورة بذكر القيامة وذكر أهوالها فقال:

١ ـ ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾.

٣ ـ ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾.

٤ ـ ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾.

﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ لا: رداً على منكري البعث، ويدل عليه أنه أقسم على كون البعث، قال ابن قتيبة: زيدت ﴿لا﴾ على نية الرد على المكذبين، كما تقول: لا والله ما ذاك، ولو حذف جاز، ولكنه أبلغ في الرد ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قسم ثان، والنفس اللوامة التي تلوم صاحبها على تقصيره، وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم تعمله، وعلى الخير لم تستكثر منه؟ ﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه﴾ المراد بالإنسان هنا الكافر، وجواب القسم محذوف كأنه قال لتبعثن، لتحاسبن فدل قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان﴾ على الجواب فحذف، قال ابن كثير: والمقسم عليه هاهنا، هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعم الجهلة من العباد من عدم البعث، ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ بلى: وقف حسن ثم يبتدأ ﴿قادرين﴾ على معنى بلى نجمعها قادرين، ويصلح نصب قادرين على التكرير: بلى فليحسبنا قادرين، قال ابن كثير والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿قادرين﴾ حال من قوله تعالى: ﴿نجمع﴾ أي أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نسوّي بنانه، وبنانه أطراف أصابعه، ونسوي نجعلها شيئاً واحداً لا تتميز بعضها عن بقية أعضاء الجسم في الإنسان أو الحيوان البهيم، والملاحظ أن أعضاء الجسم كالعين والأنف والأذن وغيرها تتشابه بين إنسان وآخر، ولكن الأصابع لها ميزات خاصة فهي لا تتشابه ولا تتقارب، وهذه الميزات لم تعرف إلّا في العصر الحديث أي بعد نزول القرآن بثلاثة عشر قرناً ففي سنة ١٨٨٤م استعملت رسمياً في إنكلترا طريقة التعرف على الإنسان بواسطة بصمات الأصابع، واليوم تستعين

الأدلة الجنائية بما تتركه أصابع يد الإنسان وراءها من آثار على اكتشاف شخصية المجرم، وهي دليل قاطع في التمييز بين شخص وشخص مهما بلغ العدد من الكثرة، وهذا من إعجاز القرآن الذي تحدّث ونبّه عن شيء مهم لمصلحة المجتمع.

القـــراءة

﴿لا أقسم﴾ قرأ ابن كثير بغير ألف بعد اللام.

٥ ـ ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾.

٦ ـ ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

٧ ـ ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾.

﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ هو الذي يعجل الذنوب ويسوّف التوبة، يقدم فجوره فيما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب يريد أن يفجر ما امتد عمره ولا يذكر الموت ﴿يسأل أيّان يوم القيامة﴾ أي متى هو؟، تكذيباً به، سؤال استبعاد واستهزاء ﴿فإذا برق البصر﴾ فزع وبهت وتحير من شدة شخوصه أو للبعث، ﴿وخسف القمر﴾ ذهب ضوؤه كله، ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا.

﴿وجمع الشمس والقمر﴾ إذا ذهب ضوؤهما جميعاً فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار، والحال هذه تختل الجاذبية والنظام الكوني للأجرام السماوية والأرض، إلى ما لا يعلمه إلا الله.

القـــراءة

﴿برق البصر﴾ قرأ أهل المدينة[1]، وأبان عن عاصم ﴿برق﴾ بفتح الراء، والباقون بكسرها.

١٠ ـ ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾.

١١ ـ ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾.

﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ يوم القيامة يتمنى الفرار من الله سبحانه ومن حسابه وعذابه، ولكن هيهات، ﴿كلا لا وزر﴾ لا ملجأ وأصل الوزر الجبل الذي يمتنع فيه، ولا حصن ولا من عاصم يعصم من الله ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ المرجع والمنتهى.

---

(١) كلمة أهل المدينة تعني نافعاً وأبا جعفر.

١٣ ـ ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .

١٤ ـ ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ .

١٥ ـ ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ .

﴿ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، صالحها وطالحها، ثم بين أن الإنسان لأعماله بصير وإن لم ينبأ فقال: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره﴾ يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج، ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك فعليه أن يكذب عذره.

١٦ ـ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ .

١٧ ـ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ .

١٨ ـ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ .

١٩ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ كان النبي ﷺ كما أخبر ابن عباس ورواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم يشتد حفظ التنزيل، وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، مخافة أن لا يحفظه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ومعناها لا تحرك بالقرآن لسانك لتعجل بأخذه ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ أي ضمه وجمعه في صدرك ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي اعمل به واتبع حلاله وتجنّب حرامه وأعد القراءة بعد انتهاء جبريل منها ﴿ثم إنّ علينا بيانه﴾ أي تفسير ما فيه من الحلال والحرام والأحكام وبيان ما أشكل منه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أنصت، فإذا ذهب عنه قرأ كما أمره الله.

٢٠ ـ ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ .

٢١ ـ ﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ .

٢٢ ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ .

٢٣ ـ ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴾ .

٢٥ ـ ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

﴿كلا﴾ ليس الأمر كما تقولون وتعتقدون من أنكم لا تبعثون، وهي تستعمل للردع عن العجلة والترغيب في الأناة.

﴿بل تحبون العاجلة﴾ العاجلة هي الدنيا الفانية، وتسميتها بالعاجلة إيحاء بقصر حياة الإنسان فيها

ومروره على عجل ﴿وتذرون الآخرة﴾ أي تتركون العمل للآخرة التي هي الباقية الخالدة، ثم وصف اليوم الآخر بقوله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ مشرقة بالنعيم ﴿إلى ربها ناظرة﴾ ثبتت رؤية الله للمؤمنين في الدار الآخرة في الصحاح من طرق متواترة، ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ عابسة مقطبة ﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ تستيقن أن ينزل بها داهية عظيمة تقسم فقار ظهرها.

القــــراءة

﴿بل تحبون، وتذرون﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿بل يحبون ويذرون﴾ بالياء فيهما.

الإنسان عند موته وعند بدء خلقه

وحين وصف القيامة الكبرى، أتبعه نعت القيامة الصغرى فروّعهم عن إيثار العاجلة على الآجلة وذكرهم حالة الموت بقوله:

٢٦ ـ ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾.

٢٩ ـ ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾.

٣٠ ـ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾.

٣١ ـ ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

٣٣ ـ ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾.

﴿كلا﴾ ردع وتنبيه، والمعنى: ارتدعوا عما يؤدي إلى العذاب ﴿إذا بلغت التراقي﴾ إذا بلغت النفس، والتراقي العظام المكتنفة لنقرة النحر عن يمين وشمال، وواحدة التراقي ترقوة، وهي كناية عن الإشراف على الموت وظهور أماراته ﴿وقيل من راق﴾ أي يقول أهل المحتضر لبعضهم البعض هل من طبيب يشفيه ويرقيه، ويداويه؟ وراق اسم فاعل من رقى، إذا قرأ شخص ليداوي المريض ﴿وظن أنه الفراق﴾ أي أيقن المحتضر أنه الموت الذي سيفارق به هذه الدنيا ﴿والتفت الساق بالساق﴾ التفاف الساقين عند خروج الروح ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ المرجع والحشر يوم القيامة ﴿فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولّى، ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾ أي إنّ هذا الإنسان الذي هذا شأنه عند الموت كذب الرسول وتولى عن الإيمان في الدنيا، ثم هو يتبختر ويختال في مشيته في ذهابه إلى أهله.

٣٤ ـ ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ .

٣٥ ـ ﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ .

٣٦ ـ ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

٣٧ ـ ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ .

٣٨ ـ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

٣٩ ـ ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ .

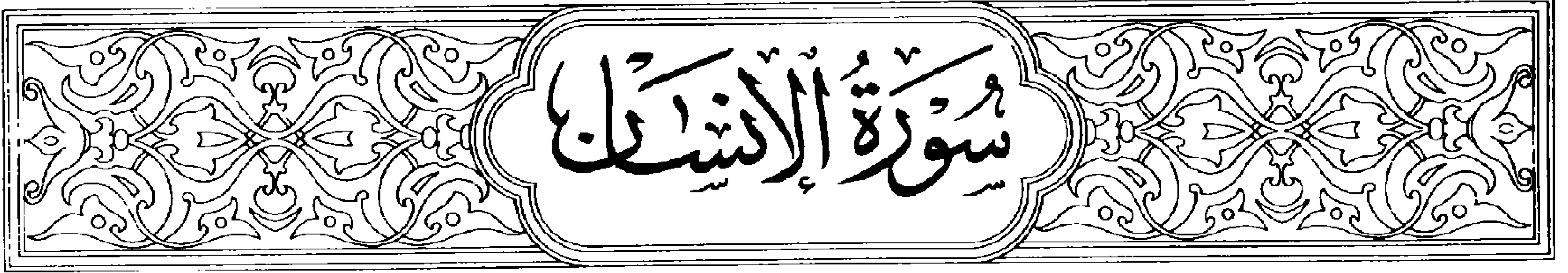
٤٠ ـ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

﴿أولى لك فأولى﴾ هذا تهديد ووعيد تقول العرب أولى لفلان: إذا دعت عليه بالمكروه، ومعناه وليك المكروه، ﴿ثم أولى لك فأولى﴾ تكرار للتأكيد ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ أيهمل فلا يؤمر ولا ينهى بدون تكليف.

﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾ ألم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يراق في الرحم، فيعتبر بالذي خلقه فسوّاه، وعدّله ورزقه ﴿ثم كان علقة فخلق فسوى﴾ أي بعـد النطفة نشأه وأكمله ونفخ فيه الروح ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ جعل من ذلك المني باتحاد بويضة الرجل مع بويضة الأنثى زوجين، تارة ذكراً وتارة أنثى، والقادر على خلق الإنسان على هذا الشكل قادر على إعادته حياً يوم القيامة للحساب ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وبهذه الآية تنتهي السورة بمثل ما بدأت به من إنكار الإنسان للبعث، واعتقاده بأن الله لن يعيده حياً ويجمع عظامه، والجواب ﴿بلى قادرين﴾.

القــراءة

﴿يمنى﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿تمنى﴾ بالتاء.



تسمى سورة الدهر لورود كلمة الدهر في أول السورة كما تسمى سورة الإنسان والأبرار.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ختم الله سبحانه سورة القيامة بأن دل على صحة البعث بخلق الإنسان من نطفة وافتتح هذه السورة بمثل ذلك فقال:

١ ـ ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾.

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ قد أتى، والاستفهام للتقرير بمعنى قد، والمراد بالإنسان اسم جنس فإنه مر عليه حين من الدهر، أي زمن كونه نطفة وعلقة ومضغة، أو كان حيواناً منوياً في ظهر أبيه وأمه ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ والمعنى أنه كان شيئاً غير أنه لم يكن مذكوراً، وهذا ينطبق على آدم وحواء قبل خلقهما، فقد كان آدم شيئاً من التراب غير مذكور للملائكة وغيرهم من الخلائق.

٢ ـ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾.

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ قال المفسرون: الأمشاج الأخلاط، أي أخلاط ماء المرأة بماء الرجل، فوصف الله النطفة وهي المني، بالأمشاج إشارة إلى ما تحتويه هذه النطفة من عناصر مختلفة، وهذا ما كشفه العلم بواسطة المجهر والتحاليل مظهراً معجزة للقرآن تشهد بأنه كلام رب العالمين، فالأمشاج هي تلك الخلايا غير الكاملة أنصاف الخلايا (الكروموسومات) التي تتحد مع بعضها ـ أمشاج المرأة وأمشاج الرجل ـ فتكون النطفة، ومن المعلوم أن كل خلية في جسم الإنسان تحتوي على عدد من العوامل الوراثية، ما عدا الحيوانات المنوية للرجل والبويضة للأنثى، فكل منهما يحتوي على نصف العدد، فهي خلايا ناقصة ﴿نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ جعلناه كذلك لنختبره بالخير والشر وبالتكاليف، فلا عذر له فهو يسمع ويبصر ويدرك.

هداية البيان

ثم أخبر بعد أن ركّبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة أوضح له بواسطة أن أتاه العقل السليم سبيل الهدى والضلالة:

٣ ـ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، وذلك عن طريق الرسل وإنزال الكتب والوعاظ والعلماء ونصب

الأدلة السمعية والعقلية، وهو بعد ذلك أوكل له الاختيار بالعقل الذي جعله فيه، فإما أن يختار الهداية فيكون شاكراً لنعمة الله عليه وإما أن يختار الضلالة فيكون كافراً أو عاصياً، فيسلك طريق الإثم والفجور فيستحق غضب ربه وعقابه.

ثم يبين الله بعد ذلك ما أعد للذين يسلكون سبيل الإثم والفجور فيقول:

٤ ـ ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾.

قال مقاتل: السلاسل في أعناقهم، والأغلال في أيديهم، والسعير الوقود الشديد.

القـــراءة

﴿سلاسلا﴾ بغير تنوين، قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة ﴿سلاسل﴾ بغير تنوين ووقفوا بألف، وقرأ نافع والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿سلاسلاً﴾ بالتنوين يصلونها، ويقفون عليها بالألف.

الأبرار أعمالهم وجزاؤهم

٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾.

٦ ـ ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾.

الأبرار جمع بار، وهو من جمع في نفسه الصدق والتقوى والإخلاص إلى الله، والإحسان إلى خلقه، فهؤلاء في الجنة يشربون من كأس ممزوج شرابها بالكافور، وهو طيب معروف جنسه يستحضر من أشجار ببلاد جنوب شرق آسيا، وهم يشربون تلك الكأس التي تغترف من عين فوارة لا يخشون نضوبها.

ثم عدد صفات هؤلاء الأبرار التي كانوا يتصفون بها في الدنيا فقال:

٧ ـ ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾.

٨ ـ ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾.

٩ ـ ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾.

١٠ ـ ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾.

﴿يوفون بالنذر﴾ يوفون إذا نذروا لله سبحانه، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه لله تعالى من صلاة أو صوم أو ذبح أو صدقة أو غيرها، مما لم يكن عليه واجباً بالشرع، روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) ﴿ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ يخافون يوم القيامة أي كان شره وخطره منتشراً فاشياً في كل جهة مأخوذ من استطار الحريق إذا امتد وانتشر، ومن صفاتهم التي ذكرها الله ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، وفي الحديث الصحيح «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى

وتخشى الفقر»[١]، ويصف الله نفسية الأبرار والوازع الذي يحدوهم إلى الإحسان وهم يقولون لمن سألهم ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ لا يتوقعون المكافأة منهم ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك، بل هو خالص لوجه الله أي لثوابه ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ تعبس فيه الوجوه فجعله في صفة اليوم كقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿في يوم عاصف﴾[٢] أراد عاصف الريح، فأما القمطرير فهو الطويل الشديد.

ثم يطمئن الله هؤلاء الأبرار بأنه سيعطيهم الأمن يوم القيامة بدل الخوف والسرور بدل العبوس فيقول:

١١ ـ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾.

١٣ ـ ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾.

﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم﴾ وقاهم الله عذاب يوم القيامة، ودفع عنهم شره، بسبب خوفهم منه، وإطعامهم الطعام لوجه الله ﴿ولقاهم نضرة وسروراً﴾ أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجوه وسروراً في النفوس ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ لما كان صبرهم من أجل الله ومصلحة المجتمع والإنسانية أثابهم الله الجنة وألبسهم الحرير ﴿متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ فالأبرار في الجنة في جلسة مريحة مطمئنة على السرر في طقس معتدل لا حر فيه ولا برد، والزمهرير هو البرد الشديد ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ أي أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظللة عليهم، وثمار الجنة سخرت لمتناولها، فلا يصعب قطفها على أحد منهم.

وحين وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم واعتدال هوائه وكيفية جلوسهم فيه أخبر عن شرابهم وأوانيهم فقال:

١٥ ـ ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾.

١٦ ـ ﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾.

١٨ ـ ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾.

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا، قواريرا من فضة﴾ أي أن تلك الأكواب هي قوارير، ولكنها من فضة، والقارورة معروفة في الدنيا ﴿قدروها تقديراً﴾ أي أن السقاة في الجنة يقدرون

(١) رواه الجماعة.

(٢) الآية: ١٨.

المطلوب للشاربين بحيث لا يزيد ولا ينقص عن رغبتهم ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ كانت العرب تضرب المثل بالزنجبيل والخمر ممزوجين، ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ سلس ماؤها، وهو صفة للماء.

القــــراءة

﴿قواريرا﴾ قرأ نافع والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿قواريرا ـ قواريرا﴾ فيصلونها بالتنوين ويقفون عليها بغير ألف، وقرأ ابن عامر وحمزة بغير تنوين، مع الوقف عليهما بغير ألف ﴿قوارير ـ قوارير﴾.

وقرأ ابن كثير بتنوين الأول﴿قواريرا﴾ ويقف عليه بالألف، ويصل الثاني بغير تنوين، ويقف بغير ألف، وكان حفص عن عاصم يقرأ ﴿سلاسل﴾ و ﴿قوارير قوارير﴾ يصل الثلاثة بغير تنوين، ويقف على الثلاثة بالألف.

وقرأ أبو عمرو ﴿قواريرا﴾ فيقف عليه بالألف، ويصل بغير تنوين.

ثم وصف خدمهم بقوله:

١٩ ـ ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

٢١ ـ ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

٢٢ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ هم خدم الجنة في مقتبل العمر شبابهم دائم، لا يهرمون ولا يتغيرون ﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج سكان الجنة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن للخدمة، ثم خاطب نبيه ﷺ أو كل راء قائلاً: ﴿وإذا رأيت﴾ أي هناك في الجنة ﴿ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ والمعنى: وإذا رميت ببصرك هناك رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً كبيراً مستوعباً لجميع ما يوفر على النفس راحتها وسعادتها، ثم يصف الله ثياب الأبرار وزينتهم فيقول ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ أي لباس أهل الجنة السندس وهو الحرير الرقيق، والإستبرق، وهو ما غلظ من الديباج ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وفي سورة فاطر: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾[١]، يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك، ثم ختم جزاء الأبرار بقوله ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي حلالاً بخلاف خمر الدنيا فإنها رجس كما قال الله عز وجل: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾[٢]، ﴿إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً﴾ شكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته.

القــــراءة

﴿عاليهم﴾ قرأ أهل المدينة وحمزة والمفضل عن عاصم بإسكان الياء وكسر الهاء، ﴿ثياب سندس وإستبرق﴾ قرأ

---

(١) الآية: ٣٣.

(٢) سورة المائدة الآية: ٩٠.

ابن عامر وأبو عمرو ﴿خضر﴾ رفعاً ﴿وإستبرق﴾ خفضاً، وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ﴿خضر﴾ خفضاً ﴿وإستبرق﴾ رفعاً نسق على ﴿ثياب﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿خضر وإستبرق﴾ كلاهما بالخفض عطفاً على السندس.

الفروض الخمس

وحين فرغ من شرح أحوال الآخرة بدأ بكيفية صدور القرآن الذي منه هذه العلوم والحقائق فقال:

٢٣ ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾.

٢٤ ـ ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾.

٢٥ ـ ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

٢٦ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾.

﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ أي فصلناه في الإنزال، فلم ننزله جملة واحدة ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ كما أكرمتك بما أنزلت عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عمّا أنزل إليك من ربك وتوكل على الله مستعيناً بالصبر في أول دعوتك، و ﴿أو﴾ بمعنى الواو، والآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ صل أول النهار وآخره. يعني صلاة الفجر، وصلاة الظهر والعصر ﴿ومن الليل فاسجد له﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وهي صلاة التطوع في الليل، وهي مفروضة عليه ﷺ دون المؤمنين كما مر بيانه في سورة المزمل مفصلاً.

ثم ذكر قدرته فقال:

٢٧ ـ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾.

٢٨ ـ ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾.

﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة﴾ أي كفار مكة ومن هو موافق لهم يحبون دار الدنيا ﴿ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ وهو يوم القيامة، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال، فهم لا يستعدون له لأن دار الدنيا أنستهم العمل لهذا اليوم، ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ أحكم وقوى خلقهم، يقال امرأة حسنة الأسر أي حسنة الخلق، كأنها أبرت، أي شدت ﴿وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾ وهو القادر على إهلاكهم وإبدالهم بقوم لا يماثلونهم في الكفر.

٢٩ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾.

٣٠ ـ ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

٣١ ـ ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿إن هذه تذكرة﴾ يعني هذه السورة ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً أي من شاء اهتدى بالقرآن، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ أي إن إرادة الله ومشيئته فوق إرادة الجميع، فلا يقدر أحد أن يجلب لنفسه نفعاً دون إرادة الله، فاسألوا الله أن يرزقكم هدايته ورحمته ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيّض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً﴾ يدخل من يرى أنه يستحق الجنة، والظالمون وهم الكفار المشركون لهم عذاب أليم في النار.

القــــراءة

﴿تشاؤون﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿وما يشاؤون﴾ بالياء.



تسمى سورة المرسلات كزميلاتها لورود كلمة المرسلات في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم سورة الإنسان بذكر القيامة وما أعد فيها للظالمين، افتتح هذه السورة بمثل ذلك فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾.

٢ ـ ﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴾.

٣ ـ ﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾.

٤ ـ ﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴾.

٥ ـ ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾.

٦ ـ ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾.

٧ ـ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

﴿والمرسلات عرفاً، فالعاصفات عصفاً، والناشرات نشراً﴾ اختلف المفسرون في معناها، وقال معظمهم هي الرياح، وقال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره، أقسم بالمرسلات عرفاً، وقد ترسل عرفاً الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عمّ جل ثناؤه بأقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكل من كانت صفته كذلك فداخل في قسمه ذلك، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً.

أقول: ومما يدخل تحت هذا الوصف هو الطائرات على اختلاف أنواعها، فمنها العاصفات، ومنها الناشرات، وفيها الهادىء، وهذه من معجزات القرآن وصدقه في القديم والحديث، ﴿فالفارقات فرقاً﴾ ﴿فالملقيات ذكراً﴾ ﴿عذراً أو نذراً﴾ قال ابن كثير: يعني الملائكة، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري، ولا خلاف هاهنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره، وجميع المذكورات مجرورات بالقسم، وجواب القسم هو ﴿إنما توعدون لواقع﴾ قال المفسرون: إن ما توعدون به من أمر الساعة والبعث والجزاء لواقع أي لكائن.

أقول: وقوله إنما توعدون لواقع فيه إشارة إلى ما تضمنّه القرآن من إشارات وإخبار عن أمور ذكرها لم يحن وقت وقوعها، وبعضها قد وقع في زماننا واكتشفه العلم، وبعضها سوف يقع في المستقبل ومن ضمنها يوم القيامة.

مقدمات البعث

ثم ذكر متى يقع يوم القيامة فقال:

٨ ـ ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾.

١١ ـ ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾.

١٢ ـ ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾.

١٣ ـ ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾.

١٥ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

﴿فإذا النجوم طمست﴾ ذهب نورها ﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي انشقت ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ دكت وذريت في الهواء وسيرت ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ من الميقات وهو يوم القيامة.

﴿لأي يوم أجلت﴾ شهادتهم على أممهم ثم بين الغرض من ذلك فقال ﴿ليوم الفصل﴾ وهو يوم يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، ثم عظم ذلك اليوم فقال ﴿وما أدراك ما يوم الفصل﴾ وأي شيء شدته ومهابته، ثم عقبه بتهويل ثالث فقال: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي يوم إذ كان ما فيه من الأهوال للمكذبين، وقد كرر هذا التهويل في تسعة مواضع أخر لمزيد من التأكيد والتقرير كما مر في سورة الرحمن.

القـــراءة

﴿أقتت﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وقّتت﴾ بواو مع تشديد القاف، ووافقه أبو جعفر إلاّ أنه خفف القاف.

بعض مظاهر القدرة

ثم هدّدهم ووبّخهم فقال:

١٦ ـ ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ .

١٩ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

﴿ألم نهلك الأولين﴾ بالعذاب ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾ قال ابن جرير الطبري: الأولون قوم نوح، وعاد وثمود، والآخرون قوم إبراهيم، ولوط وأصحاب مدين ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ أي مثل ذلك الإهلاك نقدر أن نفعل بكل مجرم، وهذا تهديد للكفار بقدرة الله عز وجل على العاصين.

القرار المكين

ثم وبخهم بتعديد النعم وآثار القدرة عليهم فقال:

٢٠ ـ ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ .

٢١ ـ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ .

٢٢ ـ ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

٢٣ ـ ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ أي ضعيف وهو الحيوان المنوي ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ لما كانت النطفة المتكونة من الحيوان المنوي للذكر وبويضة الأنثى ضعيفة وحساسة جداً، أقل شيء يؤذيها، كان لا بد أن تكون في مكان أمين وملجأ منيع يحميها من أية إصابة أو اهتزاز، فقدر لها صانعها سبحانه وتعالى مكاناً أكثر أماكن الجسم حماية، وأعظمها منعة في مكان محاط بعظام قوية ثابتة، إحاطة السوار بالمعصم وهو أقل أجزاء الجسم حركة، هذا المكان هو الرحم الذي وضعه الخالق سبحانه داخل عظام الحوض القوية ﴿إلى قدر معلوم﴾ وهو مدة الحمل ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾ أي قدرنا أعضاءه وصفاته وجعلنا كل حال من أحواله على الصفة التي أردنا فنعم القادرون.

القــــراءة

﴿ألم نخلقكم﴾ قرأ قالون عن نافع بإظهار القاف.

﴿فقدرنا﴾ قرأ أهل المدينة والكسائي ﴿فقدّرنا﴾ بالتشديد.

ثم بين لهم صنعه ليعتبروا فيوحدوه فقال:

٢٥ ـ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ .

٢٦ ـ ﴿ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ .

٢٧ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ .

٢٨ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ الكفت الضم، والمعنى: إنها تضم أهلها أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها، قال ابن قتيبة: يقال: اكفت هذا إليك أي ضمه، وكانوا يسمون بقيع الغرقد: كفتة، لأنه مقبرة يضم الموتى ﴿أحياءً وأمواتاً﴾ النصب على الحال ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ الرواسي هي الجبال الثوابت كالأوتاد للأرض، والشامخات مرتفعات ﴿وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾ أي عذباً من الأنهار الجارية، والآبار والعيون والأمطار.

الكفار يوم القيامة

ثم ذكر ما يقال لهم في الآخرة فقال:

٢٩ ـ ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

٣٠ ـ ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ .

٣١ ـ ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ .

﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون﴾ أي سيروا إلى النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ الظل هاهنـا ظل من دخان نار جهنم سطع ثم افترق ثلاث فرق، هذا هو شأن الدخان العظيم إذا ارتفع يتشعب، ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ لا مظلل لهم من حر ذلك اليوم، وغير مغن من حر اللهب شيئاً، وهو تهكم بهم، وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ﴿يوم لا ظلّ إلا ظله﴾[1].

ثم وصف النار فقال:

٣٢ ـ ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ .

٣٣ ـ ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ .

٣٤ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

٣٥ ـ ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ .

٣٦ ـ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ .

٣٧ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

٣٨ ـ ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ .

٣٩ ـ ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ .

(١) جزء من الحديث الذي رواه الشيخان.

٤٠ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

﴿إنها ترمي بشرر كالقصر﴾ أي أن ما يتطاير من النار كل واحدة منه في عظمها وارتفاعها كالقصر، وهو ما علا من البناء أو غيره كالخشب والحديد والشجر.

ثم زاد في البيان بعد أن أتبعه تشبيهاً آخر فقال: ﴿كأنه جمالت صفر﴾ جمع جمل، وجمعها جمالات، وهي الإبل السود، وقيل لها صفر وهي سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، شبه الشرر حين ينفصل من النار في عظمه بالقصر، وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط لانشقاقه وتشعبه بالجمالات الصفر في اللون ﴿هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ هذا بعض مواقف القيامة، قال عكرمة[1]: تكلموا واختصموا، ثم ختم على أفواههم، فتكلمت أيديهم وأرجلهم فحينئذ لا ينطقون بحجة تنفعهم، ونقل النيسابوري عن ابن عباس الجمع بين هذه الآية وبين نحو قوله ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾[2] فأجاب: بتقارب الزمانين وتباين الموطنين، ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ جمعناكم أيها المتأخرون الحاضرون المخاطبون، والأولين ممن سبقكم من الأمم، لأن الفصل بين الخلائق لا يجوز إلا بإحضار الكل في سنة الله ومنهجه، ثم عجزهم وحقرهم فقال ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ وقد علم أنه لا حيلة لهم في رفع البلاء عن أنفسهم، وهذا التعجيز والتخجيل من جنس العذاب النفساني فلهذا عقبه بقوله ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

القــــراءة

﴿جمالَت﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ﴿جمالات﴾ بألف وكسر الجيم.

﴿فكيدون﴾ أثبت الياء في الحالين يعقوب.

حال المتقين

ثم زادهم في حسرتهم بتعداد ما أعدّ للمطيعين المتقين فقال:

٤١ ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ .

٤٢ ـ ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .

٤٣ ـ ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

٤٤ ـ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

٤٥ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ ظلال الشجر.

---

(١) هو صحابي قرشي من رواة الحديث، قتل في اليرموك ١٣ هـ.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣١.

ثم ذكر أن هذا الويل ثابت لهم في حال ما يقال في الآخرة فقال:

٤٦ ـ ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾.

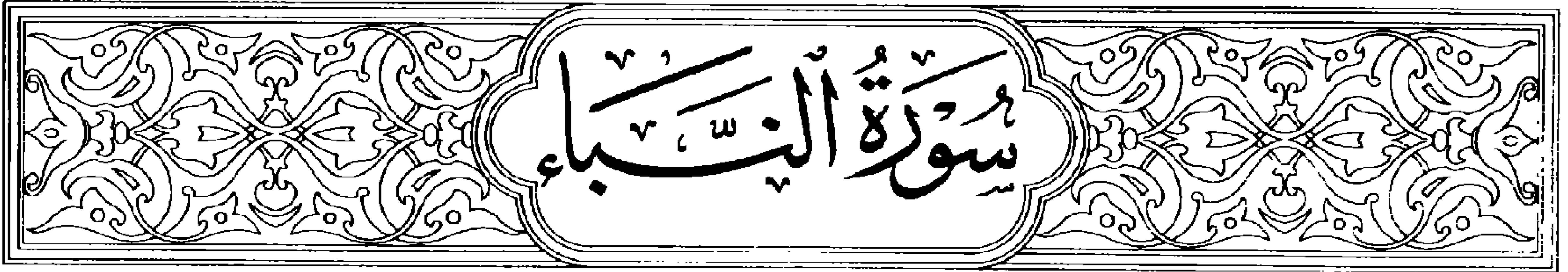
٤٧ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿كلوا وتمتّعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ يقال لهم هذا في الدنيا، وفيه توبيخ وتذكير بحالهم السمجة التي تشبه حال البهائم، وكانوا في الدنيا ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ وهذا ذم لهم على ترك الخشوع والتواضع بقبول وحيه ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي إن لم يصدقوا بهذا القرآن فبأي كتاب بعده يصدقون، ولا كتاب بعده.



تسمى سورة النبأ لأنها تتحدث عن النبأ العظيم، وتزجر من ينكره وتردعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما بعث رسول الله ﷺ إلى المشركين، وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون فيما بينهم يقولون ما الذي أتى به؟ فقال:

١ ـ ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

أصله عن ما، فادغمت النون في الميم، نحو مم وعم لشدة الاتصال وكثرة الاستعمال، وحذفت ألف ما، واللفظ لفظ استفهام، والمعنى: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً؟

ثم أجاب الله سبحانه عن هذا السؤال بقوله:

٢ ـ ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

٣ ـ ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾.

هو أمر الرسالة، وماجاء به النبي بالقرآن الكريم من التوحيد والبعث، والذي اختلفوا فيه قول بعضهم سحر، وقول بعضهم شعر، وقول بعضهم أساطير الأولين إلى غير ذلك.

٤ ـ ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾.

٥ ـ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾.

ردع وزجر والمعنى: ليس الأمر على ما قالوا ﴿سيعلمون﴾ عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد، وهو وعيد إثر وعيد، وذلك غاية التهديد.

القــــراءة

﴿سيعلمون﴾ قرأ ابن عامر ﴿ستعلمون﴾ بالتاء في الحرفين.

ثم ذكرهم بدلائل قدرته وآيات رحمته ليعرفوا توحيده فقال:

٦ ـ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾.

٧ ـ ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾.

٨ ـ ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ .

٩ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ .

١٠ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ .

١١ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .

١٢ ـ ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

١٣ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ .

١٤ ـ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ .

١٥ ـ ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ .

١٦ ـ ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ .

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ المهاد الفراش، وقد جعل الله الأرض موطئاً للناس والدواب يقيمون عليها كالفراش لهم ﴿والجبال أوتاداً﴾ جمع وتد لأن بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها، سبق شرحها في سورة ﴿ق﴾ ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ ذكراً وأنثى ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ السبت القطع، والمسبوت الميت، والنوم أحد الموتين لكنه مؤقت لبضع ساعات راحة لأبدانكم ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ شبه الليل باللباس، لأنه يستر الأبدان والأشخاص بظلمته، يستتر فيه كل من لا يريد أن يظهر بما يحب أن يخفيه بالنهار.

﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ المعاش الحياة، فكما جعل النوم موتاً جعل اليقظة حياة، والنهار من هذه اليقظة، ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ سبع سماوات قويات محكمات، وربما في ذلك إشارة إلى الأغلفة الجوية التي تعلو الأرض من طبقات الجو العليا ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ الوهاج المتوقد بالغ في الحرارة، وهو الشمس ﴿وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً﴾ المعصرات السحائب تعصرها الرياح فتمطر الماء فيسقط ثجاجاً، أي المنصب بكثرة ﴿حباً ونباتاً، وجنات ألفافاً﴾ الحب ما يقتات به الناس كالحنطة والشعير، والنبات ما يقتات به الحيوان كالتبن والكلأ، والألفاف البساتين ملتفة الشجر.

إن هذه التسعة المذكورة نظراً إلى ما فيها من الإتقان والإحكام تدل على كمال علم الخالق وحكمته الذاتية، وبعد ثبوت كمال الله في هذه الأوصاف لم يبق للمتأمل شك في إمكان الحشر، وقد أخبر الصادق عن وقوع هذا الممكن فوجب الجزم به على أن في إخراج النبات بعد جفافه ويبسه دليلاً ظاهراً على إمكان إخراج الموتى من القبور وبعثهم فلهذا رتب على هذه البيانات قوله:

١٧ ـ ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ .

١٨ ـ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .

١٩ ـ ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ .

٢٠ ـ ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ .

﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ يوم الفصل هو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الحق والباطل، يوم القضاء الذي يفصل فيه بالخصومات، وميقاتاً أي ينتهي إليه الناس فيجتمعون فيه، كالموعد للناس ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ هذه هي النفخة الثانية التي تكون عندها الحياة بدليل قوله ﴿فتأتون أفواجاً﴾ أي زمراً زمراً، على أصناف مختلفة، بعضهم عمي، وبعضهم بكم ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ أي شقت وانفطرت، يتغير في ذلك اليوم نظام الكون، وتكون السماء بالنسبة للأرواح مفتحة الأبواب مشرعة المنافذ، والآخرة عالم آخر غير عالم الدنيا التي نحن فيها، فنؤمن بما ورد به الخبر في وصفه ولا نبحث عن حقائقه.

القـــراءة

﴿وفتحت﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿وفتّحت﴾ بالتشديد.

حال الجبال يوم القيامة

﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ ذكر الله سبحانه حال الجبال يوم القيامة بعبارات مختلفة، ويمكن الجمع بينها بأن تدك أولاً كما قال: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾(١) ثم تصير كالعهن، وهو القطن، ثم تصير كالهباء المنثور بقوله تعالى: ﴿وبست الجبال بساً فكانت هباءً منبثاً﴾(٢) أي فتت، وأصبحت غباراً منتثراً، وهي في هذه الأحوال باقية في مواضعها، ثم تنسف بإرسال الرياح عليها، فمن نظر إليها حسبها لتكاثفها أجساماً جامدة وهي بالحقيقة مارة بتحريك الهواء كما قال الله عز وجل: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾(٣) ومن نظر إلى المواضع من بعيد ظن أن الجبال هناك حتى إذا دنا منها لم يجد فيها شيئاً كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى هذه الحالة بقوله ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾.

ثم أخبر عن أحوال السعداء والأشقياء يومئذ وقدم ذكر الأشقياء، لأن الكلام في السورة بني على التهديد فقال:

٢١ ـ ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ .

٢٢ ـ ﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ .

٢٣ ـ ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ .

المرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه، والمعنى: إن خزنة جهنم يرصدون الكفار هناك، والمآب المرجع، ثم ذكر كيفية استقرارهم هناك فقال: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ أي مقيمين، والأحقاب جمع حقب، والمراد به المدة المتطاولة.

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٤.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٥ ـ ٦.

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٨.

القـــراءة

﴿لابثين﴾ قرأ حمزة ﴿لبثين﴾ والمعنى فيهما واحد.

٢٤ ـ ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾.

٢٥ ـ ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾.

٢٦ ـ ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾.

أي أنهم سيقيمون في النار مدداً طوالاً، مجدبين معدمين لا يجدون شيئاً من النعيم والراحة، ولا يذوقون فيها روحاً ينفس عنهم حر النار، ولا يذوقون من الشراب إلّا الماء الحار والغساق، وهو الصديد الذي يسيل من أبدانهم من العذاب، جزاءً يوافق أعمالهم.

ثم ذكر علة التأبيد فقال:

٢٧ ـ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾.

٢٨ ـ ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾.

أي لا يخافون ولا يتوقعون حساباً، فإن من اعتقد أنه لا حشر ولا حساب لا يبالي بأي شيء فعل من القبائح والمظالم، أو أي شيء ترك من الخيرات والفضائل ﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ إشارة إلى فساد عقائدهم حتى جحدوا الحق وكذبوا الرسل، قال الفراء: «كذبت به كذاباً» لغة يمانية فصيحة.

٢٩ ـ ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾.

٣٠ ـ ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾.

(كل) منصوب بفعل مضمر تفسيره: أحصيناه، والمعنى: أحصينا كل شيء، وكتاباً توكيد لأحصيناه، فالمعنى: كتبنا كتاباً.

ثم أظهر غاية السخط بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، فقال: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلّا عذاباً﴾ والتعقب بفاء الجزاء الدال على أن المذكور سبب عن كفرهم بالحسنات، وتكذيبهم بالآيات، وزيادة العذاب يحتمل أن تكون لأجل أن المؤثر إذا استمر ودام الإحساس بأثره، ويحتمل أن يكون لازدياد كفرهم وعتوهم حيناً بعد حين كقوله: ﴿فزادهم رجساً إلى رجسهم﴾[1].

عطاء الله المدرار للمتقين

ثم شرع في شرح أحوال السعداء فقال:

٣١ ـ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

٣٢ ـ ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴾ .

٣٣ ـ ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴾ .

٣٤ ـ ﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴾ .

٣٥ ـ ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ .

٣٦ ـ ﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴾ .

﴿مفازا﴾ الفوز بالنعيم والثواب، والحدائق: البساتين فيها أنواع الشجر المثمر، والكواعب: البنات اللاتي استدارت أثداؤهن، والأتراب: اللاتي من سن واحدة، والدهاق: المملوءة المترعة، وأدهق الحوض ملأه، واللغو: ما لا يعتد به من الكلام، واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين بل هو من أشد الأذى لقلوبهم، فأراد الله إزاحة ذلك عنهم، والحساب: الكافي، فمعنى الحساب في الآية: العدّ والتقدير لبعضهم عشرة ولبعضهم سبعمائة وأكثر، وإنما قال في الكفار: جزاءً وفاقاً، لأن جزاء السيئة سيئة مثلها، أي موافقة لها، وأما ههنا فالمراد ثواب المؤمنين وليس في ذلك بتقدير العمل فقط، ولكن بمقدار ما يكفيه.

القـــراءة

﴿ولا كذاباً﴾ قرأ الكسائي ﴿ولا كذاباً﴾ بالتخفيف.

ثم مدح نفسه بقوله:

٣٧ ـ ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴾ .

يريد لا يخاطب المشركون الله يوم القيامة، وأما المؤمنون فيشفعون، ويقبل الله ذلك لمن يشاء.

القـــراءة

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والمفضل عن عاصم ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن﴾ برفع الباء ونون الرحمن، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الباء ورفع النون.

ثم أكد المعنى المذكور في الآية السابقة بالتصريح به فقال:

٣٨ ـ ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ .

﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ قال أكثر المفسرين إن الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة، ويروى ذلك عن ابن عباس وليس لهذا سند صحيح من الرسول ﷺ، والذي نراه أقرب للقرآن أن الروح في الآية هو جبريل عليه السلام بدليل أنه ذكر في عدة آيات أخرى يكاد يجمع عليهما المفسرون، قال تعالى في سورة الشعراء ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾[1]، وقال في سورة المعارج ﴿تعرج

(١) الآية: ١٩٣.

الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾(١)، وقال في سورة القدر ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام﴾ ولو كان هناك خلق آخر غير الملائكة بهذه المنزلة العظيمة لكلفنا بالإيمان بهم، ولـورد عن الرسول ﷺ ما يبين أحوالهم، وقوله صفاً: أي صفاً واحداً هو دليل على أنهم من جنس واحد ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾ أي لا ينطقون يوم القيامة بطلب الشفاعة لأحد إلّا بعد ورود الإذن في الكلام، ثم بعد الإذن يجتهدون حتى لا يتكلمون إلّا بما هو حق وصواب في حق من أذن له الرحمن، وكان ذلك الشخص المشفوع له في الدنيا قد قال ﴿صواباً﴾ أي شهد بالتوحيد لا إله إلّا الله محمد رسول الله.

٣٩ ـ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾.

أي ذلك اليوم يوم القيامة يوم الحق لا باطل فيه ولا ظلم ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مئاباً﴾ أي مرجعاً إليه بالطاعة.

ثم خوف كفار مكة فقال:

٤٠ ـ ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾.

﴿عذاباً قريباً﴾ قال المفسرون عذاب الآخرة وكل آت قريب ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ أي يرى عمله مثبتاً في صحيفته خيراً كان أو شراً ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ يقول يا ليتني لم أبعث وبقيت في القبر.



تسمى سورة النازعات لورود كلمة النازعات في أول السورة، كما تسمى سورة الساهرة والطامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما ختم الله سبحانه سورة النبأ بذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها وافتتح هذه السورة بمثله فقال:

١ - ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾.

٢ - ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾.

٣ - ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾.

٤ - ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾.

٥ - ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾.

جاء في الكتاب العزيز ضروب من القسم بالأزمنة والأمكنة والأشياء، وما كان الله جل شأنه ليحتاج في تأكيد أخباره إلى القسم بما هو من صنع قدرته، فليس في الوجود قدر إذا نسب إلى قدره، الذي لا يقدره القادرون، وقد يسأل السائل في هذا النوع من تأكيد الخبر الذي اختص به القرآن، وكيف يوجد في كلام الله، فيجاب بأنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به، وجدته إما شيئاً أنكره بعض الناس، أو احتقره لغفلته عن فائدته، أو ذهل عن موضع العبرة فيه، وعمي عن حكمة الله في خلقه، أو انعكس عليه الرأي في أمره، فاعتقد غير الحق الذي قرر الله شأنه عليه، فيقسم الله به، إما لتقرير وجوده في عقل من ينكره، أو تعظيم شأنه في نفس من يحقره.

وقد أقسم الله بكثير من الكائنات ليبين مقدار عنايته بها، وأنه لا يغضبه من عباده أن يتمتعوا بما متعهم به منها متى أدركوا حكمة الله في ذلك المتاع، ووقفوا عند حدوده في الانتفاع.

وقد افتتح الله هذه السورة بأن أقسم ببعض مخلوقاته إظهاراً لعظم شأنها وإتقان صنعها وعظم فائدتها، وأنها مسخرة له، خاضعة لأمره.

﴿والنازعات غرقاً﴾ اختلف المفسرون في تفسيرها فقال بعضهم أقسم الله سبحانه بالملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ﴿غرقاً﴾ أي إغراقاً في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد، وقال آخرون هي الكواكب والنجوم، تنزع من دوائرها أو من أفق إلى أفق تطلع ثم

تغيب، وكذا قالوا في جميع المقسم عليهم الأربع ﴿والناشطات نشطاً﴾ على الرأي الأول: الملائكة تنشط النفوس أي تخرجها من الأجساد جذباً بقوة، والنشط الجذب بسرعة وقيل الناشطات لأرواح المؤمنين، والنازعات لأرواح الكافرين، وعلى الرأي الثاني: الكواكب تفارق مداراتها وتنقلب من برج إلى برج، ﴿والسابحات سبحاً﴾ على الرأي الأول: الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين، وعلى الرأي الثاني: إنهم النجوم والشمس والقمر، لقوله ﴿كل في فلك يسبحون﴾[1] قاله قتادة، وأبو عبيدة، ﴿فالسابقات سبقاً﴾ على الرأي الأول: الملائكة تسبق الشياطين بالوحي، وعلى الرأي الثاني: النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير، قال قتادة، وقال عطاء إنها الخيل. ﴿فالمدبرات أمراً﴾ قال ابن عباس هي الملائكة، قال عطاء وكلت بأمور عرفهم الله بها، وبعد تتبع هذه الآراء لم نجد ما يساندها من أدلة قوية من الكتاب والسنة.

والتفسير الأقرب للواقع هو التالي:

﴿النازعات﴾ هي الرياح لوصف الله لفعلها بأنها تنزع الناس بعد ذكر الريح كما جاء في سورة القمر ﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾[2] وفعل الرياح في نزع الناس والأشياء من أماكنها بل نزع السيارات والقطارات والأبنية من أماكنها غير خاف في وقتنا الحاضر، ودمار الأعاصير المدمرة، تنقله أجهزة الأعلام باستمرار، فحق لها أن تسمى النازعات.

﴿والناشطات﴾ الكواكب والنجوم تنشط من أفق إلى أفق، أي تذهب، وينسب هذا التفسير لقتادة، وأبي عبيدة، والأخفش، ويقال لبقر الوحش نواشط، لأنها تذهب من موضع إلى موضع، ﴿والسابحات﴾ هي السفن تسبح في البحر، قال ذلك عطاء ﴿والسابقات﴾ هي الخيل، قال ذلك أيضاً عطاء، ﴿فالمدبرات أمراً﴾ هي الملائكة بالإجماع.

مدى انطباق الآية على المخترعات الحديثة

إن الأثر الذي تتركه النازعات أياً كان نوعها، والوصف الذي وصف به فعلها، لا يخرج المدافع والصواريخ الحديثة بأنواعها من اسم النازعات، فهي تنزع الأرواح والقلوب وكل شيء أمامها، وأما الناشطات، ومدى سرعتها وتحركها من موضع إلى موضع فذلك هو وصف المقاتلات النفاثة من الطائرات وما يلحق بها والتي تنشط في نقل الناس من بلد إلى بلد وأما السابحات فذلك وصف من دون شك ينطبق على السفن البحرية والفضائية، وأما السابقات وإن كان هذا وصف يصح أن يطلق على الخيل لكنّه في السيارات أوضح.

٦ ـ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾.

٧ ـ ﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾.

٨ ـ ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٢) الآية: ١٩ ـ ٢٠.

٩ ـ ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾.

١٠ ـ ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾.

١١ ـ ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴾.

﴿يوم ترجف الراجفة﴾ هي النفخة الأولى التي يموت منها جميع الخلائق، والراجفة: صيحة عظيمة، ترجف عندها الأرض والجبال ﴿تتبعها الرادفة﴾ وهي النفخة الثانية، ردفت الأولى، أي جاءت بعدها فتضطرب الأرض لإحياء الموتى عند البعث لما اضطربت في الأولى لموت الأحياء ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ أي قلقة ﴿أبصارها خاشعة﴾ تظهر في أعينهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ﴿في الحافرة﴾ هذا يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون أي: أنرد إلى أول حياتنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا، قال أبو عبيدة يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، إذا رجع من حيث جاء، والمعنى: بعد أن نموت نرد مرة ثانية إلى الحياة مرة أخرى في الأرض بعد أن كنّا عظاماً بالية، والعظم المنخور هو الأجوف البالي الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخر.

القـــــراءة

﴿أإنا﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة بهمزتين مخففتين على الاستفهام ﴿أئنا﴾ وقرأ الباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية وفصل بينهما نافع، ﴿عظاماً نخرة﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿عظاماً ناخرة﴾ بالألف بعد النون.

ثم أخبر أنهم قالوا على سبيل الاستهزاء:

١٢ ـ ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾.

﴿كرة خاسرة﴾ أي: إذاً نحشر ونرد ونرجع، كرة أي رجعة ذات خسران لأنا كذبنا بها، فأعلمهم الله بسهولة البعث عليه فقال:

١٣ ـ ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾.

١٤ ـ ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾.

أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فما هي إلاّ صيحة واحدة ﴿زجرة واحدة﴾ يقال زجر الحيوان إذا صاح عليه، وهي صيحة إسرافيل في النفخة الثانية ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ على وجه الأرض، سميت بذلك لأن ساكنها لا ينام خوف الهلاك.

طرف من قصة موسى عليه السلام

ثم ذكرهم بقصة موسى لأنه أبهر الأنبياء المتقدمين معجزة، وفيها تسلية للنبي ﷺ، لأن فرعون كان أكثر جمعاً وأشد قوة من كفار قريش فقال:

١٥ ـ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾.

١٦ ـ ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

١٧ ـ ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ .

﴿هل أتاك حديث موسى﴾ أي أليس قد أتاك حديثه ﴿بالواد المقدس طوى﴾ الوادي المبارك المطهر في الجبل الذي كلم فيه الرب موسى بسيناء[1] وقال له ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ جاوز الحد في العصيان والتكبر والكفر بالله.

القـــراءة

﴿طوى﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو ﴿طوى﴾ بإسكان الياء من غير صرف، وقرأ الباقون بالتنوين والصرف.

وفيما أمر موسى أن يقول لفرعون بعد وصوله إليه:

١٨ ـ ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

أي لك حاجة أو ميل أو التفات، ونحو ذلك، وهذه كلمة جامعة لواجب التكاليف، والمقصود بها التطهر من الشرك، أمر موسى بملاينته في الدعوة.

القـــراءة

﴿تزكى﴾ قرأ نافع وابن كثير، بتشديد الزاء ﴿تزكى﴾ أي تطهر من الشرك.

١٩ ـ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ .

٢٠ ـ ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ .

٢١ ـ ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾ .

٢٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ .

٢٣ ـ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ .

٢٥ ـ ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ .

﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ وأهديك: إشارة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة أقلها وأفضلها التوحيد لله، المرتب عليه الخشية التي منها تنشأ جوامع الخيرات، ومن اهتدى خشي الله لأن الخشية لا تكون إلّا من مهتد راشد، وهنا إضمار كأن موسى كلم فرعون بما أمره به ربه، ولكن فرعون لم يصدقه، وجحد نبوته ﴿فأراه الآية

(١) قد مر في سورة طه.

(٢) قد مر بالتفصيل في سورة طه.

الكبرى﴾ وهي العصا، وسميت كبرى لتعدد أغراضها، ولأنها قضت على جميع الآيات التي أتى بها السحرة[١] ﴿فكذب وعصى﴾ كذب موسى وعصى الله عز وجل ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أدبر خوفاً من الثعبان، ويسعى: يعمل بالفساد في الأرض، ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى عليه السلام ﴿فحشر فنادى﴾ أي جمع جنوده ومستشاريه ووزراءه وهم ملؤه للتشاور، فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ أي إن كان لكم أرباب تعبدونها فأنا فوق الأرباب كلها ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي أخذه الله منكلاً نكال الآخرة، وهو عذاب النار في القبر، وذلك قوله تعالى في سورة غافر ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[٢] وقيل هذا العذاب في الآخرة مع وجود الحياة الدنيا.

لأن حياة البرزخ أخروية بالنسبة للأموات، دنيوية بالنسبة لنا، ولذلك يقال لكل من يموت انتقل للآخرة، وأما الأولى: فالمراد بها الدنيا وقد عذب فيها فرعون ومن معه بالغرق وغيره من العذاب الدنيوي الذي أصابهم حتى طلبوا من موسى أن يكشف العذاب عنهم ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾.

ثم ختم القصة بقوله:

٢٦ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾.

أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه.

ثم خاطب منكري البعث فقال:

٢٧ ـ ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾.

٢٨ ـ ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾.

٢٩ ـ ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾.

٣٠ ـ ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾.

٣١ ـ ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾.

٣٢ ـ ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾.

٣٣ ـ ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.

﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ أي أخلقكم بعد الموت أشد عندكم أم السماء في تقديركم؟ وهما في قدرة الله واحد، فنبههم إلى أمر معلوم بالمشاهدة وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ في القدرة، ثم أشار إلى كيفية خلق السماء فقال: ﴿بناها﴾ وفيه تصوير للأمر المعقول وهو الإبداع والاختراع بالأمر المحسوس وهو البناء، وكل شيء ارتفع فوق شيء فهو بناء، ثم ذكر هيئة البناء فقال: ﴿رفع سمكها فسوّاها﴾ سمك الشيء

(١) الآية: ٤٦.

(٢) الأعراف، الآية: ١٣٤.

سقفه، فالله يخبر بأنه بنى السماء بناءً محكماً ورفع سمكها إلى حيث شاء، فسوّاها حيث وضع كل جرم سماوي في وضعه لا يتعدّاه، وله فلك يسبح فيه لا يتخطاه، وبين كل الأجرام تجاذب وترابط بنظام عجيب ﴿وأغطش ليلها﴾ أي جعله مظلماً ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي نهارها المضيء بإضاءة الشمس، وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما بسبب غروب الشمس وطلوعها كما هو ظاهر للناظر، وهما في الحقيقة حادثان من حركة الفلك بدوران الأرض حول نفسها تجاه الشمس والقمر.

خلق الأرض

﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ الأرض والشمس كانتا في الأصل شيئاً واحداً دخاناً أي غازاً، وبقدرة الحكيم الخبير انفصلت الأرض عن السماء، وهو بدء خلقها، وهو سابق على الدحو (١)، وقوله ﴿بعد ذلك دحاها﴾ أي بعد خلقها دحاها، والدحو لا يكون إلا للشيء المكور، قال الإمام ابن كثير فسره بقوله ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ ثم قال: ولكن دحيت خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ أراد بالمرعى جميع ما يأكله الناس والأنعام، ولهذا قال: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي فعل كل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ﴿والجبال أرساها﴾ جعلها كالأوتاد للأرض لئلا تميد بأهلها، وهذا يؤكد كرويتها ولو كانت منبسطة غير كروية لما احتاجت للجبال.

وحين فرغ من دلائل القدرة على البعث رتب عليه شرح يوم القيامة فقال:

٣٤ ـ ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾.

﴿الطامة الكبرى﴾ الحادثة التي تطم على سواها، والداهية التي لا تطاق، فإذا وصفت بالكبرى كانت في غاية الفظاعة، ونهاية الشدة، وأصل الطم: الدفن، وأخفاه طمه، وهي النفخة الثانية ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ أي ما عمل في الدنيا من خير أو شر ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ لأبصار الناظرين.

٣٧ ـ ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾.

٣٨ ـ ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

٣٩ ـ ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾.

٤١ ـ ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾.

---

(١) راجع التفصيل في سورة الأنبياء، الآية: ٣٠ وسورة فصلت، الآيات: ٩ ـ ١١.

﴿فأما من طغى﴾ أي تمرد وعتا في الدنيا ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ أي قدمها على أمر دينه وأخراه ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ أي فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه ونهى نفسه عن هواها وردها إلى طاعة مولاها ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ أي مصيره ومرجعه ونزله.

٤٢ ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

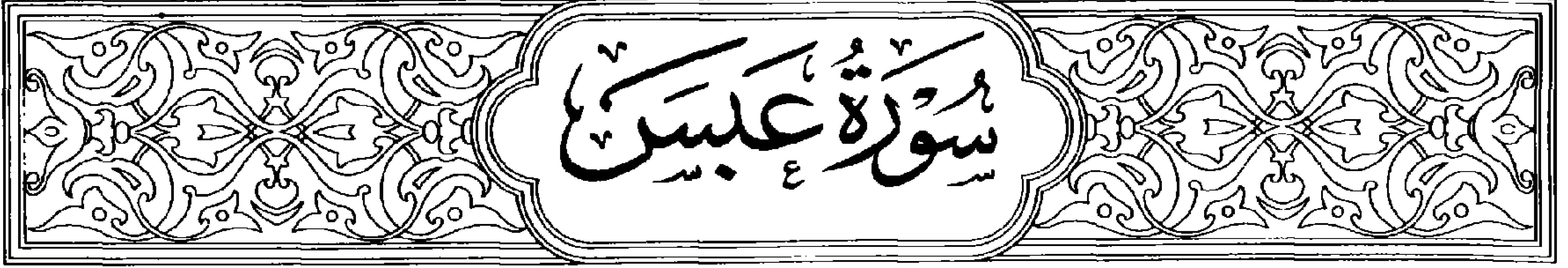
٤٣ ـ ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾.

٤٦ ـ ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

﴿أيان مرساها﴾ يسألونك يا محمد عن يوم القيامة ووقت قيام الساعة، أي متى وصولها ووقوعها، كرسو السفينة، والمرسى هو مكان وقوف السفن عند وصولها ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ أي لست في شيء من علمها، والمعنى: أنت لا تعلمها ﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره، فكيف يسألونك عنها، ويطلبون منك بيان وقت قيامها؟، ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ إنما أنت مبعوث لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح ونجح، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية يوم أو ضحى من يوم.



تسمى سورة عبس لورود كلمة عبس في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد وتوجيه رباني للنبي ﷺ

لما ختم الله سورة النازعات بذكر إنذاره من يخشى القيامة، افتتح هذه السورة بذكر إنذاره قوماً يرجو إسلامهم وإعراضه عمن يخشى فقال:

١ ـ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾.

٢ ـ ﴿ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾.

٤ ـ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾.

ذكر المفسرون أنه بينما كان الرسول ﷺ يخاطب بعض عظماء قريش طمعاً في إسلامهم، إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان أعمى لا يبصر وهو ممن أسلم قديماً فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي لو كف ساعته تلك، لتمكن من مخاطبة محدثيه رغبة في هدايتهم، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على من كان يحدثه فأنزل الله تعالى ﴿عبس وتولى﴾ أي كلح النبي بوجهه وأعرض ﴿أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعلّه يزكى﴾ أي وما يدريك لعل تعليمك ما سأل يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، وهي خير من مخاطبيك غير المسلمين ﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ أي يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ فتنفعه الموعظة، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب دلالة على مزيد الإنكار كمن يشكو حاضراً بطريق الغيبة.

ثم زاد تصريحاً لما فعل قائلاً:

٥ ـ ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾.

٦ ـ ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ .

١٠ ـ ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ .

﴿أما من استغنى﴾ استغنى حسب زعمه عن الله وعن الإيمان به ﴿فأنت له تصدّى﴾ تقبل عليه بوجهك، وهو ما استقبلت فصار قبالك ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي: أي شيء عليك في ألا يسلم ولا يهتدى، من تصديت له وتركت غيره، فإنه ليس عليك إلا البلاغ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار، فما الموجب والتهالك على إسلامه، ثم عاد إلى ابن أم مكتوم فقال ﴿وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى﴾ يسعى في الخير، ويخشى الله، ومعنى تتلهى: تتشاغل عنه.

وهذا عتاب للنبي ﷺ وإنكار لهذا العمل مع أن الرسول ليس عليه إلاّ البلاغ، ولكنه تعليم لأمته، وهذا من إعجاز القرآن الدال على نبوة محمد ﷺ، إذ لو كان هذا القرآن من عنده ما كان ليذكر مثل هذه الآيات التي فيها عتاب له.

القــــراءة

﴿فأنت له تصدى﴾ قرأ نافع وابن كثير ﴿فأنت له تصّدّى﴾ بالتشديد.

ثم لما ذكر الله هذه الحادثة أعقبها ببيان وظيفة الرسول وعمله، وأن هذه الرسالة إنما هي تذكرة وموعظة فقال:

١١ ـ ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .

١٢ ـ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ .

١٣ ـ ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ .

١٤ ـ ﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .

١٥ ـ ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ .

١٦ ـ ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

﴿كلا﴾ أي لا تفعل مثل ذلك ثم قال ﴿إنها تذكرة﴾ يعني آيات القرآن بمعنى الذكر والوعظ فلذلك قال ﴿فمن شاء ذكره﴾ والمراد أن هذا القرآن أو هذا التأديب الذي عرفناكه في إجلال المؤمنين الفقراء الضعفاء، وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا من الأغنياء الكفار ثبت ﴿في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة﴾ أي ثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه ﴿بأيدي سفرة كرام بررة﴾ أي الملائكة، واشتقاق السفرة من السفارة لأن الملائكة سفرة بين الله ورسوله، وهم كرام على ربهم مطيعون له.

دلائل الأنفس والآفاق

ثم عجب من صناديد قريش وأضرابهم من أهل العجب والكفر المترفعين على الفقراء الضعفاء مع أن

أولهم نطفة مذرة وآخرهم جيفة قذرة، وهم ما بين الوقتين حملة عذرة فقال:

١٧ ـ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾.

١٨ ـ ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾.

١٩ ـ ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾.

٢١ ـ ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾.

﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ الإنسان هنا هو الكافر، وهو دعاء عليه بأفظع الدعاء ﴿ما أكفره﴾ ما أشد كفره بالله من معرفته بكثرة إحسانه إليه، وهو تعجب من فرط كفره، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه بأشنع دعاء، ثم بين نعمه الكثيرة عليه الموجبة للشكر بدل الكفر فقال: ﴿من أي شيء خلقه﴾ أي من أي شيء خلق الرب تعالى هذا الكافر الجحود، حتى يتكبر ويتعاظم عن طاعته، والإقرار بتوحيده، ثم بين سبحانه ذلك بقوله ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال، أو فقدره من حال إلى حال إلى أن تم خلقه وتكوينه، ثم أشار إلى المرتبة الوسطى فقال ﴿ثم السبيل يسره﴾ أي يسر له سبيل النظر القويم بما وهبه من العقل، ومكنه من النظر، وهيأ له من أسبابه، أو يسر له سبيلَ الخير وسبيل الشر، وبين له المسلكين بهداية البيان، وأقدره على كل منهما، وهو مثل قوله تعالى في أول سورة الدهر ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ثم أشار إلى المرتبة الأخيرة فقال ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعله ذا قبر توارى فيه جيفته، والمراد أنه تعالى أمر بدفن الأموات الإنسية تكرمة لهم، دون أن يطرحوها على وجه الأرض طعمة للسباع.

وبعد كل هذه الانتقالات والدلالات الواضحة على قدرة الله على البعث بين أنه قادر على ذلك فقال:

٢٢ ـ ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾.

﴿إذا شاء أنشره﴾ أي ينشر الإنسان ببعثه من قبره ﴿كلا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من الكفران البالغ حد الطغيان، ولما كان الكلام موجهاً للإنسان الكافر الذي تعجب الله منه بقوله ﴿ما أكفره﴾ بين هنا بأنه بالرغم من كل ما ساقه الله إليه من الأدلّة والبيان فإنه لم يؤد بعد ما فرض عليه من الإيمان والطاعة.

وحين فرغ من ذكر خلق ابن آدم ودلائل الأنفس، أردفها بذكر رزقه ودلائل الآفاق ليعتبر وليستدل بالنبات على البعث فقال:

٢٤ ـ ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾.

٢٦ ـ ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴾.

٢٧ ـ ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴾.

٢٨ ـ ﴿ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴾.

٢٩ ـ ﴿ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴾.

٣٠ ـ ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴾.

٣١ ـ ﴿ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾.

٣٢ ـ ﴿ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾.

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ أي فلينظر الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ ثم بين فقال ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ أنزلنا له الغيث من السماء إنزالاً ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ شققناها بالنبات شقاً بديعاً لائقاً شكلاً وهيئة ﴿فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً﴾ الحب ما يقتات به الإنسان ويدخره من نحو الحنطة والشعير والذرة، والقضب: الرطب، وهو ما يؤكل من النبات غضاً، وإذا يبس يسمى القت، وسمي قضباً لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة، كالبقول ﴿وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً﴾ كل بستان عليه حائط أو سور فهو حديقة، والغلب: ماغلظ من الأعناق في الأصل يقال أسد أغلب، ثم استعير للحدائق أنفسها لتكاثف أشجارها وغلظها، والمعنى: الحديقة الغليظة الأشجار الملتفة ﴿وفاكهة وأباً﴾ الأب: الكلأ والمرعى، وهو ما تأكله البهائم من الرطب أو اليابس وما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله «قد عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟» محمول على المراد معرفة شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو كل من قرأ هذه الآية يعلم من نبات الأرض الكثير، لقوله تعالى ﴿فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً﴾ ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي منفعة لكم.

القـــراءة

﴿أنا صببنا﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر ﴿إنا﴾ بالكسر.

٣٣ ـ ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾.

﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ هي الصيحة الثانية التي تكون عليها القيامة، تصخ الأسماع، أي تصمها فلا تسمع إلا ما تدعى به لإحيائها، ثم فسر في أي وقت تجيء فقال ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته

وبنيه﴾ وهؤلاء أخص القرابة، وأولاهم بالحنو والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم، وخطب فظيع، والصاحبة في الآية هي الزوجة، والفرار معناه هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء والبحث عنهم بدليل قوله بعد ذلك ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ أي يصرفه ويصدّه عن قرابته.

ثم ذكر أن الناس يومئذ فريقان وأن أهل الكمال تلوح على وجوههم أنوار الكمال فقال:

٣٨ ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾.

٤١ ـ ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾.

﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء ﴿ضاحكة مستبشرة﴾ ضاحكة لسرورها وفوزها، مستبشرة: فرحة بما نالها من كرامة الله عز وجل ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ عليها غبار وسواد وكآبة ﴿ترهقها قترة﴾ أي تغشاها ظلمة أو سواد كالدخان، ثم بين من أهل هذه الحال فقال: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾



تسمى سورة التكوير كزميلاتها لورود كلمة ﴿كورت﴾ في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنه سبحانه لما ذكر الطامة والصاخة في خاتمتي السورتين المتقدمتين، أردفهما بذكر سورتين مشتملتين على أمارات القيامة وعلامات يوم الجزاء فقال:

١ ـ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

٢ ـ ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾.

٣ ـ ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

٤ ـ ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.

٥ ـ ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

٦ ـ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

٧ ـ ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

٨ ـ ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾.

٩ ـ ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

١١ ـ ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾.

١٣ ـ ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

١٤ ـ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

﴿إذا الشمس كورت﴾ في هذه السورة اثنا عشر شيئاً من أمارات القيامة، ست في الدنيا وست في

الآخرة، وتكوير الشمس هو ظلامها، وذهاب ضوئها، وكل شيء ممتد إذا جمع بعضه على بعض وكور كتكوير العمامة يضمحل، وإلا فالشمس مكورة في الأساس لكن المراد في الآية ضوؤها.

﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ من أمارات القيامة، وهو تساقطها وتناثرها.

﴿وإذا الجبال سيرت﴾ والمعنى زالت عن أماكنها ونسفت(١).

﴿وإذا العشار عطّلت﴾ العشار: النوق الحوامل، وعطّلت سيبت وأهملت لاشتغالهم عنها يوم القيامة، وهذا ينطبق على كل ما يقتنى من الأموال والحيوان أو من أدوات الزينة، والغرض بيان شدة الاشتغال بأنفسهم حتى يعطلوا كل شيء.

﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ الوحوش: ضد ما يستأنس به من دواب البر، وحشرها هو تجمعها بعد خروجها من أجحارها وأوكارها في ذهول لشدة الاضطراب والفزع الذي أصابها مما نزل بالأرض والسماء.

﴿وإذا البحار سجرت﴾ أحميت بالنار حتى تبخرت مياهها، وظهرت النار في مكانها.

القــــراءة

﴿سجرت﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿سجرت﴾ بتخفيف الجيم.

﴿وإذا النفوس زوجت﴾ وهو الاقتران، ومثله قوله تعالى ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾(٢)، أي صنفتم أصنافاً ثلاثة، والمعنى: أن ينضم كل واحد إلى من يجانسه ويكون في طبقته من خير أو شر، أي الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار.

﴿وإذا الموؤدة سئلت﴾ الموؤدة: البنت تدفن وهي حية، وكان هذا من فعل الجاهلية خشية العار والفقر، ومعنى هذا السؤال تبكيت قاتليها.

﴿وإذا الصحف نشرت﴾ صحائف بني آدم تنشر للحساب.

القــــراءة

﴿نشرت﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو بالتشديد ﴿نشّرت﴾.

﴿وإذا السماء كشطت﴾ أي كشفت وأزيلت عما فوقها.

﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ أوقدت، ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ قربت من المتقين.

القــــراءة

﴿سعرت﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿سعّرت﴾ مشددة، وقرأ الباقون بالتخفيف.

---

(١) شرحنا ذلك في سورة النبأ.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٧.

ثم ذكر جواب هذه الأشياء فقال:

﴿علمت نفس ما أحضرت﴾

وحين أثبت المعاد شرع في النبوات فأكدها بالحلف فقال:

١٥ ـ ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾.

١٦ ـ ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

١٩ ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾.

﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ أي أقسم، والخنس جمع خانس، والكنس جمع كانس وهي النجوم، وخنوسها رجوعها، وسماها خنساً لأنها تسير في البروج والمنازل، كسير الشمس والقمر، ثم تخنس، أي ترجع، وسماها كنساً، لأنها تكنس، أي تسير كما تكنس الظباء، أي تستتر، وإنما أقسم بها لدلالتها بهذه الأحوال المختلفة، والحركات المنسقة على عظم قدرة مبدعها ومصرفها، ثم أقسم بالليل والنهار.

﴿والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس﴾ عسعس أدبر ظلامه، وتنفّس الصبح إذا ظهر أضاء وتبلّج، وأصل النفس خروج النفس من الجوف، ثم ذكر جواب القسم فقال:

﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني أن القرآن نزل به جبريل، أي أن القرآن المبين لقول رسول كريم، ثم وصف جبريل بقوله:

٢٠ ـ ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾.

٢١ ـ ﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾.

أي هو ذو رفعة ومنزلة عالية ومكانة مكينة عند الله سبحانه، مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه، مؤتمن على الوحي وغيره.

ثم وصف النبي محمداً ﷺ فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾.

٢٣ ـ ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

إن ذكر جبريل ومدحه وقع استطراداً لبيان مدح النبي ﷺ والمبالغة في صدقه، فإن الكفرة زعموا أن القرآن إفك افتراه، ومجنون به وأعانه عليه قوم آخرون فلم يكن بد من نفي الجنون عنه، وصف جبريل بالأمانة والمكانة وغيرهما، ثم حكى أنه قد رآى جبريل على صورته الأصلية بحيث حصل عنده علم ضروري بأنه ملك

مقرب لا شيطان رجيم فقال: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ وهو أفق الشمس.

ثم أخبر عن صدقه وإشفاقه فقال:

٢٤ ـ ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾.

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ وما رسول الله ﷺ ببخيل بالوحي، مقصر في تبليغه لكم وتعليمكم إياه، من الضن بالكسر والفتح بمعنى البخل، فالمعنى: ما هو ببخيل عما يخبر به عن الله.

القـــراءة

﴿بضنين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء ﴿بظنين﴾ والمعنى: ما هو بمتهم.

٢٥ ـ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾.

أي ليس القرآن المنزل عليه بقول شيطان مسترق للسمع من الملأ الأعلى حتى تقولوا بذلك.

٢٦ ـ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾.

بعد هذه البيانات فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟.

﴿إن هو إلّا ذكر للعالمين﴾ أي موعظة للخلق أجمعين، ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ على الحق والإيمان، والمعنى: أن القرآن إنما يتعظ به من استقام على الحق، وقد بينا سبيل الاستقامة فمن شاء اتخذها واختارها.

ثم أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه بما بعد هذا فقال:

٢٩ ـ ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.



سورة الانفطار سميت لورود كلمة ﴿انفطرت﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه السورة يذكر طرفاً آخر من أشراط الساعة فيقول:

١ - ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾.

٢ - ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴾.

٣ - ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴾.

٤ - ﴿ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴾.

٥ - ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾.

﴿إذا السماء انفطرت﴾ انفطارها وانشقاقها، كقوله في سورة الفرقان ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾[1] ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ بمعنى تساقطت ﴿وإذا البحار فجرت﴾ فتح بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قلب ترابها، وأثير ما فيها من الموتى فبعثوا للجزاء، ثم ذكر جواب القسم فقال: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي ما أسلفت من خير أو شر في الدنيا، وما أخرت فلم تعمله.

ولما أخبر عن وقوع الساعة والحشر بين ما يدل عليه عقلاً فقال:

٦ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾.

٧ - ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾.

٨ - ﴿ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾ هذه إشارة إلى كل كافر، ما غرك، قال الزجاج: ما خدعك وسوّل لك حتى أضعت ما وجب عليك؟، أو ما الذي أمنك من عقابه وهو كريم متجاوز. إذ لم يعاقبك عاجلاً؟، وهذا تهديد بعدم الاغترار بالشيطان، وإنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال الفجور.

(١) الآية: ٢٥.

﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ أي ما غرك بالذي خلقك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصباً في أحسن الهيئات والأشكال، تسمع وتبصر وتتحرك وتعقل وتفكر.

﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ ما مفيدة للتأكيد، أي في كل صورة من الصور شاء، كقوله ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾(١)، أي في أي صورة اقتضتها حكمته.

القـــــراءة

﴿فعدلك﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿فعدّلك﴾ بالتشديد.

ثم زجرهم عن الاعتذار بقوله:

٩ ـ ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾.

١١ ـ ﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

﴿كلا﴾ حرف وضع في اللغة لنفي ما تقدم وتحقيق غيره، أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور ﴿بالدين﴾ أي بالجزاء والحساب، ثم أعلمهم أن أعمالهم محفوظة فقال: ﴿وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين﴾ عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم بكتابتها ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ من خير أو شر.

ثم ذكر فائدة كتابة الحفظة وغايتها فقال:

١٣ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾.

١٥ ـ ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾.

١٦ ـ ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾.

١٨ ـ ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾.

١٩ ـ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾.

الأبرار هم المؤمنون الذين بروا وصدقوا في الإيمان موعدهم الجنة، والفجار المكذبون بالرسول والقرآن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦.

ويوم الدين وهو يوم القيامة، جزاؤهم النار ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾[1].

ثم عظّم ذلك اليوم فقال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم كرر ذلك تفخيماً لشأنه، ثم وصفه مجملاً فقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ أي لا يملك الأمر أحد إلّا الله.

القــــراءة

﴿يوم﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يومُ﴾ بالرفع.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

سورة المطففين

تسمى سورة المطففين لورود كلمة ﴿المطففين﴾ في أول السورة.

إنه سبحانه لما ذكر في السورة المتقدمة بعض أشراط الساعة وأخبر عن طرف من أحوالها وأهوالها، صدر هذه السورة بالنعي على قوم آثروا الحياة الزائلة على الحياة الباقية فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾.

٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾.

٤ ـ ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾.

٥ ـ ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

٦ ـ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ويل للمطففين﴾ عذاب أو هلاك، والمطففون هم الذين يبخسون الناس في الكيل والوزن، جمع مطفف من الطفيف وهو القليل، وطف الإناء أو الوادي إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلىء ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ إذا اكتالوا طلبوا الكيل أو الوزن من الناس، استوفوا عليهم الكيل، ويدخل فيه العد، والمعنى: يأخذون حقهم كاملاً من غيرهم، وعبر بـ﴿على﴾ بدلاً ﴿من﴾ لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء، ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ أي كالوا للناس أو وزنوا لغيرهم ينقصون في ذلك ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم﴾ أدخلت همزة الاستفهام على ﴿لا﴾ النافية توبيخاً وإنكاراً وتعجباً من اجترائهم على التطفيف، كأنهم لا يخطر ببالهم أنهم سوف يبعثون ليوم عظيم يوم القيامة فيحاسبون، وفي الإشارة إليهم بـ﴿أولئك﴾ وقد ذكرهم عما قريب تبعيد لهم عن رتبة الاعتبار، وقد سبق أن بين الله لنا في سورة هود ماذا فعل بقوم شعيب الذين كانت تلك صفة من صفاتهم حيث قال لهم ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾[1].

---

(١) الآية: ٨٤.

وقد عظّم الله أمر الكيل والوزن وما يماثله من المعدودات والمقيسات لابتناء المعاملات عليها، والناس لا يستغنون عنها، والتطفيف فيها خيانة، واعتداء على حقوق الآخرين، ومبنى التعامل على الأمانة والثقة.

ثم بين أن كل ما يعمل من خير أو شر فإنّه مكتوب عند الله فقال:

٧ - ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴾.

٨ - ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴾.

٩ - ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾.

١٠ - ﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾.

﴿كلا﴾ ردع وزجر أي ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ أي كتاب أعمالهم السيئة المثبت في ديوان الشر، والمراد بالفجار هنا الكفار والفسقة الذين منهم المطففون، والسجين مأخوذ من السجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالى منها اتسع، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم، وهي أسفل السافلين كما قال تعالى ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾[١]، وفي قوله تعالى ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورًا﴾[٢]. وهو جمع بين الضيق والسفول.

﴿كتاب مرقوم﴾ أي ذلك الكتاب الذي في سجين مرقوم أي مكتوب، ﴿وما أدراك ما سجين﴾ اعتراض تعظيماً لأمر السجين، وكتاب مرقوم ليس تفسيراً للسجين، بل التقدير كلا إن كتاب الفجار لفي سجين، وإن كتاب الفجار مرقوم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ إعادة للوعيد الأول بعبارة أدل على عظم الجرم، هلاك لهم وعذاب على عدم تصديقهم وإيمانهم.

ثم أوعد المكذبين ووصفهم بقوله:

١١ - ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

١٢ - ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴾.

١٣ - ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ هذا للذم لا للبيان، لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله سواء أكان مكذباً بالبعث أو بسائر آيات الله، ثم بالغ في الذم بقوله ﴿وما يكذب به إلّا كل معتد أثيم﴾ متجاوز عن حد الاعتدال في استعمال القوة النظرية.

أساطير الأولين

أثيم في إعمال القوة البدنية في غير مواقعها حتى أثمر له الباطل بدل الحق، وحكم على آيات الله﴿قال

(١) سورة التين، الآية: ٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٣.

أساطير الأولين﴾ والأساطير أحاديث لا نظام لها، كلام مكرر للحكاية، يأثره الأول عن الآخر، والخلف عن السلف، ولكنه لا ينطبق على الواقع، فهو مما تعودت النفوس سماعه، دون أن تتأثر منه أو يعود عليه بطائل، فلا يستحق النظر فيه.

عذاب نفسي بالران

ثم بين أن استمرارهم على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم أورثهم عدم الفهم فقال:

١٤ ـ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

ران: غلب على قلوبهم، كالخمرة ترين على عقل السكران، وكالنعاس يرين ريناً وريوناً إذا رسخ، والمعنى: كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم، قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب، ويسود من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب، وهو أشدّ من الرين، وأخرج أحمد والترمذي وصححه النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه. وإن عاد زادت حتى تغلّف قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن».

أقول: إن الران هو عقاب نفسي من الله لكل من يصر على الكفر والمعاصي، بعد أن جاءته الأدلة والبينات والنصائح، وعرف الله ورسله وكتبه وأنكر كل ذلك، فقد حق عليه العذاب بما كسب من الإثم، ولذلك قال عن سبب الران ﴿ما كانوا يكسبون﴾ أي أن هؤلاء لا يرجى فيهم خير، فذرهم في خوضهم يعلبون حتى يأتيهم عقاب الآخرة، ولأن الله لا يريد لهم الهدى فتركهم في الضلال، لأن مصيرهم إلى النار في علم الله عز وجل، فران على قلوبهم ما كسبوه من الإثم وأصروا عليه.

القـــراءة

﴿ران﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿بل ران﴾ بفتح الراء مدغمة، وقرأ أبو بكر عن عاصم مدغمة بكسر الراء.

١٥ ـ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾.

١٦ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾.

١٧ ـ ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

﴿كلا﴾ أي لا يصدقون، ثم استأنف الكلام فقال ﴿إنهم عـن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ أي عن النظر إلى ربهم يومئذ لمحجوبون والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه، قال الشافعي «لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضى» ثم من بعد حجبهم عن الله يدخلون النار فذلك قوله تعالى: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال لهم في معرض التوبيخ ﴿هذاالذي كنتم به تكذبون﴾.

ثم شرع في بيان محل الأبرار فقال:

١٨ ـ ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾.

١٩ ـ ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾.

٢١ ـ ﴿ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾.

عليون جمع علا من العلو جعل على ديوان الخير الذي فيه أعمال الملائكة، وكما أن كتاب الفجار في السجين بالسفل فكتاب الأبرار ضده بجميع معانيه، والمقربون هم الملائكة، والتكرار في قوله ﴿وما أدراك ما عليون﴾ تعظيم للشأن.

٢٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي إن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أسرة الجنة ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة، وذلك أن الله يزيد في جمالهم ما لا يصفه واصف في الدنيا ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ ﴿ختامه مسك﴾ الرحيق من الخمر ما لا غش فيه، فهي أجود الخمر المعتقة، وختامه مسك: قال الفراء: الختام آخر كل شيء، ومنه يقال الأعمال بخواتيمها، وأنت خاتم النبيين، والتركيب يدل على القطع والانتهاء بجميع معانيه والمعنى: أي شاربه يجد في شربه رائحة المسك، بخلاف خمر الدنيا التي يجد شاربها تلك الرائحة الكريهة والطعم المر، ثم رغب في العمل الموجب لهذه الكرامة فقال: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله.

القــــراءة

﴿ختامه مسك﴾ قرأ الكسائي ﴿خاتمه﴾ بخاء مفتوحة بعدها ألف وتاء مفتوحة.

٢٧ ـ ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾.

﴿ومزاجه من تسنيم﴾ أي مزاج ذلك الرحيق ماء من عين في الجنة منصب من علو اسمه التسنيم، وأصل هذا من سنام البعير، ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي يسقون الرحيق أو التسنيم من عين يمزجون بها كؤوسهم.

ثم حكى قبائح أفعال الكافرين فقال:

٢٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴾.

٣٠ ـ ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾.

٣١ ـ ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾.

٣٣ ـ ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴾.

كان المشركون وهم الذين وصفهم بالذين أجرموا، يضحكون من أصحاب النبي في بداية الدعوة، وهذا شأن العتاة اليوم، وكانوا إذا مروا بهم يغمز بعضهم بعضاً استهزاءً بهم ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ إذا رجعوا إلى منازلهم تراهم متلذذين يتفكهون بذكرهم واستخفافهم بالمؤمنين.

﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ إذا رأى الكفار المسلمين قالوا إنهم في اتباعهم محمداً لضالون بتركهم التنعم وتحريمهم ما حرّم الله ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي لم يكونوا وكلاء عليهم بحفظ أعمالهم، وفي ذلك من الإنكار عليهم والتهكم بهم ما فيه أي ينسبون المسلمين إلى الضلال، والحال أنهم لم يرسلوا على المسلمين موكلين بهم، حافظين عليهم أحوالهم.

القــــراءة

﴿انقلبوا فكهين﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة والكسائي وأبو عمرو وابن عامر ﴿انقلبوا فاكهين﴾ بالألف.

٣٤ ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾.

٣٥ ـ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾.

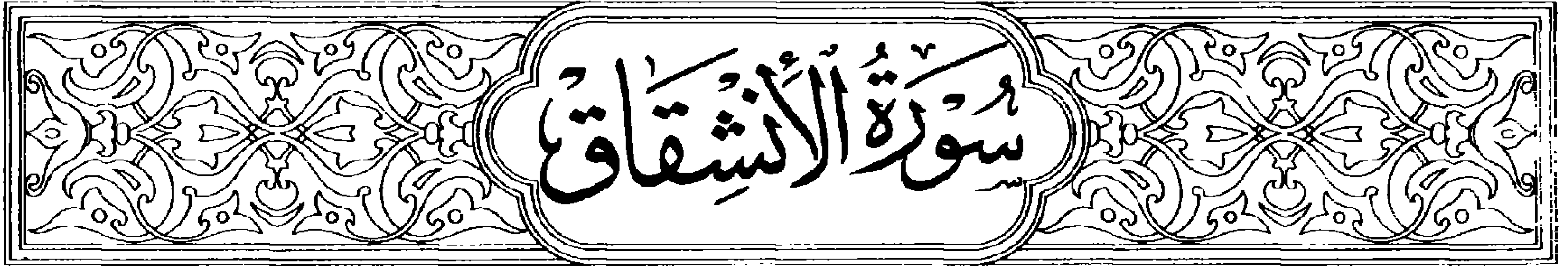
﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك والاستهزاء بالمؤمنين، والاستفهام بمعنى التقرير.

القــــراءة

﴿ثوب﴾ قرأ حمزة والكسائي، وهارون[1] عن أبي عمرو ﴿هل ثوب﴾ بإدغام اللام.

---

(١) هو هارون بن موسى القارىء النحوي، صاحب القرآن والعربية ضبط النحو وحفظه، وهو أول من تتبع وجوه القرآن وألفها، وتتبع الشاذ منها، وبحث على إسناده، ومات في حدود السبعين ومائة (البغية ص ٤٠٦).



تسمى سورة الانشقاق لورود كلمة ﴿انشقت﴾ في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما ختم الله سبحانه سورة المطففين بذكر أحوال القيامة، افتتح هذه السورة بمثل ذلك فاتصلت بها اتصال النظير بالنظير فقال:

١ - ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾.

٢ - ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾.

٣ - ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾.

٤ - ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾.

٥ - ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾.

﴿إذا السماء انشقت﴾ انشقاق السماء من علامات الساعة، وهو تصدعها واختلاف نظامها، حيث يقول الله عز وجل في سورة إبراهيم ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾[1] ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ أي استمعت وأطاعت في الانشقاق من الأذن وهو الاستماع للشيء، ﴿وإذا الأرض مدت﴾ تمد أي تبسط بدل جبالها وآكامها وتسويتها حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وهذا دليل على أن الأرض غير ممدودة بل مطوية مكورة مدورة كالكرة، ومدها إزالة استدارتها، ﴿وألقت ما فيها وتخلّت﴾ أي طرحت ما في جوفها من كل شيء من المعادن والمياه والبترول وخاصة ما في القبور من البشر، وخلت عند ذلك فلم يبق في باطنها شيء، وأذنت أي أطاعت الأرض كإطاعة السماء في الإلقاء والتخلي، وحذف جواب إذا: لأن المعنى معروف قد تردد في القرآن.

٦ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾.

المراد بالإنسان جنس الإنسان بدليل التفصيل بعده، والكدح جهد النفس في العمل حتى تأثرت ﴿فملاقيه﴾ تكد في عملك طول حياتك إلى مماتك حيث تلاقي ربك بعملك فيجازيك عليه.

٧ - ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾.

(١) الآية: ٤٨.

٨ ـ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾.

٩ ـ ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾.

﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم المؤمنون يعطون الصحف التي فيها بيان مالهم من الحسنات بأيمانهم ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله له، وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «من نوقش الحساب هلك، فقلت: يا رسول الله فإن الله يقول: فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟، قال ذلك العرض، ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ أي يرجع إلى أهله زوجاته من الحور العين في الجنة مسروراً بما أوتي من الكرامة.

١٠ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾.

١١ ـ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾.

١٣ ـ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾.

﴿وراء ظهره﴾ يؤتى كتابه وراء ظهره لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، وتكون يده اليسرى خلفه ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ إذا قرأ كتابه قال يا ويلاه، يا ثبوراه، والثبور الهلاك ﴿ويصلى سعيراً﴾ أي النار ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي إنه كان في الدنيا مسروراً باتباع هواه وركوب شهواته.

القـــراءة

﴿ويصلى﴾قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي ﴿ويُصلّى﴾ بضم الياء وتشديد اللام.

ثم بين أن سروره إنما كان لأجل أن البعث والنشور لم يكن محققاً عنده فقال:

١٤ ـ ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾.

١٥ ـ ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾.

﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي يرجع إلى الله خلاف حاله من السرور والتنعيم، ثم نفى منطوقه بقوله ﴿بلى﴾ أي يحور، ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾ بصيراً به على جميع الأحوال.

ثم أكد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال فقال:

١٦ ـ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾.

١٩ ـ ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾.

﴿فلا أقسم بالشفق﴾ أي أقسم، والشفق الحمرة التي تظهر في الأفق الغربي بعد الغروب، وسمي شفقاً لرقته، ومنه الشفقة لرقة القلب ﴿والليل وما وسق﴾ أي ما جمع وضمّ مما كان منتشراً في النهار من الخلق والدواب وغيرها ﴿والقمر إذا اتسق﴾ اجتمع وتم نوره وصار بـدراً من الوسق وهو الجمع والضم، أقسم الله تعالى بهذه الثلاثة، وهي حوادث متغيرة طارئة على الأفلاك والعناصر ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ أي جواً بعد جو، وقد يكون ذلك في الدنيا وقد تحقق وقد يكون في الآخرة بعد قيام الساعة.

ثم وبّخهم على أنهم لا ينظرون في الدلائل حتى يورثهم الإيمان فقال:

٢٠ ـ ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

٢١ ـ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾.

﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ استفهام إنكاري، وما لهم إذا سمعوا القرآن لا يخضعون له ويستكينون.

٢٢ ـ ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾.

الذين كفروا يكذبون بالقرآن والبعث والجزاء، والله أعلم بما يضمرون في صدورهم من التكذيب.

ثم صرّح بالوعيد قائلاً:

٢٤ ـ ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

أي خبّرهم بذلك، والبشارة استخدمها هنا على سبيل التهكم، لأنها خاصة في الخبر، أي البشارة بالجنة والممنون عند أهل اللغة: المقطوع.

سورة البروج

تسمى سورة البروج لورود كلمة البروج في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أخبر عن خاتمة السورة المتقدمة أن في الأمة مكذبين، سلّى نبيه ﷺ بأن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك كأصحاب الأخدود وكفرعون وثمود فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾.

٤ ـ ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾.

﴿والسماء ذات البروج﴾ أقسم الله بها وبما بعدها، البروج جمع برج يطلق على الحصن وعلى القصر وعلى ما علا من البناء، وعلى البروج الاثني عشر التي ترى صورها في الأشكال الحاصلة من اجتماع بعض الكواكب على نسب خاصة، وقد يكون المراد بالشاهد الأنبياء، والمشهود عليه الأمم، ﴿واليوم الموعود﴾ هو يوم القيامة لأن الله وعد به ﴿وشاهد ومشهود﴾ كل ماله حس يشهد به، وكل محس يشهد بالحس، ويشمل كل ما كان يشهد من الأيام والأزمنة والأمكنة كيوم الجمعة وعرفة، ويوم النحر، ومكة والمدينة والقدس، ثم ذكر جواب القسم فقال: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ جمع خد والخد الشق في الأرض يحفر مستطيلاً كالخندق، وأصحاب الأخدود قوم كافرون ذوو بأس وشدة نقموا على المؤمنين إيمانهم بالله، ونكلوا بهم، فحفروا لهم أخدوداً في الأرض، وأسعروا النار فيه، وألقوهم فيه لإبائهم الارتداد إلى الكفر بالله، وجاء في تفسير ابن كثير أن ذلك كان في نجران بجنوب الجزيرة العربية باليمن، حيث استجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام من الإنجيل، قال: فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية، وخيّرهم بين ذلك والقتل، فاختاروا القتل، فخد الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف، ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، لم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له دوس ذو ثعلبان، ذهب فارساً إلى قيصر ملك الشام، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يتقدمهم أرياط وأبرهة، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود، واستمر ملك اليمن في أيدي النصارى سبعين سنة، ثم استنقذه سيف بن ذي يزن الحميري من أيدي النصارى لما استجاش بكسرى ملك الفرس، فأرسل معه من في السجون فكانوا قريباً

من سبعمائة، ففتح بهم اليمن ورجع الملك إلى حمير وذو نواس اسمه زعة ويسمى في زمان مملكته بيوسف، وهو ابن بيان أسعد أبي كريب، وهو تبع الذي غزى المدينة وكسى الكعبة، واصطحب معه حبرين من يهود المدينة، فكان تهود من تهود من أهل اليمن على يديهما، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً.

ثم أشار سبحانه إلى عظم النار فقال:

٥ ـ ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾.

٦ ـ ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾.

٩ ـ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

﴿النار ذات الوقود﴾ أي الشديدة، لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها ﴿إذ هم عليها قعود﴾ أي لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها مشرفين عليها من حافات الأخدود ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ يشهدون تعذيبهم هذا العذاب المهلك ﴿وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي ما عابوا عليهم بشيء، ولا كان للمؤمنين ذنب إليهم سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الذي لا يغلب، الحميد الذي لا يحمد على مكروه سواه.

ثم عمم الوعيد فقال:

١٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أي ابتلوهم بالأذى وامتحنوهم بالعذاب ليردوهم عن دينهم ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ الأول بسبب كفرهم، والثاني بسبب ابتلائهم أهل الإيمان.

ثم رغب ورهب بوجه آخر فقال:

١١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

١٢ ـ ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾.

١٣ ـ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾.

﴿إن بطش ربك لشديد﴾ إنّ أخذ الله الجبابرة والظلمة لأليم عنيف، والبطش: الأخذ بقوة وعنف ﴿هو يبدىء ويعيد﴾ يبدىء الخلق ثم يعيده في الآخرة، فبطشه بهم شديد ﴿وهو الغفور الودود﴾ الغفور لمن يرجع إليه بالتوبة، الودود لمن أخلص إليه بالمحبة.

١٥ ـ ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾.

١٦ ـ ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.

﴿ذو العرش المجيد﴾ خالقه ومالكه ﴿فعّال لما يريد﴾ لا يتخلف عن إرادته مراد من أفعاله.

القــــراءة

﴿ذو العرش المجيد﴾ قرأ حمزة والكسائي والمفضل عن عاصم ﴿المجيدِ﴾ بالخفض على الصفة للعرش.

ثم ذكرهم وسلّى نبيه ﷺ فقال:

١٧ ـ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴾.

١٨ ـ ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾.

الجنود وهم الذين تجنّدوا على أولياء الله، ثم بين من هم، فقال: فرعون وثمود.

ثم أضرب عن التذكير إلى التصريح بتكذيب كفار قريش والتنبيه على أنه محيط فقال:

١٩ ـ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾.

أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

ثم سلّى نبيه ﷺ بوجه آخر فقال:

٢١ ـ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾.

أي قرآن كريم لأنه كلام الله، وليس كما يقولون شعر ولا كهانة، ولا سحر، واللوح المحفوظ منه نسخ القرآن، وسائر الكتب، فهو محفوظ عند الله، محروس به من الشياطين، أو الزيادة فيه أو النقصان.

القــــراءة

﴿محفوظ﴾ قرأ نافع ﴿محفوظٌ﴾ رفعاً على نعت القرآن، فالمعنى إنّه محفوظ من التحريف والتبديل.



تسمى سورة الطارق لورود كلمة الطارق في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ختم الله سبحانه سورة البروج بالوعيد وافتتح هذه السورة بمثله وأكد ذلك بأن أعمال الخلق محفوظة فقال:

١ ـ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾.

٣ ـ ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾.

٤ ـ ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾.

﴿والسماء والطارق﴾ أقسم الله بالسماء والطارق، والمراد به النجم البادي بالليل، وفي الإقسام بهما تفخيم لشأنهما، وزاد النجم المقسم به تفخيماً قوله ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ أي: أي شيء أعلمك ما هو، ثم فسره بقوله ﴿النجم الثاقب﴾ أي المضيء كأنه يثقب الظلام بنوره المستمر من الشمس فينفذ فيه، والمراد به الجنس، فإن لكل كوكب ضوءاً ينعكس منه ثاقباً، وجواب القسم قوله ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ أي ما كل نفس إلاّ عليها مهيمن قائم في إيجادها وبقائها، وهو الله سبحانه أو من يحفظ عملها من الملائكة، ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر، وما للتوكيد وإن مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي إنه.

القـــراءة

﴿لما﴾ قرأ نافع وابن كثير والكسائي وأبو عمرو بالتخفيف، والمعنى لعليها حافظ.

وحين ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوصيته للإنسان فقال:

٥ ـ ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾.

٦ ـ ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾.

٧ ـ ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾.

٨ ـ ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾.

﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ أي من أي شيء خلقه، والمعنى: فلينظر نظر التفكر والاستدلال ليعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته، ثم بين جواب الاستفهام فقال ﴿خلق من ماء دافق﴾ أي مصبوب في الرحم، وهو ماء الرجل وماء المرأة، لأن الإنسان مخلوق منهما لكن الله جعلهما ماءً واحداً، لامتزاجهما وذلك باتحاد بويضة الذكر مع بويضة الأنثى لتشكلا وحدة واحدة ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ الصلب هو ظهر الإنسان الذي فيه عموده الفقري، والترائب: جمع تريبة والترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة من يسرة الصدر، وفي الرجل كذلك مثل ما في المرأة من الأضلاع، ولم يخص القرآن المرأة من دون الرجل، والصحيح أن المني يخرج من بين الظهر والصدر، كما أثبت ذلك العلم الحديث، فبالنسبة للمرأة تتحرك الغدد التناسلية في طريق هجرتها من مكان نشأتها في الظهر إلى أسفل البطن، ومن المعلوم أن المبيض يتجه إلى الحوض ويستقر فيه، وفي الرجل وإن كانت الخصية فيه منشأ الحيوانات المنوية، إلّا أنها قد هاجرت من مكان نشأتها في الظهر إلى خارج البطن في كيس خاص بها، وتسحب الغدد التناسلية أوعيتها الدموية وأعصابها إلى المقر الدائم الجديد، لذلك نجد أن شريان وأعصاب كل من المبيض في المرأة والخصية في الرجل تأتي من مكان بين الصدر والظهر، مكان المنشأ الأول لها.

فالغدد التناسلية في الرجل والمرأة معاً تنشأ في الجنين في النتوء التناسلي بين عظام الترائب وعظام الصلب وهذا ما يفيده ظاهر الآية ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ يوم القيامة بالبعث.

ثم بين ذلك اليوم الذي يعاد فيه الناس أحياء فقال:

٩ ـ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾.

١٠ ـ ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾.

﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي اليوم الذي تختبر فيه السرائر وتعرف، والسرائر: ما يسر في القلوب من العقائد والنيات فالإنسان مستور في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة أبدى الله كل سر وكشفه، ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾ فما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره.

ثم أكد أحقية القرآن الذي فيه هذه البيانات الشافية والمواعظ الوافية فقال:

١١ ـ ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾.

١٣ ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾.

﴿والسماء ذات الرجع﴾ أي ذات المطر، وسمي المطر رجعاً لأنه يجيء ويرجع ويتكرر ﴿والأرض ذات الصدع﴾ أي ذات الشق، لأنها تتصدع وتنشق بالنبات، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إنه لقول فصل، وما هو بالهزل﴾ يعني القرآن، والفصل الذي يفصل بين الحق والباطل بالبيان، ما هو بالهزل: أي ما هو باللعب، والمعنى: أنه جد، ولم ينزل باللعب.

ثم سلى نبيه وحثه على الصبر الجميل فقال:

١٥ ـ ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾.

١٦ ـ ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾.

١٧ ـ ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾.

﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ يعني المشركين أي يحتالون وهذا الاحتيال المكر برسول الله ﷺ، حين اجتمعوا في دار الندوة، وتنادوا لقتل النبي وإبطال دعوته ﴿وأكيد كيداً﴾ أي أجازيهم بأن أستدرجهم من حيث لا يعلمون فأنتقم منهم ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ هذا وعيد من الله لهم ومهل وأمهل لغتان، ومعنى الآية: مهلهم قليلاً حتى أهلكهم، ففعل الله ذلك ببدر، قال ابن قتيبة: ومعنى: رويداً: مهلاً ورويدك بمعنى أمهل.



سورة الأعلى سميت لورود كلمة الأعلى في أول السورة، وتسمى سورة سبح.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم الله سبحانه سورة الطارق بذكر الوعيد والتهديد للكفار، افتتح هذه السورة بذكر صفاته العلى وقدرته على ما يشاء فقال:

١ ـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾.

٢ ـ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾.

٥ ـ ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾.

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي نزهه من كل ما لا يليق به بقولك ﴿سبحان ربي الأعلى﴾ ولما نزلت قال النبي ﷺ «اجعلوها في سجودكم»[1]، وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بها وبسورة الغاشية في صلاة الجمعة والعيدين، ووتر العشاء، وقال لمعاذ «هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى»؟، ثم شرع في بعض أوصافه الكمالية فقال: ﴿الذي خلق فسوّى﴾ خلق الإنسان مستوياً، فعدل قامته، وسوى فهمه وهيأه للتكليف ﴿والذي قدّر فهدى﴾ جعل الأشياء التي قضاها على مقادير مخصوصة في خواصها وأنواعها وأجناسها وصفاتها وأفعالها وآجالها، وهداها إلى معايشها، فوجه كل واحد منها إلى رزقه، وعيشه وعمله، فهو الذي هدى الطفل الرضيع إلى ثدي أمه وسخرها له، وهو الذي هدى الطيور إلى أوكارها تسير المسافات الطوال فلا تضل أعشاشها، وهو الذي هدى البعير والفيل والحصان لخدمة الإنسان إلخ...

القـــراءة

﴿قدّر﴾ قرأ الكسائي وحده ﴿قدر﴾ بالتخفيف.

﴿والذي أخرج المرعى﴾ أنبت العشب، وما ترعاه البهائم لخدمة الإنسان ومعايشه، فجعله بعد الخضرة ﴿غثاءً أحوى﴾ أي جففه حتى جعله هشيماً جافاً كالغثاء الذي تراه فوق ماء السيل، والأحوى الذي اسود من القدم والعتق، من

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه واسناده صحيح.

الحوة، وهي سواد إلى الخضرة، وصف به الغثاء، لأن الغثاء إذا قدم وأصابته المياه اسود وتعفّن فصار أحوى.

وبعد أن ذكر الهداية العامة ذكر بيان هداية النبي ﷺ فقال:

٦ - ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ .

٧ - ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ .

﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ سنعلمك القرآن ونجمعه في قلبك فلا تنساه أبداً، فألهمه الله وعصمه من نسيان القرآن وذلك معجزة كبيرة لشخص أمي.

﴿إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ لقد ثبت بالآيات العديدة في القرآن حفظ كتاب الله وصونه وحفظ الرسول له بالقوة الإلهية ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه﴾[1]، وما قاله بعض المفسرين، إن الاستثناء منصرف للنسخ، بمعنى إلا ما شاء الله أن ينسخه من آيات القرآن فتنساه، مما نسخ تلاوة، فغير صحيح، ولا ينفع مع الرسالة والعصمة ولا مع سياق الآية، والصحيح أن هذه الآية تطمين للنبي بأنه لن ينسى شيئاً من القرآن وذلك أنه كان يحرك لسانه به حينما كان يأتيه الوحي به ليحفظه فخاطبه ربه بالآية مبيناً له أن النسيان لا يكون إلا بمشيئة الله له فلا خوف، لأنه هو الذي يعلم ما ظهر وما خفي من القول في السر والعلن، يعلم ما في القلوب ومما يستكن وما في الجوارح وما يظهر.

٨ - ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

٩ - ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ .

١٠ - ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ .

١١ - ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ .

١٢ - ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ .

١٣ - ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

﴿ونيسرك لليسرى﴾ اليسرى من التيسير، والمعنى لا تخف ولا تزعل من الوحي وتتكلف في حفظ القرآن، ولا تخشى نسيانه، فسوف نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علماً وعملاً، واهتداءً وهداية، ومن ذلك تيسير تلقي الوحي.

﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ فذكر الناس أي عظهم حسبما يسرناك له، عظ من ينتفع بالهدى، ولا تكلف نفسك وتجهدها مع من أعرض ونأى بجانبه، ضع الموعظة في مكانها حيث تنفع، ثم إنه تعالى بين أن المنتفع بالتذكير من هو فقال: ﴿سيذكر من يخشى﴾ سينتفع بتذكيرك من في قلبه خشية من الله تعالى وخوف من عذابه وهم المؤمنون.

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٦ - ١٧.

﴿ويتجنبها الأشقى﴾ أي ويتجنب الوعظ والتذكير ويبعد عنها الأشقى، أشقى الناس وهو الكافر المصر على العناد، والذي خلا قلبه من خشية الله.

﴿الذي يصلى النار الكبرى﴾ أي العظيمة لأنها أشد وأكبر من نار الدنيا.

﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، يمكن أن يتلذذها.

ثم ذكر وعد السعداء بعد وعيد الأشقياء فقال:

١٤ ـ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾.

١٥ ـ ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾.

١٦ ـ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾.

١٧ ـ ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي من تطهر من الشرك، فآمن بالله وحده وعمل بشرائعه، وقد يراد بها بالنسبة للمؤمن إخراج صدقة الفطر لورودها قبل ذكر الصلاة المعنية بالآية التالية ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ صلاة العيدين وذلك لورود الصلوات الخمس في غير هذا الموضع، وسبقت كلمة الذكر، ويعني بها الخطبة كما في صلاة الجمعة.

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى﴾ أي بل تؤثرون تفضلون اللذات الفانية في الدنيا على ما في الآخرة التي هي أفضل وأدوم والعاقل من عمل في دُنْياه لآخرته ونال سعادة الدارين تمتع في دنياه وفاز في آخرته.

القــــراءة

﴿تؤثرون﴾ قرأ أبو عمرو، وزيد عن يعقوب ﴿بل يؤثرون﴾ بالياء.

١٨ ـ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

١٩ ـ ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾.

﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ أي ما تقدم مما ذكر، والأولى التي سبقت القرآن، ثم بين الصحف الأولى ما هي فقال: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ المنزلة على كل منهما وبيناها في سورة النجم.



تسمى سورة الغاشية لورود كلمة الغاشية في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ختم الله سبحانه سورة الأعلى بالترغيب بالآخرة، وأنها خير من الدنيا، وافتتح هذه السورة أيضاً ببيان أحوال الآخرة فقال:

١ ـ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴾.

٣ ـ ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾.

٤ ـ ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾.

٥ ـ ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾.

٦ ـ ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾.

٧ ـ ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾.

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ أي قد أتاك وهو استفهام أريد به التعجب من حديث القيامة، والتشويق إلى استماعه، وسميت غاشية لأنها تغشى الخلق بأفزاعها.

﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ أي أن الناس يوم القيامة يكونون فريقين الأول وجوههم ذليلة خاضعة لما هي فيه من العذاب ﴿عاملة ناصبة﴾ هم الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام، كعبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان والقسيسين والأحبار، وأصحاب الصوامع وغيرهم، ولا ثواب ولا أجر لهم من الله، لأنه عمل غير صالح، غير مقبول عند الله.

﴿تصلى ناراً حامية﴾ قد حميت فهي تتلظى، متناهية في الحرارة.

﴿تسقى من عين آنية﴾ بلغت إناها أي غاية حرها، أوقدت النار على العين، ودفع إليها الكفار ورداً عطاشاً يشربون من مائها، والماء الآني هو المتناهي في الحرارة كما قال الله في سورة الرحمن ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾[١].

---

(١) الآية: ٤٤.

﴿ليس لهم طعام إلّا من ضريع﴾ الضريع: شجر في النار يشبه الشوك، وهو في الدنيا يبيس الشبرق، وهو أخبث طعام، لا تقربه الدابة، لأنه سم قاتل، والمعذبون من الكفار يأكلون أنواعاً من الطعام: فمنهم من طعامه في النار الضريع، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، لكل باب منهم جزء مقسوم، نسأل الله العفو والعافية.

﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ لا يسمن الضريع آكله، ولا يدفع عنه ما به من جوع.

القــــراءة

﴿تصلى﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿ تُصلى ناراً﴾ بضم التاء.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال:

٨ ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾.

٩ ـ ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾.

١٠ ـ ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾.

١١ ـ ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾.

﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ ذات بهجة وحسن من النعومة، وهم المؤمنون جزاء إيمانهم.

﴿لسعيها راضية﴾ أي راضية لعملها الذي عملته في الدنيا، ولأنها أعطت من الأجر والثواب ما أرضاها.

﴿في جنة عالية، لا تسمع فيها لاغية﴾ هم في جنة مرتفعة القصور والدرجات، دون أن يسمعوا كلمة ساقطة.

القــــراءة

﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لا يسمع﴾ بالياء المضمومة، ونصب لاغية.

١٢ ـ ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾.

١٣ ـ ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾.

١٤ ـ ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾.

١٥ ـ ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾.

١٦ ـ ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾.

﴿فيها عين جارية﴾ المراد جنس العين، أي عيون جارية فيها مختلف الشراب.

﴿فيها سرر مرفوعة﴾ السرر جمع سرير وهو مجلس السرور، قد يكون للنوم أو للاتكاء عليه كالأريكة.

﴿وأكواب موضوعة﴾ وهي التي ليس لها خراطيم ولا عرى للشرب، وموضوعة مجهزة تحت الطلب.

﴿ونمارق مصفوفة﴾ النمارق هي الوسائد، واحدها نمرقة بضم النون، مصفوفة بعضها إلى جنب بعض.
﴿وزرابي مبثوثة﴾ هي البسط الفاخرة، ومبثوثة تدل على الكثرة مفرقة في كل مكان.
ولما نعت الله سبحانه ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الكفر فذكرهم صنعه فقال:

١٧ ـ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾.

١٩ ـ ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وإنما خص الإبل من غيرها لأن العرب لم يروا بهيمة أعظم منها إلّا نادراً، ولأن في مشاهدتها يلاحظون العبر الدالة على قدرة الخالق، من إخراج لبنها، ومن عجيب خلقها، وهي على عظمها مذللة للحمل الثقيل، وتنقاد للصبي الصغير.

﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾ السماء بخار وهواء وماء، وكواكب وسحاب هو ما نراه فوق رؤوسنا، فمن رفع كل ذلك وأمسكه بغير عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ نصبت كالأوتاد لها جذور في الأرض لتحفها لئلا تميد، وهي في الميزان لها ثقلها.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ إنها لشيء مدهش وعجيب سطحت لنا لنمشي عليها وهي كروية.

٢١ ـ ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾.

٢٣ ـ ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾أي عظ وادع إلى الله وبلغ رسالته إنما أنت مبلغ فقط.

﴿لست عليهم بمصيطر﴾ أي بمسلط على قلوبهم فتكرههم على الإيمان، ما عدا من يقف في وجه الدعوة.

﴿إلّا من تولى وكفر، فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي لكن من تولى وأعرض عنك وعن الوعظ والتذكير فله عذاب جهنم وهو العذاب الأكبر من عذاب الحاكم ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي علينا رجوعهم بعد الموت ﴿ثم إنّ علينا حسابهم﴾ يعني محاسبتهم.

سُورَةُ الفَجْرِ

تسمى سورة الفجر كزميلاتها لورود كلمة الفجر في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ختم الله جلّ وعلا سورة الغاشية بأن إياب الخلق إليه وحسابهم عليه وافتتح هذه السورة بتأكيد ذلك المعنى حين أقسم أنه بالمرصاد فقال:

١ ـ ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾.

٥ ـ ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾.

﴿والفجر﴾ أقسم الله تعالى بهذه الأقسام الخمسة لشرفها وعظمها، ولما فيها من الفوائد الدينية والدنيوية، فأقسم بالفجر المعروف وهو بدء النهار.

﴿وليال عشر﴾ وأقسم بعشر ذي الحجة، وفي صحيح البخاري «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام قالوا ولا الجهاد في سبيل الله، قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك في شيء».

﴿والشفع والوتر﴾ الشفع الزوج، والوتر: الفرد من كل شيء، أو هو بالصلاة شفعها ووترها.

﴿والليل إذا يسر﴾ أقسم بالليل، إذا جاء وأقبل ثم أدبر.

﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ الحجر: هو العقل، وسمي العقل حجراً لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلاً لأنه يعقل عما لا يحسن، وسمي العقل (النهى) لأنه ينهى عما لا يحل، ومعنى الكلام: أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء، فيه دلالة على توحيد الله وقدرته، فهو حقيق أن يقسم به، والاستفهام للتقرير.

القـــراءة

﴿الوتر﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿والوتر﴾ بكسر الواو، وفتحها الباقون، وهما لغتان، الكسر لقريش وتميم، وأسد، والفتح لأهل الحجاز.

﴿يسر﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو بالياء في الوصل.

ثم ذكر جواب القسم مخوفاً كفار مكة وغيرهم بإهلاك من كان أشد منهم فقال:

٦ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾.

٧ ـ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾.

٨ ـ ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾.

١١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾.

١٢ ـ ﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾.

١٣ ـ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾.

١٤ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾.

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ وهم عاد الأولى جيل من العرب البائدة، وعاد عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى نبيهم هود كذبوه فأخذتهم الصيحة، وقد تكلمنا عليهم في الأعراف وهود، والاستفهام للتقرير والتذكير.

﴿إرم ذات العماد﴾ بدل أو عطف بيان لـ ﴿عاد﴾ التي هي قبيلة عاد نفسها، ومعنى ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة، عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة، وكانت منازلهم بالرمال بالأحقاف إلى حضرموت، وربما في الربع الخالي بالجزيرة العربية السعودية، وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغاً لم يصل إليه سواها في عهدها ولذلك قال: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي لم يخلق في زمانهم مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة، وهم الذين قالوا ﴿من أشد منا قوة﴾(١) ، وقوله تعالى ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾(٢) ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً بوادي القرى بالحجر بين الشام والحجاز، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ كثرة الأوتاد تدل على كثرة الجنود والعساكر والخدم الذين يشدون ملكه كما تشد الأوتاد الخيام، وما بناء هذه الأهرامات إلاّ أوتاداً للأرض كالجبال فهم ذوو الأوتاد، أي الأهرامات ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ صفة لما تقدم عاد وثمود وفرعون، أي طغت كل طائفة منهم في بلادهم ﴿فأكثروا فيها الفساد، فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أنزل بكل منهم نوعاً من العذاب، فجعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً وبالشر شراً.

لما ذكر أنه تعالى بمرصد من أعمال بني آدم عقبه بتوبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الأخرة فقال:

١٥ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

١٦ ـ ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ .

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه﴾ أي جنس الإنسان، وابتلاه بمعنى اختبره، والابتلاء دائماً يأتي في الدائرة التي تسيطر على الإنسان ﴿فأكرمه ونعّمه﴾ بالمال الوفير والخير الكثير، والجاه العريض، وأسباب القوة والمنعة وغيرها، ﴿فيقول ربي أكرمن﴾ اعتقد أن ذلك كرامة له ففرح بما نال، وسر بما أعطي ولم يشكر الله على ذلك، ولم يخطر بباله من كثرة انشغاله بماله أنّ ذلك امتحان له من ربه ليبلوه أيشكر أم يكفر؟.

﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه﴾ أي ابتلاه بالفقر وضيق الرزق ليرى هل يصبر أم يجزع؟ ﴿فيقول ربي أهانن﴾ ولم يخطر بباله أن ذلك اختبار وليس من الإهانة في شيء، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث لأنه لا كرامة عنده إلاّ الدنيا، والتوسع في متاعها، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ورضاه ويوفقه للعمل الصالح، وليست سعة الدنيا كرامة، وليس ضيقها إهانة، وإنما الغنى اختبار للغني هل يشكر؟ والفقر اختبار له هل يصبر؟.

القـــراءة

﴿ربي أكرمن﴾ ﴿أهانن﴾ قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿ربي أكرمني﴾ ﴿أهانني﴾ بفتح الياء.

﴿فقدر﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿فقدّر عليه﴾ بالتشديد أي ضيق وهما لغتان.

ثم ردع الإنسان على مقالته فقال:

١٧ ـ ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ .

١٨ ـ ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ .

١٩ ـ ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ .

٢٠ ـ ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ ردع وزجر عن أفعالهم المذكورة، أي لم أبتله بالغنى لكرامته علي، ولا بالفقر لهوانه لدي ولكنهما محض المشيئة، وحب المصالح، ثم نبه بالإضراب بقوله ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ على أن هناك شراً من ذلك وهو أنه يكرمهم بالمال، ثم لا يؤدون حق الله فيه.

﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ أي لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك، فيبقى بينكم مغلوباً مقهوراً لا تمد له يد بعون، ﴿وتأكلون التراث أكلاً لماً﴾ الميراث من أموال اليتامى والنساء والضعفاء، وأكلاً لماً: أكلاً شديداً، وهو من قولك لممت بالشيء إذا جمعته، وأصل التراث: من الوراث، التاء فيه منقلبة عن واو أي (وراث).

القـــراءة

﴿تحاضون﴾ قرأ أبو عمرو من أهل البصرة ﴿ولا يحضون، يكرمون، ويأكلون، ويحبون﴾ بالياء، وقرأ نافع وابن

كثير وابن عامر ﴿تحضون﴾ بالتاء من غير ألف وقرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر من أهل المدينة ﴿يحاضون﴾ بألف مع فتح التاء.

ثم ردعهم عن الفعل المذكور وذكر تحسر المقصر في طاعة الله يوم القيامة فقال:

٢١ ـ ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾.

٢٣ ـ ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾.

٢٥ ـ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾.

٢٦ ـ ﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾.

﴿كلا﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، ثم أخبر عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم فقال ﴿إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ أي دكاً بعد دك، متتابعاً مرة بعد مرة، فيكسر كل شيء على الأرض ﴿وجاء ربك﴾ هذا في الآخرة ولا نعرف معناه في الدنيا بل نؤمن به من غير تكييف ولا تمثيل ولا تأويل، وقد يكون أمره وقضاؤه وسلطانه الإلهي ﴿والملك صفاً صفاً﴾ أي تأتي الملائكة صفوفاً ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ أي برزت وأظهرت، كما قال تعالى ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾[1]، ﴿يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾ أي يوم يجاء بجهنم، يتعظ الكافر ويتوب، ويندم على ما قدمه في الدنيا من المعاصي، وأكل أموال الناس بالباطل، وإنما تنفعه الموعظة والندم لو تذكر الحق قبل حضور الموت، ثم فسر التذكر بقوله ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يقول حين يرى العذاب تندماً على تفريطه في الدنيا، يا ليتني قدمت أعمالاً صالحة لأجل حياتي هذه في الآخرة، ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي لا يعذب الكافر ولا يوثقه بالسلاسل والأغلال أحد كوثاق الله عز وجل.

القــــراءة

﴿يعذب﴾ قرأ الكسائي ويعقوب ﴿لا يعذَّب﴾ بفتح الذال، فمن فتح فمعناه: لا يعذب عذاب الكافر أحد.

ثم ذكر بشارة الأبرار فقال:

٢٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾.

٢٩ ـ ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾.

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٦.

٣٠ ـ ﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾.

﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك﴾ المطمئنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله، يقول الله على لسان ملائكته إكراماً للمؤمنين عند تمام الحساب يقول للنفس المصدقة الواثقة، ارجعي بالثواب ﴿إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ ارجعي إلى ربك إلى حيث لا مالك سواه أو ثوابه وجنته راضية بما حكم عليك وقدر لك، مرضية عند الله، فادخلي في عبادي: أي في جملة الصالحين، وادخلي جنتي.



تسمى سورة البلد لورود كلمة البلد في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم الله سبحانه سورة الفجر بذكر النفس المطمئنة، بين هذه السورة وجه الاطمئنان وأنه النظر في طريق الله وأكّد ذلك بالقسم فقال:

١ - ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

٢ - ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

٣ - ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.

٤ - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾.

﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ والمعنى أقسم ولا دخلت توكيداً، والبلد هي مكة المكرمة لشرفها وحرمتها ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ وأنت حلال به حيث دخلها من غير إحرام عام الفتح، واستحلها ساعة من نهار بجهاد المشركين، ولم تحل لأحد من بعده ﴿ووالد وما ولد﴾ عام في كل والد وولد، ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ الإنسان اسم جنس، والكبد التعب والنصب، من مكابدة الهموم والشدائد في الدنيا.

٥ - ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

٦ - ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾.

٧ - ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ أيحسب ذلك الإنسان الذي كان يكابد منه الرسول ﷺ ما يكابد، أن لن يقدر على الانتقام منه أحد، ولن يقدر الله على بعثه ومعاقبته، ﴿يقول أهلكت مالاً لبداً﴾ أنفقت مالاً كثيراً في الجاهلية، والمال الكثير هو المتلبد بعضه على بعض، وقصده من ذلك أنه مستغن عن الله بكثرة ماله، فوبّخه الله على ذلك بقوله ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ يعني أن الله تعالى كان عالماً بقصده حين ينفق رياء وافتخاراً، وحباً في أن يقال عنه كريم، أيظن أن الله لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه.

ثم دل على كمال قدرته مع الاستعداد الفطري فقال:

٨ ـ ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾.

﴿ألم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما تدلان على أن الله قادر على بعثه كما قدر على خلقه ﴿ولساناً وشفتين﴾ اللسان فيه ينطق الإنسان، ولذلك يقال للغة لسان، وبدون اللسان يكون الإنسان كالأبكم الذي لا ينطق، وأما الشفتان فبهما يذوق الإنسان ويحس، وهما اللتان تعبران عما إذا كان الإنسان مسروراً أم حزيناً، وليس هذا مجال تعداد ما في حواس الإنسان من فضائل ومنافع، لكن سياق الآيات يدل على كمال قدرته واستعداد الإنسان الفطري لتقبل الحق وترك الباطل، لأن الله سبحانه قد هداه إلى ذلك فقال: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي سبيلي الخير والشر، كقوله ﴿إنا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفوراً﴾[1]، والنجد في اللغة المكان المرتفع، والمعنى: ألم يبصر بعينيه، ويسأل بلسانه وشفتيه ما هداه الله إليه وهدى غيره إلى الطرق الواضحة البينة كأنها عالية، فيعرف الحق من الباطل والإيمان من الكفر، وهذه الهداية هي هداية البيان لكل إنسان، فقد أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، وأخبر بوسائل الإعلام المختلفة عن دينه ووجوده.

١١ ـ ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾.

١٢ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾.

١٣ ـ ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾.

١٤ ـ ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾.

١٥ ـ ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾.

١٦ ـ ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾.

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي فهلا اكتسب ذلك الإنسان بماله الكثير الأعمال العظيمة التي لها عند الله رفعة ومنزلة، والاقتحام الدخول بشدة، ولهذا يستعمل في الأهوال والأخطار، وذكر العقبة هاهنا، مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة، يقول لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والإطعام، على ما ذكره علي بن أحمد النيسابوري، ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ أي شيء أعلمك؟ ثم بينه فقال ﴿فك رقبة﴾ تخليصها من إسار الرق والأسر ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ المسغبة: المجاعة حيث يعز فيه الطعام كأيام الحرب والفقر والشدة، أو في الصحراء والأسفار وغيرها ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ أي يطعم اليتيم، وهو الطفل الصغير الذي لا أب له ولا أم، ويكون اليتيم من أقارب هذا الإنسان، أو على مقربة منه كلما التفت رآه، قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان،

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣.

صدقة وصلة»[1]، ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي ذا فقر كأنه لصق بالتراب، وقال ابن عباس: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء.

القــــراءة

﴿فك رقبة﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿فكَّ﴾ بفتح الكاف و ﴿رقبةً﴾ بالنصب ﴿أو أطعم﴾ بفتح الهمزة والميم وسكون الطاء من غير ألف.

ثم بين أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان فقال:

١٧ ـ ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾.

﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ ثم هاهنا بمعنى الواو كقوله تعالى ﴿ثم الله شهيد﴾ وحين ذكر خصال الكمال عقبه بما يدل على التكميل فقال: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً على فرائض الله والصبر على التكاليف الشرعية، وعلى البلايا والمحن، والمرحمة: التعاطف والتراحم والتعاون.

وفي الآية نكتة لطيفة وهي سبحانه ذكر في باب الكمال أمرين، فك الرقبة والإطعام، ثم الإيمان، وذكر في باب التكميل شيئين: التواصي بالصبر على الوظائف الدينية، والتواصي بالتراحم، وكل من النوعين مشتمل على التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، إلّا أنه في الأول قدم جانب الخلق، وفي الثاني قدم جانب الحق، ففي الأول إشارة إلى كمال رحمته ونهاية عنايته بالمخلوقات، فإن رعاية مصالحهم عنده أهم، وفي الآخر رمز إلى حسن الأدب وتعليم المكلفين أن يعرفوا ما هو الأقدم الأهـم في نفس الأمر زادنا الله اطلاعاً على دقائق هذا الكتاب الكريم «ذكره النيسابوري».

١٨ ـ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾.

١٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾.

﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، والميمنة: أي جهة اليمين التي فيها السعداء في الجنة.

﴿أصحاب المشأمة﴾ أي جهة الشمال التي فيها الأشقياء في النار، وهو مشروح في سورة الواقعة.

﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أي المطبقة مغلقة أبوابها عليهم تشديداً في عذابهم.

القــــراءة

﴿مؤصدة﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿موصدة﴾ بغير همزة.

---

(١) رواه الترمذي والنسائي.



تسمى سورة الشمس لورود كلمة الشمس في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بذكر النار المؤصدة، بين في هذه السورة أن النجاة منها لمن زكى نفسه وأكده بأن أقسم عليه فقال:

١ ـ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾.

٢ ـ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾.

٣ ـ ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾.

٤ ـ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾.

٥ ـ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾.

٦ ـ ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾.

٧ ـ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾.

٨ ـ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾.

٩ ـ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾.

﴿والشمس وضحاها﴾ أراد الله سبحانه أن يتدرج من المحسوسات إلى المعقولات، ومن المصنوعات إلى الصانع ولا يخفى أن المحسوسات أظهرها هو الشمس، فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها، فأول أعظم أوصافها هو الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار، وثانيها جاء بقوله تعالى: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي تلاها القمر في أخذ الضوء عنها، وجاذبيتها له، وهذا ما اكتشفه العلماء أخيراً بعد عصر النبوة ونزول القرآن بقرون، وثالثها ذكر بقوله: ﴿والنهار إذا جلّاها﴾ أي جلى الشمس وأظهرها، فإنها تنجلي إذا انبسط النهار ومضت منه مدة، ثم ذكر الوصف الرابع فقال: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي يغشى الشمس فيغطي ضوءها، وكل ذلك ناتج من دوران الأرض حول نفسها تجاه الشمس وانجذابها إليها ﴿والسماء وما بناها﴾ ما: بمعنى

من، والمعنى: ومن أوجدها وأنشأها بقدرته ﴿والأرض وما طحاها﴾ مثل دحاها، قال في القاموس الطاحي الذي ملأ كل شيء كثرة، والمفسرون يقولون بسطها ﴿ونفس وما سوّاها﴾ المراد جميع النفوس ومن أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالها، وذلك بتعديل جميع قواها وأعضائها ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي جعلها تفهم النافع من الضار والخير من الشر، والحق من الباطل، وتميز بين الطيب والخبيث، وهو كقوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ طريق الخير وطريق الشر، فتارة يعبر الله بالإلهام وتارة يعبر بالهداية، وهذه من هداية البيان من الله للإنسان ولذلك قال: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ هذا جواب القسم، حذفت منه اللام لطول الكلام المقتضي للتخفيف، أي لقد فاز بالمطلوب، ونجا من المكروه من أنمى نفسه وأعلاها بالتقوى، وخسر من نقصها، وأخفاها بالفجور، جهلاً وفسوقاً كما يخفي البخيل ماله ومنزله لئلا يتصدق منه وأصل دسى: دسس، فقلبت السين ياء.

١١ ـ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾.

١٢ ـ ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾.

١٣ ـ ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾.

١٤ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾.

١٥ ـ ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي كذبت الرسول بطغيانها ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ انتدب فقام مسرعاً أشقى رجل في ثمود، وهو قدار بن سالف، وكان رجلاً عزيزاً في قومه، منيعاً في رهطه، فعقر الناقة.

﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها﴾ قال لهم رسول الله صالح، ونصب ناقة على التحذير، أي احذروا ناقة الله وشربها، وسقياها: شربها من الماء، لها شرب يوم ولهم شرب يوم معلوم ﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم وهو الكفر والعقر ﴿فسوّاها﴾ أي سوّى الأرض بهم في الهلاك.

القـــراءة

﴿ولا يخاف﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿فلا يخاف﴾ بالفاء، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام.

سورة الليل

سميت سورة الليل لورود كلمة ﴿الليل﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما قدم في السورة المتقدمة بيان حال المؤمن والكافر عقبه سبحانه بمثل ذلك في هذه السورة فاتصلت بها اتصال النظير بالنظير فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾.

٤ ـ ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾.

﴿والليل إذا يغشى﴾ أي أقسم بالليل كله حين يغطي النهار بظلمته فيذهب ضوؤه، من التغشية بمعنى: التغطية وإنما أقسم به تعالى لعظم فائدته، إذ يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن فيه الخلق عن الحركة، ويغشاهم النوم الذي فيه راحة الأبدان وغذاء الأرواح ﴿والنهار إذا تجلى﴾ وأقسم بالنهار حين ينكشف ويظهر بزوال ظلمة الليل من الجلاء بمعنى الظهور، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ وأقسم بمن خلق الصنفين الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، ثم ذكر جواب القسم فقال ﴿إنّ سعيكم لشتى﴾ إنّ مساعيكم لمختلفة متباعدة، على اختلاف تفكيركم وأمزجتكم وطباعكم، فمنكم الكافر ومنكم المؤمن، ومنكم المطيع.

ثم بين اختلاف الأعمال في ذاتها فقال:

٥ ـ ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾.

٦ ـ ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾.

٧ ـ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾.

٩ ـ ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾.

١٠ ـ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾.

١١ ـ ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ .

﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أعطى حق الله وأنفق في سبيله مما عنده من الفضل، واتقى معاصي الله ومحارمه ﴿وصدق بالحسنى﴾ بوعد الله للمؤمنين بالجنة، ﴿فسنيسره لليسرى﴾ فسنهيئه للطريق اليسرى، أي الأعمال الفاضلة إذا واظب المكلف عليها حصلت في نفسه ملكة نورانية تسهل عليه سلوك سبيل الخيرات حتى يصير التكليف طبعاً، والتعب راحة، والتكلف عادة، ولأن هذه الملكة تحصل بالتدرج فلا جرم أن أدخل الفاء بقوله ﴿فسنيسره﴾ ﴿وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى﴾ كل ما أدت عاقبته إلى عسر وتعب فهو من العسرى، وذلك وصف كل المعاصي، ومن جملة اليسرى الجنة، ومن جملة العسرى النار ثم وبخ الكافر بقوله ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾ استفهام في معنى النفي، أي لا ينفعه ماله الذي بخل به، وتردى مات، من الردى وهو الهلاك.

١٢ ـ ﴿ إن علينا للهدى ﴾ .

١٣ ـ ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

١٤ ـ ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى ﴾ .

١٥ ـ ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ .

١٦ ـ ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ .

١٧ ـ ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ .

١٨ ـ ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ .

١٩ ـ ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ .

٢٠ ـ ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ .

٢١ ـ ﴿ ولسوف يرضى ﴾ .

﴿إن علينا للهدى﴾ أي هداية البيان، بيان الحق من الباطل ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ إن لله كل ما في الدنيا والآخرة، فلا يضره عصيان العاصين، ولا ينفعه طاعة المطيعين، وإنما يعود نفعه أو ضرّه عليهم، ثم ذكر نتيجة المواعظ فقال: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظّى﴾ تتلهّب وتتوقد، ﴿لا يصلاها إلاّ الأشقى، الذي كذّب وتولّى﴾ وهو الكافر يجد صلاها وهو حرها ﴿وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكّى﴾ يبعد عنها الأتقى، قال المفسرون: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأنه أعطى من ماله الكثير في سبيل الله لا للرياء ولا للسمعة ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلاّ ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي إلاّ طلباً لثواب ربه، وإلاّ بمعنى لكن، ونصب ابتغاء على إضمار إنفاقه، فالمعنى: وما ينفق إلاّ ابتغاء وجه ربه.

سورة الضحى

تسمى سورة الضحى لورود كلمة ﴿الضحى﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بأن الأتقى يعطيه من الثواب ما به يرضى، وافتتح هذه السورة بأنه يرضي نبيه يؤتيه يوم القيامة من الكرامة والزلفى فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾.

٣ ـ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾.

٥ ـ ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾.

﴿والضحى، والليل إذا سجى﴾ أقسم بالضحى وهو ارتفاع الشمس وإشراقها، وهو وقت نشاط الحركة والإقبال على العمل ﴿والليل إذا سجى﴾ وأقسم بالليل حين يسكن، يقال سجى الليل، وجواب القسم قوله تعالى ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ ما تركك منذ أن اختارك، من التوديع للمسافر، وما قلاك، أي ما أبغضك ربك منذ أن أحبك، ثم زاده تشريفاً فقال ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ بشارة من الله لنبيه ﷺ، أي الجنة خير لك من الدنيا ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ يعطيك من خيري الدنيا والآخرة كل ما فيه رضاك من نصر وتمكين وفتوح وإعلاء لكلمة الله على لسانك، وقال بعض المفسرين المراد بها الشفاعة روى البخاري ومسلم في الصحيحين، من حديث جندب قال: قالت امرأة من قريش للنبي ﷺ: ما أرى شيطانك إلّا قد ودّعك، فنزلت والضحى والليل إذا سجى إلخ... وذلك أن الوحي قد أبطأ عن النبي ﷺ فترة فقال الكفار إن ربه ودّعه وقلاه، ومنهم من تقدم ذكره في الحديث.

ثم عدد بعض نعمه التي أنعم بها عليه قبل إرساله فقال:

٦ ـ ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾.

﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ أي لا أب لك فآواك وضمك إلي من يقوم بأمرك حيث سخر جدك عبد المطلب ثم من بعده عمك أبا طالب الذي أحسن تربيتك ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وجدك غافلاً عن الإيمان لا تدري ما هو، غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، ولم تكن تدري ما القرآن ولا الشرائع فهداك لذلك، ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي وجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك فأغناك بما أعطاك من الرزق ما فيه القناعة، وأعطاك من الأصحاب ما يغنونك عن الأعداء، قال الرسول ﷺ «ليس الغنى عن كثر العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[1].

٩ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾.

١١ ـ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ لا تقهره على ماله، والمراد للأمة وإن توجه الخطاب للنبي ﷺ، وفي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة».

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ إذا جاءك السائل إما أن تعطيه وإما أن ترده رداً ليّناً.

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ في جميع نعم الله عليك وعلى الناس بالخيرات.

حكم التكبير في أوائل السور القصار

وما يروى عن عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة من التكبير من أول الضحى، وكل سورة بعدها حتى آخر سور القرآن، وإن مناسبته أنه تأخّر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة، ثم جاء الملك فأوحى إليه والضحى بتمامها، كبر فرحاً وسروراً، لم يرد ذلك بإسناد صحيح عن النبي ﷺ أو عن سلف الأمة.

---

(١) رواه الشيخان.

سورة الشرح

سورة الشرح سميت لورود كلمة (ألم نشرح) في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

كما عدد الله جل وعلا لنبيه ﷺ بعض نعمه العظيمة عليه في السورة السابقة، ذكر له في هذه السورة نعماً أخرى جليلة، حاثّا له بذلك على شكره على ما أنعم ليستوجب بذلك المزيد منه فقال:

١ ـ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾.

٣ ـ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾.

﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ الاستفهام للتقرير، والشرح أمر معنوي وهو ضد الضيق، وذلك بحيث لا يتأذى من كل مكروه وإيحاش يلحقه من كفار قومه، فيتسع لأعباء الرسالة كلها، ولا يتضجر من علائق الدنيا بأسرها، فجعله يدرك الحق والهدى، ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي حططنا عنك إثمك الذي سلف منك، وأصل الوزر ما حمله الإنسان على ظهره، فشبّه بالحمل فجعل مكانه ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ أثقله حتى سمع نقيضه أي: صوته، وهذا مثل، يعني: أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض الظهر منه ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ نوّهنا باسمك وجعلناه مذكوراً على لسان كل مؤمن في المشارق والمغارب، مقروناً باسم الله في كلمتي الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطبة وغير ذلك.

ثم إنهم كانوا يعيرون النبي ﷺ بالفقر فقيل له لا يحزنك قولهم:

٥ ـ ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

٦ ـ ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.

٧ ـ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾.

﴿فإن مع العسر يسرا﴾ أي خولناك ما خولناك من الفضل والكرامة، فلا تيأس من فضل الله تعالى، فإنّ

بعد الشدة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين يسراً عظيماً، أي فرجاً وسعة بإظهارك عليهم، وإن مع ذلك العسر يسراً آخر، ولن يغلب عسر يسرين، لما عدد الله نعمه السابقة، ووعده بالنعم الآتية بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة فقال: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ ادأب على العمل، والنصب التعب، والمعنى: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، ﴿وإلى ربك فارغب﴾ أي اجعل رغبتك إلى الله وحده، تضرع إليه راهباً من النار راغباً في الجنة، وعن مجاهد «فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك».



تسمى سورة التين لورود كلمة ﴿التين﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر الله سبحانه بالرغبة إليه في خاتمة السورة المتقدمة وافتتح هذه السورة بذكر أنه الخالق المستحق للعبادة بعد أن أقسم عليه فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ .

٢ ـ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ .

٤ ـ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ .

٥ ـ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ .

٦ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

٧ ـ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ .

٨ ـ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

﴿والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين﴾ التين والزيتون معروفان، وطور سينين الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وسينين لغة من سيناء، والبلد الأمين مكة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا جواب القسم، والإنسان اسم جنس، أي في أحسن صورة وأعدلها ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي أرذل العمر ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ هذا استثناء ليس من الأول، لأن الآية الأولى تتكلم عن خلق الإنسان وقدرة الله عليه في ابتدائه ونهايته، والثانية تتكلم على جزاء المؤمنين الـذين عملوا الصالحات، والمعنى أن نهاية الإنسان في أرذل عمره إما إلى الجنة أو إلى النار، ثم خاطب الإنسان بقوله ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ فما يكذبك أيها الإنسان بعد هذه الحجة بالدين أي ما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء؟، وهذا توبيخ للكافر ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي بأقضى القاضين يحكم بينك وبين مكذبيك.



تسمى سورة العلق لورود كلمة ﴿العلق﴾ في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بذكر اسمه وافتتح هذه السورة باسمه أيضاً فقال:

١ - ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾.

٢ - ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

٣ - ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾.

٤ - ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾.

٥ - ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ في الحديث الصحيح أن أول ما نزل به جبريل عليه السلام من القرآن على النبي ﷺ وهو يتحنث في غار حراء، في شهر رمضان صدر هذه السورة إلى قوله ﴿ما لم يعلم﴾ ثم نزل آخرها بعد ذلك، وبعد نزول صدرها فتر الوحي، ثم فاجأه الملك الذي جاءه بحراء، فرعب منه ﷺ فرجع إلى أهله يقول: «زملوني زملوني» وفي رواية «دثروني» فأنزل الله ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم ﴿يا أيها المزمل﴾ ثم حمي الوحي وتتابع، والمعنى: اقرأ ما يوحى إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك الذي خلق ﴿خلق الإنسان من علق﴾ أي جنس الإنسان من بني آدم، والعلق وهي الأمشاج المتعلقة بين عظام الصدر وبين عظام الترائب، والعلق غير العلقة، وذلك أن العلقة مسبوقة بالنطفة، وهي التي تتعلق بجدار الرحم، وسميت علقة حمراء لما فيها من الدم، والذي توصل إليه العلم الحديث في اكتشاف علم الأجنة يدل على أن الإنسان خلق من الأمشاج - وهي العلق - الذي تتكون منه النطفة ﴿اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم﴾ اقرأ تقرير للتأكيد، ثم استأنف فقال: وربك الأكرم، والأكرم: الذي لا يوازيه كرم ولا يعادله في الكرم نظير ﴿الذي علم بالقلم﴾ أي علم الإنسان الكتابة بالقلم ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ أي الذي أوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة، هو الذي علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم، وكان في بدء خلقه لا يعلم شيئاً.

إنه لا يوجد بيان أروع، ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه، من افتتاح الله وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات التي تشير إلى أن الدين الإسلامي بني أساسه على العلم، الذي ينير الطرق للإنسان ويهديه إلى خشية الله، ويسمو به إلى عالم لا يستوي فيه العالم مع الجاهل ﴿قل هل يستوي

الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(١).

٦ - ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾.

٧ - ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.

٨ - ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾.

﴿كلا﴾ ردع للإنسان الكافر الذي قابل تلك النعم الجليلة بالكفر والطغيان ﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ أي أن الإنسان الكافر يزيد في طغيانه كلما رأى نفسه استغنى ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي رجوع هذا الطاغي وأضرابه بالبعث فذائقون أليم عقابه ما لا قبل لهم به.

ثم يبين أفعال وسلوك بعض رؤساء الكفار مع النبي ﷺ فيقول:

٩ - ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴾.

١٠ - ﴿ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾.

١١ - ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾.

١٢ - ﴿ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾.

١٣ - ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾.

١٤ - ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾.

﴿أرأيت الذي ينهى، عبداً إذا صلى﴾ أرأيت: تعجبية للمخاطب، وإنما كررها للتأكيد والتعجب، والمراد بالناهي أبو جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة» رواه البخاري وفي مسند أحمد كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟، فانصرف إليه النبي فزجره، ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ يعني المنهي وهو النبي ﷺ ﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾ يعني الناهي، وهو أبو جهل، والمعنى: فأي شيء أعجب من هذا ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ ألم يعلم يعني أبا جهل بأن الله يراه فيجازيه.

١٥ - ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾.

١٦ - ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾.

﴿كلا﴾ أي لا يعلم ذلك ﴿لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾ لئن لم ينته عما هو عليه وينزجر، لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار، ولنذلنه بذلك الإذلال الشديد والسفع: القبض على الشيء، وجذبه بشدة، يقال

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً، والناصية شعر مقدم الرأس، ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ ناصية بدل، والمعنى: ناصية صاحبها كاذب خاطىء، كما يقال نهاره صائم، وليله قائم، أي وهو صائم في نهاره، قائم في ليله.

قال أبو جهل للنبي ﷺ إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تعالى قوله:

١٧ ـ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾.

١٨ ـ ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾.

١٩ ـ ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾.

﴿فليدع ناديه﴾ أي عشيرته لنصرته في إيذاء الرسول ﷺ، ومنعه من الصلاة في المسجد إن قدروا على ذلك، وهو أمر تعجيز رداً لتهديده النبي ﷺ، والنادي والندي: المجلس الذي ينتدي فيه القوم، أي يجتمعون للحديث ﴿سندع الزبانية﴾ الملائكة الغلاظ الشداد، الموكلين بالعذاب، لإلقائه في النار، قال ابن عباس: فيما روى الترمذي بسند صحيح «والله لو دعا ناديه، لأخذته الزبانيـة»، ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ كلا أي ليس الأمر على ما عليه الكفار ومنهم أبو جهل لا تطعه في نهيه لك عن الصلاة، وصل لله واقترب إليه بالطاعة، وهو خطاب للنبي ﷺ.



سميت سورة القدر لأنها تتحدث عن ليلة القدر وما فيها من ثواب جم لمن أحياها.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر سبحانه بالسجود والتقرب إليه في خاتمة السورة المتقدمة وافتتح هذه السورة بذكر ليلة القدر، وإن التقرب فيها إلى الله يزيد على التقرب في سائر الليالي والأيام فقال:

١ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾.

٢ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾.

٣ ـ ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾.

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ يعني القرآن، وذلك أنه ابتدأ إنزال القرآن العظيم، وقد نزل منجماً على حسب الوقائع والمصالح في ثلاث وعشرين سنة، وسميت ليلة القدر، لعظم قدرها وشرفها، ولذلك حث النبي ﷺ على قيامها بالعبادة، وهي في العشر الأواخر من رمضان من كل سنة كما في صحيح البخاري «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان وفي رواية في الوتر منها»، ثم بيّن الله منتهى علو قدرها بقوله ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر.

٤ ـ ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾.

٥ ـ ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم﴾ يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والروح هو جبريل من باب عطف الخاص على العام، ينزلون أفواجاً بأمره تعالى بكل أمر من الخير والبركة، ﴿سلام هي حتى مطلع الفجر﴾ ليلة القدر سلام على أولياء الله وأهل طاعته.

القــــراءة

﴿مطلع﴾ قرأ الكسائي بكسر اللام ﴿مطلِع﴾.

سورة البينة

تسمى سورة البينة لورود كلمة ﴿البينة﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الله سبحانه في سورة القدر أن القرآن حجة ثم بين في هذه السورة أن الكفار قبله لم يخلوا قط من حجة فقال:

١ - ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

﴿منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ أي لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم حتى أتتهم البينة، فلفظه لفظ المستقبل، ومعناه الماضي، والبينة الرسول محمد ﷺ، لأنه مبين للحق، وحجة ناطقة به، وظاهرة الدلالة على صدقه ثم بين ذلك بقوله:

٢ - ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

٣ - ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

٤ - ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

٥ - ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

﴿رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة﴾ يقرأ عليهم من حفظه من الصحف وهو القرآن، ومطهرة منزهة عن الباطل والكفر والزور ﴿فيها كتب قيمة﴾ فيها سور تشتمل على الآيات والأحكام المكتوبة فيها، والقيمة المستقيمة، وإنما قيل لها كتب لما جمعت من أمور شتى ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ كان أهل الكتاب قبل بعثة النبي ﷺ يعتقدون ببعثة النبي بعد عيسى لما جاء في كتبهم قبل التحريف، وكان اليهود يستفتحون على المشركين ويقولون، اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، وذلك لما يجدونه في التوراة والإنجيل من نعوته وأمارات بعثته، وكان المشركون يسمعون ذلك منهم، فاعتقدوا صحته حتى سمى بعضهم ولده محمداً، رجاء أن يكون هو النبي الموعود، وكانوا يسألون اليهود عنه قبل بعثته هل هو النبي الموعود؟، ولما بعث فيهم آمن بعض وكفر بعض، فتفرقوا حين جاءتهم البينة وهو الرسول والحجج التي معه في القرآن ﴿وما أمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ الواو: واو الحال، والحال أن أهل الكتاب أمروا في كتبهم أن يعبدوا الله وطاعته وتصديق أنبيائه فيما أخبروا به، جاعلين دينهم له خالصاً،

حنفاء مائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، قال ابن كثير: وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان ﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ فرض على أهل الكتاب صلاة وزكاة وصيام، فضيعوها وحادوا عن الدين الحق دين الملة المستقيمة.

٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾.

٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾.

٨ ـ ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾.

﴿البرية﴾ أي الخليقة.

القــــراءة

﴿البرية﴾ قرأ نافع، وابن عامر بالهمز بالكلمتين، وقرأ الباقون بغير همز.



سورة الزلزلة سميت لورود كلمة ﴿زلزلت﴾ في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما ختم الله جل وعلا السورة المتقدمة بالوعيد والوعد، أتبعه بذكر وقت الجزاء وعدد من أماراته فقال:

١ ـ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾.

٢ ـ ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾.

٣ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾.

٤ ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾.

٥ ـ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾.

٦ ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

٧ ـ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾.

﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ أي حركت الأرض حركة شديدة على غير عادتها، وذلك عند قيام الساعة، ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ تخرج كنوزها من الذهب والفضة والمعادن، بما في ذلك الموتى من القبور ﴿وقال الإنسان مالها﴾ يقول الإنسان ذلك حين بدء اضطرابها، لأنه وجد ذلك فوق ما جرت به العادة ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ أي في ذلك الوقت ـ وقت الزلزال ـ تحدثك الأرض أحاديثها، وتحديث الأرض تمثيل لما يعانيه الإنسان من حالها بما تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ تحدث أخبارها بوحي الله وبإذنه لها ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ يخرجون من قبورهم إلى موقف الحساب متفرقين بحسب أعمالهم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ من يعمل في الدنيا مثقال ذرة من الخير أو الشر يره، فسر العلماء الذرة قبل اكتشافها بالنملة الصغيرة، أو ما يرى في الهباء في شعاع الشمس الداخل من النافذة، وهو مثل في القلة، وقال ابن عباس: ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلاّ أراه الله إياه يوم القيامة.

سورة العاديات

تسمى سورة العاديات لورود كلمة ﴿العاديات﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

اتصلت هذه السورة بما قبلها لما فيها من ذكر القيامة والجزاء اتصال النظير بالنظير فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾.

٢ ـ ﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾.

٣ ـ ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾.

٤ ـ ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾.

٥ ـ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾.

﴿والعاديات ضبحاً﴾ اختلف فيها المفسرون، وقال معظمهم إنها الخيل، ووصفها الله بثلاث صفات فقال: والعاديات ضبحاً: أي التي تعدو نحو العدو بسرعة وهي تضبح، وضبحها: صوتها عند جريها ﴿فالموريات قدحاً﴾ التي توري النار من ملامسة أرجلها للأرض لشدة عدوها، من الإيراء وهو إخراج الشرر والنار ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ صبحت القوم بغارة، ﴿فأثرن به نقعاً﴾ أثارت بحوافرها وأرجلها التراب ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي اخترقن جموع الأعداء، واقتحمن صفوفهم فتوسطن القوم، وهذه الأوصاف تنطبق تماماً على الدبابات والمدرعات العسكرية في زماننا اليوم، وكأن القرآن حين نزل بهذه الآيات يحدثنا عن هذا العصر وآلاته.

٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾.

٧ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ هذا جواب القسم، والكنود: الذي يجحد نعم ربه عليه ويكفر بها ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ لا يستطيع أن ينكر عند المواجهة، ولظهور أمارات ذلك عليه، ولتسجيل الحفظة عليه ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ وإنه من أجل المال لبخيل، ويقال للبخيل شديد، ومتشدد.

٩ ـ ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾.

١١ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾.

﴿أفلا يعلم﴾ الإنسان المذكور يوم يخرج الناس من قبورهم مبعثرين، وجمع الله ما في قلوب الناس من الخير والشر للحساب ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي العالم ما كانوا يصنعون ويعملون ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

سُورَةُ القَارِعَة

تسمى سورة القارعة لأنها تتحدث عن القارعة، ووردت فيها كلمة ﴿القارعة﴾ في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بأحوال المعاد ذكر في هذه السورة بعض أحوال الآخرة فقال:

١ ـ ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾.

٢ ـ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾.

٣ ـ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾.

٤ ـ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾.

٥ ـ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾.

﴿القارعة، ما القارعة﴾ هي القيامة، من القرع: وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد، سميت القيامة بها لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وما القارعة: أي شيء هي القارعة؟ والمراد تعظيم شأنها والتعجب من حالها ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ هو الطير الرقيق، واحده فراشة، والمبثوث: المنتشر ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ كالصوف الذي نفش باليد ففرقت شعراته بعضها عن بعض.

٦ ـ ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾.

٧ ـ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾.

٨ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾.

٩ ـ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾.

١١ ـ ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾.

﴿فأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية﴾ أي رجحت أعماله الصالحة التي لها وزن على أعماله السيئة، فهو ذو رضى عند الله ﴿وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية﴾ أي مسكنه النار، لأن الأصل السكون إلى

الأمهات، والنار لهذا كالأم، إذ لا مأوى له غيرها ﴿وما أدراك ماهيه، نار حامية﴾ يعني الهاوية، أي حارة تناهى حرها.

القـــراءة

﴿ماهيه﴾ قرأ حمزة ويعقوب ﴿ما هي﴾ بحذف الهاء الأخيرة في الوصل، وأثبتاها في الوقف.

قال الزجاج: الهاء في ﴿هيه﴾ دخلت في الوقف، لتبين فتحة الياء، فالوقف ﴿هيه﴾ والوصل ﴿هي﴾ نار.

سورة التكاثر

تسمى سورة التكاثر لورود كلمة ﴿التكاثر﴾ في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما أخبر سبحانه عن القيامة وأحوالها في السورة المتقدمة، ذكر في هذه السورة من ألهاه عنها التكاثر فقال:

١ ـ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾.

٢ ـ ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾.

٣ ـ ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

٤ ـ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ألهاكم التكاثر﴾ التكاثر بالأموال والأولاد شغلكم ذلك عن طاعة الله وعبادته ﴿حتى زرتم المقابر﴾ حتى أدرككم الموت على تلك الحال، والتعبير بالزيارة دليل على البقاء المؤقت فيها، كالزائر يزور ثم ينصرف، قالت العلماء: التكاثر مطلقاً ليس بمذموم، لأن التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ليس بمذموم إذا كان المراد أن يقتدي به غيره، كما مر في قوله ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ وإنما المذموم ما يكون الباعث عليه الاستكبار وحب الجاه والغلبة، والفخر بما لا سعادة حقيقية فيه ﴿كلا﴾ هي ردع وتنبيه، والمعنى: ليس الأمر الذي ينبغي أن يكونوا عليه، التكاثر بغير صلاح ﴿سوف تعلمون﴾ عاقبة تكاثركم وتفاخركم لغير الله إذا نزل بكم الموت ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ كرر الوعيد وهو سوف تعلمون للتأكيد.

٥ ـ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

٦ ـ ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾.

٧ ـ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

٨ ـ ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ لو تعلمون الأمر علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر، والتفاخر، وجواب لو، محذوف، ثم أوعدهم وعيداً آخر فقال تعالى؛ ﴿لترون الجحيم﴾ هذا جواب قسم مقدر لتأكيد

الوعيد والتهديد، وبيان أن المهدد به رؤية الجحيم في الآخرة، والتفسير بعد الإبهام يدل على التهويل والتعظيم ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي مشاهدة، وهو تأكيد لما قبله، والعين: بمعنى النفس والذات ﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ أي يسألون يوم القيامة عن شكر ما أنعم الله به عليهم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، وهو سؤال مثبت عام، والله أعلم بأعمالهم منهم، ولكنه سؤال تقريع وتوبيخ.



تسمى سورة العصر لورود كلمة ﴿العصر﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما بين في السورة المتقدمة أن الاشتغال بأمور الدنيا والتهالك عليها مذموم أراد أن يبين في هذه السورة ما يجب الاشتغال به فقال:

١ ـ ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾.

٢ ـ ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾.

٣ ـ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾.

﴿والعصر﴾ وهو الدهر، الزمن، وإنما أقسم بالدهر، لأن فيه عبرة للناظر ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ هو جواب القسم، والخسر: هلاك رأس المال أو نقصه، فالإنسان إذا لم يستعمل نفسه فيما يوجب له الربح الدائم، فهو في خسران، لأنه عمل في إهلاك نفسه وهي أكبر رأس ماله ﴿إلّا الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وعملوا بالطاعة ﴿وتواصوا بالحق﴾ أي بالتوحيد والقرآن واتباع الرسول ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على طاعة الله، والقيام بشريعته.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم، وذلك لما فيها من المراتب التي باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداها: معرفة الحق، والثانية: عمله به، والثالثة: تعليمه من لا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلّمه والعمل به وتعليمه.

سُورَةُ الهُمَزَة

تسمى سورة الهمزة لورود كلمة ﴿الهمزة﴾ في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما ذكر جنس الإنسان في خسر عقبه بمثال واحد فقال:

١ ـ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾.

٢ ـ ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾.

٣ ـ ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾.

٤ ـ ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾.

٥ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾.

٦ ـ ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾.

٧ ـ ﴿ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾.

٨ ـ ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾.

٩ ـ ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾.

﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ ويل عذاب وهلكة، لكل مكثر من الهمز واللمز، وهو الذي دأب أن يعيب الناس ويثلم أعراضهم، ويطعن فيهم، ويمشي بينهم بالنميمة والإفساد، فالهمز واللمز بمعنى واحد ﴿الذي جمع مالاً وعدده﴾ أي عده مرة بعد أخرى، حباً له وشغفاً به، وحافظ على عدده حتى لا ينقص دون أن يعطيه حق الله، فمنعه الشح من فعل الخيرات ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ والمعنى: يظن ماله مانعاً له من الموت ﴿كلا﴾ ردع له عن هذا الحسبان الباطل ﴿لينبذن في الحطمة﴾ جواب قسم محذوف، أي والله ليطرحن بسبب أفعاله الفاسدة في النار التي تحطم كل ما يلقى فيها من الحطم، وهو كسر الشيء كالهشيم، وفسرت بقوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة﴾ أي المسعرة الشديدة اللهب التي لا تخمد ﴿التي تطلع على الأفئدة﴾ أي تأكل اللحم والجلود حتى تقع على الأفئدة فتحرقها، أي يبلغ ألمها الأفئدة، والاطلاع معناه: البلوغ، ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ مطبقة مغلقة، لا خلاص لهم منها أبداً ﴿في عمد ممددة﴾ جمع عمود، والمعنى: أن الأبواب طبقت عليهم ثم شدت

بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم حرها فلا ينفتح عليها باب ولا يدخل عليهم ريح، وقانا الله شرها، وأجارنا منها، والله أعلم.

القـــراءة

﴿جمع مالاً﴾ قرأ الكسائي وابن عامر وحمزة وأبو جعفر، وخلف، وروح بن عبد المؤمن ﴿جمّع﴾ بالتشديد.

﴿عمد﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف بضم العين وإسكان الميم ﴿عُمْد﴾.

سورة الفيل

تسمى سورة الفيل لورود كلمة ﴿الفيل﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر الله سبحانه في السورة المتقدمة ما أعدّه من العذاب لمن عاب الناس واغتابهم، وركن إلى الدنيا، وبين في هذه السورة ما فعله بأصحاب الفيل فقال:

١ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ ألم تعلم والخطاب للنبي ﷺ، والاستفهام للتقرير، وقد نزلت هذه السورة منبهة على العبرة في قصة الفيل التي وقعت بمكة في عام مولده ﷺ، ومعنى الكلام معنى التعجب، وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة، وهم من النصارى الأحباش بقيادة أبرهة بني نبيعة ملك اليمن من قبل النجاشي ملك الحبشة، وكان قد بنى له كنيسة بصنعاء، وطلب من الناس أن يحجوا إليها، وصادف أن نزل قوم من العرب بجانب الكنيسة فأوقدوا ناراً، وشووا لحماً، فلما رحلوا هبت الريح، فاضطرم المكان ناراً وأقذاراً من مخلفات القافلة، فغضب النجاشي لأجل البيعة أو الكنيسة فسار إلى الكعبة ليهدمها انتقاماً من فعلهم وليحمل الناس على الحج إلى بيته الذي بناه، فخرج بجيشه ومعه فيل عظيم، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نَعَم الناس، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب، وبعث بعض جنوده، فقال سل عن شريف مكة، وأخبره أني لم آت لقتال، وإنما جئت لأهدم هذا البيت، فإذا لم يرد القتال معنا فأت به، فانطلق فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت، ثم ينصرف عنكم، فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال، وما لنا به يد، إننا سنخلي بينه وبين ما جاء له، فإنّ هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فذهب به إلى أبرهة، فلما دخل عليه استعظمه لأن عبد المطلب كان رجلاً جسيماً وسيماً، فأجلسه في جنبه، وقال أبرهة لترجمانه قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له: حاجتي أن يرد علي مائتي بعير أصابها، فقال أبرهة قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، جئت إلى بيت هو دينك لأهدمه، فلم تكلمني فيه، وكلمتني لإبل أصبتها، فقال عبد المطلب أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، فأمر بإبله فردت عليه، فخرج، فأخبر قريشاً، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، ورؤوس الجبال خوفاً من معرة الجيش، إذا دخل، ففعلوا.

٢ ـ ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾.

٣ ـ ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.

٤ ـ ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

٥ ـ ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾.

﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ أي في إبطال، فقد جعل الله مكرهم وسعيهم لتعطيل بيت الله وتخريبه في تضييع وإبطال وتخسير، ولما تقدم الفيل جيش أبرهة فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ سلط عليهم طيراً من جهة السماء جماعات متتابعة، بعضها إثر بعض، تجيء من كل ناحية، وكانوا قرب عرفة قبل دخول الحرم، ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ من طين متحجر محرق، وفي اليوم الثاني فشا في جيش أبرهة داء الجدري والحصبة، وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ولم يعرفوه إلا ذلك العام، وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذعر الجيش، وولوا هاربين، وأصيب أبرهة، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة حتى مات، ولم يصب البيت الحرام بسوء، وهكذا كان القوم ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ أي كتبن أكلته الدواب، شبّه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء النبات اليابس كقشر البر وأغلفة الحبوب وغيره.

قال ابن كثير وهذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل وما أرادوا من سوء.

سورة قريش

سورة قريش سميت لورود كلمة ﴿قريش﴾ في أول السورة، وتسمى سورة الإيلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما ذكر سبحانه عظيم نعمته على أهل مكة بما صنعه بأصحاب الفيل قال عقيب ذلك:

١ - ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾.

٢ - ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾.

٣ - ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾.

٤ - ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾.

﴿لإيلاف قريش﴾ قريش، اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة، والإيلاف من معنى الألفة والائتلاف، وفيه معنى أنس شيء إلى آخر، وتعلّقه به، وكانت لقريش رحلتان: إحداهما إلى اليمن زمن الشتاء، والأخرى إلى الشام في فصل الصيف، يذهب التجار فيهما للكسب واجتلاب الأموال، وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب، محترمة في نفوسهم، لأنهم سكان مكة وجيران بيت الله، فكانوا يذهبون آمنين ويعودون سالمين لا يمسهم السوء على كثرة ما كان بين العرب من النهب والسلب، فكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التي كانت تحتمي بها قريش في أسفار أرباب التجارة، ولهذا ألفت نفوسهم تلك الأسفار، وهذا الإجلال الذي ملك نفوس العرب من البيت الحرام، إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه، وقد حفظ حرمته برد جيش أبرهة الحبشي، بل زاد ذلك في إجلاله لتدوم ألفتهم للأسفار والترحل في الصيف والشتاء وذلك قوله تعالى: ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ زيدت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه ويوحدوه لأجل إيلافه إيّاهم الرحلتين، والبيت هو الكعبة المشرفة ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ وذلك أن الله تعالى آمنهم بالحرم، فلم يتعرض لهم في رحلتهم، فكان ذلك سبباً لإطعامهم بعد ما كانوا فيه من الجوع، قال ابن عباس: كانوا في ضر ومجاعة، حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، فكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير حتى استغنوا، وذلك أن الناس كانوا يحجون للبيت من أنحاء متعددة من الجزيرة العربية إلى مكة.

القـــراءة

﴿إيلافهم﴾ قرأ أبو جعفر وابن فليح[1] عن ابن كثير، والوليد بن عتبة عن ابن عامر ﴿إلا فهم﴾ بهمزة مكسورة من غير ياء بعدها، مثل علافهم.

---

(١) هو عبد الله بن فليح بن رباح، أبو إسحاق المكي إمام أهل مكة في القراءة في زمانه، صدوق توفي سنة ٢٥٠ هـ.



تسمى سورة الماعون لورود كلمة ﴿الماعون﴾ في آخر السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر سبحانه نعمه على قريش ثم عجب سبحانه في هذه السورة من تكذيبهم مع عظيم النعمة عليهم فقال:

١ - ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾.

٢ - ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾.

٣ - ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾.

٤ - ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾.

٥ - ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾.

٦ - ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾.

٧ - ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾.

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ أي أعرفت الذي يكذب بالحساب والجزاء، والاستفهام للتشويق إلى معرفته، وفيه تعجب من أمره، والخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له، ثم بينه الله تعالى بقوله ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي إن أردت أن تعرف هذا المكذب بالدين فذلك هو شأنه، وهذه صفته وطبعه يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً، ويزجره زجراً قبيحاً عن حقه وماله، من الدع، وهو الدفع الشديد ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ أي لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه، لأنه مكذب بالجزاء والحساب ﴿فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ وهم المنافقون الذين لا يرجون لصلاتهم ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً، فإن كانوا مع المسلمين صلوا رياء، وإن لم يكونوا معهم لم يصلوا فذلك قوله تعالى ﴿الذين هم يراءون﴾ وهذه هي الصفة الثانية المراءاة بالأعمال طلباً للثناء والمدحة، ثم أشار إلى الصفة الثالثة من صفات المكذبين بيوم الدين فقال ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي يمنعون الناس المعروف كله، ومنه ما يتبادلون إعارته بينهم من أمتعة البيوت كالملح والماء والقدر والفأس والأواني ونحو ذلك، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان، والمراد الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة.

سورة الكوثر

تسمى سورة الكوثر لأنها تتحدث عن ﴿الكوثر﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة كالمقابلة للسورة المقدمة لأن تلك مثال لكون الإنسان في خسر، وهذه للمستثنين منهم، بل لأشرفهم وأفضلهم:

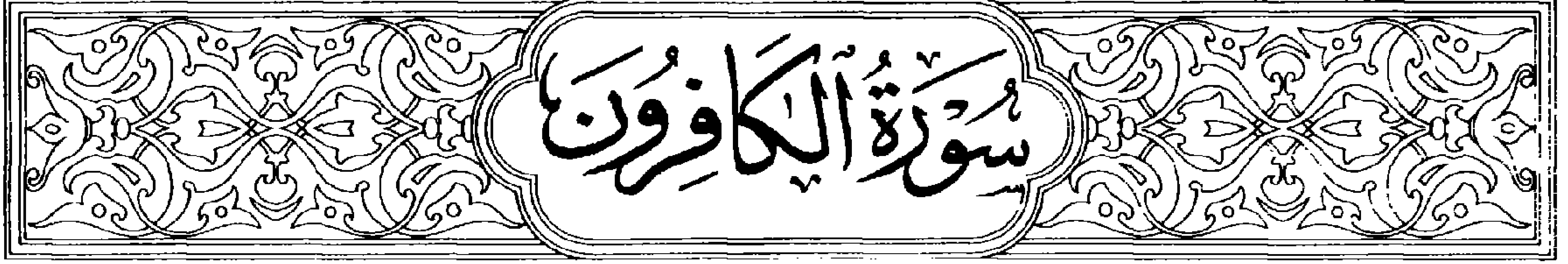
١ ـ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾.

٢ ـ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾.

٣ ـ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾.

وتسمى سورة النحر، وهي أقصر سورة في القرآن ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال ابن عباس هو الخير الكثير الذي أعطي لنبينا ﷺ، ويدخل فيه النبوة والدين والهدى، والعلم والقرآن والحوض والنعم الدنيوية والأخروية، والنهر الذي في الجنة من الخير الكثير كذلك ﴿فصل لربك وانحر﴾ فاجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك مما هو نسك لك لله وحده، نوّه الله بقدر ما أعطاه ثم أمره بالشكر عليه، وقال المفسرون المراد بالصلاة صلاة عيد الأضحى، ﴿وانحر﴾ اذبح يوم النحر، ثم استأنف الكلمة لذكر حال أعدائه ومبغضيه ووعيدهم بما سيصيبهم في أنفسهم وأموالهم فقال: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ الشانىء معناه المبغض، والأبتر هو المقطوع الذي لا يبقى أثره، ولا يحسن من بعده ذكره.

قال ابن جرير الطبري: إن الله تعالى ذكره أن مبغض رسول الله ﷺ هو الأقل، الأذل المنقطع عقبه، فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه.



تسمى سورة الكافرون لورود كلمة ﴿الكافرون﴾ في أول السورة، وتسمى سورة المنابذة والمقشقشة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر سبحانه في السورة المتقدمة أن أعداءه عابوا نبيه بأنه أبتر، فرد ذلك عليهم، وذكر في هذه السورة أنهم سألوه المداهنة، فأمره بالبراءة منهم فقال:

١ - ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

٢ - ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

٣ - ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.

٤ - ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾.

٥ - ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾.

٦ - ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.

قل لهم يا محمد جواباً لسؤالهم والخطاب لكفار قريش، ولكنّه يشمل كل كافر، قل لهم لا أعبد ولا أخضع ولا أؤمن بالأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم في حالكم هذه ﴿عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ قال ابن كثير: والمراد نفي الفعل، لأنها جملة فعلية، وقوله ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً.

وأما التكرار في السورة، فهو لتأكيد الأمر، وحسم أطماعهم فيه.

القــــراءة

﴿ولي دين﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وابن عامر ﴿ولي دين﴾ بسكون الياء.

سُورَةُ النَّصْرِ

تسمى سورة النصر لورود كلمة ﴿نصر الله﴾ في أول السورة، كما تسمى سورة التوديع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ختم الله سبحانه السورة المتقدمة بذكر الدين، وافتتح هذه السورة بظهور الدين فقال:

١ ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

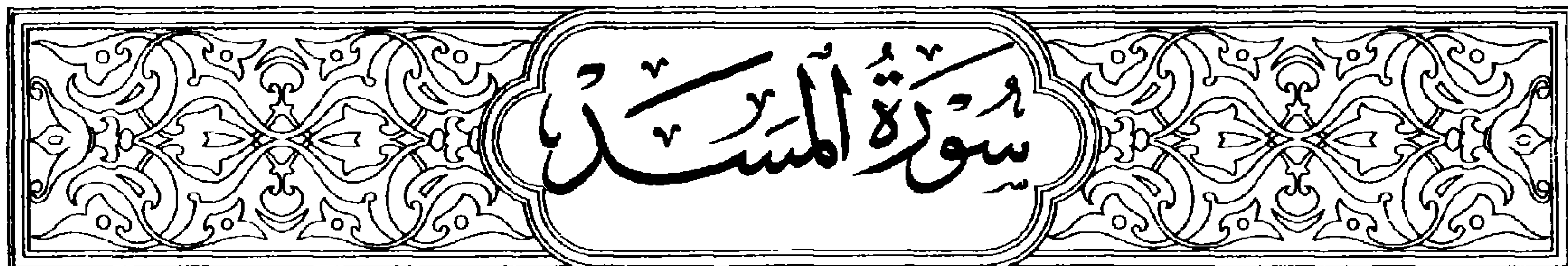
٢ ـ ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

٣ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

هذه آخر سورة كاملة نزلت من القرآن، وآخر آية نزلت من القرآن ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾[1] البقرة، وقبلها بخمسين يوماً نزلت آية الكلالة ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾[2]، وهي آخر آية في سورة النساء، ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فتح مكة، عبر بإذا المفيدة لتحقق وقوع ما يضاف إليه أي عندما ترى نصر الله لدينه الحق على الباطل، ويفتح الله بينك وبين قومك، فيجعل لك الغلبة عليهم ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ أي طوائف وجماعات، لا آحاداً كما كان ذلك في بدء الأمر أيام الشدة، وفي ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً، دليل على حصول الكمال والتمام، وذلك يعقبه الزوال والنقصان، كما أمره ﷺ بالتسبيح والحمد والاستغفار والصلاة مطلقاً، واشتغاله بذلك لما كان مانعاً له من اشتغاله بأمر الأمة، كان كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل، وذلك يقتضي قرب انقضاء الأجل فقال ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ وفيما روى البخاري عن ابن عباس أنه كان عمر بن الخطاب يدخله في أشياخ بدر ويسأله، قال ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، فقال عمر ما أعلم منها إلا ما تقول.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه البخاري، قالت: ما صلى النبي ﷺ بعد أن نزلت عليه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إلا يقول فيها سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي.

(١) الآية: ٢٨١.
(٢) الآية: ١٧٦.



تسمى سورة المسد لورود كلمة ﴿مسد﴾ في آخر السورة، وتسمى سورة ﴿تبت﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما أخبر عن فتح الولي وهو النبي ﷺ نبه على مآل حال العدو في الدارين فقال:

١ - ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.

٢ - ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾.

٣ - ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾.

٤ - ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾.

٥ - ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾.

في الصحيحين عن ابن عباس قال: لما نزل ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[1] صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم، أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا بلى: قال «فإني نذير لكم بين عذاب شديد» قال أبو لهب تباً لك ألهذا دعوتنا فأنزل الله تعالى ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ ومعنى تبت: خسرت يدا أبي لهب ﴿وتب﴾ أي خسر هو: قال الفراء الأول دعاء والثاني خبر، وأبو لهب هو عم الرسول ﷺ، واسمه عبد العزى ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ أي لم يفده ماله ولا عمله الذي كان يأتيه في معاداة النبي ﷺ طلباً للعلو والظهور ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ لهب النار هو ما يسطع منها ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت شديدة العداوة لرسول الله ﷺ، تحمل بنفسها حزمة الشوك فتطرحه بالليل في طريق النبي ﷺ، ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ أي عنقها حبل من النار، وقد كانت في الدنيا تربط حزمة الحطب بالحبل، فجازاها الله بحبل من نار جهنم.

القـــراءة

﴿أبي لهب﴾ قرأ ابن كثير وحده ﴿أبي لهب﴾ بإسكان الهاء، ﴿حمالة الحطب﴾ قرأ الإمام قالون عن نافع: ﴿حمالة الحطب﴾ بالرفع.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.



تسمى سورة الإخلاص لأنها تصف الرب الذي يدعو النبي ﷺ إلى الإخلاص في عبادته.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾.

٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾.

٣ ـ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾.

٤ ـ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: إنها تعدل ثلث القرآن[1] ﴿قل هو الله أحد﴾ هو الواحد، ﴿الله الصمد﴾ هو السيد الذي ليس فوقه أحد، والعرب تسمي أشرافها الصمد، وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم، فالصمد السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وذلك أن المشركين قالوا الملائكة بنات الرحمن، وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، فبرأ نفسه من ذلك.

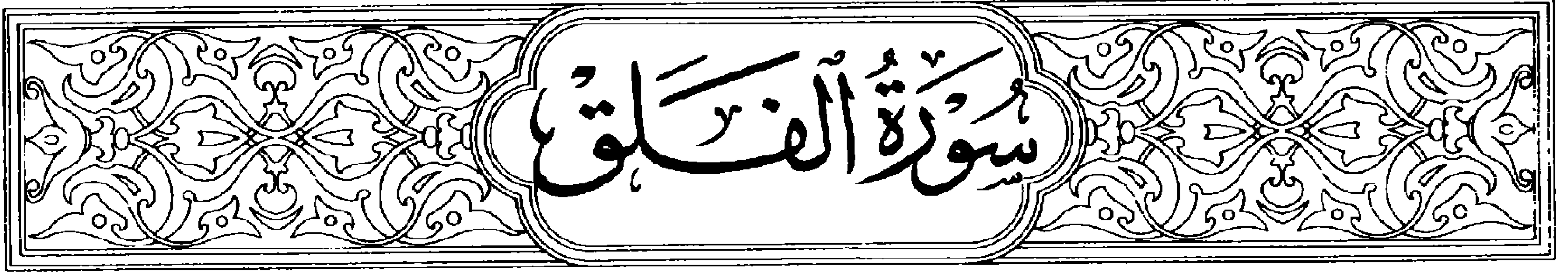
القـــراءة

﴿أحد الله﴾ قرأ أبو عمرو ﴿أحد الله﴾ بضم الدال أو وصلها باسم الله.

﴿كفوا﴾ قرأ حمزة بسكون الفاء.

---

(١) الحديث رواه البخاري.



تسمى سورة الفلق لورود كلمة ﴿الفلق﴾ في أول السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما لا يليق به في ذاته وصفاته وكان ذلك من أشرف الطاعات، أمره أن يستعيذ به من شر من يصدّه عن ذلك فقال:

١ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

٢ - ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

٣ - ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

٤ - ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾.

٥ - ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ أعتصم وأستجير برب الصبح، وسمي فلقاً لانفلاق الليل وانشقاقه عنه، ومنه فالق الإصباح، ﴿من شر ما خلق﴾ من كل شيء من المخلوقات، الجن والشياطين، والإنس والدواب ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ أي أعوذ به تعالى من شر الليل، إذا دخل ظلامه في كل شيء، لأن حدوث الشر فيه أكثر، والتحرز منه أصعب، والغاسق الليل، وأصل الغسق: الامتلاء، والوقوب: الدخول ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ النفث شبيه بالنفخ، والنفاثات النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها، ويرقين، قال ابن القيم: إنهم إذا سحروا استعانوا على تأثير فعلهم بنفث يمازجه بعض أجزاء أنفاسهم الخبيثة، والمعنى: أعوذ بالله من شر هؤلاء المفسدين، وقال أبو مسلم: العقد عزائم الرجال، والنفث حلها، لأن من يريد حل عقدة الحبل، ينفث عليه بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً، والمعنى: أن النساء لكثرة حيلهن يتصرفن في عزائم الرجال، يحولنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن، وقال الحسن النيسابوري: وهذا القول مناسب لما جاء في القرآن ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾[1]، والاستعاذة منهن: الاستعاذة من إثم أعمالهن، ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه حتى لو تمكّن ذلك بالحيل لفعل، فلذلك أمر النبي ﷺ بالتعوّذ منه، وقد

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.

دخل في هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرر منه ديناً ودنيا، فلذلك لما نزلت فرح رسول الله ﷺ بها لكونها مع أختها جامعة في التعوذ من كل شيء بل قوله ﴿شر ما خلق﴾ عام، والبواقي تخصيص بعد تعميم، تنبيهاً على أنها أعظم الشرور، وأهم شيء يستعاذ منه، وعرفت النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكر غاسق وحاسد لأنه ليس كل غاسق شر، بل الليل للغاسقين شر، وليس كل حسد مذموم، بل منه ما هو خير كما قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أعطاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار».

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد.

سُورَةُ النَّاسِ

سورة الناس سميت لورود كلمة ﴿الناس﴾ في أول السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾.

٢ ـ ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾.

٣ ـ ﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾.

٤ ـ ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾.

٥ ـ ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾.

٦ ـ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾.

﴿قل أعوذ برب الناس﴾ أعتصم وأستجير برب الناس مربيهم، ومصلح أمورهم ﴿ملك الناس﴾ له الملك الكامل والسلطان القاهر ﴿إله الناس﴾ أي معبودهم القادر قدرة تامة على التصرف الكامل فيهم، إيجاداً وإعداماً ﴿من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس﴾ الوسواس: الشيطان، وهو الخناس يوسوس في الصدور جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس، أي تأخر إذا تيقظ له الإنسان، واستعان عليه بالله ﴿من الجنة والناس﴾ بيان للشيطان الذي يوسوس للإنسان، وإنه كما يكون من الجن يكون من الإنس، وكل من يفعل ذلك يقال له شيطان، إذ هو نعت كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب، قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾[١]، قال: رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإيّاي» إلاّ أن الله أعانني عليه[٢]، قال ابن كثير: هذه صفات ثلاث من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والألوهية، فهو رب كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة، عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلاّ وله قرين يزيّن له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله من شر هذا اللعين، والله المستعان.

---

(١) الآية: ١١٢.

(٢) رواه مسلم والإمام أحمد بن حنبل في سنده.

فهرس المجلّد الرابع
من تفسير هداية البيان

الجزء السابع والعشرون

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة

سورة الحشر

كتب للمؤلف

١ ـ **مختصر تاريخ الكويت**. طبع بالقاهرة سنة ١٩٦١.

٢ ـ **الصيام في الإسلام**. طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٨.

٣ ـ **النظام الاجتماعي في الإسلام بين الرجل والمرأة**. طبع بالكويت سنة ١٩٦٤.

٤ ـ **تفسير مشكل القرآن ـ الجزء الأول**. طبع بالكويت سنة ١٩٨٣.

٥ ـ **تفسير مشكل القرآن ـ الجزء الثاني (العقائد)**. طبع بالقاهرة.

٦ ـ **الأديان المعاصرة**. طبع بالكويت سنة ١٩٨٥.

٧ ـ **هداية البيان في تفسير القرآن (أربع مجلدات)**. طبع في بيروت سنة ١٩٩٠.

٨ ـ **معجم الأماكن الكويتية**. طبع في بيروت سنة ١٩٩٥.

٩ ـ **التدخين مباح ولكن**. طبع بالكويت سنة ١٩٩٦.

١٠ ـ **الرعيل الأول لعائلة الفرحان**. طبع بالهند سنة ٢٠٠٠.

١١ ـ **الفقه المعاصر (في المعاملات المدنية)**. طبع في بيروت سنة ٢٠٠٠.

نبذة عن السيرة الذاتية للمؤلف

ولد المؤلف راشد عبد الله الفرحان بالكويت بمنطقة الشرق سنة ١٩٣٠م أنهى دراسته الثانوية بالكويت، ثم التحق بكلية الشريعة بجامعة الأزهر ودرس فيها الفقه المقارن والقانون، ونال الشهادة العالية سنة ١٩٦١م،

عمل بعد تخرجه بوزارة الخارجية، حتى ١٦/١/١٩٦٣م وعند بدء الحياة الديمقراطية بالكويت، استقال من منصبه وترشح لمجلس الأمة، وانتخب عضواً فيه، وأعيد انتخابه لأربع مجالس تالية حتى سنة ١٩٧٦م وأثناء عضويته عين وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، لأربع سنوات من ١٩٧١ حتى ١٩٧٤ حيث أعيد انتخابه بعد ذلك.

عمل بالمحاماة لمدة تزيد على ثلاثين سنة، واشترك في العديد من لجان وضع القوانين ومراجعتها، تحت إشراف إدارة الفتوى والتشريع، ولجنة استكمال تطبيق الشريعة.

اشترك في كثير من المؤتمرات والندوات، وزار عدداً من بلدان العالم وحاضر فيها في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

انتسب إلى عدة لجان وجمعيات ومجالس منها جمعية المحامين ورابطة الأدباء والمجلس العالمي للدعوة الإسلامية، واللجنة العليا للإشراف على المسابقة الكبرى السنوية لحفظ القرآن الكريم.

له ما يربو على خمس وعشرين مؤلفاً ما بين كتب وأبحاث وقصص ومحاضرات، طبع منها أحد عشر كتاباً في التاريخ والأماكن والفقه والتفسير ومقارنة الأديان. والأسرة.

